



سلسلة العلوم القرآنية

الكتاب الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه استعان

التَّيَّانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ

تأليف

د. كامل موسى د. علي دحروج



مبانيات المعرفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ

قالوا:

الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.
ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه، هداة الأمة وموئل العلم والفضل والنور. وبعد،

فما نحن نضع بين أيدي طلابنا الأعزاء والقراء الكرام، كتابنا الثاني ضمن سلسلة العلوم القرآنية، أسميناه: «التيبان في علوم القرآن»، توخينا فيه الإلمام بما يحتاج إليه الطالب الدارس في دراسته عن القرآن، والشاب المسلم في ثقافته، مع وضوح المعنى، وسهولة اللفظ، وجودة السبك وحسن الترتيب. كما حاولنا أن نلتم بأهم المباحث التي تشكل المدخل الرئيس لفهم كتاب الله تعالى ومعرفة، بعيداً عن الشطط أو الغلو الذي يقع فيه كثير من الدارسين، حيث عمدنا إلى إبراز المفاهيم والمعاني ضمن قيود اللغة العربية وقواعدها، وأقيسة الشرع وأحكامه، دون مواربة أو خجل، إضافة لآراء الجم الغفير من علماء الأمة وساداتها، بدءاً من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ووصولاً لأساتذتنا الأفاضل في العصر الحديث.

وقد تضمن كتابنا هذا أربعة أبواب أساسية تضم تسعة عشر فصلاً، إضافة إلى تمهيد موجز عرضنا فيه لنشأة علوم القرآن وتطور الكتابة فيها عبر العصور حتى يومنا هذا.

ففي الباب الأول الذي يحمل عنوان: تاريخ القرآن، عرضنا لأهم المباحث المتعلقة به، وهي نزول القرآن منجماً ثم تدوينه وما رافق ذلك من أحداث

وتطورات، وكذلك عرضنا فيه لأسباب النزول كونها تتعلق بالأسباب والمسببات والحوادث التاريخية ثم الأحرف السبعة.

أما الباب الثاني والذي يحمل عنوان: مضامين القرآن، فقد عالجت فيه موضوعات هي من الأهمية بحيث اعتبر كل موضوع منها علماً قائماً بذاته. فعرضنا للمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وفواتح السور وخواتمها وأسمائها، مع الشرح والتحليل والعرض لآراء وأقوال العلماء.

والباب الثالث الذي يحمل عنوان: أسلوب القرآن وبلاغته، فقد تعرضنا لموضوعات الفصاحة والبلاغة من خلال أساليب القرآن المستعملة في النظم وبيان مدى إعجاز هذا البيان الرباني، فعالجنا الفواصل والمتامية بين الآي، إعجاز القرآن، الأمثال والقسم في القرآن، وجوه المخاطبة والجدل.

أما الباب الرابع والأخير فيحمل عنوان: تلاوة القرآن الكريم وآدابها. فقد عرضنا فيه لمباحث يحتاج إليها المسلم يومياً في حياته، لأنه يعيش مع القرآن وللقرآن. فبيننا فضائل القرآن الكريم وما أعد الله تعالى لقاري القرآن وحامله، والعامل به. ثم بيننا آداب التلاوة وشروطها وأحكامها، ليكون القاري للقرآن على بصيرة وهدي، لأنه حين ينلو كتاب الله تعالى فهو يسمع كلام الله، ولا بُد أن يتأدب المستمع لكلام المتكلم. ثم وضحنا كيفية التلاوة من خلال عرضنا لمبعض القراءات والتجويز، فيعرف المسلم من خلالها القراءة السليمة والصحيحة حين تلاوته، والشروط الواجب توفرها كي لا يقبل أو يقبل.

ويتهي هذا الكتاب بخاتمة موجزة تحمل رجاء وأمنية، ثم ثبت مفصل للمراجع والمصادر التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب مرتبة على الأحرف الأبجدية للمؤلف.

أما عن منهجنا في التأليف، فقد جمعنا بين أمرين هامين: المنهج التاريخي حيث يبرز فيه نشأة المحدث وتطوره، والحالة التي آل إليها، بما فيه من وصف وعرض لآراء والأقوال، والمنهج التحليلي لهذه الموضوعات التي عرضنا لها بالتأليف، دون أن ندعي التفرد بآرائنا الشخصية، بل اعتمدنا على

علمائنا القدامى عرفاناً منا بفضلهم الكبير، كيف لا والكلّ عالة عليهم في هذه
البحوث، نتفقه بأثارهم ونستضيء بأنوارهم.

هذا وقد تولى الدكتور كامل موسى اعداد البابين الأول والثاني في هذا
الكتاب، في حين أعد الدكتور علي دحروج البابين الثالث والرابع. وقد نظر كل
واحد منهما في ما كتبه الآخر.

وإننا لندرجو الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا الصواب في الفكر والمنهج،
والسداد في القول والعمل والفلاح في القصد والغاية، وأن يجعل مثبتنا عنده،
إنه سميع مجيب.

المؤلفان

بيروت في غرة ربيع الثاني ١٤١٢ هـ

الموافق ٩ تشرين أول ١٩٩١ م

تمهيد

نشأة علوم القرآن وتطورها

القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة مهما تقدم العلم وازدهر، فهو قد حوى من كنوز المعرفة ما لا يمكن لبشر أن يحيط بها. وقد تلقفه الصحابة رضوان الله عليهم بشغف وحب، فأقبلوا عليه دارسين متأملين، وهم أهل فصاحة وبيان، فبهروهم بإعجازه وبلاغته، فاستيقنته أنفسهم أنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم. ولشدة تعلقهم به وحبهم له كانوا أشدَّ غيرة عليه من الأم الثكلى على وليدها، فكبرت عنايتهم به ونمت في قلوبهم وعقولهم، فراحوا يوجهون أنظارهم إلى دُرر آياته وعجائب مكنوناته، فدَوَّنوه خوف الضياع بعدما حفظوه في الصدور، وشرحوا غوامضه وفكَّوا من أسراره، حتى صاروا أساتذة في التفسير، فاشتهروا به وشرفوا.

وقد دعت حاجة الأمة الإسلامية إلى مزيد من التفسير والتبيان، لا سيما بعد عصور التدوين نظراً لتشعب العلوم والمعارف واتساع جغرافية الدولة الإسلامية وتزايد المسلمين، فكان علم الحديث رديقاً لعلم التفسير.

ثم بدأ التخصص العلمي يشق طريقه، فانبسط علماء قصروا عمرهم في تتبع آيات القرآن، يدرسونها ويتعرفون خصائصها وكل ما يتصل بها، فظهر ما سُمي بعلوم القرآن.

فألف علي بن العديني شيخ الإمام البخاري، المتوفى عام ٢٣٤ هـ في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) في النسخ والمسخ وفي فضائل القرآن والقراءات، ومحمد بن أيوب الضريس (ت ٢٩٤ هـ) في نزول القرآن وفضائله، وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في مُشكل القرآن. وهؤلاء كلهم من علماء القرن الثالث. ثم تبعهم محمد بن خلف بن المرزبان (ت ٣٠٩ هـ) فألف كتابه الحاوي في علوم القرآن، ثم أبو بكر محمد بن القاسم الأبياري (ت ٣٢٨ هـ) في عجائب علوم القرآن، وأبو بكر السجستاني (ت ٣٣٠ هـ) في غريب القرآن، وأبو محمد القصاب الكرخي (ت نحو ٣٦٠ هـ) في نكت القرآن وبيانه، ومحمد بن علي الأذقوي (ت ٣٨٨ هـ) في الاستغناء في علوم القرآن، وهم من علماء القرن الرابع الهجري.

القرآن
القراءات
العلوم
القرآنية

أما في القرن الخامس، فكان: علي بن إبراهيم الحوفاي (ت ٤٣٠ هـ) في البرهان في علوم القرآن وإعراب القرآن، وأبو عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) في القراءات، وأبو بكر الباقلائي (ت ٤٠٣ هـ) في إعجاز القرآن، والماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في أمثال القرآن.

القراءات

وفي القرن السادس، كان: أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالشهيلي (ت ٥٨١ هـ) في مبهمات القرآن. وفي القرن السابع كان: العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) في مجاز القرآن، والسخاوي (ت ٦٤٣ هـ) في علم القراءات.

العلوم

ثم نشأت بعد ذلك علوم جديدة تتصل بالقرآن مثل: يدائع القرآن، حجاج القرآن وأقسام القرآن. وما ذكرناه من جهود العلماء عبر العصور كان تبعاً لجزئيات حاولوا جمعها ضمن كتاب أو مجلدات.

لذلك لم تظهر علوم القرآن بالمعنى الشامل لها - كما يرى بعض الباحثين العلماء - إلا على يد علي بن إبراهيم الحوفاي (ت ٤٣٠ هـ) في كتابه البرهان في علوم القرآن، حيث جمع فيه شتات علوم القرآن كلها ونسقتها وربتها. وقد بلغ حجم المؤلف ١٥ مجلداً، وقيل ٣٠ مجلداً. ثم جاء علّمان آخران، وجّها جهودهما لدراسة هذا الفن، فألف بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) كتابه

المشهور «البرهان في علوم القرآن»، طُبع محققاً في أربعة أجزاء.

وَأَلَّفَ جلال الدين البلقيني (ت ٨٢٤ هـ) كتابه «مواقع العلوم من مواقع النجوم».

ثم جاء في القرن العاشر الإمام جلال الدين السيوطي فألَّفَ كتابين: الإِتقان في علوم القرآن والتحبير في علوم التفسير.

إلى جانب ذلك، ظهرت بعض المؤلفات البسيطة في هذا الفن.

وفي القرن الأخير، أي في عصر النهضة الحديثة، كان إقبال العلماء على تصنيف الكتب وتأليفها في علوم القرآن كبيراً. فقد ألَّفَ الشيخ طاهر الجزائري كتابه التبيان لبعض مباحث علوم القرآن، والشيخ محمد جمال الدين القاسمي في كتابه محاسن التأويل، والشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن، ومحمد علي سلامة في منهج الفرقان في علوم القرآن، والشيخ طنطاوي جوهرى في الجواهر في تفسير القرآن الكريم، ومصطفى صادق الرافعي في إعجاز القرآن، وسيد قطب في التصوير الفني في القرآن وكذلك مشاهد القيامة في القرآن، والشيخ محمد مصطفى العراغي في ترجمة القرآن، وكذلك محي الدين الخطيب، محمد عبد الله دراز في النبأ العظيم، ومالك بن نبي في الظاهرة القرآنية.

كما كان لعدد من الأساتذة والباحثين مساهمات قيِّمة في هذا الفن، منهم: صبحي الصالح، مناع القطان، محمد الغزالي، محمد المبارك، أحمد أحمد علي، عدنان زررور، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) وغيرهم.

ونأتي محاولتنا اليوم لتنصاف إلى جهود السابقين، إتماماً للخير والفائدة، عسى أن تكون في إطارها الصحيح من حركة التأليف في ميدان الدراسات القرآنية، راجين المولى عز وجل أن ينفع بها آمين.

الباب الأول

تاريخ القرآن

- الفصل الأول: نزول القرآن وتنجيّمه .
- الفصل الثاني: جمع القرآن وتدوينه .
- الفصل الثالث: قواعد الرسم العثماني وخصائصه .
- الفصل الرابع: أسباب النزول .
- الفصل الخامس: الأحرف السبعة .

الفصل الأول

نزول القرآن الكريم وتنجيّمه

لقد شرف الله تعالى هذا الكتاب الكريم بتنزلات متعدّدة وكيفية مخصوصة. لكن اختلف العلماء في ذلك كله، استناداً إلى ما رُوِيَ من أحاديث عن بعض الصحابة وما أدّاه فهمهم من استنباط الأحكام وإطلاقها. وهنا نحن بعون الله نستعرض الأقوال شارحين ومحلّين.

أولاً - زمن النزول وكيفيته:

اختلف العلماء في كيفية إنزال القرآن، ذاهبين في ذلك إلى ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: أنزل في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك مفرّقاً أي منجّماً في مدة زمنية تتراوح بين عشرين سنة أو ثلاث وعشرين سنة أو خمس وعشرين سنة تبعاً للمدة الزمنية التي قضاها الرسول ﷺ بمكة بعد النبوة. فقيل عشر، وقيل ثلاث عشرة، وقيل خمس عشرة. ولم يختلف في مدة إقامته ﷺ بالمدينة أنها عشر سنوات^(١).

القول الثاني: أنزل في ليالٍ قدرية بعدد سنوات النبوة، عشرون سنة، وقيل ثلاث وعشرون، وقيل خمس وعشرون. وفي ليلة القدر من كل سنة ينزل ما

(١) البرهان ج ١/ ٢٢٨ - ٢٣٢.

يقدر الله سبحانه إنزاله في كل السنة، ثم ينزل متجماً في جميع سنة ليلة القدر.
القول الثالث: أنزل ابتداءً في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك متجماً في
أوقات مختلفة من سائر الأوقات^(١).

وهذا الاختلاف في كيفية إنزاله، يرجع إلى تعدد وجهات النظر في مراد
قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ﴾^(٤).

والتعيين بليلة القدر، مع تعدد الأقوال في كيفية الإنزال، لما ورد في ذلك
من السنة الصحيحة، فيبعد عن هذه الأقوال ما قبل من أن الليلة المباركة هي ليلة
الصف من شعبان^(٥).

وأصح الأقوال وأشهرها في كيفية الإنزال هو القول الأول، وهذا ما ذهب
إليه الأكثرية لما له من المستندات الصحيحة، منها:

أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سأله عطية بن الأسود فقال: إنه قد
وقع في قلبي الشك في قول الله عز وجل: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾
وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
مُبَرَّكَةٍ ﴾. وقد أنزل في سؤال وذي القعدة وذي الحجة... يعني وغير ذلك من
الاشهر. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل في رمضان وفي ليلة القدر وفي
ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور
والأيام^(٦).

قال أبو شامة: قلت: رسلاً أي رفقاً، وقوله على مواقع النجوم، أي على
مثل مواقع النجوم، ومواقعها مساقطها، يريد أنزل متفرقاً يتلو بعضه بعضاً على

(١) البرهان ج ١/ ٢٢٨

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة القدر، الآية: ١.

(٤) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٥) المرشد الوجيز: ١٠.

(٦) أخرج الحافظ البيهقي في كتاب: دلائل النبوة ٧/ ١٣١، وانظر المرشد الوجيز: ١٠.

تؤدة ورفق، فقوله على مواقع النجوم في موضع نصب على الحال، ورسلاً أي
ذا رسل يريد مفرقاً رافقاً^(١).

وروى الحاكم في المستدرک^(٢) عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة
واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة^(٣).

وكذا أخرج النسائي عن طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس أنه قال: فُصِّلَ
القرآن من الذكر فوضع في بيت العِزَّة من السماء الدنيا، فجعل جبرئيل ينزل به
على النبي ﷺ.

كما أخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبیر
عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع
النجوم، وكان الله تعالى ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض.

فهذه أحاديث أربعة من جملة أحاديث كثيرة ذكرت في هذا الباب، وكلها
صحيحة كما قال السيوطي^(٤)، وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس رضي الله عنه،
غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ لما هو مقرَّر من أن قول الصحابي مما لا
سجال للرأي فيه ولم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات، حكمه حكم المرفوع. ولا
ريب أن نزول القرآن إلى بيت العِزَّة من أنباء الغيب التي لا تُعرف إلا من المعصوم.

وكان هذا النزول جملةً واحدةً في ليلة واحدة هي ليلة القدر، لأنه المتبادر
من نصوص الآيات السابقة والأحاديث المذكورة. بل ذكر السيوطي أن القرطبي
نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزَّة
في السماء الدنيا.

وهناك أقوال أخرى غير التي ذكرناها، لكنها لا تستند إلى نص أو دليل
نقلني قاطع.

(١) المحرر الوجيز: ١١.

(٢) الحاكم: المستدرک ٢/٢٢٢.

(٣) البرهان: ٢٢٩.

(٤) الاتقان: ٦٨/١.

ثانياً - كيفية أخذ جبريل للقرآن:

هذا من آيات الغيب، فلا يظنن الإنسان إلى رأي فيه إلا إن ورد دليل صحيح فيه عن المعصوم. وكل ما عثرنا عليه أقوال مشورة هنا وهناك، نجعلها فيما يأتي مع إبداء رأينا فيها.

أولها: **قال الطيبي** لعل نزول القرآن على الملك أن ينلقه تلقفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به على النبي ﷺ فيلقيه إليه. ونحن نعرف أن كلمة العلق هنا لا تشي غليلاً ولا تهدينا إلى المقصود سبيلاً، بل لا نستطيع أن نأخذ منها دليلاً.

ثانيها: **حكى الماوردي** أن الحفظة تجمت القرآن على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل ترجمه على النبي ﷺ في عشرين سنة. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الحفظة، ولكن لا نعرف لصاحب هذا الرأي دليلاً ولا شبه دليل.

ثالثها: **قال البيهقي** في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، يريد - والله أعلم - إننا أسمعنا الملك وأفهمناه إياه وأنزلناه بما سمع. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعاً، وذلك فيما نرى أمثال الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله لا من ناحية تأويل النزول في الآية بإبداء النزول. ويؤيده ما أخرجه الطبراني من حديث الثواس بن سمعان مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من صوت الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخزوا سُجُداً، ويكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله بوحى بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة. فكلما مرَّ بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا؟ قال: قال الحق، فينتهي به حيث أمره^(١). وأياً ما تكن هذه الأقوال، فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض ما دمنا تقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده، لكن ما الذي نزل به جبريل؟

(١) انظر ما ذكره الزرقاني في: متاعل العراق ١/٣٦ وما بعدها.

لنعلم في هذا المقام، أن الذي نزل به جبريل عليه السلام هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ولا للرسول في إنشائها وترتيبها، بل الذي رتبها أولاً هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك تنسب إليه وحده دون سواه، وإن نطق بها جبريل والرسول.

فإنه جلّت حكمته هو الذي أنزل القرآن وكلماته مرتبة على وفق ترتيب كلماته النفسية لأجل التفهيم والتفهم، كما يبرز نحن كلامنا اللفظي على وفق كلامنا النفسي لأجل التفهيم والتفهم. لذلك لا يجوز إضافة القرآن على سبيل الإنشاء إلى جبريل أو الرسول ولا لغيرهما، وإنما هو الله وحده.

وقد أئتم بعض الناس فرعاً أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بمعاني القرآن، والرسول يعتبر عنها بلغة العرب. وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحى إليه المعنى فقط، وكلاهما قول باطل أئتم، مصادم لصريح الكتاب والسنة والإجماع. ونعتقد جازمين أن هذا مدموس على المسلمين في كتبهم. وإلا فكيف يكون القرآن معجزاً؟

والحق أنه ليس لجبريل في هذا القرآن سوى حكايته للرسول وإيحائه إليه، وليس للرسول ﷺ في هذا القرآن سوى وعيه وحفظه ثم حكايته وتبليغه، ثم بيانه وتفسيره، ثم تطبيقه وتنفيذه.

نقرأ في القرآن نفسه أنه ليس من إنشاء جبريل ولا محمد ﷺ نحو: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ مِنْ لَدُنِّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١)، ونحو: ﴿وَلَمَّا نَسُوا مَا يُنذَرُونَ قَالَ ابْنَ مَرْيَمَ ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَىٰ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّي فَقُلْ سَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ نهاراً ولبائساً ما تنسوا قال الذي لا يرجون لقاءنا أنت بقدره إن غير هذا أو بذكره قل ما يكوت إن أن أسدك من سلفي

(١) سورة النمل، الآية: ٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.

تَفِيحٌ إِنْ أُنِجَ إِلَّا مَا يُرْحَى إِلَيْكَ إِنْ أَسَافَ إِنْ حَصَيْتَ وَفِي هَذَابٍ بَوْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾
ونحو: ﴿وَلَوْ نَفَخْنَا فِيهِمُ الْأَفْأِيلَ ﴿١١﴾ لَنَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا يَنَّهُ الرِّبَازَ ﴿١٣﴾ فَمَا يَسْكُرِينَ
أَسْوَعَهُ حَجْرِينَ ﴿١٤﴾﴾ (١١)

ثم إن ما ذكرناه هو تحقيق ما نزل على النبي ﷺ من القرآن، وإن كان قد نزل عليه أيضاً غير القرآن، نقل السيوطي عن الجويني أنه قال:

١ - «كلام الله المتزل قسمان: (قسم) قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنت مرسل إليه: إن الله يقول افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا، فهم جبريل ما قاله ربه، ثم نزل على ذلك للنبي، وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملك لمن يثق به، قل لفلان يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة، واجمع جنك للمقتال، فإن قال الرسول يقول لك الملك، لا تنهاون في خدمتي، ولا تترك الحبل يتفرقا، وحشهم على المقاومة، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرسالة.

٢ - (وقسم) آخر قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، ونزل به جبريل من عند الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين، ويقول اقرأه على فلان، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً اهـ. قال السيوطي بعد ذلك: قلت: القرآن هو القسم الثاني والقسم الأول هو الشئ. هنا ورد أن جبريل كان ينزل بالشئ كما ينزل بالقرآن، ومن هنا حاز رواية الشئ بالمعنى لأن جبريل إذاها بالمعنى، ولم تجز القراءة بالمعنى، لأن جبريل أدى القرآن باللفظ ولم يبح له أداءه بالمعنى، والسبب في ذلك أن المقصود منه التعمد بلفظه والإعجاز به، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظه يقوم مقامه، وأن تحت كل حرف منه معان لا يحاط بها كثرة، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه، والتخفيف على الأمة حيث جعل المتزل إليهم على قسعين: قسم يروونه بلفظه الموحى به، وقسم يروونه بالمعنى، ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشتى عليهم ذلك، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف.

(١) سورة يونس، الآية: ١٥.
(٢) سورة العنق، الآية: ٤٤ - ٤٧.

نقول: هذا كلام تقيس، بيد أنه لا دليل أمامنا على أن جبريل كان يتصرف في الألفاظ الموحاة إليه في غير القرآن، وما ذكره الجويني فهو احتمال عقلي لا يكفي في هذا الباب.

ثم إن هذا التقسيم خلا من قسم ثالث في الكتاب والثقة، وهو الحديث القدسي الذي قاله الرسول ﷺ حاكياً عن الله تعالى، فهو كلام الله تعالى أيضاً، غير أنه ليست فيه خصائص القرآن التي امتاز بها عن كل ما سواه، والله تعالى حكمة في أن يجعل من كلامه المنزّل معجزاً وغير معجز، لمثل ما سبق في حكمة التقسيم الأنف، هي إقامة حجة للرسول وللمدين الحق بكلام الله المعجزاً ومن التخفيف على الأمة بغير المعجز، لأنه تصحح روايته بالمعنى، وقراءة الجنب وحمله له ومثله إياه، إلى غير ذلك.

وصفة القول في هذا المقام أن القرآن أوحيت ألفاظه من الله اتفاقاً وأن الحديث القدسي أوحيت ألفاظه من الله على المشهور، والحديث النبوي أوحيت معانيه في غير ما اجتهد فيه الرسول، والألفاظ من الرسول ﷺ. بيد أن القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبد به ووجوب المحافظة على أدائه بلفظه ونحو ذلك، وليس للحديث القدسي والنبوي شيء من هذه الخصائص.

والحكمة في هذا التفريق أن الإعجاز منوط بألفاظ القرآن، فلو أتيح أداءه بالمعنى الذهب إعجازه، وكان مقلداً للتغيير والتبديل، واختلاف الناس في أصل الشريعة والتزليل. أما الحديث القدسي والحديث النبوي فليست ألفاظهما مناط إعجازه، ولهذا أباح الله روايتهما بالمعنى، ولم يمتحهما تلك الخصائص والقداسة الممتازة التي منحها للقرآن الكريم، تخفيفاً على الأمة ورعاية لمصالح الخلق في الحالين من منح ومنع ﴿إِنَّكَ اللَّهُمَّ وَالْكَائِنُونَ﴾ وقرآنك (١).

مدة هذا النزول:

ابتدأ هذا الإنزال من مبعث عليه الصلاة والسلام وانتهى بقرب انتهاء حياته

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣

الشريفة، وتقدر هذه المدة بعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً، تبعاً للخلاف في مدة إقامته ﷺ في مكة بعد البعثة، أكانت عشر سنين أم ثلاث عشرة أم خمس عشرة سنة. أما مدة إقامته بالمدينة فعشر سنين اتفاقاً، كذلك قال البيهقي.

ولكن بعض محققي تاريخ التشريع الإسلامي يذكر أن مدة مقامه ﷺ بمكة اثنا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من 17 رمضان سنة 41 من مولده الشريف إلى أول ربيع الأول سنة 54 هـ. أما مدة إقامته في المدينة بعد الهجرة فهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة 54 من مولده إلى ناسع ذي الحجة سنة 63 هـ ويوافق ذلك سنة عشر من الهجرة.

لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة، ذلك لأنه أهمل من حسابه باكورة الرحي إليه ﷺ عن طريق الرزيا الصادقة ستة أشهر، على حين أنها ثابتة في الصحيح. ثم جرى فيه على أن ابتداء نزول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهي ليلة القدر على بعض الآراء، غير أنه يخالف المشهور الذي نؤيده، وهو أن ذلك في ليلة سبع وعشرين والله أعلم^(١).

ثالثاً - الحكمة من إنزاله جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا:

أجاب أبو شامة في كتابه المرشد الوجيز فقال: «فيه تفخيم لأمره وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لم تهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى يبين بينه وبينها فجمع له الأمرين. إنزاله جملةً ثم إنزاله مفزقاً. وهذا من جملة ما شرف به نبينا ﷺ كما شرف بحيازة درجتي الغني الشاعر والفقير الصابر، فأوتي مفاتيح خزائن الأرض فرقها واختار الفخر والإيثار بما فتح الله عليه من البلاد، فكان غنياً

(١) متاهل العرفان: 36/1 - 45 (بتصرف).

رابعاً - الحكمة من إنزاله منجماً إلى الأرض:

تظهر حكمة الإنزال منجماً في وجوه ومعانٍ حسنة، منها:

أ - تثبيت فؤاده ﷺ، أي تقويته، وهذه التقوية لازمة لتجدد الوحي المنزّل لكثرة نزول الملك عليه، وفي هذا سرور عظيم لما فيه من عناية إلهية، ومعجزة تتجدد، وتأييد له ضد الباطل أو خصومه المعاندين حيث ينصره الله عليهم ويقوي عزمه وإرادته، فضلاً عن أن في ذلك التجدد تسليّة للنبي ﷺ وسروراً يملأ به قلبه خاصة في أوقات الشدة.

ب - تيسير حفظه عليه ﷺ، فهو لا يقرأ ولا يكتب، ومقتضى ذلك إنزاله عليه بالأسلوب الميسر ليسهل عليه حفظه، ولو أنزل جملة واحدة لشقّ عليه ﷺ، تبعاً لعوائد الخلق في طباعها. وقد لاقى العناية المطلوبة في حفظه للمذكر عند إسرعه لذلك وظهور التحرك في لسانه وشفته المقتضى للشدة عليه، قال سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ، لِسَانَكَ لِتَتَكَلَّمَ بِهِ﴾ (٢) **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** (٣) وفي ذلك ما فيه من التدرج في التربية والتعليم، وهي خاصة عظيمة للقرآن الكريم.

وكان ﷺ يسرع في قراءته حتى لا يذهب منه شيء، فأخذ العهد الرباني بإبعاد ذلك عنه، قال تعالى: ﴿سُقِّرْنَاكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٤) ومقتضى ذلك إنزاله على الطريقة التنجيمية اللازم عنها التيسير والتسهيل.

ج - التحدي والإعجاز للكفار والمشركين بأن باتوا بمثله، بل إنهم عاجزون عن إثبات المثل في السورة والآية، والتنزيل بصورة التنجيم أبلغ في الإعجاز وأشدّ على الذين يحادون الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

(١) المرشد الوجيز: ٢٥. وانظر: الانشقاق ١/٢٦٩، والبرهان ١/٢٣٠.

(٢) سورة القيامة، الآية: ١٦ - ١٧.

(٣) سورة الأعلى، الآية: ٦.

حِفْظُكَ بِالْعَقْلِ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿١١﴾

د - تيسير حفظه على المسلمين ومن طريقة يسهل بها حفظه وفهمه .
أخرج ابن عساکر عن طريق ابن نظرة قال : كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالعادة وخمس آيات بالعشي ، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات ^(١) . وأخرج البيهقي عن أبي حنيفة عن عمر قال : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمساً خمساً ^(٢) .

هـ - التدرج في التشريع - فمن معالم التشريع الإسلامي التدرج في أحكامه التي يتوقف عليها استئصال الأمراض الدفينة في الأنفس البشرية ، وما كانت الأحكام التكليفية فوق طاقة البشر . وظهرت صورة هذا المبدأ التدرجي في قضية تحريم الخمر وقلع هذه العادة القبيحة من معتادي شربها إبان البعثة النبوية ، هذه العادة التي ورثوها من طواغيت الجاهلية .

وقد تحبب لدى المسلمين البيان الشرعي في هذه العادة الكريهة ، وعولجت هذه العادة تدرجاً ، ولا تدرج كائن إلا بالنزول منجماً ، قال سبحانه : ﴿ وَمِن تَمَرَّتِ النَّجِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ مَسْكَراً وَرِزْقاً حَسَباً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٣) .

ونأتي المرحلة الثانية ، في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَاتِّخَاذَ الْيَمِينِ وَالْحَمْرَ وَالْمَسْكِيرَ قُلْ فِيهَا عِظَمٌ لِّكُفْرٍ كَثِيرٍ مِّمَّا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ ﴾ ^(٤) . والعقل يقضي فيما تغلب ضرره على نفعه بالإبتعاد عنه .

وفي المرحلة الثالثة يقضي التنزيل بالإبتعاد فترة عن هذه العادة ، قال

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٣٣ .

(٢) أخرجه الحاكم : ٥٥٥/١ .

(٣) الالتقان : ٤٣/١ ، وقد أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، كما في كثر العمال : ٥٢٦/١ .

(٤) سورة النحل ، الآية : ٦٧ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢١٩ .

تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (١).

وفي المرحلة الرابعة، يأتي الحسم في هذه العادة الكريهة، فيقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِثْمًا الْمَسْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَذْنَمُ وَجَسٌّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢) إِثْمًا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْمَسْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصْلَحَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٣).

و - شمولية القرآن للناسخ والمسوخ، ولا تَسَخُّ إِلَّا بِالتَّرْتِيلِ مُتَابِعًا الْمُقْتَضِي لِلتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ .

ز - إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول ﷺ سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته، كما قال الله تعالى في جواب سؤال أعدائه إياه: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤) في سورة الإسراء. وقوله: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْقَرْبِيِّ قُلْ سَأَلْتُوْا عَنِّي كَمَا سَأَلْتُمْ عَنِ النَّبِيِّ قُلِ الْبَقَرَةُ﴾ (٥) في سورة البقرة: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَوْثُ﴾ (٦). ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَكُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَارْحَمُواهُمْ﴾ (٧).

ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت تُرفع إلى النبي ﷺ في أوقات مختلفة وعلى نويات متعددة. حاكية أنهم سألوا ولا يزالون يسألون. فلا بدع أن ينزل

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٠ - ٩١. وانظر: البرهان ج ١/ ٢٣٠، الاتقان ج ١/ ٤٣.

المعتمد الوجيز: ٢٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

الجواب عليها كذلك في أوقاتها المختلفة، ولوباتها المتعددة.

ح - مجارة الأفضية والوقائع في حينها بيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها.

ومعلوم أن تلك الأفضية والوقائع لم تقع جملة، بل وقعت تفصيلاً وتدرجاً، فلا مناص إذن من فصل الله فيها بتزول القرآن على طبقها تفصيلاً وتدرجاً، والأمثلة على هذا كثيرة منها قوله سبحانه في سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾^(١) إلى قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ مَرَّةً وَرَدَّتْ مَنَافِعُهُمْ لَكُم مِّن دُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَعْتَدٌ مَّغْفِرَةٌ وَمِنَّةٌ كَبِيرَةٌ﴾^(٢) وهن عشر آيات نزلت في حادث من أروع الحوادث: هو اتهام السيدة الجليلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالإفك، وفيها دروس اجتماعية لا تزال تُقرأ على الناس، كما لا تزال تسجل براءة هذا الحصان الظاهرة من فوق سبع سموات.

ومن الأسئلة قوله تعالى في مطلع سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٣) إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤). وهن ثلاث آيات نزلت عندما رفعت خولة بنت ثعلبة شكواها إلى رسول الله ﷺ من أن زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها، وحادلت الرسول بأن معها حبيبة صفراء إن ضمنتهم إلى زوجها ضاعوا وإن ضمنتهم إليها جاعوا.

ط - لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها، وإرشادهم إلى شاكلة الصواب في الوقت نفسه. ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت في أزمان متفرقة، فمن الحكمة أن يكون القرآن النازل في إصلاحها متكافئاً معها في زمانها. اقرأ إن شئت قوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّغُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْتَعِدٌ لِلْقِتَالِ﴾^(٥) إلى آيات كثيرة بعدها وكلها نزلت في

(١) سورة النور، الآية: ١١.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٦.

عزوة أحد إرشاداً للمسلمين إلى مواضع أخطائهم في هذا الموقف الرهيب
 والمأزق العصيب، وكذلك افراً قوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ
 أَعْيَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ لَمَّا تَقُنِي عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَآرِحِ
 تَمْ وَأَنْتُمْ مُذِرِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ
 تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ
 يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ١١. وهي آيات تردع المؤمنين عن رديلة الإعجاب
 والاعتزاز في يوم من أيام الله، وثقلت نظرهم إلى مقدار تدارك الله لهم في شدتهم،
 وإلى وجوب أن يتوبوا إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربهم.

ي - كشف حال أعداء الله المنافقين، وهتك أستارهم وسرائرهم للشي
 والمسلمين كي يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرهم، وحتى يتوب من شاء منهم.
 افراً - إن شئت - قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ
 الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤﴾ ومن ثلاث عشرة آية فصحت
 المنافقين، كما فصحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات، وكما كشفت القرآن
 أستارهم في كثير من المناسبات.

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثالثة بمضامينها الأربعة في قوله الله تعالى
 في تلك الآية من سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِسَلْمٍ إِلَّا يَأْتُونَكَ بِالْحَقِّ وَالْحَسَنِ
 قَسِيحًا ﴿٣٣﴾ ٣٣.

ك - الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن
 يكون من كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم تقوؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم
 السرد دقيق السبك متين الأسلوب، قوي الاتصال، أجيد بعضه برقاب بعض في
 سورة وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من الفه إلى ياته كأنه سبيكة

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥ - ٢٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

واحدة ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة أو كأنه
سطح وحيد وعقد فريد يأخذ بالابصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جملة
وآياته، وجاء آخره مساوياً لأوله، وبدأ أوله موافقاً لآخره!

وهنا نساءل كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا
التناسق المدهش؟ على حين أنه لم ينتزل جملة واحدة، بل تنزل آحاداً مفرقة
تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاماً!

الجواب: أننا نلمح هنا سراً جديداً من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة
من سمات الربوبية، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن، وأنه كلام الواحد
الذيان ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١)

وإلا فحدثني بربك كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم
الاتصال والترابط، متين التسج والشرد متألف البدايات والنهايات مع خصومه في
التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء
كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها، ومتحدثاً عنها: سبباً بعد سبب، وداعية
إثر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع
تراخي زمان هذا التأليف، وتطاول آمان هذه الشجوم، إلى أكثر من عشرين عاماً.

لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك
الدواعي، يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال، ولا يدعان مجالاً
للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام.

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً: نزل مفرقاً
منجماً، ولكنه تم مترابطاً مُحكماً، وتفرقت نجومه تفرق الأسباب، ولكن اجتمع
نظمه اجتماع شمل الأحياء، ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً، ولكن
تكامل استجمامه بداية وختاماً!

ليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القوى والقدرة، ومالك

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

الأسباب والمسببات، ومدبر الخلق والكائنات وقيوم الأرض والسموات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون؟؟

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال: «ضعوها في مكان كذا من سورة كذا» وهو بشرٌ لا يدري (طبعاً) ما ستحيي به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث فضلاً عما سينزل من الله فيها. وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم، وينتظم ويتأخر ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يعجز الخلق طراً بما فيه من السجام ووحدانية وترابط: ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ سَكِينٍ خَيْرٍ ﴿١﴾﴾.

وإنه ليستبين لك سر هذا الإعجاز، إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط، لا في كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء.

خذ مثلاً حديث النبي ﷺ، وهو ما هو في روعته وبلاغته وطهره وشموه لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة، لدواع متباينة، في أزمان متطاولة فهل في مكنتك ومكنة البشر معك، أن ينظموا من هذا السرد الشيت وحده، كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والوحدة، من غير أن ينقصوا منه أو يزيّدوا عليه أو يتصرفوا فيه؟؟

ذلك ما لن يكون، ولا يمكن أن يكون، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويخرج للناس بثوب مرفق، وكلام ملفق بنفسه الترابط والانسجام، وتعوزه الوحدة والاسترسال، وتمجّه الأسماع والأفهام.

إذن: فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده، وتلك حكمة

(١) سورة هود، الآية: ١.

جلیلة الشأن، تدل الخلق على الحق من مصدر القرآن^(١).

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ صَفُورًا رَجِيمًا ﴾^(٢).

* * *

(١) مناهل العرفان: ٣٦/١ - ٥٧، والإتقان: ١١٨/١ - ١٤٢.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦.

الفصل الثاني

جمع القرآن الكريم وتدوينه

تمهيد:

عرفنا أنَّ القرآن الكريم كتاب الله تعالى المنزَّل على الرسول محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام المنقول إلينا نقلاً متواتراً المتعبَّد بتلاوته المعجزة، المبتدئ بسورة الفاتحة المنتهي بسورة الناس.

ولما كان من مميزات هذا الكتاب السماوي أنه قد حوى ذكر الأولين والآخريين وأنه الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل، ولا تتعداه النظم والمعاني، فقد أصاب من ميزه، وأخرجه من مقاييس الصحف العادية، ومنطلقات الشر الشعرية والثرية، وأن هذا القرآن الكريم يعجز القلوب الضعيفة عن احتوائه، والعقول المائلة عن إدراكه، وصدق فيه، ما قاله سبحانه: ﴿لَوْ أُرْسِلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(١). ولذا فقد كانت الدلالات النصورية واضحة الاهتمام حول الرضاعة والاستعداد المشين في كيفية حفظه المسم بالاستمرارية.

وفضلاً عما كان عليه النبي ﷺ من حرص واهتمام بحفظ القرآن، حتى لا يفوته شيء منه، فقد واكبت الرعاية الربانية هذا الحرص، حاثَّة إياه ﷺ على الثاني في الحفظ دون استعجال، كما يبدو ذلك في قوله تعالى: ﴿لَا تُعْرَفُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٢) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٩﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْهُ فَأَخْبِرْهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ لِيَأْتِيَنَّكَ ﴿٢١﴾ وَمِن

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) سورة القيامة، الآية: ١٦ - ١٩.

قيل هذه النصوص، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾^(١) وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا^(٢).

وإذا كان هذا البيان من العناية الإلهية في طريقة التلقي والحفظ النبوي، فالأجدر بصحابه رضي الله عنهم أن يسيروا بخطى التأني وسلامة الاهتمام، فقلوبهم لم تصل، ولن تبلغ، مرتبة قلبه ﷺ، خاصة وأن الأمانة قد كانت المتعلقة عليهم أياك البعثة النبوية، وكان حتماً أن يتصدر جماعة لتلقي القرآن الكريم من الرسول ﷺ، حفظاً وتدويناً؛ ولما كانت معرفتهم بالقراءة والكتابة قليلة، فقد عوضوا في صدورهم لوحات واسعة وحواظف ذاكرة ولا غرابة، فإنهم أصحاب الطباع السليمة، والحناجر الصافية واللسان القويم.

فهم أول من عُليت عليهم الآيات، وزكيت نفوسهم، وعلموا الكتاب والحكمة، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَئِي ضَلُّوا سُبُلًا^(٣)﴾

ومن هنا كان ﷺ جامع القرآن في قلبه الشريف، وسيد الحفاظ في عصره المنيّف ومرجع المسلمين في كل ما يعنهم من أمر القرآن وعلوم القرآن. وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه، وكان يُحصى به الليل وبزين الصلاة وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، وعارضه إياه في العام الأخير مرتين^(٤). قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين، ولا أرى إلا حضر لأجلي»^(٥).

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٣) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج ١/ ٢٣٤.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (الحديث ٣٦٢٣)، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ (الحديث ٩٨).

وبلغ من اهتمام المسلمين بالقرآن، آنذاك، أنهم كانوا يتنافسون بحفظه،
فذهبوا يتدارسونه ويتعلمونه من بعضهم البعض، حتى أنهم كانوا من كثرة
قراءتهم له في البيوت يسمع له دوي كدوي التحل، فامتلات البيوت بهذا الدوي
القرآني، الذي بات حفظه وقراءته مسعى ومبغى كل مسلم، حتى أن المرأة
لترضى أن يكون مهرها تحفيظها سورة من القرآن.

وهذا الإقبال الجماعي على حفظ القرآن وتلاوته، لم يحصر في مكان
معين، بل تعدى البيوت إلى المسجد النبوي، حتى أنه ﷺ أمرهم بخفض
أصواتهم كي لا تختلط عليهم الأسماع والقراءة.

وهو بذلك قد تعدى حدود الأفراد إلى الجماعات التي تفوق الحضر بعدد
معين، فلا أقل من المائتين، فلا ترتيب في تواتر حفظه صدراً، ولا يشكل في
حوادثك أي حاجس ما ورد في الصحاح، عن طريق عبد الله بن عمرو بن
العاص، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: اخذوا القرآن من أربعة، من عبد الله بن
مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب^(١).

وروي عن قتادة، سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول
الله ﷺ؟ فقال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل،
وزيد بن ثابت، وأبو زيد، قلت ومن أبو زيد؟ قال: أخذ عمومي^(٢).

وروي ثابت عن أنس، قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة،
أبو الدرداء ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد^(٣).

ولقد أوجد حديث أنس إشكالاً عند العلماء، لما في روايته من حصر،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب زيد بن ثابت (الحديث
٣٨١٠)، وأخرجه أيضاً في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ
(الحديث ٥٠٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل
أبي بن كعب وجماعة من الأنصار (الحديث ١١٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

نصريحاً أم تلميحاً. علماً أنّ التناقض بين فيما روي عنه، فرواية قتادة تفيد بجمع القرآن عند أربعة: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي زيد أحد عمومة أنس.

ورواية ثابت تفيد بجمع القرآن عند: أبي الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي زيد. وفي هذه الرواية ذكر أبو الدرداء وحذف أبي بن كعب. وهذا يفيد التضعيف في رواية الحضر بأربعة، التي أثارت إشكالات عند الأئمة نقداً ورداً، تذكر بعضها على سبيل النبيان قصد إزالة الالتباس

١ - لا يلزم من قول أنس لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك، لأنّ التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد، وهذا لا يتم إلا إن كان لقي كل واحد منهم على انفراده وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع في عهد النبي ﷺ، وهذا في غاية البعد في العادة، وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك. قال: وتمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه، فإنّ لا نسلم حمله على ظاهره، سلّمناه، ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر، كذلك سلّمناه، لكن لا يلزم من كون كل من الجسم الغفير لم يحفظه كله أن لا يكون حفظ مجموعته الجسم الغفير، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى^(١).

٢ - لقد قُتل في حرب اليمامة سبعون من القراء، وقريب من هذا العدد قتل يوم بدر معونة^(٢) في عهد النبي ﷺ وإنما خص أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم ولكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم^(٣).

(١) قاله المازري: أنظر الاتقان، ج ١/٧٠.

(٢) هو المكان الذي نزلت بهتة رسول الله ﷺ المكونة من أربعين رجلاً من خيار المسلمين، أرسلوا ليعلموا أهل نجد القرآن والدين، فقتلوا، من جمع من مقاتل متعددة بقيادة عدو الله عامر بن طفيل فاستشهدوا جميعاً سوى كعب بن زيد، عليهم الرحمة والرضوان. أنظر سيرة ابن هشام، ج ٢/١٨٥.

(٣) قاله القرطبي، أنظر الاتقان، ج ١/٧١.

٣ - وذكر عن أبي بكر الباقلائي أوجه متعددة في معرض الرد على الحديث، نذكرها بإيجاز:

- أ - لا مفهوم له، ولا يلزم من ذلك نفي الجمع عن الغير.
- ب - المراد به لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات إلا هؤلاء.
- ج - المراد به من لم يجمع النسخ قبل، ويعد إلا هؤلاء.
- د - المراد أنه لم يتلقه عن الرسول ﷺ إلا هؤلاء.
- هـ - المراد أنهم الذين قد تصدوا إلى إلقائه وتعليمه، فأدى ذلك إلى شهرتهم وإخفاء حال الآخرين.
- و - المراد به أنهم جمعوه كتابة وحفظاً.
- ز - المراد به أنهم الذين قد أفصحوا عن جمعه في عهد الرسول ﷺ دون غيرهم.
- ح - المراد به السمع والطاعة والعلم بمقتضاه^(١).

وقال آخرون: المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس كما أخرج ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال: افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقال الأوس منا أربعة: من اهتز له العرش سعد بن معاذ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمية بن ثابت^(٢) ومن غلته الحلائكة حنظلة بن أبي عامر، ومن الدبر عاصم بن أبي ثابت، أي ابن أبي الأفلح، فقال الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم. قال: والذي يظهر من كثير من الأحاديث أن أبا بكر كان يحفظ القرآن في حياة رسول الله ﷺ، ففي الصحيح أنه بنى مسجداً ببناء داره فكان يقرأ فيه القرآن وهو محمول على ما كان نزل منه إذ ذاك. قال وهذا مما لا يرتاب فيه مع شدة حرص أبي بكر على تلقي القرآن من النبي ﷺ وفراغ باله له وهما بمكة وكثرة ملازمة كل منهما للآخر حتى قالت

(١) بصرف، أنظر الاتقان، ج ١/٧١.

(٢) هو من اعتبرت شهادته بشهادة رجلين لتصديق الرسول ﷺ في ابتياعه والأعرابي، وهو من بني حنظلة بن جشم بن الأوس (أنصاري)، وتوفي سنة ٣٧ هـ. أنظر: العليقات الكبرى لابن سعد، ج ٤/٣٨٠.

عائشة أنه ﷺ كان يأتيه بكرة وعشيا، وقد صح حديث يوم القوم أقرام^(١).

وكيف يمكن الإحاطة بأنه لم يكمله سوى أربعة، والصحابة متفرقون في البلاد وإن لم يكمله سوى أربعة، فقد حفظه بجميع أجزائه متون لا يحصون^(٢).

وذكر الزركشي عن صاحب الطبقات: أن ما ذكر من أسماء الحفاظ هم من عرضوا حفظهم على النبي ﷺ واتصلت مسانيدهم إلينا، أما من جمعه ولم تصل مسانيدهم فهم كثير^(٣). ومن عرضوا جمعهم على النبي ﷺ: عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وأبو الدرداء. ومن قد جمع القرآن، سوى هؤلاء: معاذ بن جبل وأبو زيد وسالم وعبد الله بن عمرو وعقبة بن عامر، إلا أنه لم تتصل بنا قراءتهم^(٤).

فقد كان عدد حفاظ القرآن في عهد النبي ﷺ كثيراً، وجملاً غفيراً منهم: الخلفاء الأربعة، وطلحة وسعد وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبو هريرة وابن عامر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومعاوية وابن الزبير وابن السائب وعائشة وحفصة وأم سلمة. هذا من المهاجرين.

ومن الأنصار: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء ومجمع بن حارثة وأنس بن مالك وأبو زيد أحد عمومة أنس... وغيرهم كثير. فالحصر الوارد عن أنس ليس حقيقياً، وإنما هو نسبي، أي نسبة لما يعرفه الراوي، لا لما هو حقيقة وواقع^(٥).

وفصلاً عن اهتمام حفظه بالذاكرة والصدور، فقد كان له شأنه بالكتابة والسطور، ومع ما يوجد من قلة في أدوات الكتابة فقد كان للمرسول ﷺ كتاب

(١) قال ابن حجر: أنظر الانتقان، ج ١/٧١.

(٢) قاله الماوردي، أنظر: الإمام بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ١/٢٤٢.

(٣) البرهان، ج ١/٢٤١.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) أنظر: الزرقاني، المناهل، ج ١/٢٣٥، بتصرف.

للوحي يقومون بتوثيقه وضبطه حتى باتت الكتابة مقوية للمحفظ بقدر ما تقوت
 الكتابة به. وكان الرسول ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب، قالوا:
 ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا. وكان من جملة كتّاب
 الوحي: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وأبان بن سعيد وخالد بن الوليد
 وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس... وغيرهم كثير. علماً أن الكتابة
 كانت آنذاك على جريد النخل والحجارة الرقيقة والجلود والكاغد - الورق -
 وعظام الأكتاف والأضلاع (١).

مراحل جمع القرآن:

مما لا خلاف فيه، أن القرآن الكريم، كان مدوناً حال وفاة رسول الله ﷺ،
 وهو في حفظ الكتابة كما في حفظ الصدور، إلا أنه كان مترقياً على أدوات
 الكتابة المتعددة، غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور.

وذكر عن القسطلاني، أنه قال: وإنما ترك النبي ﷺ جمع أي القرآن في
 مصحف واحد، لأن النسخ كان يرد على بعضه، فلو جمعه ثم وقعت تلاوة بعضه
 لأدى إلى الاختلاف والاختلاط فحفظه الله تعالى في القلوب إلى القضاء زمن
 النسخ، وكان التأليف في الزمن النبوي والجمع في الصحف في زمن الصديق
 والنسخ في الصحاح في زمن عثمان. وقد كان القرآن كله مكتوباً في عهده ﷺ
 لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور (٢).

إذاً، فالتأليف ميزة الزمن النبوي، كما ورد ذلك عن زيد بن ثابت أنه كان
 يولف القرآن من الرقاع، ذكره السيوطي في الاتقان (٣).

وأما الجمع في الصحف فقد حدث في زمن الخليفة الأول، يوم اشتداد

(١) أنظر: المناهل، ج ١/ ٢٤٠ - بتصرف.

(٢) أنظر: إبراهيم بن أحمد المارغني التونسي، دليل الحيران على موارد الظلمة/ ١٥، وهو
 شرح المنظومة في قتي الرجم والضبط لمرآة الإمام محمد بن محمد الشريفي الفاسي
 الشهير بالحرّاز.

(٣) الاتقان ١/ ٥٧. والظر البرهان ١/ ٣٣٧.

الحرب المسماة بحرب البعثة^(١)، وذلك أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن في موضع واحد خوفاً من أن يذهب منه شيء، خاصة وأن كثيراً من الحفاظ قد استشهدوا في هذه الحرب المذكورة، ويقدر ما كان عمر ملحاً بتصيد ذلك، كان تردد أبي بكر، لأنه شيء لم يأمر به رسول الله ﷺ ولم يعهد به إلى أن بان الأمر له كما وضح لعمر. وعند ذلك أعطى أبو بكر أوامره بجمع القرآن وكلف بذلك الصحابي الجليل زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي ومن تلقى من رسول الله ﷺ آخر قراءة قد قرأها جبريل عليه السلام على النبي ﷺ.

قال زيد: والله لو كلفوني نقل الجبال لكان أسير من الذي كلفوني، قال: فجعلت أتبع القرآن من صدور الرجال ومن الرقاع ومن الأضلاع ومن العصب، قال: فقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ لم أجدها عند أحد فوجدتها عند رجل من الأنصار وهي قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَتَلَ نَحْسَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ﴾^(٢)، فالحقنها في سورتها، فكانت تلك الصحف عند أبي بكر حتى مات ثم عند عمر حتى ماتت ثم كانت عند حفصة حتى ماتت^(٣).

وفي بعض الروايات عن زيد بن ثابت فتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعصب واللحاف وصدور الرجال^(٤).

وهذه المرحلة، هي مرحلة جمع القرآن الكريم في الصحف على شكل سور متفرقة كل سورة مرتبة الآيات على حدة دون ترتيب السور إثر بعضها البعض.

(١) وهي الواقعة المشهورة التي وقعت عام ١٢ هـ بين المسلمين من جهة وبين سبيلة الكلاب وأنصاره من جهة ثانية، حيث استشهد فيها حوالي سبعون رجلاً من حفظة القرآن.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٣) الإتيان ١/٥٩، والبرهان ١/٢٣٤، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب قول الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الحديث رقم ٢٨٠٧).

(٤) الإتيان، ج ١/٥٩.

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، كانت البلاد الإسلامية قد اتسعت رفعتها وتفرقت الألسن في البلاد، ودخل على اللسان العربي السنة ليست بالعربية، وكاد هذا التفرق في رقعة البلاد أن يحدث شرخاً قبيحاً لو ترك لأنتج أثراً خطيرة، لولا تدارك الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي لمس بوادر الاختلاف في القراءة، فقدم على عثمان حاثاً إياه على تدارك الأمة في كتابها، عند ذلك لم يتوان ذو النورين عن الإهتمام بهذا الأمر، فأرسل إلى حفصة رضي الله عنها، طالباً منها الصحف لنسخها وردّها إليها، فكلف زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(١) فتسحوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أو يُحرق. وكان هذا العمل الشريف سنة خمس وعشرين هجرية^(٢). وقيل كان في أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين^(٣). وعدد المصاحف التي نسخت، على الأرجح أنها أربعة، أرسل منها ثلاثة إلى كل من الكوفة والبصرة والشام، وترك واحداً عنده، وقيل إنها سبعة أرسل منها أيضاً إلى مكة واليمن والبحرين والأول هو الأصح وعليه الأئمة^(٤) والذي بقي عند عثمان هو المسمى بالمصحف الإمام، ومنه نسخت البقية المرسله، وقيل إنه المصحف الذي كان يقرأ به يوم استشهاده، وكان مكتوباً على

(١) المرجع السابق نفسه، وانظر مناهل العرفان، ج ١/ ٢٥٠. وفي البرهان، ج ١/ ٢٣٦ بدل سعيد بن العاص سعد بن أبي وقاص. وما في المقنع للداني موافق لما ورد في الإنقان، انظر ٧.

(٢) الإنقان، ج ١/ ٥٩.

(٣) المناهل، ج ١/ ٢٥٠.

(٤) البرهان ١/ ٢٤٠، والمقنع للداني ص ١٠.

رق الغزال، والنسخ الأخيرة فقد كتبت على الكاغد، أي الورق^(١).

ولم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ، وإلغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تاويل أثبت مع تنزيل ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد^(٢).

وإذا كان قد تبين، أن عثمان رضي الله عنه قد نسخ عن المصحف المصحف الإمام ثم عنه بقية المصاحف المرسلة إلى الأقطار، وأن ما عدا ذلك قد حرق، وكان هذا كله بمشهد من الصحابة دون خلاف أو اختلاف. وما فعله عثمان قد عد من مناقبه رضي الله عنه^(٣). ونسخ هذه المصاحف قد امتاز بكتابة خاصة في رسم الكلم والحروف، هذا الرسم الذي عرف منذ ذلك الحين بالرسم العثماني، وهذه الإضافة لما لعثمان رضي الله عنه من المكانة الهامة حول هذا الحدث القيم، وإلا فالرسم، رسم القرآن، حروف وكلام.

وإن قال قائل: إذا، ما الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما؟

أجيب: إن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه أبو بكر في صحائف مرتبة الآيات في سورة على ما وقفهم عليه النبي ﷺ. أما جمع عثمان فكان لما كثر الخلاف والاختلاف في وجوه القراءات حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات فآدى ذلك ببعضهم إلى تخطئة بعض وتكفيره، فخشي من تقادم الأمر في ذلك، فنسخ تلك المصحف في مصحف واحد مرتباً سورة، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته

(١) دليل الحيران على موارد النظم، ص ١٥.

(٢) قاله الباقلاني، أنظر الإتيان ١/٦٠.

(٣) البرهان ١/٢٤٠.

بلغة غيرهم وفقاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، أي أن الحاجة لذلك قد انتهت
فاقتصرت على لغة واحدة^(١).

التعريف بالرسم العثماني:

الرسم في اللغة: الأثر والمراد به هنا مرسوم القرآن، نعني به حروفه
المرسومة المعتمدة مرجعاً عند اختلاف المقاري^(٢).

والرسم قسمان: قياسي وتوقيفي، ويسمى القسم الثاني بالإصطلاحي، نسبة
لإصطلاح الصحابة رضي الله عنهم. فالرسم القياسي هو تصوير الكلمة بحروف
هجائها على تقدير الإبتداء بها والوقف عليها. ولهذا أثبتوا صورة همزة الوصل
وحذفوا صورة الثوبين، وفيه تأليف مخصوصة^(٣). والرسم التوقيفي علم تعرف به
مخالفات خط المصاحف العثمانية لأصول الرسم القياسي^(٤)، والمراد بأصول
الرسم القياسي قواعده المقررة فيه.

فالمراد بالرسم العثماني: هو ما ارتضاه عثمان رضي الله عنه في كتابة
القرآن الكريم كلمات وحروف^(٥)، والحديث عن الرسم، حديث عن الخط
وكيفية كتابته ومبنى هذه الكتابة، وكيفية تصويرها وهل معرفة اللغة والخط
وضعية بأصولها وقواعدها أم أنها توقيفية؟ وهذا التساؤل يلزمنا بالحديث، ولو
على سبيل الإيجاز، عن مورد هذه المعرفة.

أولاً - معرفة اللغة:

ذهب عباد بن سليمان الصيمري المعتزلي إلى أن اللفظ يفيد المعنى من
غير وضع، بل بذاته لما بينهما من المناسبة الطبيعية. ويعني بهذا الكلام أن اللفظ

(١) قاله ابن النين، أنظر الإنفان ١/٦٠.

(٢) دليل الحيران على موارد الظمان، ص ١٥.

(٣) دليل الحيران على موارد الظمان، أنظر ص ٢٠.

(٤) دليل الحيران على موارد الظمان، ٣١.

(٥) دليل الحيران على موارد الظمان، ١٠.

لا ينسب إلى واضع، وهذا الكلام باطل، لتعدد الاختلاف في الألفاظ. وذهب الأئمة والعلماء، أنه لا بد للفظ من واضع، ثم أن هؤلاء اختلفوا في الواضع، فقال البعض بالتوقف لاحتمال أن تكون كلها توقيفية أو اصطلاحية، أو أن يكون البعض توقيفياً والبعض الآخر اصطلاحياً. وجميع ذلك ممكن والأدلة متعارضة توجب التوقف.

وفي مذهب لدى البعض أنها توقيفية، بمعنى أن الله تعالى وضعها ووقفنا عليها أي علمنا إياها، وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ومن تبعه.

وفي مذهب ثالث، أن اللغات كلها اصطلاحية من وضع البشر. وذهب الإمام أبو إسحاق الأسفراييني الشافعي إلى تقسيمها بين التوقيفي والإصطلاحية، فقال: ما أشير إليه على سبيل التيه توقيفي، وما تبقى اصطلاحية.

وقال الأملدي: إن كان المطلوب هو اليقين، فهو مذهب التوقف.

وإن كان المطلوب هو الظن، وهو الحق، فالحق ما قاله الأشعري، أي التوقيف، لظهور أدلته الواضحة في قصة خلق آدم عليه السلام وموقف الملائكة من استخلافه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَّبَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

فوضع المسميات لبس من آدم ولا من الملائكة عليهم السلام، وإنما هو من الله سبحانه، وهذه الأسماء هي الألفاظ الموضوعية بإزاء المعاني، وهي تشمل الأفعال والحروف والأسماء المصطلح عليها لأن الإسم سمة وعلامة على مسماه، وكذا الحروف والأفعال.

ثانياً - في الكتابة ومعرفة الخط:

إعلم أن للشيء مراتب أربعة، اثنتان انفتحت عليها الأمم، والأخرى

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠ - ٣٢.

اختلفت فيها.

الأولى: وجود الشيء في الخارج

الثانية: تصورهما في الذهن.

وهاتان اتفقت عليهما الأمم.

الثالثة: التعبير عن التصور باللفظ، وقد اختلفت في ذلك الألسن.

الرابعة: التعبير عن اللسان بالكتابة، وفي هذا اختلاف اللغات^(١).

وأخرج السبوطي من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: أول من وضع

الكتاب العربي إسماعيل، وضع الكتاب على لفظه ومنطقه ثم جعله كتاباً واحداً^(٢).

وذكر عن ابن فارس: الذي نقوله، أن الخط توقيفي لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ

بِالْقَلَمِ ۚ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٣). وقال ﴿تَنْزِيلًا مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَنْظُرُونَ﴾^(٤).

وأن هذه الحروف داخله في الأسماء التي علم الله آدم^(٥). وقد رفض علماء هذا

الفن أن يكون الخط اصطلاحياً، بمعنى أنه قد اخترعه مخترع ما دام لم يوجد

هناك خبر قد ثبت صحته، ولا تقبل القول بالاصطلاح إلا بخبر قد ثبت صحته

ولم يوجد^(٦).

ولقد عرف العرب الخط ورسمه، قبل الإسلام، وإن كانت هذه المعرفة

محصورة في نطاق ضيق منهم، ولا صحة لما زعمه البعض من أن العرب لم

تعرف الخط قبل الإسلام وفضلاً عن كون معرفة الخط ورسمه أمراً توقيفياً،

عرفته العرب كبقية الشعوب والأمم. فإن من الأدلة على أن معرفة العربية قبل

الإسلام، كتابة المصحف على ما علله أئمة النحو في ذوات الواو والياء والهمز

(١) البرهان، ج ١/٣٧٧. ينصرف.

(٢) الإنشاق، ج ٢/١٦٦. قاله ابن أخته.

(٣) سورة العلق، الآية: ٤ - ٥.

(٤) سورة القلم، الآية: ١ - ٢.

(٥) نفس المرجع. وانظر: البرهان، ج ١/٣٧٧.

(٦) البرهان. هامش المحقق، ج ١/٣٧٧.

والمد والقصر، وأنهم لم يصوروا الهمزة، بل كتبوها، كما في العيب والخب، ولو كانوا جاهلين بذلك لصوروها تصويراً، حتى أن كتابتهم هذه أصبحت حجة على غيرها. وما زعم، أن أبا الأسود الدؤلي أول من وضع العربية، وأن الخليل بن أحمد أول من وضع العروض قبلها أمر لا ينكر، وأن هذا الأمر كان تجديداً لا ابتداء، إذ هما قديمان. أي قبل هذين الإمامين اللذين نالا رتبة التجديد لعلمين ماضين^(١).

وتكاد كلمة المؤرخين تنفق على أن قريشاً في مكة لم تأخذ الخط إلا عن طريق حرب بن أمية بن عبد شمس، لكنهم اختلفوا فيمن أخذ عنه حرب، وفي ذلك روايتان:

أولاهما: رواية عمرو بن الدالي تذكر أن عبد الله بن جدعان أخذ عن أهل الأنبار عن طاريء من كنده من اليمن عن الخلجان بن الموهوم كاتب هود عليه السلام.

والثانية: هي رواية الكلبي، وتذكر أن أول من كتب بالخط العربي مرمر بن مرة وأسلم بن أسدرة، وعامر بن جوره، وهم عرب طيء تعلموه من كاتب الرحي لسيدنا هود عليه السلام ثم علموه أهل الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة، فتعلمها بشر بن مالك، فأخذها عنه حرب بن أمية^(٢). ومن ثم، فقد أخذت الكتابة طريقها في قريش، ببطء ونزول يسير وكانت الكتابة في يثرب - المدينة المنورة - ذات حظ خصب، وذلك يعود لمخالفة

(١) البرهان، ج ١/٣٧٨. بتصرف. وانظر مجلة الأزهر، ج ٧، سنة ١٣٨٨.

المصحف العثماني في ضوء الدراسة والبحث - د. عبد العال سالم مكرم).
(٢) انظر: المناهل، ج ١/٣٥٥، بتصرف. والخط نوعان: خط نسخي، وهو الخط الذي رسم به القرآن على عهد عثمان ويوم الجمع في عهد أبي بكر. وهو على ما قيل بأبه الأصل من الخط الأرامي بعد أن طوره الأنباط، وسمي بالخط النبطي. والذي عرف فيما بعد بالخط النسخي. والخط الكوفي هو المأخوذ من الخط الحميري عن طريق الحيرة ثم الأنبار - وعن أهل الحيرة انتقل إلى الطائف وقريش، ثم بعد ذلك انتقل إلى الكوفة، بعد إنشائها، وتطور فيها حتى استعمل في زمن الخليفة عمر رضي الله عنه بشكله الرسمي وسمي (الكوفي). انظر: الخط العربي الإسلامي، ٢٢.

أهلها لمن يعرف الكتابة^(١). ولما أشرف فجر الإسلام بتورده، وأطبق هذا النور على نمارق الجهل، بما للعلم من أهمية في بنية الدعوة وأداء العبادة على معرفة وبيّنة.

ومن أوائل آيات النزول، تلك التي لفتت الأنظار وبهرت العقول، قال سبحانه: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ ۝﴾^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿تَنْزِيلَ الْقُرْآنِ وَمَا يَنْظُرُونَ ۝﴾^(٣). فقد قرع جرس المعرفة والعلم بلسان القلم. وكان التطبيق النبوي في ميادين المعرفة والعلم واضحاً، وذلك عندما قرر رسول الله ﷺ افتدائه أسرى قريش في بدر، مقابل كل واحد منهم تعليم عشرة من المسلمين.

وبالإمكان القول: إن نهضة محور الأمية ونشر قراءة الحظ والكتابة، قد واكبت بعثة الإيمان في القلوب، إلى أن أصبح لدى المسلمين، والوحي ما زال ينزل، الكثير من أصحاب القلم والقراءة، كما لاحظنا ذلك بكثرة كتاب الوحي.

وصدق في ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمِنَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾^(٤).

مصحف الإمام وبيان مرسومه:

عندما كلف عثمان رضي الله عنه اللجنة بكتابة القرآن الكريم، بنسخه في مصحف واحد من الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر ووضعت عند حفصة

(١) ولربما كانت مكة ذات حظ أو لم في الكتابة، لما لها من مكانة بين العرب ولكونها حلقة اتصال بين أجزاء الجزيرة. مجلة الأزهر، ج ٧/١٣٨٨. عبد العال سالم مكرم.

(٢) سورة العلق، الآية: ١ - ٥.

(٣) سورة القلم، الآية: ١.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٢.

رضي الله عنها، أمر هذه اللجنة قائلًا لها: انسخوا هذه الصحف في مصحف واحد. وقال للمقرئين إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكثروا على لسان قريش فإنما نزل - يعني معظمه - بلسان قريش.

قال زيد: فجعلنا تختلف في الشيء ثم نجعل أمرنا على رأي واحد. فاختلفوا في التابوت^(١) فقال زيد: التابوت. وقال البقر القرشيون: التابوت، قال: فأبى أن أرجع إليهم وأبوا أن يرجعوا إلي حتى رفعتنا ذلك إلى عثمان رضي الله عنه، فقال عثمان: اكثروا التابوت^(٢) فإنما أنزل القرآن على لسان قريش^(٣).

قال أبو عمرو الداني^(٤): أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ وبعث إلى كل ناحية من النواحي بواحدة منهم فوجه إلى الكوفة إحداها وإلى البصرة أخرى وإلى الشام الثالثة وأمسك عند نفسه واحدة، وقد قيل إنه جعله سبع نسخ، ووجه من ذلك أيضاً إلى مكة ونسخة إلى اليمن ونسخة إلى البحرين، والأول أصح وعليه الأئمة^(٥).

فإن قيل، فلم خص زيد بأمر المصاحف، وقد كان في الصحابة من هو أكبر منه كإبن مسعود وأبي موسى الأشعري وغيرهما من متقدمي الصحابة، قلت إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ومناقب اجتمعت له لم تجتمع لغيره منها: أنه كتب التوكل للشيء^(٦)، وأنه جمع القرآن كله^(٧) على عهد رسول الله ﷺ، وأن قراءته كانت على آخر عرشه عرشها النبي ﷺ، على جبريل عليهما السلام، وهذه الأشياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به لامتناع اجتماعها في غيره، وإن

(١) التابوت: لفظ على وزن فعلوت من التوب، وهو الرجوع، والمراد هنا الصدوق الذي كان يوضع فيه التوراة. (الشوكاني: فتح القدير، ج ١/٢٦٥).

(٢) دليل الحيوان على موارد الطعام، ١٥. وانظر: المقنع للداني، ٥. الإقنان، ج ١/٥٩.

(٣) هو الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني المديني، والمعروف في زمانه بابن الصيرفي، ولد بقرطبة ثم انتقل منها إلى دانية فنسب إليها، ولد سنة ثلاثمائة وإحدى وسبعين وثموفي بدانية سنة أربعمائة وأربع وأربعين (من دليل الحيوان، ٢٢. بتصرف واختصار).

(٤) المقنع، ١٠.

كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته فلذلك قدمه أبو بكر رضي الله عنه لكتاب المصاحف، وخصه به دون غيره من سائر المهاجرين والأنصار ثم ملك عثمان رضي الله عنه طريق أبي بكر في ذلك^(١).

فالمصحف الإمام الذي التسخت منه مصاحف الأمصار، قد اشتمل على طريقة فريدة في كتابة الحروف والرسم. ولم تأت كتابة رسمه على طريقة ومباني قواعد وأصول النحاة في كتابة الهجاء ورسمها.

وقد ذكر، سابقاً، أن الرسم إما أن يكون قياسياً أو اصطلاحياً. وأن الرسم القياسي هو تصوير الكلمة بحروف هجائها على تقدير الابتداء والوقف عليها^(٢). وللرسم القياسي قواعد وأصول تتبع إلزاماً عند أئمة النحو واللغة. أما الرسم الاصطلاحي فهو علم تعرف به مخالقات خط المصحف العثماني لأصول الرسم القياسي ويعني بالرسم الاصطلاحي، الرسم التوقيفي، وموضوعه حروف المصاحف العثمانية من حيث الزيادة والحذف والإبدال والفصل والوصل ونحو ذلك.

هذا. وقد أجمع أهل الأداء وأئمة القراءة على لزوم تعلم مرسوم المصاحف فيما تدعو إليه الحاجة، واعلم أن أكثر رسم المصاحف موافق لقواعد الرسم القياسي، وقد خرجت عنها أشياء، منها ما عرف حكمه، ومنها ما غاب عنا علمه. ولم يكن ذلك من الصحابة كيف ما اتفق بل لأمر عندهم وقد تحقق^(٣).

وقال السيوطي في القاعدة العربية: إن اللفظ يكتب بحروف هجائية، مع مراعاة الابتداء به والوقوف عليه، وقد مهد النحاة أصولاً وقواعد، وقد خالفها في بعض الحروف خط المصحف الإمام^(٤).

(١) المقنع، ١٣٠.

(٢) دليل الحيران، ١٥.

(٣) نفس المرجع السابق، ٣٦.

(٤) الإقتان، ج ٢/ ١٦٦.

والأصل في الكتابة السير على منهجية وقواعد الأصل المتعارف عليه لدى النحاة، أئمة العربية، إلا أن القرآن في رسمه لم يتفق وهذه القواعد في بعض الحروف والأعلام. قال الزركشي: «ولم يكن ذلك منهم كيف اتفق، بل على أمر عندهم قد تحقق، وجب الاعتناء به والوقوف على سببه»^(١).

واعلم أن الخط في العربية له ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: وهو خط مرسوم المصحف، ويلزم فيه الاقتداء بالسلفي.
الوجه الثاني: وهو خط العروض، ويلزم فيه الأخذ بما أثبتته اللفظ وإسقاط ما حذفه.

الوجه الثالث: وهو خط النحاة بقواعده وأصوله، ويلزم فيه على ما جرت العادة المعروفة لدى قواعدهم وأصولهم^(٢).

والأصل في الكتابة، أن يكون المرسوم موافقاً للمنطق، دون زيادة أو نقص، مثل رسم «أطيعوني» بإثبات ضمير المتكلم، أو رسم «يا أيها» بإثبات ألف النداء، أو رسم «أطعت الرسول» دون زيادة على آخر المرسوم... وهكذا.

وقد ورد الرسم العثماني، بالخروج عن هذه القواعد، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَسْبُكُمْ بِآيَاتِهِ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾^(٣) بحذف ضمير المتكلم من آخر ﴿وَأَطِيعُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾. وقد حذفت ألف النداء من كل المرسوم بهذا اللفظ «يا أيها»^(٤).

وإثبات الزيادة كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾^(٥)، فالقاعدة عند النحاة أن ترسم «الرسول».

(١) البرهان، ج ١/ ٣٧٦. وانظر: إتخاف فضلاء البشر، ١٠.

(٢) انظر البرهان، ج ١/ ٣٧٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

(٤) انظر كل خطب قرآني مبتدأ بـ (يا أيها)، الجمعة. الحجرات. الصف.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٦٦.

حكم مجاوزة الرسم العثماني :

إمتاز مرسوم المصحف الإمام بكتابة فريدة، عنها ما وافق الرسم القياسي، أي على أصول وقواعد النحاة، ومنها ما خالف هذه الأصول. وهذا الرسم، إن لم يكن توقيفياً من الرسول ﷺ، فهو اصطلاحى من ذوي الشأن من الصحابة، فهل تصح المجاوزة لهذا الرسم عند كتابة المصحف مع ما يوجد من تفتن في قواعد الهجاء؟

للأئمة في الجواب آراء، هي :

أولاً: ذهب جمهور العلماء إلى عدم صحة مخالفة الرسم العثماني، لأنه

إن كان من اصطلاح الصحابة، فالواجب الاقتداء بهم، وأن الصحابة قد أجمعوا على مرسومه بالشكل المعهود، ومن خالف الرسم في الكتابة؛ فقد خالف إجماع النبي عشر الفأ^(١) من صحابة رسول الله ﷺ.

فيجب على كل من يقدم على كتابة مصحف أن يكتبه على مقتضى الرسم العثماني، وإن خالف في ذلك فقد طعن في صحابة الرسول، وهذا حدث شنيع، لا يتعرض له أهل الهممة. وكما عرفت ذلك، أن كتابتهم له بهذا الرسم، لم يكن كيف اتفق، بل على أمر عندهم قد يحقق. وإن من طعن في شيء مما رسمه الصحابة في المصاحف فقد طعن في مجمع عليه ولأن الطعن في الكتابة كالتطعن في التلاوة^(٢). وأن الأئمة الأربعة قد أجمعت على وجوب اتباع المرسوم^(٣).

وسئل مالك رحمه الله: هل يكتب المصحف على ما أخذته الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتابة الأولى^(٤).

وقال أشهب^(٥) سئل مالك، فقبل له رأيت من استكتب مصحفاً اليوم،

(١) انظر ذلك في: دليل الحيران، ٣٢.

(٢) نفس المرجع.

(٣) ذكره الجعبري، نفس المرجع، ٣٣.

(٤) المقنع، ١٠. وانظر: البرهان، ج ١/٣٧٩.

(٥) هو أبو عمرو أشهب بن عبدالعزيز بن داود بن إبراهيم الفيسي ثم الجعدي الفقيه المالكي المصري، ولد سنة أربعين ومائة، وتوفي سنة أربع ومائتين، بعد الشافعي بشهر. (وفيات الأعيان لابن خلكان)، ج ١/٢٣٨.

أثرى أن يكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم؟ قال: لا أرى ذلك،
ولكن يكتب على الكنية الأولى. قال أبو عمرو ولا مخالف له في ذلك من علماء
الامة^(١).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في ياء أو
واو أو ألف أو غير ذلك.

وقال البيهقي في شعب الإيمان: من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على
حروف الهجاء التي كتبوا بها تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيها، ولا يغير مما
كتبوه شيئاً فإنهم أكثر ورعاً، وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة منّا، فلا ينبغي أن
نظن بأنفسنا إستدراكاً عليهم^(٢).

ولذلك فقد حافظ القراء على مرسوم المصحف، ولم يلتفتوا إلى مذهب
العربية في القراءة إذا خالف ذلك خط المصحف، وكان اتباع حروف المصاحف
عندهم كالسنن القائمة. حتى أنه وإن تواتر وجه من القراءة ظاهر الوجه في
العربية إلا أنه مخالف لرسم المصحف ردت، ولذا كان من أحد أركان قبول
القراءة أن تكون موافقة لخط المصحف ولو على سبيل التقدير^(٣).

وإن كان رسمه توقيفياً، أي عن طريق النبي ﷺ، فإن الحكم في مخالفته
أشد، وهو تدخل فيما لا علم للمخالف به.

قال شارح مورد الظمان: وهذا إذا قلنا إن مرسوم المصاحف اصطلاح من
الصحابة. وأما إذا قلنا إنه من إملاء النبي ﷺ على سيدنا زيد بن ثابت من تلقين
جبريل عليه السلام كما نقله بعض العلماء، فالطاعن فيه طاعن فيما هو صادر من
النبي ﷺ ويشهد لكونه من إملائه ﷺ ما ذكره صاحب الأبريز عن شيخه العارف

(١) انظر: المقنع، ١٠ - دليل الحيران على مورد الظمان، ٣٣.

(٢) البرهان، ج ١/٣٧٩.

(٣) انظر في ذلك: المقنع لأبي عمرو الداني، ١٠ - ١١ - الإفتان للسيوطي، ج ٢/١٦٧.
البرهان للزركشي، ج ١/٣٧٩. المتاهل للزرقاني، ج ١/٣٧٢. الآداب الشرعية
والمسح العربية لابن مفلح المقدسي الحنبلي، ج ٢/٢٩٥. دليل الحيران على مورد
الظمان، ٣٢ - ٣٢.

بإله سيدي عبد العزيز الدبّاع أنه قال: رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة وكمال الرفعة وهو صادر من النبي ﷺ، وليس للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي ﷺ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها ونحو ذلك من الأسرار لا تهتدي إليها العمول إلا بالفتح الرباني وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية. فكما أن نظم القرآن معجز فرسمه معجز أيضاً^(١).

وقد احتج أصحاب هذا القول - التوقيف - بإدلة، منها:

١ - بما ورد، أن النبي ﷺ أشار على معاوية أحد كتبة الوحي بكيفية الرسم وألقى الدواة وحرف القلم وأنصب البناء وفرق السبين ولا تصور العيم وحسن الله ومد الرحمن وجرى الرحيم وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكرك^(٢).

٢ - أخذ التابعون عن الصحابة هذا الرسم، ونسخ عثمان من صحف أبي بكر وذلك كله بحضور الصحابة رضي الله عنهم، وعن التابعين أخذ تابعو التابعين، وهكذا من عهد إلى عهد دون تغيير لأي حرف من مرسومه.

٣ - ويلزم الإتياع بالتوقيف بمقتضى ما ورد من النصوص الأمرة باتباع الخلفاء الراشدين والسلف الصالح. قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٣). وقال ﷺ: عليكم بستي وستة الخلفاء الراشدين من بعدي، غضبوا عليها بالنواجذ.

ثانياً: ذهب البعض إلى أن الرسم اصطلاحى، بمعنى أنه لا تحرم مخالفته، وبهذا المذهب قال ابن خلدون، وقد اعتبر اقتفاء التابعين لرسوم السلف في المصحف اقتفاء تبرك، لكونهم أصحاب الرسول ﷺ، وهم خير الخلق من بعده، المثقفون لوحيه من كتاب الله تعالى.

(١) دليل الحيران، ٣٤.

(٢) انظر: مشاهير العرفان، ج ١/ ٣٧٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦١٥.

وهذا الاقتضاء كإقتضاء عالم بخطه تبركاً، لا تحكماً. ثم يقول: إن ما ذهب إليه القائلون بالتوقيف على رسم الصحابة تنزيهاً لهم عن النقص، ومعية الكمال في خطهم فإن شأن الخط وعدم التحكم بأصوله ليس نقصاً، وهذا ما دفعهم إلى البحث عن علة لتبرير صحة خطهم^(١).

ويقول: إن الخطوط علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز للدلالة على الكلمات الدالة على الألفاظ والدالة على التصور الذهني. وتقع الكتابة في المرتبة الثانية من الدلالة اللغوية، إذ الأولى الكلمات والألفاظ والكتابة رسوم وأشكال حرفية تدل على هذه الكلمات^(٢).

ومن انتصر لهذا الرأي القاضي الباقلاني، قائلاً إنه لم يفرض على الأمة رسم كتابة معينة، ومعتزلاً على الأدلة الواردة التي اعتمدها القائلون بالتوقيف بأنها أدلة لا تقوى على ما ذهبوا إليه، لا في كتاب ولا في سنة ولا في إجماع ولا قياسات شرعية، بل السنة واردة على الصورة السهلة، كيف كانت الخطوط^(٣).

وقد ردّ على هذا الرأي، بأن الإجماع قد انعقد على هذا المرسوم من قبل الصحابة على ما اتفقت عليه اللجنة المكلفة، وكما ورد سابقاً في قول الإمام مالك، وأنه لا مخالف له من الأمة^(٤).

والقول بالمخالفة استدراك على ما إنفق عليه من قبل الصحابة، وهو خطأ، لأنهم الأعلم والأدق والأورع، ولذا فإن أحداً من التابعين وتابعي التابعين لم يخالف هذا الرسم المعهود.

ثالثاً - جواز المخالفة دون إطلاق:

ذهب إلى هذا الرأي العزيز عبد السلام، وعال إليه صاحب البيهان كما

(١) انظر: المقدمة، ٤١٩.

(٢) نفس المرجع، ٤١٧. وانظر: د. أحمد خليل: دراسات في القرآن/١٧.

(٣) انظر: مناهل العرفان، ج ١/٣٧٣.

(٤) انظر: دليل الحيران على موارد الظمان/٣٣، والمقنع/١٠.

يبدو ذلك بقوله حول إصرار القائلين بالالتزام الرسم المعهود. قلت: وكان هذا في الصدر الأول، والعلم حين غض، وأما الآن فقد يخشى الالتباس، ولهذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة لئلا يوقع في تغيير من الجهال، ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه لئلا يؤدي إلى دروس العلم، وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة.

وقد مال صاحب المناهل إلى هذا الرأي، لما فيه من رعاية الاحتياط للقرآن من ناحية كتابته في كل عصر بالرسم المعروف فيه، إبعاداً للناس عن اللبس والخلط في القرآن، وناحية إبقاء الرسم الأول المأثور يلتزم به العارفون ومن لا يخشى قلبهم الالتباس، والاحتياط مطلب ديني لحماية التنزيل^(١).

الرأي الراجح:

هذه الآراء الثلاثة، التي ذكرت بمختصر الكلام، حول الالتزام بالرسم العثماني، وهل الالتزام واجب يتبع؟ أم أن الالتزام ينبغي أن يكون مواكباً لسهولة القواعد الإملائية مراعيًا فيها ما يطرأ على اللغة زماناً ومكاناً؟.

ولا شك، فإننا لو جمعنا وجهة نظر من يقول بالتوقيف مع وجهة القائلين بتحقيق الصحابة واتفاقهم، لوجدنا أن من خرج، وقال بالخروج عن الالتزام لوجدنا وجهتهم، وجهة فذة، لم يعول عليها علماء الأمة. مع أن قول الجمع الغفير فضلاً عما قيل فيه من الإجماع، واتفاق المذاهب الأربعة على كتابة هذا الرسم المعهود بتحقيق متفق عليه من قبل الصحابة، دون تكبير، هو الأقرب والأرجح، والذي له القسم الأكبر عند علماء الأمة. وإن من قال بجواز

(١) مجلة الأزهر، ج ٧/ ١٣٨٨. عبد العال سالم نكريم، وانظر: صحي الصالح - مباحث في علوم القرآن/ ٢٧٥، مؤيداً العز بن عبد السلام، بكتابه تبعاً للقواعد الهجائية فسد التعليم والبيان مع الإبقاء على الرسم المعهود لدى العارفين بكتاب الله تعالى. وانظر: مناع قطان: مباحث في علوم القرآن، ١٤٧.

الخروج، محتجاً بمقتضى صعوبة الرسم في التعليم، وأن هذه مشكلة تتطلب السير على الرسم تبعاً للقواعد الهجائية الحديثة. وإن سلمنا بعلو وبعد توقيفية الرسم، فإننا لا نقول بمجاورة الرسم تبعاً لإملائية الزمن ومهولة الرسم، وما يبدو فيه من صعوبة، فإنه فضلاً عن ظهور الضعف في العلم والمعرفة، قد أزال أشكاله الأثمة والأعلام، ببيان الموافق لقواعد الرسم والمخالف لذلك، مع ما يشار إليه حاضراً في آخر الصفحات من نبيان للرموز والأشكال والوقف وطرق القراءة من وقف ووصل، وغير ذلك مما لا يبقى معه أشكال، ولا نجعل المصائب بعقم العلم والمعرفة منطلقاً في رسم حروف القرآن وخاصة عندما تصاب اللغة بانحدار الألسن، ودعوات الخروج عن العربية بقواعدها وأصولها. والذي ينبغي أن يكون راسخاً في العقول، أن القرآن هو الحكم على اللغة، والمصحح لمفاهيمها، ولا أظن أن أحداً ينكر ما للعربية من حفظ في طبقات النظم القرآني.

فلو كان إنحطاط اللسان، وانحداره من درجة إلى درجة، هو العيران الذي يجب أن توضع إملائية العربية ورسوم حروفه بإزائه، أو أن يكون هو المقيم لمفاهيم الكتابة بتدرج الكتابة وراء قدرة التعبير، لأدى ذلك كله إلى الخروج عن نمط الرسم العربي في الخط والكتابة، فضلاً عن انحدار الألسن عن استقامة اللغة، واستقلالية كل لهجة عن منطلق اللغة، والتي مألها لغة مستقلة منحطة عن مفاهيم القواعد، لو أزرها دعاة لها. وفعلاً قد وقع مثل هذا المحذور المحظور في وقتنا المعاصر، وأن بعض دعاة الكفر والإلحاد من ضاق صدره بتراكم الأحقاد وتزايد البغضاء، رفع راية الكتابة بالعامية، تبعاً لانحراف اللسان عن صحيح العربية وأصولها، وأصدروا بذلك صحيفة تحت اسم (لبنان).



الفصل الثالث

قواعد الرسم العثماني وخصائصه

تقضي القاعدة العربية أن اللفظ يكتب بحروف هجائية مع مراعاة الإبتداء به والوقف عليه^(١). ولقد تتبع الأئمة والأعلام مرسوم القرآن وما بينه ومرسوم قواعد النحاة، من فروق وتبيان، فأبانوا ما للقرآن في مرسومه من قواعد وأسس، ومدى تطبيقات المرسوم لهذه القواعد، فذكروا أن أمر الرسم ينحصر في ست قواعد، هي:

القاعدة الأولى: الحذف.

القاعدة الثانية: الزيادة.

القاعدة الثالثة: الهمز.

القاعدة الرابعة: البديل.

القاعدة الخامسة: الوصل.

القاعدة السادسة: الفصل.

وما فيه قراءتان فكتب على إحداهما^(٢).

(١) السيوطي: الإتقان، ج ٢/١٦٦.

(٢) نفس المرجع، ج ٢/١٦٧. البرهان، ج ١/٣٩٠. المقنع/١٢ وما بعدها. دليل الخيران على موارد الظمان/٣٢. وقد اهتم علماء هذا الفن بالتصنيف، منهم أبو عمرو الداني صاحب المقنع، وأبو العباس المراكشي صاحب (عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل). كما ذكر ذلك السيوطي: الإتقان، ج ٢/١٦٦.

القاعدة الأولى :

الحذف :

١ - تحذف الألف من ياء النداء، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّعِبُوا رَبِّكُمْ أَلَيْسَ خَلْقُكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْقُونَ ﴾ (١)، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ يَا مَنْ جَاءَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)، وكما في قوله تعالى: ﴿ يَتَعَبَا وَلَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٣).

٢ - تحذف الألف من هاء التثنية، كما في قوله تعالى: ﴿ هَاتَيْنِ هَاتُورَا تَدْعُونَ لِشَيْفِئُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَوْمَهُمْ مَنْ يَبْخُلْ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخْضَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (٤).

٣ - تحذف الألف من ضمير المتكلم الجمع إذا وليها ضمير، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْرًا لَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَّارُونَ ﴾ (٥).

٤ - تحذف الألف من كل علم زائد على ثلاثة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعِهدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكْبِتِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (٦) ﴿ وَقَالُوا يَتَصَلِّحُ آثِنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧).

ويخرج عن هذه القاعدة: جالوت وطلوت وياحوج وماجوج وشبهها.

٥ - ورد في المقنع: قال أبو عمرو: وافق كتاب المصاحف على حذف الألف من الأسماء الأعجمية المستعملة نحو «إبراهيم»، و«اسماعيل» و«اسحق» و«هرون» و«عمرن» و«لقمن» وشبهها، وكذا حذفوها من «سليمن» و«صلح»

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٨.

(٤) سورة محمد، الآية: ٣٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٠.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

و «ملك» و «خلد»، وليست بأعجمية لكثرة استعمالها، فأما ما لم يستعمل من الأعجمية فإنهم أثبتوا الألف فيه نحو: «طالوت» و «جالوت» و «ياجوج» و «ماجوج» وشبهها. ورأيت المصاحف تختلف في أربعة منها وهي «ماروت وماروت وهامان وقارون» ففي بعضها بالألف وفي بعضها بغير الألف والأكثر على إثبات الألف... فأما داود فلم يختلفوا في رسمه بالألف في كل المصاحف لأنهم قد حذفوا من هذا الاسم واوآء فلم يحذفوا لذلك الألف منه، وكذلك «إسرائيل» رسم بالألف أيضاً في أكثر المصاحف، لأنه قد حذفت منه الياء التي هي صورة الهمزة^(١).

٦ - تحذف الألف من كل مثنى، إسماء كان أم فعلاً، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمْرَانِ كَانِ بَيْنَ رَجْمَتَيْنِ مِنَ الشَّهَادَةِ ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَجْلِ حَقِّ بَقُولِهِمَا إِنَّمَا تَخَفُ فِتْنَةً فَلَا تَكْفُرْ ﴾^(٣). شرط الارتفاع طرف الرسم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ ﴾^(٤).

٧ - تحذف الألف من الجمع السالم الكثير، والمؤنث السالم، وذلك

(١) المفتح/٢٣ - وانظر: البرهان ج١/٣٩٢، الإيضاح، ج٢/١٦٧. وانظر قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ (البقرة: ٢٤٧). وقوله تعالى: ﴿ فَهَرَمُومُهُمْ يُدْرِبُ أَبُو وَقْتَلٍ دَاوُدُ جَالُوتَ وَمَا تَكُنُ اللَّهُ الشُّكُوكَ وَالْمُحْكَمَةَ وَعَلِمَهُمْ بِمَا يَكْفُرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥١) وقوله تعالى في سورة الكهف (٩٤): ﴿ قَالُوا يَا نَذِيرِ الْفَرِيقَيْنِ إِنَّا أَخْرَجْنَاكَ مِنْ مَدْيَنَ بِبَيِّنَاتٍ مِنَ رَبِّكَ فَانصَبْ عَلَى السَّيْرِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ الْعَقِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٣) ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمَنْ كَرِهَ اللَّهُ حَبْشَةً وَعَلِيمًا لِنَفْسِهِ ﴾ (١١٤) ﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ (١١٤): ﴿ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ إِذْ قَالَ لَنُوحٍ إِنَّكَ نَافِلٌ عَلَيْنَا لَأُنزِلَنَّكَ فِي بَيْتِنَا وَنَجِّئَنَّكَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (١١٣) ﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٣٣): ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ بِعَدَمِ نُوحٍ وَآلِهِ مَا يَدْرَأُونَ وَمَا لَكُمْ إِذْ أَخْرَجْتُمُوهُمْ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَجْرُ اللَّهِ يَدْرَأُهُمْ لِيُجِيبُوا دَعْوَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ يُجِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١١٣) ﴿ وَإِذْ قَالَ نُوحٌ لِنَجْدِي يَا نَجْدِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ أَنتَ الشِّرْكَاءُ لَعَنِيَّةٌ ﴿١١٤﴾.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
 (٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
 (٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

كثير، كما في قوله تعالى: ﴿الصَّكِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيبِينَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالذَّاكِرِينَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْرِبَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢)

وقد استثنى من ذلك الأسماء الوارد بعد ألفها همزة (السائلين) أو حرف مضغف (الضالين).

والجمع الوارد فيه ألفان، الحذف في أكثر المصاحف سواء كان بعد الألف همزة كما في «الصَّكِرَاتِ» أو حرف مضغف كما في «الصَّكِرَاتِ». واستثنيت كلمات مرسومة بالألف إثباتاً، هي: طاهون في قوله تعالى: ﴿أَتَوَسَّوْا بِيَدِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾^(٣) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا كَفَرُوا﴾^(٤) و«روضات» في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ هُمْ فِيهَا مَبْتَاعُونَ وَسَاءَ رِزْقِهِمْ﴾^(٥)، وساهون، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍاهُمْ سَاهُونَ﴾^(٦)

٨ - تحذف من الجمع الواقع على وزن «مفاعِل» أو شبهه^(٧) نحو: مساجد، يتامى، نصارى، مساكين، خبائث، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَتَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَمِعَ فِي حُرَابِهَا﴾^(٨) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ﴾^(٩) وقوله تعالى: ﴿وَنَجْمَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾

- (١) سورة آل عمران، الآية: ١٧
- (٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥
- (٣) سورة الداريات، الآية: ٥٣
- (٤) سورة الطور، الآية: ٣٢
- (٥) سورة الشورى، الآية: ٢٢
- (٦) سورة الداريات، الآية: ١١. وانظر: المقنع، ٢٤ - ٢٥. والبرهان، ج ١/٣٩٢
- (٧) الإقنان، ج ٢/١٦٧
- (٨) انظر: المقنع، ١٩. البرهان، ج ١/٣٩٣. الإقنان، ج ١/١٦٧
- (٩) سورة البقرة، الآية: ١١٤
- (٩) سورة البقرة، الآية: ١٧٧

وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا ﴿١١﴾ وقوله تعالى: ﴿كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ﴿١٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبُ وَيَحْرَمُ عَلَيْهِ الخَبِيثُ﴾ ﴿١٣﴾.

٩ - تحذف الألف من «الكتاب» و «كتاب» باستثناء أربعة مواضع هي، قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ﴿١٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿١٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ﴾ ﴿١٦﴾ وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٧﴾.

١٠ - تحذف الألف من العدد، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ رَاغِبِينَ﴾ ﴿١٨﴾.

١١ - تحذف الألف من بين اللامين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلِئَلَةً﴾ ﴿١٩﴾.

١٢ - تحذف من ذلك وأولئك ولكن وتبارك ﴿٢٠﴾.

١٣ - تحذف الألف من لفظ إله كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ﴿٢١﴾.

١٤ - تحذف من (إسم)، وذلك عند دخول الباء عليها وإضافة لفظ الجلالة كما في البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وكالذي في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٧. وانظر: الأنبياء/١٣، التوبة/٧٢، إبراهيم/٤٥، الصف/١٢، النمل/١٨.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٤.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٢٧.

(٧) سورة النمل، الآية: ١.

(٨) سورة المجادلة، الآية: ٧.

(٩) سورة النساء، الآية: ١٢.

(١٠) انظر: البقرة/٣، البقرة/٥، الحجرات/٧، الملك/١.

(١١) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

تَحْرِيفُهَا ﴿١١﴾. وخرج عنها بالإثبات، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّكَ أَلَدٌ﴾^(١)
 خَلَقَ ﴿١٢﴾.

١٥ - تحلف من لفظة «الرحمن» و«سبحان»، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ
 الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٣) وقوله تعالى:
 ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَنَّا
 بَصُوتٍ﴾^(٥) قال الزركشي: إلا ما ورد في سورة التوبة: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
 كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَ سَوَالٍ﴾^(٦) فقد قيل تحلف وقيل لا تحلف^(٧).

هذه أمهات القواعد المشهورة، وفضلاً عنها فإنه قد ورد في المقنع قواعد
 هامة لا بد من الإشارة إليها، منها:

أولاً: كل ما في القرآن من ذكر «آياتنا» فهو بغير الألف إلا في موضعين،
 فإتھما رسماً بالألف وهما في يونس (٢١، ١٥)^(٨).

ثانياً: كل شيء في القرآن من ذكر «أبها» فهو بالألف إلا في ثلاثة مواضع،
 فإن الألف فيها محذوفة أولها في النور (٣١)^(٩) وفي الزخرف (٤٩) وفي الرحمن
 (٣١).

ثالثاً: انفتحت المصاحف على حذف ألف النصب إذا كان قبلها همزة قبلها
 ألف نحو (ماء، سواء) وما كان مثلها لتلا تجمع ألفان.

(١) سورة هود، الآية: ٤١.

(٢) سورة العلق، الآية: ١.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٥) سورة الصافات، الآية: ١٨٠.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٧) انظر: البرهان، ج ١/ ٣٩١.

(٨) ﴿وَإِذَا أَدْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ شَرِّهِمْ رَأَوْهُمْ كُفْرًا كَافِرِينَ﴾ و﴿وَإِذَا أَدْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ شَرِّهِمْ رَأَوْهُمْ كُفْرًا كَافِرِينَ﴾.

(٩) ﴿وَتَوَوَّأَ إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ﴾ و﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الشَّامِرُ ادْفَعْ لَنَا رَبِّكَ
 بِمَا﴾، ﴿سَتَفْعِلُ لَكُمْ آيَةَ الْفُلْقَانِ﴾.

١٦ - تحذف الياء فيما يلي^(١) :

أ - من كل مقوص منون، جراً أو رفعاً، وذلك كما في قوله تعالى :

﴿ قَمِينَ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾^(٢).

ب - تحذف عند الإضافة، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾^(٣) باستثناء بعض النصوص، كالذي في قوله تعالى : العنكبوت (٥٦) والزمر (٥٣).

ج - تحذف من أطيعوني، ولا تقربوني، سبهديني. وما كان من أمثال هذه الكلمات^(٤).

١٧ - تحذف الواو عند اجتماعها بمثلها، كما في (داوود) ترسم (داود)

قال تعالى : ﴿ يٰ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾^(٥) ﴿ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٦) وتحذف في الأفعال ﴿ سَتَدْعُ الزَّانِيَةَ ﴾^(٧) ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ ﴾^(٨) ، ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾^(٩) ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾^(١٠).

وذكر الداني : أن المصاحف اتفقت على حذف الواو التي هي صورة الهمزة دلالة على تحقيقها كما في (الزباء، زبياك، زبي). وكل همزة أتت بعد ألف واتصل بها ضمير فإن كانت مكسورة صورت ياء وإن كانت مضمومة صورت واواً لأنها إذا سهلت جعلت بين الهمزة وبين ذلك الحرف، مثل (ومن آياتهم، من نسانهم، جزاؤهم، أبناءكم). وإن كانت مفتوحة أو وقع بعد المكسورة ياء

(١) انظر : المقنع/ ٣٣. البرهان : ج ١/ ٣٩٨.

(٢) سورة البقرة، الآية : ١٧٣.

(٣) سورة الزمر، الآية : ١٠.

(٤) الشعراء/ ١١٠، الأنبياء/ ٢٥، الكهف/ ٢٤. انظر المقنع/ ٣٣.

(٥) سورة ص، الآية : ٢٦.

(٦) سورة التوبة، الآية : ١٩.

(٧) سورة العلق، الآية : ١٨.

(٨) سورة الإسراء، الآية : ١١.

(٩) سورة الشورى، الآية : ٢٤.

(١٠) سورة القمر، الآية : ٦.

ويعد المضمومة واو لم تصور خطأ، مثل (أبناءنا، أوليائه) (١).

القاعدة الثانية:

الزيادة:

في الرسم المعهود ما زيد على ما هو معروف في قواعد النحاة وأصولهم، وقد تعرض لهذه القضايا علماء وأئمة فبينوا مواضع الزيادة بقواعد لا تخلو من استثناء (٢).

١ - زيدت الألف بعد الواو آخر اسم مجموع، مثل ﴿الَّذِينَ يَطْمَئِنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ (٣)، ﴿إِنَّمَا يَنْدَكُرُ أَوْلُوا الْأَلْتِيبِ﴾ (٤).

٢ - زيدت في آخر فعل مفرد أو جمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِسُّوْا مِمْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ (٥)، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾ (٦).

٣ - زيدت بعد الهمزة المرسومة واوا، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأْتِسُّوْا تَذَكَّرُوا يَوْسُفَ﴾ (٧).

٤ - زيدت ألف في: مائة، مائتين، الرسول، الظنون، السيل، سلسيلا، قواريرا، الربوا، لا إلى الله، جاي (٨).

٥ - وزيدت في الرسم ياء في مواضع، منها قوله تعالى: ﴿تِيَابِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٩)، ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيْشِرَ﴾ (١٠)، ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ﴾ (١١)، ﴿بِأَيْتِكُمْ﴾

(١) انظر: المقنع، ٣٩.

(٢) انظر: الإلتقان، ج ٢/١٦٨ - البرهان، ج ١/٣٨٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٩.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٧) سورة يوسف، الآية: ٨٥.

(٨) انظر: المقنع، ٤٣.

(٩) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

(١٠) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

(١١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

القاعدة الرابعة:

البدل:

١ - ترسم واوًا على سبيل البدل الألف، تفخيماً كما في (الصلواة، الزكوة، الحيوة) وإذا أضيفت كتب على القواعد الهجائية، مثل ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُمْ وَنَسِيتُمْ وَنَسِيتُمْ وَمَمَاتٍ لِلرَّوَيْبِ الْمَلَكِيِّينَ﴾^(١).

٢ - ترسم بالياء كل ألف متقبلة عنها، مثل ﴿يَتَأَسَّفْنَ، يَحْسَرُونَ﴾^(٢) سوى ما أتى قبلها ياء مثل ﴿الدُّنْيَا﴾^(٣) وبعض الكلمات المرسومة ألفاً^(٤).

٣ - يرسم بالألف، كل ما كان أصله الواو، اسماً كان أو فعلاً، مثل ﴿الضَّغَا، وَغَطَا﴾^(٥) باستثناء ﴿وَأَضْمِنَ﴾ كيف وقع ذلك^(٦).

٤ - ترسم بالألف نون التوكيد الخفيفة، مثل ﴿إِذَا﴾^(٧).

٥ - ترسم بالنون ﴿كائن﴾^(٨).

٦ - ترسم بالهاء هاء التانيث مثل ﴿الْفَارِغَةُ﴾^(٩) سوى بعض المفردات، مثل ﴿رحمت في سور﴾^(١٠) ﴿نعمت في سورة﴾^(١١) و﴿سقت

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

(٢) انظر: يوسف/ ٨٤ ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأَسَّفُونَ عَلَىٰ يَوْمِهِمْ أَن يَقُولُوا رَبَّنَا إِنَّا أَكُنَّا بِمَقَامِكُمْ أَصْغَارًا﴾، والزمر/ ٥٦ ﴿أَن تَقُولُوا نَحْنُ نَحْسَرُونَ﴾.

(٣) مذكورة في آيات عديدة في سور عديدة.

(٤) مثل (سراء، كئنا، أفضى، طفا الماء).

(٥) قال تعالى: ﴿إِذَا الضُّغَا وَالضُّغَا وَالضُّغَا مِنَ الضُّغَا﴾ البقرة/ ١٥٨، البقرة/ ١٨٧.

(٦) كما في: طه/ ١١٩، و/ ٥٩، الضحى/ ١.

(٧) كما في يوسف/ ١٤ ﴿قَالُوا لَيْسَ أَحَدٌ أَكْبَرُ إِلَهُكَ إِلَّا أَن نَّحْسَبُكَ مِنَ الضُّغَايَاتِ﴾، المؤمنون/ ٣٤.

(٨) ﴿وَكَيْفَ الضُّغَايَاتِ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(٩) كما في الفارعة/ ١ - ٢ - ٣ ﴿الْفَارِغَةُ﴾، وما أوردته من الفارعة.

(١٠) كما في البقرة/ ٢١٨، مريم/ ٢، هود/ ٧٣، الزخرف/ ٣٢، وغيرها.

(١١) كما في إبراهيم/ ٣٤، البقرة/ ٢٣١، المائدة/ ١، وغيرها.

في سور ﴿١﴾، ومفردات أخرى (٢).

القاعدة الخامسة:

الوصل والفصل:

قال الزركشي: إعلم أن الموصول في الوجود توصل كلماته في الخط، كما توصل حروف الكلمة الواحدة، والمفصول معنى في الوجود يفصل في الخط، كما تفصل كلمة عن كلمة (٣). ومما قد دخل تحت هذه القاعدة:

١ - «إنما» يأتي كله موصولاً سوى ﴿إِنَّ مَأْتُو عَدُوِّكَ لَأَنْتَ﴾ (٤).

٢ - «أنما» كما في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ (٥) سوى بعض المواضع كما في «الحج» (٦) و«لقمان» (٧).

٣ - «كلما» موصولة، باستثناء بعض المواضع، كما في «النساء» (٨) و«إبراهيم» (٩) ووصلهما كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنهَا مِن ثَمَرٍ رِزْقًا﴾ (١٠).

٤ - «بئسما» كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ

(١) كما في الأنفال/٣٨، فاطر/٤٣، الإسراء/٧٧.

(٢) كما في الروم/٣٠، القصص/٩، المجادلة/٨ - ٩.

(٣) البرهان، ج ١/٤١٧. وانظر: الإتيان، ج ٢/١٦٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣٤.

(٥) سورة غافر، الآية: ٤٣.

(٦) سورة الحج، الآية: ٦٢.

(٧) سورة لقمان، الآية: ٣٠.

(٨) سورة النساء، الآية: ٩١.

(٩) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

(١٠) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

إن . . . ﴿١١﴾ باستثناء مواضع كما في البقرة^(١) والأعراف^(٣).

٥ - «فيما» وقد رسم موصولاً، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ مَقْرُورٍ﴾^(١) باستثناء مواضع متعددة^(٥).

٦ - «كيلاً» أتى موصولاً، كما في قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾^(٦) وأتى مفصلاً، وهو الأكثر في الرسم، كما في قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(٧).

٧ - «مال» أنت مفصولة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾^(٨).

٨ - «مما» موصولة^(٩)، وقد أنت مفصولة في مواضع، منها: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(١٠) و ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَسَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(١١).

٩ - «أمن» موصولة^(١٢)، باستثناء مواضع، منها: ﴿أَمْ مَنْ أَمْسَسَ بَيْنَكُمْ﴾^(١٣) ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلاً﴾^(١٤).

١٠ - «عمن» موصولة^(١٥)، باستثناء بعض المواضع، منها: ﴿وَيَصْرِفُهُمْ عَنْ مَنْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠. وسورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

(٥) كما في سورة البقرة، الآية: ٢٤٠.

(٦) سورة الحج، الآية: ٥.

(٧) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٨) سورة الفرقان، الآية: ٧.

(٩) كما في سورة البقرة، الآية: ٧٩ ﴿وَمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

(١٠) سورة المنافقون، الآية: ١٠.

(١١) سورة الروم، الآية: ٢٨.

(١٢) سورة التعل، الآية: ٦١ ﴿أَمْ مَنْ حَمَلِ الْأَرْضَ حَمَلاً﴾.

(١٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(١٤) سورة النساء، الآية: ١٠٩.

(١٥) سورة النبا، الآية: ١ ﴿مَنْ يَسْتَلِمْ﴾.

١١ - «قَالِم» أنت موصولة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلِمْتُمْ بِسَجِينُوا لَكُمْ﴾ (٢)
وأنت مفصولة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ (٣)

١٢ - «أَنْ لَنْ» أنت موصولة «الَنْ» في قليل، كما في «الكهف» (٤) وغيرها.
والباقي كله مفصول «أَنْ لَنْ» كما في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَلَّن نَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾ (٥)

١٣ - «أَنْ لَا» فهي موصولة «الآ» كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَيَّ اللَّهُ﴾ (٦)

وذكر الزركشي: كتبوا «آلم» و«آلمرا» و«آلر» موصولاً. إن قيل: لما وصلوه والهجاء مقطوع لا ينبغي وصله، لأنه لو قيل لك: ما هجاء «زيد»؟ قلت: زاي، ياء، دال، وتكتبه مقطوعاً، لتفرق بين هجاء الحروف وقراءتها، قيل: إنما وصلوه لأنه ليس هجاء لاسم معروف، وإنما هي حروف اجتمعت، يراد بها حرف معنى. فإن قيل: لم قطعوا «حم عسق» ولم يقطعوا «كهيعص»؟ قيل: «حم» قد جرت في أوائل سبع سور، فصارت اسماً للسور، فقطعت مما قبلها (٧)

القاعدة السادسة:

ما فيه قراءتان:

إذا كانت الكلمة مقروءة على وجهين صحيحين، فإنها عند الكتابة ترسم

- (١) سورة النور، الآية: ٤٣.
- (٢) سورة هود، الآية: ١٤.
- (٣) سورة القصص، الآية: ٥٠.
- (٤) سورة الكهف، الآية: ٦.
- (٥) سورة القيامة، الآية: ٣.
- (٦) سورة الدخان، الآية: ١٩.
- (٧) البرهان، ج ١/ ٤٣٠. وانظر: الإتيان، ج ٢/ ١٧٠.

على أحدهما مثال ذلك ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾^(١) ونحوهما. فقد قرئت بإثبات الألف وحذفه، فرسمها على أحد الوجهين، وأيضاً فقد قرئت بالناء المفتوحة ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً﴾ وغيرها. ومما قرئ على وجهين ورسم على أحدهما ﴿لَمَسْتُمْ﴾^(٢).



(١) انظر مرسوم المختلف والمتفق: المقنع، ٩.
 (٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

مرسوم المختلف بين مصاحف أهل الأمصار

١ - عدد المصاحف وأمصارها:

ذكر صاحب «دليل الحيران»: أن الأئمة لم يلتزموا النقل عن المصاحف العثمانية مباشرة، بل ربما نقلوا عن مصحف منها بعينه وربما نقلوا عن المصاحف مع حكاية إجماعها أو دونه، وربما نقلوا عن المصاحف المدنية، أو المكية أو الشامية أو العراقية، اعتماداً منهم على أن المظنون بمصاحف الأمصار متابعة كل واحد منها مصحف مصره العثماني، ولم يعهد منهم النقل عن مصحف اليمن والبحرين لنقل الجعبري عن أبي علي، أن عثمان رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يقرأ بالمدني، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي، والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي، وعامر بن قيس مع البصري، وبعث مصحفاً إلى اليمن وآخر إلى البحرين، فلم نسمع لهما خبراً ولا علمنا من أنفذ معهما، قال: ولهذا انحصر الأئمة السبعة في الخمسة أمصار. ثم قال الجعبري في نقل القرآن متفقاً ومختلفاً الحفاظ، ولهذا أنفذهم إلى أقطار الإسلام للتعليم، وجعل هذه المصاحف أصولاً ثواني حرصاً على الإنفاذ، ومن ثم أرسل إلى كل إقليم المصحف الموافق لقراءة قارته في الأكثر وليس لازماً كما توهم^(١).

ويقول في شرحه المسمى تنبيه الخلان: «المصاحف المتعارف عليها عند

(١) العارضي: تنبيه الخلان/ ٣٤٠. ملحق بدليل الحيران.

أهل الرسم وهي ستة وإن كان في عددها اختلاف... الأول الإمام وهو المصحف الذي احتسبه سيدنا عثمان لنفسه وعنه ينقل أبو عبيد القاسم بن سلام^(١). الثاني المدني وهو المصحف الذي كان بأيدي أهل المدينة وعنه ينقل نافع. الثالث المكي وهو واللذان قبله هي المرادة بالمصاحف الحجازية والحرمية عند الإطلاق. الرابع الشامي، الخامس الكوفي، السادس البصري وهذان عراقيان وهما المرادان بمصاحف أهل العراق عند الإطلاق^(٢).

وقيل إن عثمان رضي الله عنه أنفذ إلى كل مصر مصحفاً، وإن كان أقرب الأقوال عند تحقيق العلماء، أنها ستة: مصحف عثمان، ومصحف المدينة، ومصحف مكة، ومصحف الشام، ومصحف الكوفة، ومصحف البصرة. وأما ما ورد عن البحرين واليمن، فلم يثبت ذلك بالفعل.



(١) هو أبو عبيد القاسم بن سلام، عالم بالقراءات والفقه والعربية والأخبار، توفي سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين ومائتين، وقبل سنة أربع وعشرين ومائتين (وفيات الأعيان، ج ٤/٦٢).

(٢) تنبيه الخلان/٣٤١.

مختلف الإثبات والحذف

اسم السورة	رقم الآية	الكلمة	موضع الإثبات والحذف
البقرة	٢٤٥	فيضاعفه	الألف: كتبت بالحذف والإثبات
البقرة	٩٣	بشما	كتبت بالوصل والقطع
البقرة	٢٨٥	وكتبه	الألف: كتبت بالحذف والإثبات
آل عمران	٢١	ويقاتلون	الألف: كتبت بالحذف والإثبات
المائدة	١٨	أبناء	وكتبت بالإثبات (أبنائنا)
المائدة	٥٢	نخشى	الياء: وكتبت بالألف (نخشنا)
المائدة	١١٠	ساحر	الألف: وكتبت بالحذف
الأنعام	٩٥	فالق	الألف: وكتبت بالحذف
الأنعام	٩٦	جاعل	الألف: وكتبت بالحذف
الأنعام	٦٣	أنجبتنا	الياء والتاء: وكتبت بالحذف (أنجاننا)
الأعراف	٣٨	كلما	وكتبت بالقطع (كل ما)
الأعراف	١١٢	ساحر	الألف: وكتبت بالحذف
الأعراف	٢٠١	طائف	الألف: وكتبت بالحذف
الأعراف	٢٦	وريشا	الألف: وكتبت (وريشنا)
براءة	٤٧	ولأوضعوا	الألف: وكتبت بالإثبات (ولا أوضعوا)
يونس	٧٦	لساحر	الألف: وكتبت بالحذف
يونس	٧٩	سحر	الألف: وكتبت (وسحار)
هود	٧	ساحر	الألف: وكتبت بالحذف
إبراهيم	٥	بأيام	الألف: وكتبت بالحذف (بأيتم)
الحجر	٢٢	الرياح	الألف: وكتبت بالحذف
الإسراء	٢٣	كلاهما	الألف: وكتبت بالحذف (كليهما)

الإسراء	٨٣	سبحان	الألف: وكتبت بالحذف
الكهف	٨٨	جزاوا	الواو والألف: وكتبت (جزاء)
الكهف	٩٤	خراجا	الألف: وكتبت (خرججا)
الكهف	٤٥	الرياح	الألف: وكتبت بالحذف (الريح)
طه	٧٧	لا تخاف	الألف: وكتبت (لا تخف)
الأنبياء	٤	قال	الألف: وكتبت بالحذف
الأنبياء	٨٧	أن لا	النون: وكتبت (الآ)
الأنبياء	١٠٢	في ما	وكتبت (فيما)
الحج	٣٨	يدافع	الألف: وكتبت بالحذف
المؤمنون	١١٢	قال	الألف: وكتبت بالحذف
المؤمنون	١١٤	قال	الألف: وكتبت بالحذف
المؤمنون	٨٧	الله	الألف: وكتبت بالحذف (الله)
المؤمنون	٨٩	الله	الألف: وكتبت بالحذف (الله)
المؤمنون	٤٤	كل ما	وكتبت كلما (وصلاً وقطعاً)
المؤمنون	٧٢	خارجا	الألف: وكتبت بالحذف
الفرقان	٦١	سراجا	الألف: وكتبت بالحذف (سرجا)
الشعراء	١٤٦	في ما	وكتبت بالوصل (فيما)
الشعراء	١٤٩	فارهبين	الألف: وكتبت بالحذف
النمل	٨١	بهادي	وكتبت (تهدي) بغير ياء وألف
النمل	٣٥	فناظرة	الألف: وكتبت بالحذف (فناظرة)
القصص	٤٨	ساحران	الألف: وكتبت بالحذف (سحران)
الروم	٥٣	بهاد	وكتبت بحذف الباء والألف ووضع الناء (تهد) دون ياء
الروم	٣٩	ربا	وكتبت بالواو والألف (ربوا)
الأحزاب	٢٠	يسألون	الألف: وكتبت بالحذف (يسألون)
يس	٣٥	وما عملته	الهاء: وكتبت بالحذف (وما عملت)
يس	٥٥	فاكهون	الألف: وكتبت بالحذف (فكهون)
الزمر	٣٦	عباده	الألف: وكتبت (عبده)
المؤمنون	٦	كلمة	وكتبت بالثناء (كلمت)
المؤمنون	١٨	لدا	وكتبت بالياء (لدي)
الدخان	٢٧	فاكهين	الألف: (فكهين)

الأحقاد	١٥	احسانا	وكتبت (حسنا)
الطور	١٨	فاكهيبن	الألف: وكتبت بالحذف
القمر	٧	خاشعا	الألف: وكتبت (خشعا)
الرحمن	١٣	تكذبان	الألف: وكتبت بالحذف (تكذبين) من أول السورة إلى آخرها
الرحمن	٥٤	وجنا	الألف: وكتبت يالياه (وجنى)
الواقعة	٧٥	بمواقع	الألف: وكتبت بالحذف مفردا
الحديد	١١	فبضاعفه	الألف: وكتبت بالحذف
الحديد	١٧	بضاعف	الألف: وكتبت بالحذف
المنافقون	١٠	من ما	وكتبت وصلأ (مما)
الملك	٨	كل ما	وكتبت وصلأ (كلما)
الجن	٢٠	قال	وكتبت بالحذف (قل)
المرسلات	٣٣	حملت	الألف: وكتبت بالحذف (حملت)
المطففين	٣١	فاكهيبن	الألف: وكتبت بالحذف
الماعون	١	أرايت	الألف: وكتبت بالحذف (أرهيت) وكلمة (أرايتم) كتبت أيضاً بالحذف والآيات في جميع القرآن (أرهيتم)

فما ذكر، هو مختلف الإثبات والحذف بين مصاحف أهل الأمصار (أهل الكوفة، وأهل البصرة، وأهل المدينة، وأهل مدينة السلام، وأهل الشام).
ذكر هذا ونقل عن أبي عمرو الداني المقرئ (المقتع، ٩٨).



مختلف الزيادة والنقصان بين مصادف الأمصار

السورة والرقم	مدينة	مكة	العراق	الشام
البقرة ١١٦	وقالوا	وقالوا	وقالوا	وقالوا
البقرة ١٣٢	وأوصى	ووصى	ووصى	وأوصى
آل عمران ١٣٣	سارعوا	وسارعوا	وسارعوا	سارعوا
آل عمران ١٨٤	والزبير والكتاب	والزبير والكتاب	والزبير والكتاب	وبالزبير والكتاب
النساء ٣٦	والجار ذي القري	والجار ذي القري	والجار ذا القري	والجار ذي القري
النساء ٣٦	إلا قليل منهم	إلا قليل منهم	إلا قليل منهم	إلا قليل منهم
المائدة ٥٣	يقول الذين	يقول الذين	ويقول الذين	يقول الذين
المائدة ٥٤	من يرتدو منكم	يرتد منكم	يرتد منكم	من يرتدو منكم
الأنعام ٣٢	وللدار	وللدار	وللدار	وللدار
الأنعام ٦٣	أنجيتنا	أنجيتنا	أنجنا	أنجيتنا
الأنعام ١٣٧	شركاؤهم	شركاؤهم	شركاؤهم	شركائهم
الأعراف ٣	تذكرون	تذكرون	تذكرون	يتذكرون
الأعراف ٤٣	وما كنا	وما كنا	وما كنا	ما كنا
الأعراف ٧٥	قالوا	قالوا	قالوا	وقالوا
الأعراف ١٤١	أنجينكم	أنجينكم	أنجينكم	أنجناكم
براءة ١٠٧	والذين	الذين اتخذوا	والذين	الذين اتخذوا
براءة ٨٩	تحتها	تحتها	من تحتها	تحتها
يونس ٢٢	يسيركم	يسيركم	يسيركم	يشركم

الإسراء ٩٣	قل سبحان	قل سبحان	قل سبحان	قال سبحان
الكهف ٣٦	منهما متقلبا	منها متقلبا	منهما متقلبا	منهما متقلبا
الكهف ٩٥	مكتني	مكتني	ما مكتني	مكتني
الأنبياء ٤	قل ربي	قال ربي	قل ربي	قل ربي
الأنبياء ٣٠	أولم ير	أولم ير	ألم ير	أولم ير
المؤمنون ٨٧	الله	الله (بصرة) لله	الله	الله
المؤمنون ٨٩	الله	الله (بصرة) لله	الله	الله
المؤمنون ١١٢	قال	قل كم لستم	قال	قال
		(كوفة)		
المؤمنون ١١٤	قال	قل (كوفي) قل	قال	قال
الفرقان ٢٥	ونزل	ونزل	ونزل	ونزل
الشعراء ٢١٧	فتوكل	وتوكل	وتوكل	فتوكل
النمل ٢١	أولياتين	أولياتيني	أولياتيني	أولياتيني
القصص ٣٧	وقال موسى	وقال موسى	قال موسى	وقال موسى
يس ٣٥	وما عملته	وما عملته	وما عملت	وما عملته
الزمر ٦٤	تأمروني	تأمروني	تأمروني	تأمروني
المؤمنون ٢١	أشد منهم	أشد منهم	أشد منهم	أشد منكم
المؤمنون ٢٦	وأن (أو أن) عثمان وأن	أو أن (كوفي) وأن وأن	وأن (أو أن) عثمان وأن	وأن (أو أن) عثمان وأن
الشورى ٣٠	بما كسبت	بما كسبت	بما كسبت	بما كسبت
الزحرف ٦٨	يعبادي	يعباد	خلاف	يعبادي
الزحرف ٧١	ما تشتهي	تشتهي	تشتهي	ما تشتهي
الأحقاف ١٥	حنا	إحسانا (كوفي) حنا	حنا	حنا
القتال ١٨	أن تأتيهم	أن تأتيهم (كوفي)	أن تأتيهم	أن تأتيهم
الرحمن ١٢	ذو العصف	ذو العصف	ذو العصف	ذو العصف
الرحمن ٧٨	ذي الجلال	ذي الجلال	ذي الجلال	ذي الجلال
الحديد ١٠	وكللا وعد	وكللا وعد	وكللا وعد	وكللا وعد
الحديد ٢٤	الله الغني	الله هو الغني	الله هو الغني	الله الغني
الشمس ١٥	فلا يخاف	ولا يخاف	ولا يخاف	ولا يخاف ^(١)

(١) هذه الأحرف التي اختلفت في مصاحف الأمصار منته بين اللوحين وهي كلها متسوخة

الموجب لاختلاف هذه الحروف في المصاحف زيادة ونقصاناً:

فالسبب الموجب لهذا الاختلاف هو أن الخليفة عثمان رضي الله عنه لما قام بنسخ الصحف على صورة واحدة وآثر لغة قريش عند الاختلاف بين أعضاء اللجنة كما حصل في كلمة (التابوت)، وكان قد ثبت عنده أن هذه الحروف من عند الله عز وجل منزلة ومسموعة من رسول الله ﷺ، فإن جمع هذه الحروف في نسخة واحدة غير ممكن إلا بأن تعاد الكلمة مرتين، وهذا لو نسخ في مصحف واحد لأدى ذلك إلى التخليط والتغيير للمرسوم والتي لا بد من أن تترك آثاراً سيئة، ونظراً لفرضية كتابتها، وإبعاداً لشبهات التغيير، فقد فرقتها في المصاحف المتعددة المرسله إلى الأمصار، فكانت بذلك مثبتة في مصاحف ومحلوفة في أخرى، حتى يبقى حفظها كما سمعت من رسول الله ﷺ دون خلط وتغيير في مرسوم مصحف واحد^(١).

ونظراً لأهمية هذا البحث، كونه يتعلق بالرسم والخط، فضلاً عن رسم القرآن ومحاولة طباعته المتكررة هنا وهناك، كان لا بد من الإشارة إلى قواعد الضبط، آداب الكتابة حتى يعرف القارئ أصول الكتابة وقوانينها خاصة وهو أمام أشرف الكتب وأجلها. ولذلك اعتنى العلماء بهذه الناحية واعتبروها في المقام الأول، ووضعوا لها الرموز والأشكال المناسبة. وما نحن - على سنتهم - نذكرها إتماماً للقائمة.



= من الإمام الذي كتبه عثمان ثم بعث إلى كل أفق مما نسخ بمصحف وهي كلها كلام الله عز وجل (المقتع، ١١٦).

(١) المقتع، ١٢٣.

قواعد الضبط وآداب الكتابة

أولاً - التعريف بفن الضبط:

فن الضبط: هو علم يعرف به ما يدل على عوارض الحرف التي هي الفتح والكسر والضم والسكون والشد والمد، ونحو ذلك^(١). وعندما يقال النقط، فإنه يراد به الشكل والضبط، بالإشتراك، وقد يقال النقط، ويراد به الإعجام، كأن يقال: دال معجمة (ذ) وجاء معجمة (ج) وسين معجمة (ش) وهكذا.

وكان العرب أصحاب حروف في الحركات، ولم يعرفوا الشكل والنقط، فكانوا يصورون الحركات حروفاً، فيصورون الفتحة ألفاً ويضعونها بعد الحرف، ويصورون الضمة واواً ويضعونها بعد الحرف المضموم، ويصورون الكسرة ياءً ويضعونها بعد الحرف المكسور، فتدل هذه الأحرف الثلاثة على ما تدل عليه الحركات الثلاث من الفتح والضم والكسر^(٢).

ولما كتب الصحابة رضي الله عنهم المصحف، لم يكتبوا هذه الحروف ذات الدلالة على الحركات مخافة الالتباس بينها وأصول الرسم، فهذه الحركات من فتح وضم وكسر ونحوها لم تكن معروفة لديهم.

ثانياً - نشأة فن الضبط:

ذكر أن زياد بن أبي سفيان أمير البصرة في أيام معاوية كان له ابن اسمه

(١) دليل الحيران، ٢٤٢.

(٢) نفس المرجع، ٢٤٣.

عبيد الله وكان يلحن في قراءته، فقال زياد لأبي الأسود: إن لسان العرب دخله الفساد فلو وضعت شيئاً يصلح الناس به كلامهم ويعرفون به القرآن، قامت أبو الأسود فأمر زياد رجلاً يجلس في طريق أبي الأسود، فإذا مر به قرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن فقرأ الرجل عند مرور أبي الأسود به ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بخفض اللام من رسوله، فاستعظم ذلك أبو الأسود، وقال: معاذ الله أن يتبرأ من رسوله فرجع من فوره إلى زياد وقال له قد أجبتك إلى ما سألت، فاختر رجلاً عاقلاً فطناً، وقال له: خذ المصحف وصياغاً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط فوق الحرف نقطة، وإذا ختمتها فانقط أمامه، وإذا كسرتها فانقط تحته فإذا أتبعته بغنة يعني تنوينا فانقط نقطتين، فبدأ بأول المصحف حتى أتى على آخره^(١).

وليس من اتفاق بين الأئمة على أول من وضع هذا العلم، فلقد روي أن أول من وضعه هو أبو الأسود الدؤلي^(٢)، وقيل: بل هو الحسن البصري^(٣)، وقيل يحيى بن يعمر^(٤)، وقيل نصر بن عاصم الليثي^(٥).

وأكثر العلماء على الصحيح، أن أول من فعل ذلك هو أبو الأسود

(١) دليل الحيوان/ ٢٤٣، والنظر: المقنع/ ١٣٢ - والنظر: تركي عطية عبود الجبوري: الخط العربي الإسلامي/ ٢٦.

(٢) هو أبو الأسود، ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندب بن عدي بن الديلمي بن بكر الديلمي ويقال الدؤلي، من سادات التابعين وأصحابهم، وهو أول من وضع علم النحو - وتوفي بالبصرة سنة تسع وستين في مرض الطاعون، عن عمر خمس وثمانين سنة (وفيات الأعيان، ج ٢/ ٥٣٩).

(٣) هو أبو سعيد بن الحسن بنار البصري، من سادات التابعين وأصحابهم، توفي بالبصرة، مستهل رجب سنة عشر ومائة (وفيات الأعيان، ج ٢/ ٧٢).

(٤) هو أبو سليمان، يحيى بن يعمر العدواني النحوي البصري، تابعي، عالم بالقرآن الكريم والنحو ولغات العرب، توفي سنة تسع وعشرين ومائة (وفيات الأعيان، ج ٦/ ١٧٤).

(٥) هو نصر بن عاصم الليثي، من واضعي علم النحو، فقيه تابعي، توفي عام ٨٩ هـ (بغية الوعاة/ ٤٠٣).

الدثلي^(١). وذلك ليقوم الناس به ما فسد من كلامهم، وابتداءً بإعراب القرآن. وما فعله هذا الإمام من ضبط الحروف قد بني على النقط، كما ذكر سابقاً، ومن ثم فإن الأشكال الضبطية التي تعرف بالفتح والضم والكسر، بالشكل المنطيل لكل من الفتح والكسر، والواو الصغرى للضم فوق الحرف، فالذي وضعها هو الخليل بن أحمد^(٢) وهذا الومع قد فاق وضع الدثلي شهرة وأخذوا بالعمل، لما فيه من وضوح الشكل وبيان الضبط.

ذكر السبوطي: كان الشكل في الصدر الأول نقطاً فالفتحة نقطة على أول الحرف والضممة على آخره، والكسرة تحت أوله، وعليه مشى الداني، والذي اشتهر الآن الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف، وهو الذي أخرجه الخليل، وهو أكثر وأوضح وعليه العمل^(٣).

فممن أخذ عن أبي الأسود الدثلي الخليل بن أحمد، سار على هذا النمط إلى أن اخترع نقطاً آخر سميت الحظول وهي الأشكال الثلاثة المأخوذة من صور حروف المد، وجعل مع ذلك علامة الشد شيئاً أخذها من أول شديد، وعلامة الخفة «خاء» أخذها من أول خفيف، ووضع الهمز والإشمام والروم قانبعه الناس على ذلك^(٤).

ثالثاً - مدى الفوارق الشكلية بين الدثلي وابن أحمد:

عند الدثلي	عند ابن أحمد
الفتحة - أول الحرف	فتحة - فوق الحرف
الكسرة - تحت الحرف	كسرة - تحت الحرف
الضممة - آخر الحرف	ضممة - فوق الحرف

(١) المقنع: كتاب النقط / ١٣٣. دليل الحيران / ٢٤٣. وانظر، السبوطي: الإتيان، ج ٢ / ١٧٠.

(٢) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، كان إماماً في علم النحو، ولد سنة مائة للهجرة، وتوفي سنة سبعين، ومائة: (وقيات الأعيان، ج ٢ / ٢٤٨).

(٣) الإتيان، ج ٢ / ١٧١.

(٤) دليل الحيران، ٢٤٣.

وتظهر هذه الفوارق تطبيقياً في ميدان النصوص والكلم، قال سبحانه:
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾^(١). فعند
الدثلي (لعنتم) وعند ابن أحمد (لعنتم).

وفي قوله سبحانه: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ ضَبْحًا﴾^(٢) فعند الدثلي (ضبخا) وعند ابن
أحمد (ضُبْحًا).

ومن قواعد الوضع عند الدثلي أنه فرق بين وضع التنوين مع أحد حروف
الحلق، ووضع التنوين مع غيرها. فعندما يأتي عقب التنوين أحد حروف الحلق
- ا، هـ، ع، ح، غ، خ، - تتركب النقطتان فوق بعضهما البعض كما في (سميغ
عليم). وإن أتى عقب التنوين أحد الأحرف - ر، ل، م، ن - تابعت النقطتان،
كما في غفورٌ رحيم^(٣).

أما في عهد عبد الملك بن مروان^(٤)، فقد أخذ الرسم طوراً في التحسين
ما تحتاج إليه الضرورة الملحة التي استوجبت هذا التحسين. فإن فساد التعلق
واللحن والتحريف قد دخل السنة الناس، وكانت هذه ضرورة تقضي عدم
التهاون بعواقبها، مما دفع عبد الملك إلى الأمر بتعجيم الحروف.

وما ينبغي الإشارة إليه، أن الرسم كان حتى هذا العهد - عهد عبد الملك -
لا صورة للإعجام به، فلم تكن الأحرف منقطعة كما نقرؤها الآن، فسليقة اللسان
عند الرعيل الأول لم تكن بحاجة إلى تمييز الحروف عن بعضها البعض، فهي
مدركة دون حاجة إلى هذه الضوابط.

فإن إعجام المصاحف لم يحدث على المشهور، إلا في عهد

(١) سورة الحجرات، الآية: ٧.

(٢) سورة العاديات، الآية: ١.

(٣) المقنع، ١٣٣ - ١٣٤.

(٤) قاله الزرقاني في المناهل، ج ١/ ٤٠٠.

عبد الملك بن مروان، إذ رأى رقعة الإسلام قد اتسعت، واختلط العرب
بالعجم، وكادت العجمة تنس سلامة اللغة، وبدأ اللبس والأشكال في قراءة
المصاحف يلح بالناس، حتى ليشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين
حروف المصحف وكلماته وهي غير معجمة، هنالك رأى بثاقب نظره أن يتقدم
للإنقاذ، فأمر الحجاج أن يعني بهذا الأمر الجليل، وندب الحجاج - طاعة لأمير
المؤمنين - رجلين جليلين يعالجان هذا المشكل، هما نصر بن عاصم الليثي
ويحيى بن يعمر العدواني، وكلاهما كفاء قدير على ما ندب له، إذ جمعا بين
العلم والعمل، والصلاح والورع، والخبرة بأصول اللغة، ووجوه قراءة القرآن،
وقد اشتركا أيضاً في الأخذ والتلمذة عن أبي الأسود الدئلي.

ويرحم الله هذين الشيخين، فقد نجحا في هذه المحاولة، وأعجبا
المصحف الشريف لأول مرة، ونقطا جميع حروفه المشابهة، والترما الأ تزيد
النقط في أي حرف على ثلاث، وشاع ذلك في الناس بعد، فكان له أثره العظيم
في إزالة الإشكال واللبس عن المصحف الشريف. فعبد الملك بن مروان هو أول
من أعجم المصحف رسمياً، وإن كانت محاولات قد بذلت سابقاً بصورة فردية،
كما قيل عن الدئلي وابن سيرين.

وهذه العملية التحسينية قد دفعته رسمياً إلى تغيير الحركات الشكلية من
الصورة التي ابتكرها أبو الأسود الدئلي إلى الصورة الشكلية المنسوبة إلى
الخليل بن أحمد. وهي الفتحة (ت) والكسرة (ي) والضمة (ئ) والتنوين (ي) و
والشدة (ت) والخفة (خ) وما حدث، ضرورة الأخذ به، حتى يميز الغاري بين
الإعجام المميز بين الحروف المشابهة والضبط الشكلي المميز بين حركات
الحروف.

فتحسين القرآن إذا لم يتم دفعة واحدة، بل قل يتدرج في التحسين جيلاً
بعد جيل، حتى يبلغ ذروة الجمال.

فمن تشكيله إلى إعجامة، إلى تسمية سور، إلى وضع رموز فاصلة عند
رؤوس الآيات، إلى تقسيمه إلى أجزاء والأجزاء إلى أحزاب والأحزاب إلى
أرباع، إشارة لهذا كله برموز خاصة إلى وضع مصطلحات ضبط موافقة إلى رواية

حفص لقراءة عاصم بن أبي النجود^(١)، بإشراف مشيخة الأزهر بتاريخ ١٠ ربيع الثاني عام ١٣٣٧ هـ حين كلفت لجنة مكونة من أربعة علماء كبار أخذوا على عاتقهم هذا المشروع الجليل العظيم^(٢).

موقف الأئمة مما طرأ على الرسم من تحسينات:

تعددت وجهات النظر حول هذا الأمر الطارئ المتعلق بكتاب الله تعالى، فتمت ضرورة وقعت، تلك الألسن الفاسدة التلق والتي لا يد شاركة أمراً قد يوجب باختلاف ماء، فيما يتعلق بالرسم القرآني. فذهبت فئة من الأئمة إلى كراهية وضع أي شيء بالرسم، تداركاً للتخليط بالمرسوم، ومن هؤلاء ابن مسعود حيث نقلوا عنه الأمر بتجريد القرآن، فقال بكراهية النقط وكذا ابن سيرين فضلاً عن كراهية لفواتح الآي وخواتيمها، كما نقل ذلك عن مجاهد. فتداركاً للرسم القرآني من أن يخلط بغيره، فقد وقعت هذه الفئة ومن تبعها هذا الموقف، وهو موقف حسن ليس لهم به عند الله تعالى إلا الأجر والثواب^(٣).

ومعالجة لفساد الألسن وعواقبها الوخيمة، فقد تقدم الأئمة إلى وضع قواعد الضبط من شكل ونقط وتعشير وفواتح وخواتيم وأسماء السور وعدد الآيات، كل في موضعه المناسب بدقة وعناية. حتى أن بعض من نقل عنهم الكراهة، قد نقل عنهم الجواز، كإبن سيرين مثلاً^(٤) ونقل عن النووي أنه قال: نقط المصحف وشكله مستحب لأن صيانة له من اللحن والتحريف^(٥). وإلى إقرار هذه التحسينات فقد ذهبت الأئمة وحافظت عليها، لأنها قد صانت الرسم

(١) قراءة عاصم تحصل باستلها إلى أبي عبد الرحمن بن عبد الله بن حبيب السلمي عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي بن كعب عن النبي ﷺ.

(٢) انظر: مناهل العرفان، ج ١/٤٠١ - ٤٠٢، وكذلك:

- مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ص ٩٠ وما بعدها.

- علوم القرآن الحديث لأحمد محمد علي داود، عمان، دار الشريعة ص ٦١.

(٣) انظر: الإتيان، ج ٢/١٧٢. وانظر: الآداب الشرعية والمصحح المرعية، ج ٢/٢٩٥.

(٤) انظر: الإتيان، ج ٢/١٧٢. وانظر: المقنع/١٣٢. والبرهان، ج ١/٤٧٨.

(٥) نقله السيوطي في الإتيان، ج ٢/١٧٢.

من اللحن والتحريف، فضلاً عن التيسير لطلاب القراءة والعلم والمعرفة.

مصطلحات الضبط:

بموجب قرار رقمه (٢٢) صادر عن دار الفتوى في الجمهورية اللبنانية عام ١٩٧٧، وقرارات معاملة صادرة عن وزارات ودوائر الأوقاف في عدد من الدول العربية والإسلامية، ينص فيها على التزام قواعد ومصطلحات معينة تم التوافق عليها أخذاً عن الأئمة الكبار حيث استحسنتها الأمة الإسلامية وتلقنتها بالقبول. لذا قامت دور نشر عديدة بطباعة القرآن الكريم ملتزمة هذه المصطلحات والقواعد. ونحن يدورنا ننشرها هنا نقلاً عن خانة المصحف الشريف، مصحف الحرمين الشريفين بالرسم العثماني، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت. وهذه المصطلحات هي:

- ١ - وضع الصفر المستدير (O) فوق حرف علة يدل على زيادة ذلك الحرف، فلا يطلق به في الوصل ولا في الوقف، نحو: قالوا، وتموداً فما أبقى.
- ٢ - وضع الصفر المستطيل القائم (O) فوق ألف بعدها متحرك يدل على زيادتها وصلًا، لا وقفًا، نحو: وتظنون بالله الظنونا، لَكِنَّا هو الله ربي.
- ٣ - أهملت الألف التي بعدها ساكن، نحو: أنا النذير، من وضع الصفر المستطيل فوقها، وإن كان حكمها مثل التي بعدها متحرك في أنها تسقط وصلًا وتثبت وقفًا لعدم توهم ثبوتها وصلًا.
- ٤ - وضع رأس خاء صغيرة (ح) بدون نقطة فوق أي حرف يدل على سكون ذلك الحرف، وعلى أنه مُظْهَرٌ بحيث يقرعه اللسان، نحو: من خير، وينزوي عنه، قد سمع الله.
- ٥ - تعرية الحرف من علامة السكون مع تشديد الحرف التالي يدل على إدغام الأول في الثاني إدغاماً كاملاً، نحو: أجيب دعوتكما، يلهث ذلك، وقالت طائفة.
- ٦ - تعرية الحرف مع عدم تشديد التالي يدل على إخفاء الأول عند الثاني

فلا هو مظهر حتى يفرغه اللسان ولا هو مدغم حتى يقلب من جنس تاليه، نحو: من تحتها، من ثَمَرَةٍ. أو إدغامه فيه إدغاماً ناقصاً، نحو: من وَال، من يَقُول.

٧ - وضع ميم صغيرة (م) بدل الحركة الثانية من المتون أو فوق النون الساكنة بدل السكون مع عدم تشديد الباء التالية يدل على قلب التنوين أو النون ميماً، نحو: عليهم بذات الصدور، كرام بررة.

٨ - تركيب الحركتين (ضميتين أو فتحيتين أو كسرتين) هكذا: (- - -) يدل على إظهار التنوين، نحو: سمع عليهم، لكل قوم هاد.

٩ - تركيب الحركتين مع تشديد التالي يدل على الإدغام الكامل، نحو: حسب مُسندة، غفوراً رَحِيماً.

١٠ - تركيب الحركتين مع عدم التشديد يدل على الإخفاء، نحو: شهاب ثاقب، سراهاً ذلك.

١١ - تركيب الحركتين مع عدم التشديد يدل على الإدغام الناقص، نحو: وجوه يومئذ، رحيم ودود.

١٢ - وضع الحروف الصغيرة يدل على أعيان الحروف المتروكة في المصاحف العثمانية مع وجوب النطق بها، نحو: ذلك الكِتَابُ، يَلُوتُونَ السِّتْمَ، ذَاوُدَ، إلهفهم رحلة الشتاء.

ويلاحظ أن علماء الضبط كانوا يلحقون هذه الأحرف حمراء بقدر حرف الكتابة الأصلية، ولكن تعثر ذلك في المطابع، فاكتمت بتصغيرها في الدلالة على المقصود.

١٣ - إذا كان الحرف المتروك له بدل في الكتابة الأصلية عُوِّلَ في النطق على الحرف الملحق لا على البديل، نحو: الصَّلَاةُ، الرُّبُوعُ، ونحو: والله يقبض ويبسط، في الخلق بصطة. فإن وضعت السين تحت الصاد دل على أن النطق بالصاد أشهر، مثل: المصيطرون.

١٤ - وضع هذه العلامة (-) فوق الحرف يدل على لزوم مدته مدّاً زائداً على المد الأصلي الطبيعي، نحو آلر، الطَّامة.

١٥ - لا تستعمل هذه العلامة للدلالة على ألف محذوفة بعد ألف مكتوبة، نحو: آمنوا، كما وضع غلطاً في كثير من المصاحف، بل تكتب: آمنوا بهمزة وألف بعدها.

١٦ - وضع الدائرة المحلاة التي في جوقها رقم يدل بهيتها على انتهاء الآية، وبرقمها على عدد تلك الآية في السورة، نحو: إنا أعطيناك الكوثر (١) ولا يصح وضعها قبل الآية البتة.

١٧ - وضع هذه العلامة (●) يدل على ابتداء ريع الحزب، وإن كان الربع من أول السورة فلا توضع.

١٨ - وضع هذه العلامة (ـ) خط أفقي فوق الكلمة يدل على موجب السجدة.

١٩ - ووضع هذه العلامة (-) بعد كلمة يدل على موضع السجدة، نحو: والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون (٤٩) يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون (-).

٢٠ - وضع هذه العلامة (-) المعينة الشكل تحت الراء في قوله تعالى: بسم الله مجرئها يدل على إمالة الفتحة إلى الكسرة، وإمالة الألف إلى الباء. وقد كان النقاط يضعونها دائرة حمراء فلما تعسر ذلك في المطابع عُدل إلى الشكل المعين.

٢١ - ووضع العلامة السابقة فوق آخر الميم قبيل التون المشددة من قوله تعالى: مالك لا تأمناً على يوسف يدل على الإشمام (وهو ضم الشفتين) كمن يريد النطق بضممة إشارة إلى أن الحركة المحذوفة ضمة (من غير أن يظهر لذلك أثر في النطق).

٢٢ - وضع النقطة المدورة مسدودة الوسط (●) فوق الهمزة الثانية من قوله تعالى: آءعجبي وعربي، يدل على تسهيلها بين بين، أي بين الهمزة والألف.

٢٣ - وضع علامة (م) يدل على الوقف اللازم، نحو: إنما يستجيب الذين

يسمعون - والموتى يعثهم الله.

٢٤ - وضع علامة (لا) يدل على الوقف الممنوع، نحو: الذين تتوفهم
الملكثة طيبين^١ يقولون سلم عليكم ادخلوا الجنة.

٢٥ - وضع علامة (ج) يدل على الوقف الجائز جوازاً مستوي الطرفين،
نحو: نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم قتية آمنوا بربهم.

٢٦ - وضع علامة (صلى) يدل على الوقف الجائز مع كون الوصل أولى،
نحو: وإن يَمْسُكْ اللهُ بِضُرِّ فِلا كاشف له إلا هو سلم وإن يمسك بخير فهو
على كل شيء قدير.

٢٧ - وضع علامة (قلى) يدل على الوقف الجائز مع كون الوقف أولى،
نحو: قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل للم فلا تمار فيهم.

٢٨ - وضع علامة (-) يدل على تعاقب الوقف بحيث إذا وَقَفَ على
أحد الموضعين لا يصح الوقف على الآخر، نحو: ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى
للمتقين.

وهناك علامات أخرى كثيرة للسكت، لكنها موضع خلاف بين القراء، فلم
نذكرها، ومن أراد معرفتها فليقرأ هذه المصطلحات في نهاية أي مصحف، فإنها
مدونة كلها.



الفصل الرابع

أسباب النزول

القرآن الكريم قسمان: قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق، وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان، وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة وهو موضوع بحثنا الآن.

غير أننا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التي جاءت على أسباب، فذلك شأن بعيد.

وقد انتدب له جماعة أفردوه بالتأليف، منهم علي بن المديني شيخ البخاري ومنهم الواحدي والجعبري وابن حجر، ومنهم السيوطي الذي وضع فيه كتاباً حافلاً محرراً سماه (لباب النقول في أسباب النزول).

إنما غرضنا في هذا الفصل أن نحيطك علماً بأسباب النزول من أطرافه الأساسية، وهي: معنى سبب النزول، وقوائد معرفة أسباب النزول، وطريق هذه المعرفة، والتعابير عن سبب النزول، وحكم تعدد الأسباب والنازل واحد، وتعدد النازل، والسبب واحد.

١ - معنى سبب النزول:

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه. والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ. أو سؤال وجه إليه، فنزلت

الآية والآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب هذا السؤال. سواء أكانت تلك الحادثة خصومة دبت، كالخلاف الذي شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج، بدمية من أعداء الله اليهود حتى تنادوا: السلاح السلاح، ونزل بسبب تلك الآيات الحكيمة في سورة آل عمران من أول قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِنُفِثُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بِمَدِّ أَيْمَانِكُمْ كَثِيرًا ۝﴾^(١) إلى آيات أخرى بعدها هي من أروع ما ينفر من الانتقام والشقاق ويرغب في المحبة والوحدة والاتفاق، أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشاً ارتكب، كذلك السكران الذي أم الناس في صلاته وهو في نشوته، ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوكُ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝﴾^(٢) وحذف لفظ (لا) وحذف لفظ (لا) من «لا أعبد» فنزلت الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِنُفِثُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بِمَدِّ أَيْمَانِكُمْ كَثِيرًا ۝﴾^(٣)

أم كانت تلك الحادثة تمنيًا من التمنيات، ورغبة من الرغبات، كموافقات عمر رضي الله عنه التي أفرد بها بعضهم بالتأليف. ومن أمثلتها ما أخرجه البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه: قال عمر:

أراققت ربي في ثلاث: قلت يا رسول الله لو اتخلفنا مقام إبراهيم مصلى فنزلت: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۝﴾ وقلت يا رسول الله: إن نساءك يدخلن عليهم البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب^(٤) واجتمع علي رسول الله ﷺ نساء في الغيرة فقلت لهن: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدلهن أزواجاً خيراً منكن» فنزلت وهي كذلك في سورة التحريم^(٥).

وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي ﷺ يتصل بأمر مضي

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٣.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِنُفِثُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بِمَدِّ أَيْمَانِكُمْ كَثِيرًا ۝﴾ الآية (٥٣) من سورة الأحزاب.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ١/٢٣، ٢٤، ٣٦.

نحو قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَتَسْتَأْذِنُكَ مِنْ ذِي الْقُرُونِ﴾^(١) الخ أم يتصل بحاضر نحو قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَتَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِّبَ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّكَ وَمَا أَرَيْتَهُ مِنَ الدَّلِيلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) أم يتصل بمستقبل نحو قوله جل ذكره في سورة النازعات: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ إِنْ أَنْ مَرَسَتْهَا﴾^(٣) الخ سواء وقع هذا النزول عقب سببه مباشرة، أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم، كما حدث ذلك حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين فقال ﷺ: «غداً أخرجكم» ولم يستثن (أي لم يقل إلا أن يشاء الله) فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً على ما رواه ابن إسحاق، وقيل ثلاثة أيام، وقيل أربعين يوماً، حتى شق عليه ذلك، ثم نزلت أجوبة تلك المقترحات، وفيها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشيئة ويقول له في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايئٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۗ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُنُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتُ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا﴾^(٤)

ثم إن كلمة «أيام وقوعه» في تعريف سبب النزول قيد لا بد منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداءً من غير سبب، بينما هي تحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلية، فبعض قصص الأنبياء السابقين وأممهم وكالحديث عن الساعة وما يتصل بها، وهو كثير في القرآن الكريم.

٢ - الآثار والفوائد المترتبة على معرفة أسباب النزول:

بمعرفة أسباب النزول تظهر آثار وفوائد شرعية، منها:

أولاً: وجه الحكمة الدافعة على التشريع.

ثانياً: تخصيص الحكم عند من يعتبر خصوص السبب لا عموم اللفظ^(٥)

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٣) سورة النازعات، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٦ - ٢٤.

(٥) ذكر الشوكاني في إرشاده (ورود العام على سبب خاص) وقد أطلق جماعة من أهل

الاصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وحكوا ذلك إجماعاً كما رواه

ثالثاً: الوقوف على المعنى، ومعرفة سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز^(١).

قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها، وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول مما يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب.

رابعاً: دفع توهم الحصر. كما فيما قاله الإمام الشافعي في معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أُجِدُّ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْسَةً أَوْ دَمًا مَسْفُورًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ... ﴾^(٢) إن الكفار لما حرموا ما أحل الله تعالى، وأحلوا ما حرم سبحانه، فكأنه قال لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه. من باب المصاداة لا نفيًا وإثباتًا على الحقيقة، ولم يكن المقصود حل ما وراء ما ذكر من المحرمات فالتقصيد إثبات التحريم لا إثبات الحل^(٣).

= (الزركشي في البحر)... ثم ذكر ما مفاده أن محل الخلاف ما كان أعم من السؤال كما في جوابه رحمته عن ماء بئر بضاعة، فقال: (الماء طهور لا ينجسه شيء) وذكر أن فيه خمسة مذاهب.

الأول: ويقول بوجود القصر على مخرج السؤال. ونسب هذا الرأي لبعض الشافعية. كما حكى عن أبي الحسن الأشعري، وغيره.

الثاني: ويقول بوجود الحمل على العموم... ولأن الحجة قائمة بما يقيد اللفظ وهو يقتضي العموم، ووروده على السبب لا يصلح معارضاً وإلى هذا ذهب الجمهور... ولأن الحكم معلق بلفظ الرسول دون ما وقع عليه السؤال.

الثالث: الوقف، ولم يعول عليه.

الرابع: التفصيل، بين أن يكون السبب سؤالاً فيختص به، وبين أن يكون مجرد وقوع حادثة فلا يختص بها، بل يعم.

الخامس: هو على العموم ما لم يعارضه عموم آخر.

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول / ١٣٤

وانظر: عبد الوهاب خلاف - علم أصول الفقه / ١٨٩.

(١) البرهان، ج ١ / ٢٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(٣) البرهان، ج ١ / ٢٣.

وقال محمد بن جزي في تفسيره ﴿ قل لا أجد ﴾ الآية تقتضي حصر الحرمات فيما ذكر، وقد جاء في السنة تحريم أشياء لم تذكر هنا كالحوم الحمراء، فذهب قوم إلى أن السنة نسخت هذا الحصر، وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب فلا تقتضي الحصر، وذهب آخرون إلى أن ما عدا ما ذكر إنما نهي عنه على وجه الكراهة لا على وجه التحريم^(١).

خاصاً ومنها قد يكون اللفظ عاماً، ويقوم دليل على التخصيص، فإن محل السبب لا يجوز إخراجها، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ يَوْمَ نَسْفَعُ عَنْبَتِ آلِ أَبِي سَبَّحٍ وَرُءُوسَهُمْ بِمِثْلِهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾^(٢) نزلت في شأن عائشة رضي الله عنها، وفيمن تعرض لها بالقلف، أنه سيُعذب ويعاقب^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسِنِينَ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِالْبَيِّنَاتِ فَهُمْ كَالْمُضِلِّينَ سَلْبَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾^(٤) فهذه عامة في بقية النساء المؤمنات، وفيها الغفران عقب التوبة بمحو الذنب وهي مخصصة لعموم الأولى دون إخراج السبب.

سادساً: ومنها إزالة الإشكال كما في الصحيح من أن مروان بن الحكم بعث إلى ابن عباس يسأله «الئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لتعدين أجمعين» يقصد ما فهمه من قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾^(٥).

فقال ابن عباس ما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب. ثم تلا ابن

(١) ابن جزي - التسهيل لعلوم التنزيل، ج ٢/ ٢٤. والنظر في تفسير ابن كثير، ج ٢/ ١٨٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٣ - ٢٤.

(٣) النظر في تفسير الشوكاني (فتح القدير) ج ٤/ ١٧.

(٤) سورة النور، الآية: ٤ - ٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٨.

عباس الآيات. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكنتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه^(١).

وذكر الزركشي: قال بعضهم: وما أجاب به ابن عباس عن سؤال مروان لا يكفي لأن اللفظ أعم من السبب، ويشهد له قوله ﷺ: «المتشع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»^(٢) وإنما الجواب أن الوعيد مرتب على أثر الأمرين المذكورين وهما الفرج وحب الحمد، لا عليهما أنفسهما، إذ هما من الأمور الطبيعية التي لا يتعلق بها التكليف أمراً ولا نهياً. قلت: لا يخفى عن ابن عباس رضي الله عنه أن اللفظ أعم من السبب، لكنه بين أن المراد باللفظ خاص^(٣).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤْا قُمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(٤)

قال ابن جرير: وقال آخرون: بيل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذ نأ من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق إلى غرب في مسيره في سقره وفي حال المسابقة وشدة الخوف^(٥).

وروي عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ يصلي على راحته تطوعاً أينما توجهت به، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤْا قُمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وقال في هذا أنزلت هذه الآية^(٦).

(١) انظر تفسير ابن كثير، ج ١/٤٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التكاثر، باب: المتشع بما لم يعط (الحديث: ٥٢١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب: النهي عن التزوير في اللباس وغيره (الحديث: ١٢٦)، والحددي (١٢٧٠).

(٣) البرهان، ج ١/٢٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٥) ابن كثير: التفسير الكبير، ج ١/١٨٥.

(٦) الشوكاني - فتح القدير، ج ١/١٣٠. وأخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: جواز صلاة النافلة على الدابة (الحديث: ٢٣).

فلو ترك مدلول اللفظ لافتضى عدم وجوب استقبال القبلة في الصلاة مطلقاً
وهذا خلاف لما أجمعت عليه الأمة، وكانت معرفة السبب عزيزة لهذا الإشكال،
ومبينة المراد من الآية^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ جِذَا طَعَمُوا
إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)
حكى عن قدامة بن مطعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان: الخمر
مباحة، ويحتاجان بهذه الآية، وخطي عليهما سبب نزولها، فإنه يمنع من ذلك،
وهو ما قاله الحسن وغيره: لما نزل تحريم الخمر، قالوا: كيف ياخواننا الذين
ماتوا وهي في بطونهم، وقد أخبر الله أنها رجس، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾^(٣).

سابعاً: معرفة أن سبب النزول خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها.
وذلك كقيام الإجماع على أن حكم السبب باق قطعاً. فيكون التخصيص قاصراً
على ما سواه. فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما حرج
بالتخصيص، مع أنه لا يجوز إخرجه قطعاً للإجماع المذكور، ولهذا يقول
الغزالي في المستصفى: ولذلك - يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص
بالاجتهاد - غلط أبو حنيفة رحمه الله في إخراج الأمة المستفرضة من قوله ﷺ
«الولد للفراش» والخبر إنما ورد في وليدة زمعة إذ قال عبد بن زمعة هو أخي
وابن وليدة أبي، ولد على فراشه. فقال عليه الصلاة والسلام «الولد للفراش
وللمعاهر الحجر»^(٤) فأثبت للأمة فراشاً وأبو حنيفة لم يبلغه السبب، فأخرج الأمة
من العموم، أم.

ثامناً: معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين، حتى لا يشبهه بغيره، فيتهم
البري، ويبرا المريب (مثلاً) ولهذا ردت عائشة على مروان حين اتهم أخاها

(١) البرهان، ج ١/٢٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

(٣) البرهان، ج ١/٢٨. والنظر في تفسير الشوكلي (فتح القدير) ج ٢/٧٥.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والسنائي وابن ماجه وغيرهم (الفتح الكبير ٣/٣٠٨).

عبد الرحمن بن أبي بكر بأنه الذي نزلت فيه آية: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُتِيَ لَكُمْ آيٌ ﴾^(١)
إلخ. من سورة الأحقاف، وقالت «والله ما هو به»، ولو شئت أن أسميه لسميته إلى
آخر تلك القصة.

تاسعاً: تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي، في ذهن كل من
يسمع الآية إذا عرف سببها، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام
بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل أولئك من دواعي
تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في
الفكرة، وذلك هو قانون تداعي المعاني، المقر في علم النفس.

٣ - طريق معرفة سبب النزول:

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح، روى الواحدي بسنده
عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إتقوا الحديث إلا ما علمتم فإنه من
كذب عليّ متعمداً فليتبوا مقعده من النار. ومن كذب على القرآن من غير علم
فليتبوا مقعده من النار»^(٢).

ومن هنا لا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسمع ممن
شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها اهـ.

وعلى هذا فإن روى سبب النزول عن صحابي فهو مقبول، وإن لم يعرف
برواية أخرى تقويه. وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للإجتهد فيه، حكمه
حكم المرفوع إلى النبي ﷺ لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك
من تلقاء نفسه على حين أنه خير لا مرد له إلا السماع والنقل، أو المشاهدة
والرواية.

أما إذا روى سبب النزول بحديث مرسل، أي سقط من سنده الصحابي

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٧.

(٢) حديث متواتر أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد في مسنده،
عن أنس رضي الله عنه، كما روي من عدة طرق أخرى صحيحة.

وانتهى إلى التابعي، فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا صح واعتقد بمرسلي آخر، وكان الراوي له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة، كمجاهد وعكرمة وسعد بن جبير.

٤ - تعدد الأسباب والنازل واحد:

إذا جاءت روايتان في نازل واحد من القرآن، وذكرت كل من الروائين سبباً صريحاً غير ما تذكره الأخرى، نظر فيهما فإذا أن تكون إحداهما صحيحة، والأخرى غير صحيحة، وإما أن تكون كلتاها صحيحة ولكن لإحداهما مرجح دون الأخرى، وإما أن تكون كلتاها صحيحة، ولا مرجح لإحداهما على الأخرى، ولكن يمكن الأخذ بهما معاً. وإما أن تكون كلتاها صحيحة، ولا مرجح، ولا يمكن الأخذ بهما معاً، فنلك صور أربع. لكل منها حكم خاص نسوقه إليك.

أما الصورة الأولى: - وهي ما صحت فيه إحدى الروائين دون الأخرى - فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، ورد الأخرى غير الصحيحة مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب قال: «اشتكى النبي ﷺ فلم يغم ليلة أو ليلتين». فأنته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ (١)، وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة، عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادماً رسول الله ﷺ: «أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ، فدخلت تحت السرير فماتت، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا يتزل عليه الوحي فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبريل لا يأتيني».

فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنته، فأهويت بالمكثنة تحت السرير، فأخرجت الجرو فجاء النبي ﷺ ترعداً^(٢) لحينه، وكان إذا نزل عليه أخذته

(١) سورة الضحى، الآية: ١ - ٣.

(٢) ترعداً: تضطرب.

البرعدة، فأنزل الله: (والضحى) إلى قوله (فترضى)^(١). فنحن بين هاتين الروايتين نقدم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها، دون الثانية لأن في إسنادها من لا يعرف. قال ابن حجر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسنادها من لا يعرف؛ فالمعتمد ما في الصحيح.

وأما الصورة الثانية: - وهي صحة الروايتين كليهما وإحداهما مرجح - فتحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة؛ والمرجح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى، أو أن يكون راوي إحداهما شاهداً للقصة دون راوي الأخرى.

مثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: كتبت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عيب. فمر بقر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتهم. فقالوا حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه بوحي إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُ﴾^(٢). وما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: «قالت قريش لليهود، أعوطنا شيئاً نسال هذا الرجل، فقالوا اسألوه عن الروح فسألوه، فأنزل الله: ﴿وَسْئَلُوكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية».

فهذا الخبر الثاني يدل على أنها بمكة، وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه. أما الأول فصريح في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه. وهو أرجح من وجهين، أحدهما أنه رواية البخاري، أما الثاني فإنه رواية الترمذي، ومن المقرر أن ما رواه البخاري أصح مما رواه غيره. ثانيهما أن راوي الخبر الأول وهو ابن مسعود كان شاهداً للقصة من أولها إلى آخرها كما تدل على ذلك الرواية الأولى، بخلاف الخبر الثاني فإن رواية ابن عباس لا تدل الرواية على أنه كان حاضر القصة، ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وفي الأداء، وفي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: سورة والضحى (الحديث: ٢٢٩٥٠)، وأخرجه أيضاً في كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزول الوحي (الحديث: ٤٩٨٣).
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥. والحديث أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ﴿ولقد سئلت كلمتنا...﴾ (الحديث: ٧٤٥٦).

الاستيثاق ليست لغير المشاهدة. ومن هنا أعملنا الرواية الأولى. وأعملنا الثانية.

وأما الصورة الثالثة: - وهي ما استوت فيه الروايتان من الصحة، ولا مرجح لإحدهما، ولكن يمكن الجمع بينهما، بأن كلاً من السبين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً، لتضارب زمنيتهما - فيمكن في هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب لأنه ظاهر، ولا مانع يمنع.

قال ابن حجر: «لا مانع من تعدد الأسباب».

مثال ذلك: ما أخرجه البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن محماد. فقال النبي ﷺ: «البينة أو حدّ في ظهرك». فقال: يا رسول الله، إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلاً يتطلق بيلمس البينة^(١). وفي رواية أنه قال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، وليترنن الله تعالى ما يبرىء ظهري من الحد فتزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ لِرَبِّهِمْ وَاَزْوَاجِهِمْ وَلِرَبِّهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾^(٢) حتى بلغ ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ اهـ. وهذه الآيات من سورة النور.

وأخرج الشيخان «واللفظ للبخاري» عن سهل بن سعد «أن عويمراً أتى عاصم بن عدي، وكان من بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقنته فنقتلونه. أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله «وفي رواية مسلم» فسأل عاصم رسول الله ﷺ فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها. فقال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك فجاءه عويمر فقال يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلاً، أيقنته فنقتلونه، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك. فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سعى الله في كتابه فلاعه»^(٣) اهـ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: إذا ادعى أو قذف (الحديث: ٢٦٧١).

(٢) سورة النور، الآية: ٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: سورة النور (الحديث: ٤٧١٥)، وأخرجه أيضاً في كتاب: الطلاق، باب: من أجاز طلاق الثلاث. (الحديث: ٥٢٥٩). وأخرجه

فهاتان الروايتان صحيحتان، ولا مرجح لإحدهما على الأخرى. ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانيهما، على اعتبار أن أول من قال هو هلال بن أمية، ثم فقاه عويمر قبل إجابته، فسأل بواسطة عاصم مرة وبغضه مرة أخرى، فأنزل الله الآية إجابة للحادثين معاً، ولا ريب أن أعمال الروائين بهذا الجمع أولى من أعمال إحدهما وإهمال الأخرى، إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه. ثم لا جائز أن تردهما معاً، لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما، ولا جائز أيضاً أن نأخذ بواحدة ونرد الأخرى، لأن ذلك ترجيح بلا مرجح، فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معاً.

وإليه جرح النووي وسبقه إليه الخطيب فقال: «لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد» اهـ.

ويمكن أن يفهم من الرواية الثانية أن آيات الملاعة نزلت في هلال أولاً ثم جاء عويمر فأفتاه الرسول بالآيات التي نزلت في هلال: قال ابن الصباغ: قصة هلال نبين أن الآية نزلت فيه أولاً. وأما قوله ﷺ لعويمر «إن الله أنزل فيك وهي صاحبك» فمعناه ما نزل في قصة هلال، لأن ذلك حكم عام لجميع الناس.

وأما الصورة الرابعة: - وهي استواء الروائين في الصحة، دون مرجح لإحدهما، ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعده الزمان بين الأسباب - فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعد وأسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان، أو تلك الروايات - لأنه إعمال لكل رواية، ولا مانع من ذلك.

قال الزركشي في البرهان: «وقد ينزل تعظيماً لشأنه، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه» اهـ.

مثال ذلك: ما أخرجه البيهقي والبخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على حبرة حين استشهد وقد مثل به، فقال: «الأمثلن بسبعين منهم مكانك» فنزل جبريل - والنبي ﷺ واقف - بخواتيم سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا

مسلم في كتاب اللعان، الحديث: (١).

عَوْفِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ وَهِيَ ثَلَاثُ آيَاتٍ.

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال: «لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة، منهم حمزة، قتلوا به، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنتربص (أي لتزيدن) عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله ﴿وَلِئِن عَاقَبْتُمْ﴾ الآية»^(٢).

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد، والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة، على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين، فبعد أن يكون نزول الآية كان مرة واحدة عقبيهما معاً. وإذن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها، مرة في أحد ومرة يوم الفتح. وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية، وعليه فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين لأنها في المدينة، وتكون عدة مرات نزولها ثلاثاً، وبعضهم يقول إن سورة النحل مكية ما عدا خواتيمها تلك فإنها مدنية، وعليه فعدة مرات نزولها اثنتان فقط.

٥ - تعدد النازل والسبب واحد:

قد يكون أمر واحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعددة «على عكس ما سبق» ولا مانع من ذلك، لأنه لا يناقض الحكمة في إقناع الناس، وهداية الخلق، وبيان الحق عند الحاجة، بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان.

مثال السبب الواحد: نزل فيه آيتان، ما أخرجه ابن جرير الطبري والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٦. والحديث أخرجه البيهقي ٣٠/٩، وفي مجمع الزوائد ١١٩/٦.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير باب: ومن سورة النحل (الحديث: ٣١٢٩)، وأخرجه الحاكم: ٣٥٩/٢.

وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فخلقوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فانزل الله: ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كُفَّةً وَالْكَفْرُ وَكَفَرُوا بِمَدَائِلِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَوْ يَتَّوَلَّوْا وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْنَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا بِنُكْحَانِكُمْ فَتَبَرَّ مِنْهُمَ وَإِنْ يَسْتَوَلُّوا بِعَدَائِهِمْ اللَّهُ عَذَابُ أَلِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١﴾ من سورة التوبة.

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالوا: فانزل الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جِزْمًا يَخْلُقُونَ لَهُمْ كَمَا يَخْلُقُونَ لَكُمْ وَيَحْسُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِنَّمَا هُمْ الْكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ استحوذ عليهم الشيطان فأنسهم وذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الفاسقون ﴿١٣﴾﴾.

ومثال السب الواحد يتزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فانزل الله: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٤﴾﴾.

وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت: يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فانزلت ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ (١٤) وانزلت ﴿إِنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾.

- (١) سورة التوبة، الآية: ٧٤.
- (٢) سورة المجادلة، الآية: ١٨ - ١٩. وأخرجه أحمد في مسنده ٣٦٧/١، والحاكم ٤٨٢/٢.
- (٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥. وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة آل عمران (الحديث: ١٠)، كما سبه إليه الإمام المنذري في تحفة الأشراف ٤٥/١٣ - ٤٦.
- (٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥. وأخرجه الحاكم ٤١٦/٢.

وأخرج الحاكم أيضاً أنها قالت تغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا
نصف الميراث.

فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسْتَمْتُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١) وأنزل: ﴿إِنَّ
الْمُتَلِيمَاتِ وَالْمُتَلِيمَاتِ﴾.

* * *

بعضنا لبعضنا

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢. وأخرجه الحاكم ٣٠٥/٢.

الفصل الخامس

الأحرف السبعة

أولاً - الأحاديث الواردة في الأحرف السبعة:

روى البخاري ومسلم عن طريق ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، قال: «أقراني جبريل عليه السلام على حرف، فراجعته، ثم لم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف» ومقاد هذا النص، قد روي عن جمع غفير من صحابة رسول الله، رضي الله عنهم، أمثال: ابن عباس وأبي بن كعب وحذيفة وأبو بكر وسمرة بن جندب وأبو هريرة وأم أيوب وأبو جهم وابن مسعود وعمر وأنس وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل وهشام بن حكيم وأبو سعيد الخدري وأبو طلحة الأنصاري وأبو أيوب، وغيرهم كثير^(١).

وقد أخرج أئمة السنة من طرق متعددة، منها:

١ - روى أحمد عن طريق أبي بن كعب، قال: كنت في المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه،

(١) ابن كثير: فضائل القرآن، ٢٨، الإتيان، ج ١/٤٥. المناهل، ج ١/١٣٢. والحديث أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (الحديث: ٣٢١٩)، وكذلك في كتاب: فضائل القرآن، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف (الحديث: ٤٩٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف، وبيان معناه (الحديث: ٢٧٧٢).

فدخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل هذا قرأ سوي قراءة صاحبه، فقال لهما النبي ﷺ: إقرأوا، فقرأ، فقال: أصبتما، فلما قال لهما النبي ﷺ الذي قال، كبر علي ولا إذا كنت في الجاهلية، فلما رأى الذي غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً، وكأنا أنظر إلى الله فرقاً فقال: «يا أي إن الله أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوّن على أمي، فأرسل إلي أن أقرأ على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمي، فأرسل إلي أن أقرأ على سبعة أحرف»^(١).

٢ - روى ابن جرير عن طريق أبي بن كعب، أنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنزل القرآن على سبعة أحرف».

٣ - وروى أحمد بإسناد صحيح، عن طريق سمرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»^(٢).

٤ - وروى أحمد بإسناد صحيح، عن طريق أم أيوب الأنصارية، أن رسول الله ﷺ، قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيها قرأت أجزاء»^(٣).

٥ - وروى البخاري، أن عمر بن الخطاب قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ، فكذت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلبته بردائه فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد قرأها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم يقرئها، فقال رسول الله ﷺ: اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال ﷺ: كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي قرأتني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه».

وقد رواه الإمام أحمد والبخاري أيضاً ومسلم وأبو داود والنسائي

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١١٤/٥.

(٢) أخرجه أحمد: ٢٢/٥.

(٣) أخرجه أحمد: ٣٣٢/٢.

والترمذي من طرق عن الزهري^(١). ونص على تواتره عند أبي عبيد، لما رأى من كثرة الجموع الراوية لهذا الخبر، حيث يمتنع تواطؤهم على الكذب، على رسول الله ﷺ، إلا ما ورد عند الحاكم عن طريق سمرة بن جندب من أنه نزل على ثلاثة أحرف، وقد أنكر بأنه لا يحفظ إلا سبعة^(٢). وأخرج أبو يعلى في مسنده، أن عثمان قال على المتبر: أذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، كلها شاف كاف، لما قام فقاموا حتى لم يحصلوا فشهدوا بذلك، فقال: وأنا أشهد معهم^(٣).

٦ - أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أن رجلاً قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو إنما هي كذا وكذا فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأبى ذلك قرأتهم أصبم، فلا تماروا»^(٤).

قال في القاموس: ساراه معاراة ومراء، وامترى فيه وتمارى: شك. والمعربة بالكسر والضم. الشك والجدل.

٧ - روى الحاكم وابن حبان بسندهما عن ابن مسعود قال: أقراني رسول الله ﷺ سورة من آل حم، فرحت إلى المسجد فقلت لرجل أقرأها، فإذا هو يقرؤها حروفاً ما أقرؤها. فقال أقرانيها رسول الله ﷺ فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فأخبرناه، فتغير وجهه وقال: «إنما أهلك من قبلكم الاختلاف» ثم أسر إلى علي شيئاً، فقال علي: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما

(١) انظر هذه الروايات في فضائل القرآن لابن كثير، ٢٨. وقد أخرجها كل من البخاري (حديث: ٢٤١٩)، ومسلم (حديث: ٢٧٠)، والترمذي (حديث: ٢٩٤٣)، والنسائي (حديث: ٩٣٥، وأبو داود (حديث: ١٤٧٥).

(٢) الإقناع، ج ١/٤٥. البرهان، ج ١/٢١٠. وقد شك صاحب المناهل في مرتبة هذا النص - السبعة أحرف - محتجاً بأنه حرف تواتره في الطبقة الأولى فقط، دون الطبقتين الأخيرتين، وشرط التواتر أن يكون في الثلاث طبقات المتتاليات، وهذا الشرط غير موجود.

(٣) الإقناع، ج ١/٤٥.

(٤) أخرجه أحمد: ٣٩١/٥.

علم . قال فانطلقنا وكل رجل يقرأ حروفاً لا يفروها صاحبه^(١) .

٨ - وأخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود أيضاً أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبي ﷺ يقرأ خلافها . قال : فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ فقال : «كلاهما محسن ، فاقرا» قال شعبة أخذ رواة هذا الحديث : أكبر علمي أن النبي ﷺ قال : «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكوا»^(٢) .

٩ - روى الطبري والطبراني عن زيد بن أرقم قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أقراني ابن مسعود سورة أقرانيها زيد بن ثابت وأقرانيها أبي بن كعب ، فاختلفت قراءتهم ، فبقراءة أيهم أخذ؟ فسكت رسول الله ﷺ وعلي إلى جنبه ، فقال علي : «ليقرأ كل إنسان منكم كما علم ، فإنه حسن جميل» .

١٠ - وأخرج ابن جرير الطبري عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ولا حرج ولكن لا تخاصموا ذكر رحمة بعذاب ، ولا ذكر عذاب برحمة» .

ثانياً - شواهد بارزة في هذه الأحاديث الواردة :

إن الناظر في هذه الأحاديث الشريفة وما مائلها ، يستطيع أن يقيم منها شواهد بارزة ، تكون منارات هدى ، ومصادر إشعاع ونور ، ترشده إلى ما عسى أن يكون هو الحق والصواب في بيان معنى الأحرف السبعة ، كما يستطيع أن يأخذ منها الحق والصواب في بيان معنى الأحرف السبعة ، كما يستطيع أن يأخذ منها موازين ومقاييس يحاكم إليها كل ما شجر من هذا الخلاف البعيد ، في هذا الموضوع الدقيق .

(الشاهد الأول) أن الحكمة في نزول القرآن على الأحرف السبعة هو

(١) أخرجه الحاكم ٢/٢٢٣ ، وابن حبان في كتاب : الرقائق ، باب : قراءة القرآن (الحديث : ٧٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب : فضائل القرآن ، باب : اقرأوا القرآن ما اتلفت فلوكم (الحديث : ٥٠٦٢) .

السير على الأمة الإسلامية كلها، خصوصاً الأمة العربية التي شوقته بالقرآن
لأنها كانت قبائل كثيرة، وكان بينها اختلاف في اللهجات ونبرات الأصوات،
وظريقة الأداء وشهرة بعض الألفاظ في بعض المدلولات على رغم أنها كانت
تجمعها العروبة ويوحد بينها اللسان العربي العام، فلو أخذت كلها بقراءة القرآن
على حرف واحد، لشق ذلك عليها كما شق على القاهري منا أن يتكلم بلهجة
الأسبوطي مثلاً. وإن جمع بيننا اللسان المصري العام. وألفت بيننا الوطنية
المصرية في القطر الواحد، وهذا الشاهد تجده مائلاً بوضوح بين الأحاديث
السالفة في قوله ﷺ في كل مرة من مرات الاستزادة فرددت إليه أن هون على
أمتي، وقوله: أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتي لا تطيق ذلك. ومن أنه ﷺ
لقي جبريل فقال: يا جبريل إني أرسلت إلى أمة أمية فيهم الرجل والمرأة،
والغلام والجمارية، والشيخ القاهري الذي لم يقرأ كتاباً قط الخ.

قال المحقق ابن الجزري: «أما سبب وروده على سبعة أحرف فالتخفيف
على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرفاً لها، وتوسعة ورحمة
وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبينا أفضل الخلق وحيب الحق، حيث أتاه
جبريل فقال: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال ﷺ: أسأل
الله معافاته ومغفرته فإن أمتي لا تطيق ذلك. ولم ينزل يردد المسألة حتى بلغ
سبعة أحرف» ثم قال: «وكما ثبت أن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة
أحرف، وأن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد، وذلك أن الأنبياء عليهم
الصلوة والسلام كانوا يعثون إلى قومهم الخاصين، والنبي ﷺ بعث إلى جميع
الخلق أحمرهم وأسودهم، عربهم وعجميهم، وكان العرب الذي نزل القرآن
بلغتهم، لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى
غيرها، أو من حرف إلى آخر. بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو
بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ، والمرأة ومن لم يقرأ كتاباً كما أشار إليه ﷺ»
قلو كلغوا العدول عن لغتهم، والانتقال عن ألسنتهم، لكان من التكليف بما لا
يستطاع وما عسى أن يتكلف وتأني الطباع».

ثالثاً - فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتعدد الحروف :

كل ما مر عليك في الشاهد الأول تقرير لحكمة واحدة، وقائدة واحدة من فوائد اختلاف القراءات وتعدد الحروف التي نزل عليها القرآن الكريم وهي أبرز الفوائد وأشهرها وأقربها إلى الذهن. ونحيطك علماً هنا بأن لهذا الاختلاف والتعدد فوائد أخرى :

منها جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسان واحد يوحد بينها، وهو لسان قريش الذي نزل به القرآن الكريم، والذي انتظم كثيراً من مختارات السنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وأسواق العرب المشهورة.

فكان القرشيون يستملحون ما شاءوا، ويصطفون ما راق لهم من ألفاظ الوفود العربية القادمة إليهم من كل صوب وحذب ثم يصفقونه ويهلّبونه ويدخلونه في دائرة لغتهم المرنة، التي أذعن جميع العرب لها بالرعاية، وعقدوا لها راية الإمامة.

وعلى هذه السياسة الرشيدة نزل القرآن على سبعة أحرف يصطفى ما شاء من لغات القبائل العربية، على فسط سياسة القرشيين بل أوفق، ومن هنا صح أن يقال: إنه نزل بلغة قريش، لأن لغات العرب جمعاء تمثلت في لسان القرشيين بهذا المعنى.

وكانت هذه حكمة إلهية سامية، فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل في وحدة الأمة، خصوصاً أول عهد بالتوثب والنهوض.

ومنها بيان حكم من الأحكام، كقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُؤْرِكُ كَلِمَةً أَوْ امْرَأَةً وَوَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا الشُّمُّ﴾^(١) قرأ سعد بن أبي وقاص (وله أخ أو أخت من أم) بزيادة لفظ «من أم»^(٢) فتبين منها أن المراد بالإخوة في هذا الحكم الإخوة للام دون الأشقاء ومن كانوا لأب، وهذا أمر مجمع عليه.

(١) سورة النساء، الآية: ١٢.

(٢) وهي من القراءات الشاذة.

ومثل ذلك قوله سبحانه في كفارة اليمين: ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَلْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ وجاء في قراءة: «أو تحرير رقبة مؤمنة» بزيادة لفظ، «مؤمنة» فتبين بها اشتراط الإيمان في الرقيق الذي يعتق كفارة يمين. وهذا يؤيد مذهب الشافعي ومن نحا نحوه في وجوب نوافل ذلك الشرط.

ومنها الجمع بين حكمين مختلفين بمجموع القراءتين، كقوله تعالى: ﴿ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد في حرف الطاء من كلمة «يطهرن» ولا ريب أن صيغة التشديد تفيد وجوب المبالغة في طهر النساء من الحيض لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

أما قراءة التخفيف فلا تفيد هذه المبالغة. ومجموع القراءتين يفيد أمرين: أحدهما أن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر، وذلك بانقطاع الحيض.

وثانيهما أنها لا يقربها زوجها أيضاً إلا إن بالغت في الطهر وذلك بالاغتسال، فلا بد من الطهرين كليهما في جواز قربان النساء. وهو مذهب الشافعي ومن وافقه أيضاً.

ومنها الدلالة على حكمين شرعيين ولكن في حالين مختلفين: كقوله تعالى في بيان الوضوء ﴿ فَأَعْبِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الرَّأْفِقِ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾^(٢) قرئ بنصب لفظ «أرجلكم» ويجزها، فالتصبي يفيد طلب غسلها لأن العطف حيثذ يكون على لفظ «وجوهكم» المنصوب، وهو مغسول. والجر يفيد طلب مسحها لأن العطف حيثذ يكون على لفظ «رؤوسكم» المجزورة وهو مسح.

وقد بين الرسول ﷺ أن المسح يكون للابس الخف وأن الغسل يجب على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

من لم يلبس الخف،

ومنها دفع توهم ما ليس مراداً كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّى
لِلصَّلَاةِ مِنْ بَيْتِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١) وقرئ: «فأمضوا إلى ذكر الله».

فالقراءة الأولى يتوهم منها وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة،
ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم لأن المعنى ليس من مدلوله السرعة.

ومنها: بيان لفظ مبهم على البعض نحو قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾^(٢) وقرئ: «كالصوف المنفوش» فبيئت القراءة الثانية
أن العهن هو الصوف.

ومنها تجلية عقيدة ضل فيها بعض الناس، نحو قوله تعالى في وصف
الجنة وأهلها: ﴿وَلِئَا رَأَيْتَ نَمْرًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾^(٣) جاءت القراءة بضم
الميم وسكون اللام في لفظ ﴿وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾^(٤) وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم
وكسر اللام في هذا اللفظ نفسه فرفعت هذه القراءة الثانية نقاب الخفاء عن وجه
الحق في عقيدة رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة، لأنه سبحانه هو الملك
وحده في تلك الدار ﴿لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾^(٥).

والخلاصة أن تنوع القراءات، يقوم مقام تعدد الآيات، وذلك ضرب من
ضروب البلاغة، يبتدىء من جمال هذا الإيجاز، وينتهي إلى كمال الإعجاز.

أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة، والأدلة
القاطعة على أن القرآن كلام الله، وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ،
فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء
وتضاد، ولا إلى تهافت وتخاذل، بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه
بعضاً، ويبين بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد في علو

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٢) سورة القارعة، الآية: ٥.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢٠.

(٤) سورة عافراً، الآية: ١٦.

الأسلوب والتعبير، وهدف واحد من سحر الهداية والتعليم، وذلك - من غير شك - يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف.

ومعنى هذا أن القرآن معجز إذا قرئ بهذه القراءة الأولى، ومعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثانية، ومعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة، وهلم جرأً، ومن هنا تعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف.

ولا ريب أن ذلك على صدق محمد ﷺ، لأنه أعظم في اشتغال القرآن على متاح جمّة في الإعجاز وفي البيان، على كل حرف ووجه، ويكفل لهجة ولسان ﴿لَيْتِهَلْكَ مَنْ هَلَكَ عَمَّا يَتَّبِعُ وَيَتَّبِعْ مَنْ حَمَىٰ عَمَّا يَتَّبِعُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١١)

(الشاهد الثاني) أن مرات استزادة الرسول للتيسير على أمته، كانت ستاً غير الحرف الذي أقرأه أمين الوحي عليه أول مرة فتلك سبعة كاملة بمنطوقها ومفهومها. تأمل حديث ابن عباس السابق وقول الرسول ﷺ فيه: أقرأني جبريل على حرف، فراجعت، فلم أزل أستزيد، ويزيدني حتى بلغ سبعة أحرف، وكذلك جاء في حديث أبي بكر أن النبي ﷺ قال «فنظرت إلى ميكائيل فسكت فعلمت أنه قد انتهت العدة»، يضاف إلى ذلك المراجعات الثابتة في الأحاديث الأخرى، وإن كانت لم تبلغ ستاً صراحة، غير أن الحديث جاء بلفظ السبعة، فيعلم من مجموع تلك الروايات، أن المراد بلفظ سبعة حقيقة العدد المعروف في الأحاد بين الستة والثمانية.

(الشاهد الثالث) أن من قرأ حرفاً من هذه الحروف فقد أصاب شاكلة الصواب أي كان ذلك الحرف، كما يدل فيما مضى قوله ﷺ: فأبما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا. وقوله ﷺ لكل من المختلفين في القراءة: «أصبت» وقوله ﷺ لهما في رواية ابن مسعود: كلاكما محسن، وقوله ﷺ فيما يرويه عمرو بن العاص: فأبى ذلك قرأتم أصبتم، وعدم موافقته ﷺ لعمر، وأبى ابن مسعود وعمرو بن العاص، على معارضة مخالفيهم بالطرق الآتفة في الأحاديث السالفة،

(١١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

ودفعه في صدر أبي حين استصعب عليه أن يقرأ هذا الاختلاف في القراءة. ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهي البالغ عن منع أي أحد من القراءة بأي حرف من الأحرف السبعة النازلة.

(الشاهد الرابع) أن القراءات كلها على اختلافها كلام الله، لا مدخل لبشر فيها. بل كلها نازلة من عنده تعالى، مأخوذ بالتلقي عن رسول الله ﷺ يدل على ذلك أن الأحاديث الماضية تفيد أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يرجعون فيما يقرؤون إلى رسول الله ﷺ، يأخذون عنه، ويتلقون منه كل حرف يقرؤون عليه، أنظر قوله ﷺ في قراءة كل من المختلفين: «هكذا أنزلت» وقول المخالف لصاحبه: «أقرأنيها رسول الله ﷺ».

ثم أضف إلى ذلك أنه لو صح لأحد أن يغير ما شاء من القرآن بمرادفه أو غير مرادفه، لبطلت قرآنية القرآن وأنه كلام الله، وللعب الإعجاز ولما تحقق قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون﴾. ثم إن التبديل والتغيير مردود من أساسه بقوله سبحانه في سورة يونس: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِشِرْكِنَا أَوْ بِرِئَانِنَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِغَيْرِ إِذْنِ اللَّهِ إِنْ أَسْمِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّي لَأَنفٌ رَّقِيٌّ عَذَابٌ بَؤْسٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ قُلْ أَوْسَىٰ اللَّهُ مَا سَأَلْتُمْ عَلَيْهِ كُفْرًا وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾.

فإذا كان أفضل الخلق محمد ﷺ قد تخرج من تبديل القرآن بهذا الأسلوب، فكيف يسوغ لأحد مهما كان أمره أن يبدل فيه ويغير بمرادف أو غير مرادف؟ ﴿سُبْحٰنَكَ فَكُلَّمًا مَقْبُولٌ عَلَيْهِمْ ﴿١١﴾﴾.

(الشاهد الخامس) أنه لا يجوز منع أحد من القراءة بأي حرف من تلك الأحرف السبعة النازلة ويدل على ذلك قوله ﷺ: «فلا تماروا فيه، فإن المراء فيه كفر» وعدم موافقته لعمره، وأبي، وابن مسعود وعمرو بن العاص، على معارضة مخالفهم بالطرق الآتية، في الأحاديث السالفة ويدل على ذلك أيضاً دفعه في

(١) سورة يونس، الآية: ١٥ - ١٦.

(٢) سورة النور، الآية: ١٦.

صدر أي حين استصعب عليه أن يقر هذا الاختلاف في القراءة. ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهي البالغ عن منع أي أحد من القراءة بأي حرف من الأحرف السبعة النازلة.

(الشاهد السادس) أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا متحسين في الدفاع عن القرآن، مستبسلين في المحافظة على التنزيل، متيقظين لكل من يحدث فيه حدثاً ولو كان عن طريق الأداء واختلاف اللهجات منالغين في هذه اليقظة حتى ليأخذون في هذا الباب بالظن، وينافحون عن القرآن بكل عناية وهمة. وحسب استدلالاً على ذلك ما فعل عمر بصاحبه هشام بن حكيم، على حين أن هشاماً كان في واقع الأمر على صواب فيما فعل أبي بن كعب بصاحبه، وما كان من ابن مسعود وعمرو بن العاص وصاحبهما. والأحاديث بين يديك عن كعب، فارجع إليها إن أردت.

(الشاهد السابع) أنه لا يجوز أن نجعل اختلاف القراءات معركة جدال وتزاع وشقاق، ولا مثار تردد وتشكيك وتكذيب، ولا سلاح عصية وتطع وجمود.

على حين أن نزول القرآن على سبعة أحرف إنما كانت حكمته من الله التيسير والتخفيف والرحمة والتهوين على الأمة، فما يكون لنا أن نجعل من هذا اليسر عسراً، ومن هذه الرحمة نقمة! يرشد إلى ذلك قوله ﷺ فيما سبق: «فلا تماروا فيه فإن المراء في كفر». وكذلك تغير وجه الشريف عند اختلافهم مع قوله: «إنما أهلك من قبلكم الاختلاف» وضرره في صدر أبي بن كعب حين جال بخاطره حديث سوء في هذا الموضوع الجليل.

(الشاهد الثامن) أن المراد بالأحرف في الأحاديث السابقة وجوه الألفاظ وحدها لا محالة. بدليل أن الخلاف الذي صورته لنا الروايات المذكورة كان دائراً حول قراءة الألفاظ لا تفسير المعاني، مثل قول عمر: «إذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ» ثم حكم الرسول أن يقرأ كل منهما، وقوله ﷺ: «هكذا أنزلت». وقوله: «أي ذلك قرأتم فقد أصبتم»، ونحو ذلك. ولا ريب أن القراءة أداء الألفاظ لا شرح المعاني.

رابعاً - المراد بالأحرف السبعة:

لم تتفق كلمة الأئمة على رأي واحد فيما يزد بالأحرف السبعة، بل تعددت آراؤهم واختلفت مفاهيمهم، فبلغت الأربعين قولاً، منها ما هو ضعيف، ومنها ما هو قوي ولكل وجهة هو موليها.

ومن هذه المفاهيم والوجهات المتعددة، ما يقول، منها:

١ - هذا الحديث من المشكل^(١)، لا يعرف مراده ومعناه، وذلك لكون لفظة الحرف قد تعدد معناه، من حرف الهجاء والكلمة والمعنى والجهة.

ورد في القاموس: الحرف من كل شيء طرفه وشفيره وحده ومن الجبل أعلاه... «وعند النحاة ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل»... «ومن الناس من يعبد الله على حرف أي وجه واحد وهو أن يعبد الله على السراء، لا الضراء أو على شك^(٢)». وينسب هذا الرأي إلى الإمام أبي جعفر محمد بن سعدان النحوي أحد القراء، فقد نقل عنه، أنه قال: إنه من المشكل الذي لا يدري معناه، لأن العرب تسمي الكلمة المنظومة حرفاً، وتسمي القصيدة بأسرها كلمة، والحرف يقع على المنقطع من الحروف المعجمة والحرف أيضاً المعنى والجهة^(٣).

٢ - والمراد به، أنه - أي القرآن الكريم - قد أنزل على سبعة أحرف، أي سبع قراءات، وليس من الضروري، أن تكون كل كلمة تقرأ على سبعة أوجه، إذ هو من القلة القليلة، مثال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَمْآ آي﴾^(٤) بل منهما ما قرئ على

(١) انظر: منهج ذوي النظر (شرح منظومة علم الأثر للسيوطي).

(٢) القاموس المحيط: ج ٣/١٣١.

(٣) ذكره الزركشي في البرهان، ج ١/٢١٣. وانظر: الإتقان، ج ١/٤٥.

(٤) الآية رقم ٢٣ من سورة الإسراء. (قرأ ابن كثير وابن عامر «أف» بفتح الفاء. وقرأ نافع وحفص: «أف» بالتونين. وقرأ بالباقون «أف» خفصاً بغير تنوين. قال أبو عبيد، (من خفص بغير تنوين قال: إنما يحتاج إلى تنوين في الأصوات الناقصة التي على حرفين مثل (مه وهه) لأنها قلت فسموها بالنون. و«أف» على ثلاثة أحرف، قالوا: فما حاجتنا إلى التنوين؟ ولكننا إنما خفصنا لئلا نجتمع بين ساكتين. ومن قرأ «أف» بالفتح فهو مبتلي -

وجيهين، ومنها ما قرئ على ثلاثة، وإلى ما قرئ منها على سبع.

٣ - المراد بالأحرف السبعة، التيسير والتسهيل والسعة ولا حقيقة للعدد الذي هو بين الثمانية والستة، ولا يراد بالسبعة إلا إرادة الكثرة في الأحاد، كما يطلق: السبعون في العشرات والسبعمئة في المائتين، ولا يراد به العدد المعين المذكور. وقد أخذ بهذا القول، أئمة، وفي مقدمتهم عياض. ورد هذا القول، بصريح السنة الثابتة (أقراني جبريل على حرف فراجعت فلم أزل أستريده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف)، وقد علم أن هذا النص ورد من عدة طرق.

٤ - المراد بها، أوجه التغاير في القرآن الكريم، قال به ابن قتيبة، وهذه الأوجه هي:

أ - تغيير حركته ولا يزول معناه ولا صورته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْتَكِرُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾^(١)، قرئت بالمبني للفاعل «ولا يفتكر» أي لا يحدث ضرراً في كتابته وشهادته، ونسبت هذه القراءة إلى عمر وابن عباس وابن أبي إسحاق، وقرئت بالمبني للمفعول «ولا يفتكر» بفتح الراء الأولى، أي لا يجوز إلحاق الضرر به من الغير، ونسبت هذه القراءة إلى ابن مسعود^(٢).

ب - ما يتغير فعلاً، كما في (بعد وباعد) في الحركة والصورة والمعنى، وهذا في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعُدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٣)، فكلمة باعد قرئت على أوجه: قرأ الجمهور (باعد) وقرأ ابن كثير وغيره بتشديد

= على الفتح، وإنما يني على الفتح لالتقاء الساكنين والفتح مع التضعيف حسن لحقة الفتحة وتقل التضعيف، ومن تون أفاء فإنه في البناء على الكسر مع التنون مثل البناء على الفتح، إلا أنه بدخول التنون دل على التثنية مثل أفاء ومعناه. قال الزجاج: «ألف» غير متمكن بمنزلة الأصوات، فإذا لم يتون فهو معرفة. وإذا تون فهو نكرة بمنزلة (عاف) وعافى في الصوت، وهذه الكلمة يكتفي بها عن الكلام الفيح، لأن الألف وسخ الأظفار، والتنف الشيء الحقيق. (أبو زرعة عبد الرحمن بن زنجلة: حجة الفراءات، ٤٠٠).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) الشوكاني (فتح القدير) ج ١/ ٣٠٢.

(٣) سورة ساء، الآية: ١٩.

العين (بعَد) وقرأ آخرون (يَعُدُّ) بالماضي. فباختلاف الصورة والحركة اختلف المعنى. وقرأ غيرهم بتشديد العين المفتوحة (بعَدُ) ^(١). وعند ابن زنجلة ^(٢) في هذه الآية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فقالوا ربنا بعَد). وقرأ الباقون (باعد) بالألف.

قال سيويه: إن (فاعل وفعل) يجيئان بمعنى، كقولهم (ضاعف وضعت، وقارب وقرب). واللفظان جميعاً على معنى الطلب والدعاء، ولفظهما الأمر ^(٣).

ج - ما يتغير باللفظ، كما في نشرها، وقرئت نشرها، قال تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ لَآئِ الْبَظَائِرِ كَيْفَ تَنْشُرُهَا﴾ ^(٤) قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاي، وقرأ الباقون بالراء. ومعناها بالزاي، رفعها فوق بعضها البعض، وبالراء، الإحياء ^(٥). ولكل وجهة فيما ذهب وقال ^(٦).

د - ومنها ما كان على سبيل التبديل الحرفي ذي المخرج القريب (الحاء والعين) ويبدو هذا في قوله تعالى: ﴿وَطَلَعَ مَنْشُورًا﴾ ^(٧) ونسب إلى علي قراءة (وطلع منشود) ^(٨).

هـ - ما يتغير بالتقديم والتأخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَيَكُنَّ سَكْرَةً الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ ^(٩) قرئت بالتقديم والتأخير (وجاءت سكرة الحق بالموت) ونسبت هذه القراءة إلى أبي بكر الصديق وابن مسعود رضي الله عنهما ^(١٠).

و - ما يتغير زيادة ونقصاناً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ﴾

(١) فتح القدير، ج ٤/٣٢٢.

(٢) هو الإمام أبو زرععة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، صاحب كتاب (حجة القراءات).

(٣) حجة القراءات، ٥٨٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

(٥) تفسير الشوكاني (فتح القدير) ج ١/٢٨٠.

(٦) انظر: حجة القراءات، ١٤٤.

(٧) سورة الواقعة، الآية: ٢٩.

(٨) قراءة شاذة. لها بيان في مبحث القراءات.

(٩) سورة ق، الآية: ١٩.

(١٠) الشوكاني، ج ٥/٧٤.

وَالْأُمَّةُ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾، وقرأ ابن مسعود (والذكر والأنثى) ﴿٣٢﴾

ز - ما يتغير بالإبدال، كما في قوله تعالى: ﴿كَاتِبِينَ الْمُنْفُوسِ﴾ ﴿٣٣﴾
وقرئت (وكالصوف المنفوش) ﴿٣٤﴾

٥ - المراد بها سبع لغات لسبع قبائل من العرب، تفرقت في القرآن، لا أن السبعة في كل حرف واحد، وبهذا الرأي أخذ كثير من العلماء والأئمة، أمثال: أبو عبيد القاسم بن سلام وثعلب والسجستاني صاحب المبرد، والأزهري، ونسب إلى القاضي أبي بكر الباقلاني، وقيل بأنه المختار مما قبل فيها، كما حكى ذلك الأزهري، وهذا ما اختاره ابن عطية.

وقد بني هذا الرأي على ما ثبت من أمر عثمان رضي الله عنه، يوم نسخ القرآن من الصحف بمصحف واحد، ومما قاله يوم النسخ، للقريشيين الثلاثة - عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبيد الرحمن بن الحارث بن هشام - وإذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فأكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم ففعلوا. فلما اختلفوا وزيداً في رسم التابوت، وأراد زيد كتابتها بالهاء «التابوة» وخالفوه، قائلين بكتابتها بالتاء «التابوت» ورفع الأمر إلى الخليفة عثمان فأمر بكتابتها بلسان قريش (التابوت) ففعلوا.

وهذا ما رجحه البيهقي في شعب الإيمان، إنه الصحيح، أي أن المراد اللغات السبع التي هي شائعة في القرآن، واحتج بقول ابن مسعود: سمعت القراء فوجدتهم متقاربين، أقرأوا كما علمتم، وإياكم والتنطع، فإنما هو كقول أحدهم: هلم، وتعال، وأقبل، قال: وكذلك قال ابن سيرين، قال: لكن إنما تجوز قراءته على الحروف التي هي مثبتة في المصحف الذي هو الإمام بإجماع الصحابة، وحملوها عنهم دون غيرها من الحروف، وإن كانت جائزة في اللغة، وكانه يشير

(١) سورة الليل، الآية: ٣.

(٢) فتح القدير، ج ٥ / ٥.

(٣) سورة الفارعة، الآية: ٤.

(٤) الشوكاني، ج ٥ / ٤٨٥.

إلى أن ذلك كان عند إنزاله، ثم استقر الأمر على ما أجمعوا عليه في الإمامة^(١).

٦ - المراد بها، سبعة أنواع، كما وردت في النص: أخرج الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: (كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد، وعلى حرف واحد، وينزل القرآن عليّ من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومشابه وأمثلة... الحديث) قال ابن عطية: هذا القول ضعيف، لأن الإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال ولا تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة.

وهذا ما أنكره الكثير من الأئمة، أمثال: البيهقي والماوردي والأهوازي والهمداني وغيرهم كثير.

وقال أبو شامة في النص، مورد الكلام، يحتمل أن يكون التفسير المذكور للأبواب لا للأحرف، أي هي سبعة أبواب من أبواب الكلم وأقسامه، أي أنزله الله تعالى على هذه الأنواع، ولم يقتصر على نوع واحد، كغيره من الكتب.

وفي رتبة الحديث، قال ابن عبد البر: هو حديث عند أهل العلم، لا يثبت ومجمع على ضعفه^(٢). ويكفي رداً، على هذا الاحتمال، ما ورد من إجماع^(٣) المسلمين على تحريم إبدال آية أمثال بآية أحكام.

٧ - المراد بها: المطلق والمقيد والعام والخاص والنص والمؤول والناسخ والمنسوخ والمجمل والمفسر والاستثناء وأقسامه. وهذا ما نسب إلى الفقهاء، حكاه شيدلة^(٤).

٨ - المراد بها: الحذف والصلة والتقديم والتأخير والاستعادة والتكرار والكناية والحقيقة والمجاز والمجمل والمفسر والظاهر والغريب. وهذا ما نسب إلى أهل اللغة.

(١) انظر: التزكشي، البرهان، ج ١/٢١٨.

(٢) البرهان، ج ١/٢١٦.

(٣) قاله ابن عطية والماوردي، انظر البرهان، ج ١/٢٢٧.

(٤) الإنقان، ج ١/٤٨. المناهل، ج ١/١٢٩.

٩ - المراد بها: التذكير والتأنيث والشرط والجزاء والتصريف والإعراب والأقسام وجوابها والجمع والأفراد والتصغير والتعظيم واختلاف الأداء، وهذا ما نسب إلى التحاة.

١٠ - المراد بها السبعة أنواع من المعاملات: الزهد والقناعة مع اليقين والحزم والخوف مع الحياء والكرم والفتوة مع الفقر والمجاهدة، والمراقبة مع الخوف والرجاء والتضرع والاستغفار مع الرضا والشكر والصبر مع المحاسبة والمحبة مع الشوق والمشاهدة. وهذا ما نسب إلى الصوفية.

١١ - المراد بها: علم القرآن، بأنواعه:

أ - علم الإثبات والإيجاد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

ب - علم التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢).

ج - علم صفات الذات، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾^(٣).

د - علم صفات الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٤).

هـ - علم العفو والعدالة، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَتَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٥) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ^(٦).

و - علم الحشر والحساب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَأَرْتَبُ فِيهَا وَلَكِنَّا نَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٧).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٢) سورة الإخلاص، الآية: ١.

(٣) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ١.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٤٩ - ٥٠.

(٦) سورة غافر، الآية: ٥٩.

ز - علم النبوات، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾^(١).

ح - علم الإمامات، كما في قوله تعالى: ﴿يُنَادِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢).

١٢ - وهذا الرأي للإمام الرازي^(٣)، فيقول: إنها لا تخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف.

أ - اختلاف الأسماء من أفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث، مثل ما ورد في أفراد وجمع (أماناتهم)، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(٤) قرأ ابن كثير وحده: «الأماناتهم» على التوحيد، وحينئذ قوله: «وعهدهم راعون» ولم يقل «وعهدهم»، وقال بعض التحويين: وجه الأفراد، أنه مصدر واسم جنس فيقع على الكثرة وإن كان مفرداً في اللفظ. ومن هذا قوله: (كذلك زيننا لكل أمة عملهم) وقرأ الباقر: «الأماناتهم» وحينئذ إجماع الجميع على قوله: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» لورد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوه عليه أولى^(٥).

ب - الاختلاف في وجوه التصريف، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾^(٦) قرئت: بأعد وبعُد وبعُد وبعُد.

ج - الاختلاف في وجوه الإعراب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارُّكَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾^(٧) فإن قلنا: «لا» ناهية، تقرأ «لا يضار»، والأصل أن تكون الراء مجزومة، لولا إدغام المثلين (رر). ولأن قلنا: نافية، تقرأ «ولا يضار».

- (١) سورة الجمعة، الآية: ٢.
- (٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.
- (٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧.
- (٤) سورة المؤمنون، الآية: ٨.
- (٥) حجة القراءات، ٤٨٢.
- (٦) سورة سبأ، الآية: ١٩.
- (٧) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

د - الاختلاف في النقص والزيادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾^(١) قرئت بالحذف (والذكر والأنثى)^(٢).

هـ - الاختلاف في التقديم والتأخير، مثل ما ورد في: ﴿وَحَدَّاتٍ سَكْرَةً الَّتِي لَا يَأْكُلُ الْخَيْلُ﴾^(٣) قرئت (وجاءت سكرة الحق بالموت)^(٤).

و - الاختلاف في البدل، مثل ما ورد في: (نشرها) قرئت (نشرها) و (طلع) قرئت (وطلع)^(٥).

ز - الاختلاف في الأداء (اللهجات) كما في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنثِيَكَ حَدِيثَ مُوسَىٰ﴾^(٦) قرئت بالإمالة (نحو الكسر) وكذا «يلى» في قوله تعالى: ﴿يَا قَتَادَةَ عَلِيٌّ أَنْ تُسَوِّىَ بِنَاكِهِ﴾^(٧).

وكأداء التفضيم في «الصلاة» و «الطارق». هذا الوجه - إختلاف الأداء، واللهجات - من أهم الأوجه، لأنه يظهر مدى التخفيف والتيسير في الأداء لقبائل متعددة اللهجات^(٨).

١٣ - وهو للإمام ابن الجزري^(٩)، إذ يقول: تنبعت صحيح القراءات وشاذها وضعيفها ومنكرها، فإذا هي، يرجع اختلافها إلى سبعة

- (١) سورة الليل، الآية: ٣.
- (٢) قراءة ابن مسعود، واعترض عليها، بأنها قراءة آحادية لا يثبت بها قرآن. انظر: مسحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ١١٢.
- (٣) سورة ق، الآية: ١٩.
- (٤) قراءة أبي بكر، وهي آحادية، ومعارض عليها، من قبل: إنها شاذة. مباحث في علوم القرآن، ١١١.
- (٥) سورة البقرة، الآية: ٣٥٩. سورة الواقعة، الآية: ٢٩.
- (٦) سورة طه، الآية: ٩.
- (٧) سورة القيامة، الآية: ٤.
- (٨) انظر: مسحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ١١٢.
- (٩) هو الإمام المقرئ أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري. توفي سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية.

أوجه، لا يخرج عنها ذلك^(١):

أ - الاختلاف في الحركات، بلا تغيير في صورة ولا معنى، مثال قوله تعالى: ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾^(٢)، وفي قراءة (هن أطهر لكم).

ب - اختلاف في الحركات مع تغيير في المعنى، كما في (باعدا)، وفي قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّيْنِ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَيْتَرًا ﴾^(٣) قرئت «آدم» بالنصب، بناء على أن الفعل له «كلمات» وقرئت «آدم» بالرفع، ففعل التلقي لآدم، وتكون «كلمات» منصوبة^(٤).

ج - اختلاف في الحروف، به يتغير المعنى دون الصورة، كما في (نشرها) و(نشرها) فالنشر: التركيب، والنشر: الأحياء.

د - إختلاف في الحروف مع تغير الصورة فقط، كما في (الصراط والسراط) قرأ ابن كثير «السراط»، وحجته في ذلك: أن السين هي الأصل، ولا ينتقل عن الأصل إلى ما ليس بأصل، كما روي عن ابن عباس أنه يقرأها بالسين^(٥).

هـ - اختلاف في الصورة والمعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَعْوَا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(٦) قرئت (فامضوا إلى ذكر الله).

و - تغيير بالتقديم والتأخير، كما في ﴿ قَيْسُلُونَ ﴾ وقرئت (ويقتلون).

ز - تغير بالزيادة والنقصان، كما في ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ وقرئ: (والذكر والأنثى) منسوبة إلى ابن مسعود وأبي الدرداء.

وقد أنكر ابن الجزري أشياء عدت لدى البعض من الأحرف السبعة، مثل: الإظهار، والإدغام، الزوم، الإشمام، التخفيف، التسهيل، النقل والإبدال، وقال فيها: فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى، لأن هذه الصفات

(١) الإتقان، ج ١/ ٤٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٧٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

(٤) حجة القراءات، ١٤.

(٥) حجة القراءات، ٨٠.

(٦) سورة الجمعة، الآية: ٩.

المشوعة في الأدعاء، لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً^(١).

خامساً - خاتمة القول في الأحرف السبعة:

مما مضى، يبدو أنه لا إتفاق بين الأئمة فيما يراد بالأحرف السبعة، وإنما تعددت أقوالهم ومفاهيمهم، منها ما هو مقبول، ومنها ما لا يعول عليه، لفقدانه الدليل الاستنادي، وأكثر ما هو مقبول، متداخل مع بعضه البعض.

وأكثر الآراء اعتماداً أربعة أقوال:

الأول: وهو سبعة أوجه من المعاني المتفقة بالفاظ مختلفة، نحو: أقبل، وتعال، وهلم، وعجل، وأسرع، وقد نسب هذا القول لأكثر العلماء، ذكره ابن عيد البر^(٢)، وانتصر له بعض علماء هذا الفن المعاصرين^(٣).

الثاني: وهو رأي الإمام الرازي الميني على أوجه الاختلاف، وله منتصرون في عصرنا الحاضر^(٤).

الثالث: وهو رأي ابن الجزري.

الرابع: وهو رأي القاضي الباقلاني.

وهذه الآراء الثلاثة المتعاقبة - الرازي وابن الجزري والباقلاني - قريبة من بعضها البعض، حتى أن بعض المدعين المعاصرين جعلها رأياً واحداً^(٥).

سادساً - شمولية المصاحف العثمانية للأحرف

ذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن

(١) الإتيقان، ج ١/٤٦. البرهان، ج ١/٢١٤. المناهل، ج ١/١٥٢.

(٢) انظر: الإتيقان، ج ١/٤٧.

(٣) مناع قطان، مباحث في علوم القرآن، ص ١٦٢.

(٤) أمثال بخيت والزرقاني. انظر: المناهل، ج ١/١٥٠.

(٥) أنظر، صحيح الصالح في مباحث في علوم القرآن ص ١١٢، والسيد أحمد خليل في دراسات في القرآن ص ٩٣، مؤكداً على بقاء الأحرف السبعة، وأنه لا صحة لما قيل بأن عثمان نسخ القرآن على حرف واحد ثم أحرق الباقي.

المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها، لم تترك حرفاً منها. قال ابن الجزري: وهذا هو الذي يظهر صوابه^(١).

سابعاً - صلة القراءات السبعة بالأحرف السبعة:

يظن بعض الناس أن المراد بالأحرف السبعة الواردة في الأحاديث هي قراءات الأئمة السبعة. فقراءة نافع حرف، وقراءة ابن كثير حرف آخر منها وهكذا باقي القراءات. وهذا الرأي باطل لأمور:

الأول: أن هذا الرأي يلزم عليه بقاء الأحرف السبعة وعدم ترك شيء منها وإباحة القراءة بها حتى اليوم، وهذا مخالف لإجماع الأمة على أن الأحرف السبعة نزلت في أول الأمر للتيسير على الأمة، ثم نسخ الكثير منها بالعرضة الأخيرة.

الثاني: يترتب على هذا الرأي ألا يكون هناك أية فائدة فيما صنع الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه من كتابة المصاحف، وحمل الناس عليها، والآ يكون هناك داع لإحراق غيرها من المصاحف.

الثالث: يلزم هذا الرأي أن تكون قراءة الأئمة السبعة قد استوعبت الأحرف السبعة، وحينئذ تكون قراءات غير السبعة مثل أبي جعفر يعقوب ليست من الأحرف السبعة، هذا خلاف الإجماع.

الرابع: أن كل إمام من الأئمة السبعة قد روى عنه رواية كثيرون روايات مختلفة، وكلها تعتبر قراءة للإمام. فلو كانت الأحرف السبعة هي قراءات الأئمة السبعة لبلغت هذه الأحرف ما لا يحصى من الكثرة تبعاً للكثرة من الروايات المختلفة عن كل إمام. والواقع أن الأحرف محصورة في العدد المذكور.

قال العلامة الإمام أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبعة الموجودة الآن

(١) الإقنان، ج ١/ ٥٠.

هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل.

فالصواب أن قراءات الأئمة السبعة بل العشرة التي يقرأ الناس بها اليوم جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن وورد فيها الحديث، وهي موافقة لآخر عرضة عرض فيها جبريل القرآن على النبي ﷺ، وكلها ثابتة عن الرسول ﷺ بطريق التواتر، نص على ذلك جمع غفير من العلماء.

الباب الثاني

مضامين القرآن

- الفصل الأول: الكلام في السور: أسمائها، فواتحها، خواتمها وآياتها.
- الفصل الثاني: المكي والمدني.
- الفصل الثالث: المحكم والمتشابه.
- الفصل الرابع: الناسخ والمنسوخ.

الكلام في السور: أسمائها، فواتحها، وخواتمها وآياتها

أولاً - في السور وأسمائها:

١ - معنى السورة في اللغة: السورة تهمز ولا تهمز. فمن همزها جعلها من «أسارت» أي أفضلت من السور، وهو ما بقي من الشراب في الإناء كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهل همزتها.

ومنهم من شبهها بسور البناء، أي القطعة منه، أي منزلة بعد منزلة. وقيل: من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور، ومنه السوار لإحاطته بالساعد، وعلى هذا فالواو أصلية.

ويحتمل أن تكون من السورة بمعنى المرتبة، لأن الآيات مرتبة في كل سورة ترتيباً مناسباً وفي ذلك حجة لمن تتبع الآيات بالمناسبات^(١).

وقيل: لتركيب بعضها على بعض من السور بمعنى التضاعد والتركيب، ومنه: ﴿إِذْ نَسُوا الْآيَاتِ الَّتِي هُيَءَ لَهُمْ﴾^(٢).

معنى السورة في الاصطلاح: حد السورة قرآن يشتمل على أي ذوات فاتحة

(١) البرهان، ج ١/٢٦٣ - ٢٦٤.

(٢) الإنفان، ج ١/٥٦.

وخاتمة. وأقلها ثلاث آيات^(١).

٢ - أقسام القرآن: قال العلماء رضي الله عنهم: القرآن العزيز أربعة أقسام: الطوال، والمثون، والمثاني والمفصل^(٢). وفي الخبر، أن رسول الله ﷺ قال: أعطيت مكان التوراة السبع الطوال وأعطيت مكان الزبور المثين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وقضت بالمفصل^(٣).

والسبع الطوال أولها البقرة وآخرها براءة (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال وبراءة)^(٤). وسميت طوالاً لطولها.

وفي رأي، وضع سورة يونس مكان الأنفال وبراءة^(٥).

والمثون، وهي السور التي تقارب عدد آياتها المائة أو تزيد عليها.

والمثاني، هي: ما ولي المائتين، وقد تسمى سور القرآن كلها مثاني، ومنه قوله تعالى: ﴿ كِتَابًا مُّثَنِّيًا مَّثَانِيًّا ﴾^(٦)، ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾^(٧). وتسمية القرآن كله بالمثاني، واردة من تسمية القصص والأنبياء^(٨).

والمفصل، ما ولي المثاني من قصار السور. وهي مفصل لما يوجد بها من كثرة الفصول، وقيل: لقلة المنسوخ فيها. وآخرها سورة الناس. أما أولها، فمختلف فيه، والصحيح كما ذكر الزركشي على أن أوله سورة (ق)^(٩).

وقد استشهد بنص أورده أبو داود في سننه، في باب تحزيب القرآن، عن

(١) قاله الجعفي، أنظر: البرهان، ج ١/ ٢٦٠. والإتقان، ج ١/ ٥٦.

(٢) البرهان، ج ١/ ٢٤٤.

(٣) أخرجه أحمد.

(٤) عدت الأنفال وبراءة سورة واحدة، لأنها تزكنا في مغازي الرسول ﷺ ولذلك لم يكن بينهما فصل في السئلة.

(٥) حكى عن سعيد بن المسيب. أنظر البرهان، ج ١/ ٢٤٤.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٧) سورة الحجر، الآية: ٨٧.

(٨) البرهان، ج ١/ ٢٤٥.

(٩) البرهان، ج ١/ ٢٤٧.

طريق أوس بن حذيفة، وفدت ثقيف إلى رسول الله ﷺ، وقد أعطأ عليهم رسول الله ﷺ في موعد كان يأتيهم فيه، ولما سألوه عن ذلك، قال عليه الصلاة والسلام: (إنه طرأ علي حزبي من القرآن، فكربت أن أجيء حتى أتته). قال أوس: فسالت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمسين، وسبع، وتسع، وإحدى عشر، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده. وحيثئذ فإذا عدت ثمانياً وأربعين سورة، كانت التي بعدهن سورة «ق» ٣ + ٥ = ٧ + ٩ + ١١ + ١٣ = ٤٨ سورة، وهي:

(البقرة، آل عمران، النساء)، (المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال، براءة) (يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، التحل)، (الإسراء، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، الحج، المؤمنون، النور، الفرقان) (الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، الأحزاب، سبأ، فاطر، يس) (الضافات، ص، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزحرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، محمد، القتال - الفتح، الحجرات) وعقب هذه السور تأتي سورة «ق» وهي أول حزب المفصل^(١).

٣ - وسورت السور طوالاً وقصاراً وأوسطاً، تنبهاً على أن الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة. ثم ظهرت لذلك حكمة في التعليم، وتدرج الأبطال من السور القصار إلى ما فوقها يسيراً يسيراً، تيسيراً من الله على عباده لحفظ كتابه، فترى الطفل يفرح بإتمام السورة فرح من حصل على حد معتبر. وكذلك المطيل في التلاوة يفرح عند ختم كل سورة ارتياح المسافر إلى قطع المراحل المسماة مرحلة بعد مرحلة أخرى، إلى أن كل سورة لمط مستقل، فسورة يوسف تترجم عن قصته، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وكامن أسرارهم، وغير ذلك^(٢).

٤ - السورة الطائفة المترجمة توقيفاً، أي المسماة باسم خاص بتوقيف من

(١) البرهان، ج ١/٢٤٨. والحديث أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب تحزيب القرآن (الحديث: ١٣٩٣).

(٢) البرهان، ج ١/٢٦٥.

النبي ﷺ، وقد ثبتت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار^(١).

عن عكرمة قال: كان المشركون يقولون سورة البقرة وسورة العنكبوت، يستهزئون بهاء فنزل ﴿إِنَّا كُنَّا كَالْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(٢).

وقال البيهقي: وقد صح إطلاق سورة البقرة وغيرها عنه ﷺ، وفي الصحيح: عن ابن مسعود أنه قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة^(٣).

هذا وينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعى في الكثير من التسميات، أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون منه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الراي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرب ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها. وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء^(٤) وهكذا.

٥ - وأعلم أنه قد يكون للسورة الواحدة اسم واحد، وهو كثير في القرآن، وقد يكون للسورة اسمان، كما في سورة البقرة، إذ يقال لها أيضا: سورة فسطاط القرآن لعظمتها وبهاثها.

وقد يكون لها ثلاثة أسماء كسورة «العائدة»، فإنها تسمى سورة العقود وسورة المنقلة. وقد يكون لها أكثر من ثلاثة، كما في سورة براءة، فإنها تسمى بـ: التوبة، الحافرة، الفاضحة^(٥).

وقد ذكر العلماء أسماء السور وتعليلها بالإمكان، فليرجع إليها من يريد الاستزادة والتوسعة. وكمثال واحد على ما ذكره العلماء، تورد ما قاله السيوطي

(١) ذكره السيوطي: الإتقان، ج ١/ ٥٢.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٥.

(٣) الإتقان، ج ١/ ٥٢. والحديث أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب: من رمى جمرة العقبة (الحديث: ١٧٤٩).

(٤) البرهان، ج ١/ ٢٧٠.

(٥) البرهان، ج ١/ ٢٦٩.

في الاتقان عن سورة الفاتحة:

«الفاتحة»: فقد سميت بنيف وعشرين اسماً، وهذا ما يدل على شرفها، لأن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى.

هي فاتحة الكتاب: لافتتاح الصلاة بها، فقد روى أنها أم القرآن، والسبع المثاني، وهي مفتاح المصاحف والتعليم والقراءة في الصلاة.

«فاتحة القرآن»: لكونها أم القرآن، كما قيل^(١). فهي أم القرآن وأم الكتاب لما ثبت في الأحاديث الصحيحة، كما أخرجه الدارقطني عن طريق أبي هريرة مرفوعاً: (إذا قرأتم الحمد فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني)^(٢). وقد قيل في التعليل كثير في معرض الرد على منع تسميتها بأم القرآن، بأم الكتاب^(٣).

هي: القرآن العظيم، لاشتغالها على المعاني الموجودة في القرآن.

هي السبع المثاني، ورد ذلك في عدة نصوص، وسميت سبعة، لكونها سبع آيات وسميت «مثاني» لكونها من الثناء على الله تعالى، وقيل لأن الله تعالى استثنى هذه الأمة، وقيل لأنها تتلى في كل ركعة، ويقوى هذا القول، ما أخرجه ابن جرير بسند حسن عن عمر قال: السبع المثاني فاتحة الكتاب تتلى في كل ركعة.

وقيل لأنها تتلى بسورة أخرى، وقيل لأنها نزلت مرتين، وقيل لأنها نزلت على قسمين دعاء وثناء، وقيل لأنها كلما قرأ العبد منها آية ثناه الله تعالى بالأخبار عن فعله، وقيل لأنها اجتمع فيها فصاحة المباني وبلاغة المعاني، وقيل غير ذلك^(٤).

هي: الواقية، وسميت بذلك، لكونها واقية بما في القرآن من المعاني،

(١) الاتقان، ج ١/٥٢.

(٢) أخرجه الدارقطني، ٣١٢/١.

(٣) الاتقان، ج ١/٥٣.

(٤) الاتقان، ج ١/٥٥، الاتقان، ج ١/٢٦٩.

وقيل لأنها لا تقبل التضعيف كما تقبل بقية السور، وقيل لأنها جمعت بين ما لله وبين ما للعبد.

هي: الكثرة، وهي الكافية، لأنها تكفي في الصلاة عن غيرها، ولا يكفي غيرها عنها. وهي الأساس، لأنها أصل القرآن وأوله. وهي النور. وهي الحمد، والشكر والراقية، والشافية. وهي الصلاة، لتوقف الصلاة عليها، وسميت بها لأنها من لوازمها، وهذا من باب تسمية الشيء باسم لازمه.

وهي الدعاء لاشتمالها عليه، وهي السؤال، وهي سورة تعليم المسألة، لما تحتوي على أوب السؤال وهي المناجاة لأن العبد يتاجي فيها ربه، وهي سورة التفويض لاشتمالها عليه في قوله: ﴿إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَعِينُ﴾ (١).

٦ - ترتيب السور: اختلف العلماء في ترتيب سور القرآن التي وصلت إلينا بما نقرؤها الآن.

١ - ذهب البعض إلى أن ترتيب سور القرآن كان لمبنى اجتهادي تولى الصحابة. ولذا كانت مصاحف الصحابة مختلفة الترتيب. فمصحف علي رتب على النزول ابتداء من اقرأ. ومصحف ابن مسعود ابتداء بالبقرة والنساء وآل عمران.

هذا الرأي ضعيف لكون من نسب إليهم هذه المصاحف لم يتمسكوا بها بعد جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه. ولو كان الترتيب لمبنى اجتهادي لما تركوا ما هم عليه وأخذوا بغيره (٢).

٢ - ذهب الآخرون إلى القول بأن ترتيب السور توقيفي واجتهادي في آخر. ذكر هذا الرأي ابن حجر، حيث نسب إليه، أنه قال: ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً (٣). وقد نسب الترتيب التوقيفي

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥. وانظر: الإتيان، ج ١/ ٥٥.

(٢) نسب هذا الرأي لابن فارس، ذكره السيوطي في الإتيان، ج ١/ ٦٢.

(٣) الإتيان، ج ١/ ٦٢.

للمتصل في عهد الرسول ﷺ دون الباقي^(١)، وهذا الرأي لا قيمة له، فقد اعتبر الأصل عدم التوقيف، فما ثبت عنده في عهد النبي ﷺ فهو توقيفي وما لم يثبت ترتيبه من رسول الله ﷺ فقد اجتهد فيه الصحابة.

هذه حجة مخالفة في الاستدلال، إذ الأصل أن القرآن (آيات وسور) مرتب بالتوقيف إلا ما يروى من خلاف كما وقع بالنسبة لسورتي الأنفال والتوبة، فقد روى أن عثمان أمر بوضع سورة الأنفال مع التوبة بدون بسملة^(٢).

٣ - وذهب الآخرون إلى القول بأن ترتيب السور توقيفي لا يد لمجتهد فيها، وعلى هذا القول الجمهور من العلماء^(٣).

قال أبو بكر الأنباري: أنزل الله القرآن كله إلى السماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية في السورة فاتساق السور كانتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن^(٤).

وعلى هذا الجمع الغفير ممن يعتد بعلمهم من الأئمة: أمثال الباقلاني والكرماني وهو المختار^(٥).

ومال السيوطي إلى القول بتوقيف السور إلا في سورة الأنفال والتوبة لخبر عثمان رضي الله عنه^(٦).

وذكر الزركشي عن القاضي أبي بكر الطيب: (ومن نظم السور على المكّي والمدني لم يدر أين يضع الفاتحة، لاختلافهم في موضع نزولها، ويضطر إلى

(١) الإتيان، ج ١/٦٢.

(٢) الإتيان، ج ١/٦٢.

(٣) الإتيان، ج ١/٦٢.

(٤) ذكره السيوطي في الإتيان، ج ١/٦٢.

(٥) ذكره السيوطي في الإتيان، ج ١/٦٢.

وانظر مناع القطان، ص ١٤٢. وصحفي الصالح مباحث في علوم القرآن، ص ٧٣.

(٦) ذكره السيوطي في الإتيان، ج ١/٦٣.

تأخير الآية في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة، إلى رأس الأربعين، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به^(١).

٧ - قال الزركشي: وينبغي البحث عن تعداد الأسماء: هل هو توقيفي أو بما يظهر من العتاسيات؟ فإن كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها، وهو بعيد... وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها، إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَرِثَاءٌ...﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ لم يرد في غيرها، كما ورد ذكر النساء في سورة، إلا أن ما تكرر وسط من أحكامهن لم يرد في غير سورة النساء، وكذا سورة المائدة، لم يرد ذكر المائدة في غيرها فسميت بما يخصها.

فإن قيل: قد ورد في سورة هود ذكر نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام فلم تختص باسم هود وحده؟ وقصة نوح فيها أطول وأوعب. قيل: تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوعب مما وردت في غيرها، ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود عليه السلام كتكرره في هذه السورة، فإنه تكرر فيها عند ذكر قصته في أربعة مواضع، والتكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا.

فإن قيل: فقد تكرر اسم نوح في هذه السورة في ستة مواضع فيها، وذلك أكثر من تكرار اسم هود، قيل: لما جردت للذكر نوح وقصته مع قومه سورة برأسها فلم يقع فيها ذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه عليه السلام من سورة تضمنت قصته وقصة غيره وإن تكرر اسمه فيها، أما هود فكانت أولى السور بأن تسمى باسمه عليه السلام.

واعلم أن تسمية سائر سور القرآن يجري فيها من رعي التسمية ما ذكرنا^(٢).

(١) البرهان، ج ١/ ٢٦٠.

(٢) البرهان، ج ١/ ٢٧٠. وقد نقل السيوطي ما قاله الزركشي، تحت (تبيه) «قال الزركشي في البرهان»، الإنقاذ، ج ١/ ٥٥.

ثانياً - فواتح السور:

قال الزركشي: اعلم أن سور القرآن العظيم مائة وأربع عشرة سورة، وفيها بلغز فيقال أي شيء إذا عدده زاد على المائة، وإذا عددت نصفه كان دون العشرين؟ وقد افتتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من السور عنها^(١).

وأورد السيوطي في الإتقان تحت النوع السنين، ذكر الفواتح، مبتدئاً بمن صنف فيها، فقال أفردها بالتأليف ابن أبي الأصبع في كتاب سماه الخواطر السوانح في أسرار الفواتح. ولقد نقل عنه بالصورة الملخصة^(٢).

وتعدد الفواتح بعشرة أنواع من الكلام، نص عليه ووافق كل من الزركشي والسيوطي، وهذه الأنواع الشاملة لجميع فواتح السور، ذكرت بتعداد، وهي:

١ - الاستفتاح بالثناء - وهو قسمان:

أ - إثبات لصفات المدح، بالحمد، وتبارك، الحمد في خمس سور، هي: سورة الفاتحة، وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر، وتبارك في سورتين، في سورة الفرقان، وفي سورة الملك.

ب - تنزيه من صفات النقص، بالتسبيح، في سبع سور، هي: الإسراء، وسورة الأعلى، وسورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الصنف، وسورة الجمعة، وسورة التغابن.

ويذكر كل من الزركشي والسيوطي عن الإمام الكرمانلي: التسبيح كلمة استأثر الله بها فبدأ بالمصدر في بني^(٣) إسرائيل لأنه الأصل، ثم بالماضي في الحديد والحشر، لأنه أسبق الزمانين ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها^(٤).

(١) البرهان، ج ١/١٦٤.

(٢) الإتقان، ج ٢/١٠٥.

(٣) تسمية لسورة الإسراء.

(٤) النص للسيوطي في الإتقان، ج ٢/١٠٥.

٢ - الاستفتاح بحروف التهجي: في تسع وعشرين سورة.

٣ - الاستفتاح بالنداء: في عشر سور، خمس بتداء الرسول ﷺ في سورة الأحزاب وسورة الطلاق وسورة التحريم وسورة المزمل وسورة المدثر. وخمس بتداء الأمة، في سورة النساء، وسورة المائدة وسورة الحج وسورة الحجرات وسورة الممتحنة.

٤ - الاستفتاح بالجمل الخبرية: في ثلاث وعشرين سورة، ذكرها السيوطي، كما هي عند الزركشي. في سورة الأنفال وسورة التوبة وسورة النحل وسورة الأنبياء وسورة المؤمنون وسورة التور وسورة الزمر وسورة القتال وسورة الفتح وسورة القمر وسورة الرحمن وسورة المجادلة وسورة الحاقة وسورة المعارج وسورة نوح وسورة القيامة وسورة البلد وسورة النبا وسورة القدر وسورة البينة وسورة القارعة وسورة التكاثر وسورة الكوثر.

٥ - الاستفتاح بالقسم: في خمس عشرة سورة، في سورة الصافات وسورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم وسورة المرسلات وسورة النازعات وسورة البروج وسورة الطارق وسورة الفجر وسورة الشمس وسورة الليل وسورة الضحى وسورة التين وسورة العاديات وسورة العصر.

قال: لقد تعدد القسم: قسم بالملائكة، وقسم بالأفلاك، وقسم باللوازم، كما في القسم بالشمس كآية للنهار، وقسم بالهواء، وقسم بالتربة والطور، وقسم بالنبات، وقسم بالحيوان الناطق، وقسم بالبهيم^(١).

٦ - الاستفتاح بالشرط: في سبع سور، هي: سورة الواقعة، سورة المنافقون، وسورة التكويد، وسورة الانقطار، وسورة الانشقاق، وسورة الزلزلة، وسورة النصر.

٧ - الاستفتاح بالأمر: في ست سور، هي: سورة الجن، وسورة العلق، وسورة الكافرون، وسورة الإخلاص، والمعوذتان (العلق، والناس).

(١) ذكره السيوطي في الاتقان، ج ٢/١٠٦ - بتصرف.

٨ - الاستفتاح بالاستفهام: في ست سور، هي: سورة الدهر، وسورة النبأ، وسورة الغاشية، وسورة الشرح، وسورة الفيل، وسورة الماعون.

٩ - الاستفتاح بالدعاء: في ثلاث سور، هي: المطففين، وسورة الهمزة، وسورة المسد.

١٠ - الاستفتاح بالتعليل: في سورة واحدة، هي: سورة قريش. وأنه من الممكن وضع ما ذكر من الدعاء مع الخير، وكذا الثناء سوى سبح وسبحان^(١). قال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يتألق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاء، وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب لفظ وأجزله وأرقه وأسله وأحسه نظماً وسبكاً وأصحه معنى وأوضحه وأحلاه من التعقيد والتقديم والتأخير العلبس، أو الذي لا يناسب، قالوا. وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء وغير ذلك^(٢).

ثالثاً - خواتم السور:

خواتم السور كفواتحها في الحسن وقرع السمع بما يناسب. فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعية، مع إيدان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه نشوق النفس إلى ما يذكر بعد^(٣).

وخواتم السور قد أتت متنوعة، ليست على ضرب واحد من النمط الكلامي.

١ - منها ما كان مختوماً بالوعد الوعيد، كما في سورة إبراهيم: ﴿ هَذَا بَلَدٌ

(١) انظر: الإنقان، جـ ٢/١٠٦. البرهان، جـ ١/١٨٠. يتصرف من كليهما.

(٢) قاله السيوطي في الإنقان، جـ ٢/١٠٦.

(٣) البرهان، جـ ١/١٨٢. الإنقان، جـ ٢/١٠٧.

لِيَأْتِيَهُمْ وَيَسْتَنْدُوا بِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَوَلَدٌ وَلَيْدٌ كَرُّ أَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١١﴾

٢ - ما ختم بتفصيل لجملة المطلوب، كما في خاتمة سورة الفاتحة:
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿١١﴾
فالمطلوب: هو الهدى الصراط المستقيم، وهو مطلق الإيمان الأعلى الذي لا يعقبه معاصي تسيب غضب الله تعالى. ففصل هذا المطلوب: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مطلق النعم دون تقييد حتى يجوزوا بها كل نعمة، ثم فصل هذا الأنعام، يجمعهم للنعم المطلقة، وهي الإيمان مع السلام من غضب الله تعالى ومن الضلال، وذلك بقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿١٣﴾

٣ - ما ختم بالدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٤﴾

٤ - ومنها ما ختم بالوصايا، مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَارْبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٥﴾
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنَّ آسْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ... وَاللَّهُ يَكْتُبُ سُرًّا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿١٦﴾

٦ - ومنها ما ختم بالتبجيل والتعظيم، كما في اختتام سورة المائدة: ﴿يَلِلُو مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ وللمبالغة في التعظيم وردت

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٢.
(٢) آخر سورة الفاتحة.
(٣) انظر: البرهان، ج ١/ ١٨٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٧٦.
(٧) سورة المائدة، الآية: ١٢٠.

أما لتفيد العموم وشمولية الأجناس كلها.

٧ - ومنها ما ختم بالتحريض على العبادة، كما في اختتام سورة الأعراف:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْجُدُونَ وَكَمْ يَسْجُدُونَ﴾^(١)

٨ - ومنها ما اختتم بالحض على صلة الأرحام، كما في: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ

بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢)

٩ - ومنها ما اختتم بتسليته ﷺ، كما في: ﴿وَأَسِرُّوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَبِيرٌ

لِلظَّالِمِينَ﴾^(٣)، وكما في خاتمة هود عليه السلام: ﴿فَأَصْبَدُ وَلَوْ كَفَّلَ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ

بِعَظِيمٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

١٠ - ومنها ما اختتم بالرد على من طعن النبي ﷺ بالكذب: ﴿وَيَقُولُ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَسْنَا مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾^(٥)

١١ - ومنها ما اختتم بتخصيص الرسول ﷺ بالتبليغ وإقراره بتزيه الخالق

وحده، كما في: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَبِذِّقُوا

قال السيوطي: وانظر إلى سورة الزلزلة كيف بدت بأحوال القيامة وختمت

بقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٦) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ﴾^(٧).

وكما في افتتاح سورة «المؤمنون» ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٨) وخاتمتها ﴿إِنَّهُمْ لَا

يُفْلِحُونَ إِلَّا بِالْحَمْدِ﴾^(٩) «فستان ما بين الفاتحة والخاتمة»^(١٠).

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٩.

(٤) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٥) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

(٦) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٧) الإنشقاق، ج ٢/١٠٧.

(٨) البرهان، ج ١/١٨٢ وما بعدها. بتصريف.

رابعاً - الآيات وترتيبها:

الآيات جمع لكلمة «آية» والآية هي العلامة وزتها فعلة بالفتح أو فعلة محركة أو فاعلة. جمع آيات وآي، وآياي جمع الجمع آياه والعبرة والأمانة. ومن القرآن: كلام متصل إلى انقطاعه^(١).

وقد تعددت معانيها اللغوية، من المعجزة إلى العلامة إلى العبرة إلى الأمر العجيب إلى الجماعة إلى البرهان والدليل.

ثم خصت الآية في الاصطلاح بأنها طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن. والمناسبة بين هذا المعنى الاصطلاحي والمعاني اللغوية السالفة واضحة، لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، ثم هي علامة على صدق من جاء بها ﷺ، فيها عبرة وذكرى لمن أراد أن يتذكر، وهي من الأمور العجبية لمكانها من السمو والإعجاز، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته وعلى صدق رسوله في رسالته^(٢).

وفيما يتعلق بترتيب الآيات بوضعها الحالي، فقد تواتر الأمر لدى العلماء أن هذا الترتيب توقيفي، بمعنى توقفه على رسول الله ﷺ، دون تدخل الجانب الاجتهادي في هذا الترتيب.

وذكر الزركشي: وأما ما يتعلق بترتيبه، فأما الآيات في كل سورة ووضع البسمة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيها^(٣).

وقال السيوطي: الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك... «وكان رسول الله ﷺ يلحق أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه

(١) القاموس المحيط، ج ٤/ ٣٠٣.

(٢) مناهل العرفان، ج ١/ ٣٣٢.

(٣) البرهان، ج ١/ ٢٥٦.

على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكب عقب آية كذا في سورة كذا^(١).

وقال القاضي الباقلاني: «ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا»^(٢).

وقد وردت نصوص عديدة حول هذا الترتيب التوقيفي، منها: ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس: قال: «قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من العثاني إلى براءة وهي من المائين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال، فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»^(٣).

وما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال: «قلت لعثمان والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً قد تسخنها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها، قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه»^(٤).

ومنها ما رواه مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألك عن الكلاله حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: «تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»^(٥).

(١) الإتيان، ج ١/٦١، ذكره البغوي في شرح السنة.

(٢) ذكره السيوطي في الإتيان، ج ١/٦١.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من جهر بها (الحديث: ٧٨٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: وفي سورة التوبة (الحديث: ٣٠٨٦)، والنسائي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ومن سورة التوبة (الحديث: ٣٢)، وأحمد: ٦٩/١، والحاكم: ٣٣٠/٢، وابن حبان في كتاب: الوحي، باب: ما كان يأمر النبي ﷺ به (الحديث: ٤٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة (الحديث: ٤٤٩٥) و (الحديث: ٤٥٣٦).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الفرائض، باب: ميراث الكلاله (الحديث: ٩).

وأخرج عن ابن وهب قال سمعت مالكا يقول: إنما ألف^(١) القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ^(٢).

خامساً - في معرفة أول وآخر ما نزل من القرآن الكريم:

ومدار الكلام فيه على النقل والتوقيف، ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة، أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض فيها^(٣). ولقد اختلف العلماء في أول ما نزل من القرآن على أقوال:

الأول: وهو الصحيح ﴿أقرأ بأمر ربك﴾^(٤).

وقد روى الإمام البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: ٣ (الحديث: ٣)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء فكان يأتي حراء، فيتحنن فيه الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فجأه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق. حتى بلغ ما لم يعلم، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بواديه» الحديث.

وكذلك روى الحاكم مثله في مستدرکه^(٥)، وقال: صحيح الإسناد. كما

(١) ألف أي جمع وكتب وخط.

(٢) الإنقان، ج ١/٦٠.

(٣) الإنقان، ١/٢٣.

(٤) سورة العلق، الآية: ١ - ٥.

(٥) المستدرک، كتاب: التفسير، باب: أول سورة نزلت، ٢/٢٢٠ - ٢٢١.

رواه البيهقي في الدلائل عن عائشة رضي الله عنها. وصحيح الطبراني في الكبير بسنده عن أبي رجاء العطاردي قال: كان أبو موسى (الأشعري) يقرئنا فيجلسنا حلقاً وعليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ قال: هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ.

الثاني: ﴿يَأْتِيَا الْمَدْيَنَةَ﴾ (١)

وذلك لما روى الشيخان^(٢) في صحيحيهما عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يحدث عن فترة الوحي، قال في حديثه: «يشمأ أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فحشنت منه، فوجعت فقلت: زملوني زملوني فذرني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيَا الْمَدْيَنَةَ﴾ ﴿قُرْآنًا نَزِيلًا﴾.

وهذا الحديث في ظاهره يعارض ما جاء في الحديث الأول ويضاده، فقال الإمام ابن حبان في صحيحه^(٣): لا تضاد في ما نزل مطلقاً، وأن سورة المدثر بعده، ولا تضاد بين الحديثين، بل أول ما نزل: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿يَغَارُ حِرَاءَ﴾ فلما رجع إلى خديجة رضي الله عنها وصبت عليه الماء البارد، أنزل الله عليه في بيت خديجة: ﴿يَأْتِيَا الْمَدْيَنَةَ﴾ ﴿فظهر أنه لما نزل عليه ﴿أَقْرَأْ﴾ رجع فندثره فأنزل عليه ﴿يَأْتِيَا الْمَدْيَنَةَ﴾.

الثالث: سورة الفاتحة.

روى ابن شيبه^(٤) وأبو نعيم^(٥) والبيهقي^(٦) والواحدي^(٧) عن أبي مسيرة

(١) سورة المدثر، الآية: ١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: ٣ (الحديث: ٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث: ٢٥٥).

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ١/١٢١.

(٤) أخرجه في مصنفه وكذلك ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٢/١.

(٥) أخرجه في دلائل النبوة وذكره السيوطي في الدر المنثور: ٢/١.

(٦) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ١٥٨/٢.

(٧) أسباب النزول: ١١.

عمر بن شرحبيل قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الصوت انطلق هارباً، وذكر نزول الملك عليه وقوله: قل: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . . . الفاتحة إلى آخرها.

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً، فقد والله خشيت على نفسي أن يكون هذا أمراً. قالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، إلك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصا عليه فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلقتي يا محمد يا محمد، فانطلق هارباً في الأفق. فقال: لا تفعل إذا أتاك فائت حتى تسمع ما يقول، ثم اتني فأخبرني. فلما خلا ناداه يا محمد قل: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ حتى بلغ ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

لكن هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقاً من القرآن الكريم، لأن هذه الرواية لا تفيد أن الفاتحة كانت في فجر النبوة في أول عهد النبي ﷺ بالوحي وهو في غمار حراء، ثم إن هذا الحديث قد سقط من سند الصحابي فهو حديث مرسل لا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي.

وبهذا القول يصبح لدينا ثلاثة أقوال تعارض بعضها البعض، ولكن بعض الأئمة حاولوا الجمع بين هذه الأقوال، ومنهم الإمام القاضى أبو بكر^(١) فقال: وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾، وأول ما نزل من أوامر التبليغ ﴿ بِبَيِّنَاتٍ الْمُنِيرَاتِ ﴾، وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة.

وكذا قال الزمخشري^(٢): إن أكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب، لكن ابن حجر فند هذا القول وصرح بأن هذا القول لم يقل به إلا عدد أقل من القليل.

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢٩٥/١
(٢) الكشف كما قاله السيوطي في الإتيان: ٢٤/١

الرابع: بسم الله الرحمن الرحيم.

روى الواحدي^(١) عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم، أول سورة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾. وهذا الحديث ضعيف لا يحتج به لسقوط الصحابي من سنده فهو حديث مرسل، ثم إن البسمة كانت تنزل بطبيعة الحال صدرًا لكل سورة إلا ما استثني، إذن فهي نازلة في صدر سورة اقرأ، فلا يستقيم اعتبار الأولية في نزولها قولاً مستقلاً برأسه.

هذه هي الأقوال التي وردت في أول ما نزل من القرآن الكريم، ولكن هذه الروايات الثلاث الأخيرة ضعيفة، والصحيح أن أول ما نزل هي: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ وعليه أكثر المفسرين.

آخر ما نزل من القرآن الكريم:

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن الكريم على أقوال هي:

الأول: سورة النصر.

روى مسلم^(٢) عن ابن عباس أنه قال لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة: تعلم آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٣). قال: صدقت.

الثاني: سورة المائدة.

روى الإمام أحمد^(٤) والنسائي^(٥) والحاكم^(٦) والبيهقي^(٧) عن عائشة رضي

(١) ذكره في كتاب أسباب النزول كما ذكره السيوطي في الإنفان: ٢٤/١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: (الحديث: ٣٠٢٤).

(٣) سورة النصر، الآية: ١.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (الحديث: ١٨٨/٦).

(٥) أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب التفسير: ٣٨٨/١١.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک في كتاب: التفسير، باب: المائدة آخر سورة: ٣١١/٢.

(٧) أخرجه في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في تحريم حرائر أهل الشرك: ١٧٢/٧.

الله عنها أنها قالت لجبير بن نفير: يا جبير تقرأ المائدة فقلت: نعم، قالت: أما أنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم من حرام فحرموه.

الثالث: سورة براءة.

روى البخاري^(١) عن البراء بن عازب رضي الله عنه، آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾^(٢)، وآخر سورة نزلت براءة.

وكذلك روى الطبري^(٣) وأبو داود^(٤) والترمذي^(٥) والبيهقي^(٦) بالفاظ مختلفة عنه رضي الله عنه أيضاً: أن آخر سورة أتزلت كاملة سورة براءة... الحديث.

وهذه الأقوال الثلاثة بالنسبة لآخر ما نزل من السور، لا آخر ما نزل من الآيات.

الرابع: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(٧).

روى الطبري^(٨) والطبراني^(٩) والبيهقي^(١٠) عن ابن عباس: أن آخر آية نزلت على النبي محمد ﷺ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾...

وهذا الرأي هو الأرجح على الإطلاق لأن النبي ﷺ لم يعيش بعد نزول هذه

(١) أخرجه في كتاب: المغازي، باب: حج أبي بكر بالناس في سنة تسع (الحديث: ٤٣٦٤).

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٣) أخرجه في تفسيره: ٢٩/٦.

(٤) أخرجه في كتاب: الفرائض، باب: من كان له ولد (الحديث: ٢٨٨٨).

(٥) أخرجه في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء (الحديث: ٣٠٤١).

(٦) أخرجه في دلائل النبوة: ١٣٦/٧.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٨) أخرجه في تفسيره: ٧٦/٣، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾.

(٩) أخرجه في معجمه الكبير: ٢٣/١٢، (الحديث: ١٢٣٥٧).

(١٠) أخرجه في دلائل النبوة: ١٣٧/٧.

الآية سوى تسع ليال فقط، وعليه الإجماع.

الخامس: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١).

روى الهيثمي^(٢) والحاكم^(٣) وابن راهويه^(٤) من طريق أبي بن كعب، أن آخر ما نزل: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾.

السادس: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ (٥).

روى البخاري^(٦) عن البراء بن عازب رضي الله عنهما: أن آخر آية نزلت: ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله ﴾ . . . الحديث.

السابع: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٧).

روى الحاكم^(٨) والطبري^(٩) والبيهقي^(١٠) عن أبي بن كعب رضي الله عنه، أنه قال: آخر آية نزلت على محمد رسول الله ﷺ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾.

الثامن: آية الريا.

قال الزركشي^(١١): وقال بعضهم، روى البخاري^(١٢): آخر ما

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.

(٢) أخرجه في مجمع الزوائد: ٣٦/٧، وعزاه إلى عبد الله بن أحمد والطبراني.

(٣) أخرجه في المستدرک: ٣٣٨/٢.

(٤) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية ونسب إليه: ٣٣٧/٣.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

(٦) أخرجه في كتاب: المغازي، باب: حج أبي بكر بالناس . . . (الحديث: ٤٣٦٤).

(٧) سورة التوبة، الآية: ١٢٨ - ١٢٩.

(٨) أخرجه في المستدرک: (الحديث: ٣٣٨/٢).

(٩) أخرجه في تفسیره جامع البيان: ٥٧/١١.

(١٠) أخرجه في دلائل النبوة: ١٣٩/٧.

(١١) البرهان في علوم القرآن: ٣٠٠/١.

(١٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿واتقوا يوماً ترجعون﴾ (الحديث: ٤٥٤٤).

نزل آية الربا.

وهناك أقوال أخرى غير ما ذكر فمن أراد الاستزادة والتطويل فليرجع إلى ما كتبه الزركشي والسبوطي والزرقلاني.

شبهة مشهورة:

المشهور عند العلماء أن آخر ما نزل من القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١). ولقد ذكر الزرقلاني حول هذه الشبهة كلاماً جميلاً نستخلص منه ما يلي:

إن هذه الآية صريحة في أنها إعلام بإكمال دين الله في ذلك اليوم المشهود الذي نزلت فيه، وهو يوم عرفة في حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة. والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن، وإتمام جميع الفرائض والأحكام. وهذا هو الذي جعل الجرم الغفير من العلماء يعتقد أنها آخر ما نزل على الإطلاق.

والجواب: أن هناك قرآناً نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين. وقد ذكرنا سابقاً أن آية ﴿وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ في سورة البقرة كانت آخر الآيات نزولاً على الإطلاق وأن النبي ﷺ لم يعيش بعدها سوى تسع ليال فقط، وتلك قرينة تمنعنا أن نفهم إكمال نزول القرآن من إكمال الدين في آية المائدة. والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجازه وإقراره وإظهاره على الدين ولو كره الكافرون. قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه، متى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون، وأيد هذا التأويل بما رواه عن ابن عباس قال: كان المشركون والمسلمون يحججون جميعاً، فلما نزلت سورة براءة نفى المشركون عن البيت، وحج المسلمون لا يشاركونهم في البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة^(٢).

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) مناهل العرفان، ١/٩٥ - ٩٦.

الفصل الثاني

«المكي والمدني»

واجه القرآن الكريم في مخاطبته لوتين من القلوب ووجهين من القوم توسموا أمانة الشرك والكفر، فقتل قلوبهم وتحجرت وتطبعت بلذة العيش في بهت من ظلام جاهلي دامس. هذا وجه، قست قلوب قومه، وهم أول من واجههم الإسلام بكتاب الله تعالى، فكان كتاب الله المعجز التبيان في أسلوبه الخطابي، الحكم الذي يداوي هذه القلوب بما يخرجها من أسر الجاهلية وطاغوتها، ولذا كانت الآيات الكريمة تمتاز بخصائص الوعيد، والزجر والانزجار، وتحطيم الوثنية ونسفيه أحلامهم، ودعوتهم إلى وحدانية الألوهية والربوبية.

«فتجد في مكي القرآن ألفاظاً شديدة القرع على المسامع، تغدق حروفها شرر الوعيد والسنة العذاب، فكلها الرادعة والزاجرة، والصارخة، والقارعة والغاشية، والواقعة، والفاظ الهجاء في فوائح السور، وآيات التحدي في ثناياها، ومصير الأمم السابقة، وإقامة الأدلة الكونية، والبراهين العقلية، كل هذا تجلده في خصائص القرآن المكي.

وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وامتحن في عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على الحياة - حتى تكونت هذه الجماعة - نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع، تتناول أحكام الإسلام وحدوده وتدعو إلى الجهاد

والاستشهاد في سبيل الله، وتفصل أصول الشرائع وتضع قواعد المجتمع وتحدد روابط الأسرة، وصلات الأفراد وعلاقات الدول والأمم، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم، وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم، وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني^(١).

١ - الغاية من معرفة المكي والمدني:

أ - معرفة المكي والمدني من القرآن علم لا يستغنى عنه من قبل مفسر أو أصولي أو فقيه، فهو مما يحتاج إليه العالم في حياته العلمية ليعرف الناسخ من المنسوخ، والمقيد من المطلق، والخصوص من العموم. فبمعرفة مواقع النزول يصل الباحث إلى فهم وتفسير الآية بتوضيح يزيل الشكوك.

ب - يستلهم من هذا العلم كل داعية في خصائص أسلوب الخطابة ومواجهة النفوس وما تتحمل.

ج - بمعرفة المكي والمدني تذوب الاختلافات في سيرة الرسول ﷺ، في بعثته وهجرته وأحداثه، مما يخلق أبواب القول في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، مما لا يليق ومقامه الشريف^(٢).

ومن قوائمه أيضاً: الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به، كل هذا الاهتمام حتى ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف، وما نزل بالأرض وما نزل بالسماء، إلى غير ذلك. فلا يعقل بعد هذا أن يتركوا ويتركوا أحداً يمسه ويعيب به، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به أو يحض بتزوله إلى هذا الحد^(٣).

(١) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ٥٣.

(٢) انظر مباحث في علوم القرآن لقطان/ ٦٠.

(٣) الزرقاني/ مناهل العرفان، ج ١/ ١٨٨.

٢ - طريقة معرفة المكي والمدني:

لمعرفة المكي والمدني، اعتمد العلماء طريقاً استدلالية في التمييز بينهما. منها ما هو سماعي - نقلي - ومنها ما هو اجتهادي - عقلي -، والسماعي منها يحصل بالحفظ المروي عن الصحابة والتابعين فيما سمعوه عن رسول الله ﷺ. وأما الاجتهادي فيؤخذ به فيما لم يرد فيه ذكر من الصحابة والتابعين، حيث إمكانية معرفة الآيات المكية في السور المدنية، ومعرفة الآيات المدنية في السور المكية، باعتماد قواعد ضابطة لخصائص المكي، وقواعد ضابطة لخصائص المدني^(١).

وتص الزركشي تحت «معرفة المكي والمدني»: «يقع السؤال: إنه هل نص النبي ﷺ على بيان ذلك؟ قال القاضي أبو بكر في الانتصار: إنما هذا يرجع لحفظ الصحابة وتابعيهم، كما أنه لا يد في العادة من معرفة معلمي العالم والخطيب، وأهل الحرص على حفظ كلامه ومعرفة كتبه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنف أولاً وآخره، وحال القرآن في ذلك أمثل، والحرص عليه أشد، غير أنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول، ولا ورد عنه أنه قال: اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا وبالمدينة كذا، وقصده لهم. ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر، وإنما لم يفعله لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناس والمنسوخ ليحرف الحكم الذي تضمنهما، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول بعينه وقوله هذا هو الأول المكي، وهذا هو الآخر المدني. وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم لما لم يعتبروا أن من فرائض الدين تفصيل جميع المكي والمدني مما لا يسوغ الجهل به، لم تتوفر الدواعي على أخبارهم به، ومواصلة ذكره على أسماعهم وأخذهم بمعرفة. وإذا كان كذلك ساغ أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكي أو مدني، وأن يعملوا في القول بذلك ضرباً من الرأي والاجتهاد، حيث لم يلزم النقل عنهم ذكر المكي والمدني، ولم يجب على من دخل في الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كل

(١) انظر السيوطي، الإتقان، ج ١/ ١٧١.

آية أنزلت قبل إسلامه: مكة أو مدنية. فيجوز أن يقف في ذلك أو يغلب على ظنه أحد الأمرين، وإذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته في الناس، ولزم العلم به لهم، ووجوب ارتفاع الخلاف فيه^(١).

٣ - رأي العلماء في المكي والمدني :

للعلماء آراء ثلاثة في التفرقة بين المكي والمدني، وهي :

أ - ذهب جماعة إلى اعتماد الزمن، قائلين: ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني.

ب - ذهب جماعة ثانية إلى اعتماد المكان، قائلين: ما نزل بمكة فهو مكي، وما نزل بالمدينة فهو مدني، وما جاور المدينة فهو مدني، وما جاور مكة فهو مكي. وهو المشهور.

ج - ذهب الآخرون إلى اعتماد جهة الخطاب، قائلين: ما كان على جهة «يا أيها الناس» فهو مكي، وما كان على جهة «يا أيها الذين آمنوا» فهو مدني.

ويلاحظ: أن الوجهتين الثانية والثالثة - قد خرجنا عن مبدأ الاضطراد، فمن اعتمد المكان يخرج عنها ما نزل في غير مكة والمدينة وما جاورهما، مثل ما نزل بتبوك في سورة التوبة آية رقم ٤٣، وما نزل في بيت المقدس كما روى في سورة الزخرف آية رقم ٤٥^(٢). ومن اعتمد جهة الخطاب يخرج عما وضع من اعتماد^(٣)، فمثلاً سورة البقرة مدنية، وقد احتوت كثيراً من المخاطبة المكية، كما في قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آخِذًا وَرِزْقًا﴾^(٤).

والرأي الأول أولى بالأخذ والاعتماد لحصره واطراد.

(١) البرهان في علوم القرآن، ج ١/ ١٩١.

(٢) انظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن/ ص ٦٣.

(٣) الإتيان، ج ١/ ص ١٧.

البرهان، ج ١/ ١٨٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١.

٧ - إشمال السورة على آية مصدرة بلفظ «أيها الناس» فذكر الآية التي صدرت بهذا اللفظ في سورة ما - علامة على أن هذه السورة مكية - قال بعض العلماء: والسبب في ذلك أن الكفر كان غالباً في أهل مكة، فخطبوا بها أيها الناس وإن كان غيرهم داخلهم فيها.

وهذه العلامة غير مطردة إذ قد توجد الآية المصدرة بهذا اللفظ في سورة مدنية. كقوله تعالى في سورة البقرة - وهي مدنية اتفاقاً - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الآية وقوله تعالى في سورة النساء - وهي مدنية أيضاً - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَنَجَدَ﴾ الآية.

فهذه العلامة أغلبية فقط بمعنى أن الأغلب والأكثر أن لفظ «أيها الناس» يكون في السور المكية، وقد يكون في السور المدنية أيضاً ولكنه قليل.

٨ - قصر الآيات، فقصر آيات السورة أمانة على كونها مكية، وقد علل بعضهم ذلك بأن أهل مكة كانوا أهل فصاحة ولسن يتناسبهم الإيجاز دون الإطناب - وهذه العلامة أغلبية أيضاً - إذ قد يوجد القصر في الآيات المدنية كسورة النصر فإن آياتها قصيرة مع كونها مدنية.

٩ - غناية أي السورة بالدعوة إلى المقصد الأسمى من الدين، وهو الإيمان بالله تعالى - وتوحيد - والاعتقاد بأنه تعالى موصوف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص.

والإيمان برسالة النبي ﷺ، وبرسالة من سبقه من الرسل، والإيمان بملائكة الله تعالى وكتبه، وباليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، ونعيم وعذاب، مع إثبات ذلك كله بأدلة الكون، وبراهين العقل ثم النعي على المشركين وإبطال شبههم، وتفنيدهم مزامعتهم، وتسفيه أحلامهم بعكوفهم على عبادة الأصنام التي لا تملك لنفسها - فضلاً عن غيرها - نفعاً ولا ضرراً، فكل سورة اشتملت على ما ذكر ففيها مكية.

١٠ - كون السورة تتحدث عن مثالب المشركين البغيضة، وعاداتهم المنكرة من القتل بغير حق، وواد البنات، واستباحة الأعراض، وأكل أموال

اليتامى ظلماً، وأكل الربوا وشرب الخمر، إلى غير ذلك من الموبقات مع تحذيرهم منها، ووعيدهم على ارتكابها، فكل سورة هذا شأن آياتها فهي مكية.

١١ - تضمن آيات السورة حث العرب على التحلي بأصول الفضائل وأمهات المكارم - من الصدق في الحديث، والصبر على المكاره، والأمانة، والعدل، ورعاية الجوار، والوفاء بالعهد، وبر الوالدين والتواضع، ولين الجانب والعفة، والعلم، والإخلاص، ومحبة الغير، وطهارة القلوب ونظافة الألسنة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من الفضائل، فكل سورة تضمنت آياتها ما ذكر أو شيئاً منه فهي مكية. وهذه العلامة والثان قبلها بحسب الغالب أيضاً. إذ قد توجد آيات في سورة مدنية مشتملة على ما شرحناه في العلامات الثلاث.

ب - علامات المدني

١ - اشتغال السورة على آية صدرت بلفظ «يا أيها الذين آمنوا» فذكر الآية المصدرية بهذا اللفظ في السورة - سواء كانت هذه الآية في أول السورة، أم في وسطها، أم في آخرها - أمانة على أن هذه السورة مدنية، والسبب في ذلك أن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة، فحُوطبوا بآياتها الذين آمنوا وإن كان غيرهم داخلين فيهم.

وهذه العلامة مطردة، فإذا وجد هذا اللفظ في سورة ما - كانت هذه السورة مدنية قطعاً.

٢ - طول أكثر سوره وآياته، قال بعض المحققين: لأن أهل المدينة لم يكونوا يضاهون أهل مكة في الذكاء وطول الباع في البلاغة والبيان، فيناسب أهل المدينة الشرح والإيضاح - وذلك يستتبع كثيراً من البسط والأسهاب - يضاف إلى ذلك أن سور المدني وآياته طويلة نظراً لما اشتملت عليه من الأحكام والشريعات.

ومن شواهد طول السور المدنية وطول آياتها على السور المكية وآياتها أن معظم السور الطوال مدنية، ومعظم السور القصار مكية، وأن سورة الأنفال وهي

مدينة قد اشتملت على خمس وسبعين آية، وأن سورة الشعراء وهي مكية قد اشتملت على سبع وعشرين ومائتي آية مع أن كلا منهما نصف جزء، فطول السورة وطول آياتها دليل على أنها مدنية. وهذا بحسب الأكثر والغالب إذ قد توجد سورة طويلة وآياتها طوال وهي مكية كسورة الأنعام وإن كان ذلك قليلاً فهذه العلامة أغلبية لا مطردة. وتعبيرنا بأكثر في قولنا: طول أكثر سورته وآياته لإفادة أن من المدني سوراً قصيرة مشتملة على آيات قصار كسورة النصر، وأن منه سوراً قصيرة مشتملة على آيات طوال كالحجرات والمجادلة والممتحنة.

٣ - دعوة أهل الكتابين: اليهود والنصارى إلى الانقياد تحت لواء الإسلام وإقامة البراهين على فساد عقيدتهم، وبعدهم عن الحق والصواب، وتحريفهم كتاب الله تعالى.

٤ - اشتمال السورة على الإذن بالجهاد - وبيان أحكامه - لأن الجهاد لم يشرع إلا في المدينة.

٥ - تضمن السور بيان قواعد التشريع التفصيلية، والأحكام العملية في العبادات، والمعاملات، والفرائض، وأحكام الحدود، وأنواع القوانين المدنية، والجنائية، والحرية، والاجتماعية، وأحكام الأحوال الشخصية، ونظام الأسرة، إلى غير ذلك من دقائق التشريع.

٦ - إشمال السورة على أحوال المنافقين، وموقفهم من الدعوة المحمدية، وثوقيف الرسول على جلية أمرهم، وما يكونون له من حد وعداوة. ذلك أن المنافقين لم تنشأ جماعتهم إلا في المدينة.

وهذه العلامات الأربع مطردة، ويشفي أن يعلم أن الحكم على السورة بأنها مكية يصدق بحالين:

الأول: أن يكون جميع آياتها مكيّاً، كسورة المدثر فإن آياتها كلها مكية، وليس فيها آية مدنية.

الثانية: أن يكون معظم آياتها مكيّاً، ويكون بعضها مدنياً كسورة التحل فإنها كلها مكية ما عدا الآيات الثلاث في آخرها من قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾

فَصَافِرُوا يَمِثِلُ مَا عُوِثُوا بِهِ ﴿١٠﴾ إلى آخر السورة، فإنها مدنية، وكذلك الحكم على السورة بأنها مدنية يصدق بحالين:

الأول: أن يكون جميع آياتها مدنياً كسورة النور.

الثانية: أن يكون أغلب آياتها مدنياً، ويكون بعضها مكياً كسورة محمد ﷺ، فإنها كلها مدنية، إلا قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَيْبِكَ الْهَيْ أَفْرَحَكَ أَهْلَكَ كُنْهَزَ فَلَا قَائِمَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ فإنها مكية، لتزولها حين خروج النبي ﷺ من مكة إلى الغار قاصداً الهجرة.

فالحكم على السورة بكونها مكية أو مدنية تابع لجميع آياتها أو لمعظمها، فإن كان جميع الآيات أو معظمها مكياً كانت السورة مكية، وإن كان جميع الآيات أو معظمها مدنياً كانت السورة مدنية^(١).

٥ - الخصائص العامة للعصرين المكي والمدني:

سبق أن بينا أن لتزول القرآن الكريم فترتين:

- ما قبل الهجرة.

- ما بعد الهجرة.

ولكل من المكي والمدني خصائص ومميزات تميز بينهما.

أ - العصر المكي وخصائصه:

تتميز الآيات التي أنزلت في مكة بما يأتي:

أولاً: من حيث الشكل - بقصرها - في الجملة عن الآيات المدنية وهذا أغلب لا مطرد، فجزء عم، وهو الجزء الثلاثون من المصحف أغلبه مكّي وإذا أنت تلوته رأيت قصر آياته وتعدد فواصله، نعم هناك آيات مكية طويلة نوعاً ما كسورة الأنعام وأكثرها مكّي وآياتها طويلة نوعاً ما فإنها تقع في تسعة أرباع ونصف الربع، ومع ذلك لم تتجاوز آياتها ١٦٥ آية، ومثلها سورة النحل، فإنها

(١) الإتيان، ٤٧/١.

«المكي والمدني»

واجه القرآن الكريم في مخاطبته لوليين من القلوب ووجهين من القوم توسموا أمانة الشرك والكفر، فقت قلبهم وتحجرت وتطبعت بلذة العيش في بهت من ظلام جاهلي دامس. هذا وجه، قست قلوب قومه، وهم أول من واجههم الإسلام بكتاب الله تعالى، فكان كتاب الله المعجز التبيان في أسلوبه الخطابى، المحكم الذي يداوي هذه القلوب بما يخرجها من أسر الجاهلية وطاغوتها، ولذا كانت الآيات الكريمة تمتاز بخصائص الوعيد، والزجر والانزجار، وتحطيم الوثنية وتسفيه أحلامهم، ودعوتهم إلى وحدانية الألوهية والربوبية.

«فتجد في مكي القرآن ألفاظاً شديدة القرع على السامع، تقذف حروفها شرر الوعيد والسنة العذاب، فكلها الرادعة والزاجرة، والصارخة، والفارعة والغاشية، والواقعة، وألفاظ الهجاء في فواتح السور، وآيات التحدي في ثناياها، ومصير الأمم السابقة، وإقامة الأدلة الكونية، والبراهين العقلية، كل هذا نجده في خصائص القرآن المكي.

وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملانكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وامتخت في عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على الحياة - حتى تكونت هذه الجماعة - نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع، تتناول أحكام الإسلام وحدوده وتدعو إلى الجهاد

والاستشهاد في سبيل الله، وتفصل أصول الشرائع وتضع قواعد المجتمع وتحدد روابط الأسرة، وصلات الأفراد وعلاقات الدول والأمم. كما تفضح المناقنين وتكشف دخيلتهم، وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم، وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني^(١).

١ - الغاية من معرفة المكي والمدني :

أ - معرفة المكي والمدني من القرآن علم لا يستغنى عنه من قبل مفسر أو أصولي أو فقيه، فهو مما يحتاج إليه العالم في حياته العلمية ليعرف الناسخ من المنسوخ، والمفيد من المطلق، والخصوص من العموم. فبمعرفة مواقع النزول يصل الباحث إلى فهم وتفسير الآية بتوضيح يزيل الشكوك.

ب - يستلهم من هذا العلم كل داعية في خصائص أسلوب الخطابة ومواجهة النفوس وما تتحمل.

ج - بمعرفة المكي والمدني تدرب الاختلافات في سيرة الرسول ﷺ، في بعثه وهجرته وأحداثه، مما يعلق أبواب القول في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، مما لا يليق ومقامه الشريف^(٢).

ومن فوائد أيضاً: الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به، كل هذا الاهتمام حتى ليعرقون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف، وما نزل بالأرض وما نزل بالسماء، إلى غير ذلك. فلا يعقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحداً يمتنه ويعبت به، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به أو يحضرت بنزوله إلى هذا الحد^(٣).

(١) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ٥٣.

(٢) أنظر مباحث في علوم القرآن لقطان/ ٦٠.

(٣) الزرقاني/ متاهل العرفان، ج ١/ ١٨٨.

٢ - طريقة معرفة المكي والمدني:

لمعرفة المكي والمدني، اعتمد العلماء طريقاً استدلالية في التمييز بينهما. منها ما هو سماعي - نقلي - ومنها ما هو اجتهادي - عقلي -، والسماعي منها يحصل بالحفظ المروي عن الصحابة والتابعين فيما سمعوه عن رسول الله ﷺ. وأما الاجتهادي فيؤخذ به فيما لم يرد فيه ذكر من الصحابة والتابعين، حيث إمكانية معرفة الآيات المكية في السور المدنية، ومعرفة الآيات المدنية في السور المكية، باعتماد قواعد ضابطة لخصائص المكي، وقواعد ضابطة لخصائص المدني^(١).

ونص الزركشي تحت «معرفة المكي والمدني»: ويقع السؤال: إنه هل نص النبي ﷺ على بيان ذلك؟ قال القاضي أبو بكر في الانتصار: إنما هذا يرجع لحفظ الصحابة وتابعيهم، كما أنه لا بد في العادة من معرفة معظمي العالم والخطيب، وأهل الحرم على حفظ كلامه ومعرفة كتبه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنف أولاً وأخيراً، وحال القرآن في ذلك أمثل، والحرم عليه أشد، غير أنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول، ولا ورد عنه أنه قال: اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا وبالمدينة كذا، وفضله لهم. ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر، وإنما لم يفعله لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النسخ والمنسوخ ليعرف الحكم الذي تضمنهما، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول بعينه وقوله هذا هو الأول المكي، وهذا هو الآخر المدني. وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم لما لم يعتبروا أن من فرائض الدين تفصيل جميع المكي والمدني مما لا يسوغ الجهل به، لم تتوفر الدواعي على أخبارهم به، ومواصلة ذكره على أسماعهم وأخذهم بمعرفته. وإذا كان كذلك ساء أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكي أو مدني، وأن يعملوا في القول بذلك سرياً من الرأي والاجتهاد، وحينئذ فلم يلزم النقل عنهم ذكر المكي والمدني، ولم يجب على من دخل في الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كل

(١) النظر السيوطي، الإقناع، ج ١/ ١٧٠.

آية أنزلت قبل إسلامه: مكة أو مدنية. فيجوز أن يقف في ذلك أو يغلب على ظنه أحد الأمرين، وإذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته في الناس، ولزم العلم به لهم، ووجوب ارتفاع الخلاف فيه^(١).

٣ - رأي العلماء في المكي والمدني:

للعلماء آراء ثلاثة في التفرقة بين المكي والمدني، وهي:

أ - ذهب جماعة إلى اعتماد الزمن، قائلين: ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني.

ب - ذهب جماعة ثانية إلى اعتماد المكان، قائلين: ما نزل بمكة فهو مكي، وما نزل بالمدينة فهو مدني، وما جاور المدينة فهو مدني، وما جاور مكة فهو مكي. وهو المشهور.

ج - ذهب الآخرون إلى اعتماد جهة الخطاب، قائلين: ما كان على جهة «يا أيها الناس» فهو مكي، وما كان على جهة «يا أيها الذين آمنوا» فهو مدني.

ويلاحظ: أن الوجهتين الثانية والثالثة - قد خرجنا عن مبدأ الاضطراد، فمن اعتمد المكان يخرج عنها ما نزل في غير مكة والمدينة وما جاورهما، مثل ما نزل بتبوك في سورة التوبة آية رقم ٤٣^(٢) وما نزل في بيت المقدس كما روى في سورة الزخرف آية رقم ٤٥^(٣). ومن اعتمد جهة الخطاب يخرج عما وضع من اعتماد^(٣)، فمثلاً سورة البقرة مدنية، وقد احتوت كثيراً من المخاطبة المكية، كما في قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ مُعْبِدِينَ وَأَرْسَلْنَاكُمْ﴾^(٤).

والرأي الأول أولى بالأخذ والاعتماد لحصره واطراده.

(١) البرهان في علوم القرآن، ج ١/ ١٩١.

(٢) أنظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن/ ص ٦٣.

(٣) الإنقان، ج ١/ ص ١٧.

البرهان، ج ١/ ١٨٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١.

٤ - علامات المكي والمدني :

وضع العلماء علامات يعرف بها المكي والمدني ، وبها يتمييز كل منهما عن الآخر .

١ - علامات المكي :

من علامات السور المكية :

١ - وجود لفظ «كلا» في السورة - فكل سورة فيها هذا اللفظ فهي مكية . وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم ثلاثاً وثلاثين مرة . في خمس عشرة سورة . كلها في النصف الثاني من القرآن الكريم ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى .

٢ - وجود آية سجدة في السورة . فكل سورة فيها آية سجدة فهي مكية .

٣ - إفتتاح السورة بحرف من حروف التهجّي مثل (الم . الر . طس . حم . ق . ن) فكل سورة افتتحت بحرف من حروف التهجّي فهي مكية . إلا سورتيّن اثنتين ، البقرة وآل عمران فهما مديّتان بالإجماع مع كونهما مفتحتين بحروف التهجّي .

٤ - ذكر قصة آدم وإبليس في السورة . فكل سورة ذكرت فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية إلا سورة البقرة فهي مديّية مع ذكر هذه القصة فيها .

٥ - ذكر لفظ «يا بني آدم» في السورة ، فكل سورة فيها هذا اللفظ فهي مكية .

٦ - إشماتال السورة على ذكر أنباء الرسل - وأحوال الأمم السابقة لما فيها من أبلغ المواعظ ، وأنفع العبر ، ومن تقرير سنته تعالى في كونه ، وهي إهلاك الأمم المكذبة لرسليها - الخارجة على أوامر ربه - ونصر من صدق رسل الله ، ووقف عند حدود الله ، وعمل بشرائعه . فكل سورة تضمنت ما ذكر في مكية . إلا سورة البقرة فهي - مع إشماتالها على ذكر قصص بعض الرسل - مديّية - وهذه العلامات الست مطردة ، بمعنى أنه إذا تحققت أحدها في سورة كانت هذه السورة مكية قطعياً .

٧ - إشمال السورة على آية مصدرة بلفظ «يا أيها الناس» فذكر الآية التي صدرت بهذا اللفظ في سورة ما - علامة على أن هذه السورة مكية - قال بعض العلماء: والسبب في ذلك أن الكفر كان غالباً في أهل مكة، فحوطنوا بيا أيها الناس وإن كان غيرهم داخلًا فيهم.

وهذه العلامة غير مطردة إذ قد توجد الآية المصدرة بهذا اللفظ في سورة مدنية. كقوله تعالى في سورة البقرة - وهي مدنية اتفاقاً - ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ الآية وقوله تعالى في سورة النساء - وهي مدنية أيضاً - ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَنَ الْآيَةَ﴾ الآية.

فهذه العلامة أغلبية فقط بمعنى أن الأغلب والأكثر أن لفظ «يا أيها الناس» يكون في السور المكية، وقد يكون في السور المدنية أيضاً ولكنه قليل.

٨ - قصر الآيات، فقصر آيات السورة أمانة على كونها مكية. وقد علل بعضهم ذلك بأن أهل مكة كانوا أهل فصاحة ولسن يناسبهم الإيجاز دون الإطناب - وهذه العلامة أغلبية أيضاً - إذ قد يوجد القصر في الآيات المدنية لسورة النصر فإن آياتها قصيرة مع كونها مدنية.

٩ - عناية أي السورة بالدعوة إلى المقصد الأسمى من الدين، وهو الإيمان بالله تعالى - وتوحيده - والاعتقاد بأنه تعالى موصوف بكل كمال، وعززه عن كل نقص.

والإيمان برسالة النبي ﷺ، وبرسالة من سبقه من الرسل، والإيمان بملائكة الله تعالى وكتبه، وباليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، ونعيم وعذاب، مع إثبات ذلك كله بأدلة الكون، وبراهين العقل ثم النعمي على المشركين وإبطال شبههم، وتفنيد مزاعمهم، وتشفية أحلامهم بعكوفهم على عبادة الأصنام التي لا تملك لنفسها - فضلاً عن غيرها - نفعاً ولا ضرراً، فكل سورة اشتملت على ما ذكر فهي مكية.

١٠ - كون السورة تتحدث عن مثالب المشركين البغيضة، وعاداتهم المنكرة من القتل بغير حق، ورؤد البنات، واستباحة الأعراس، وأكل أموال

اليتامى ظلماً، وأكل الربوا وشرب الخمر، إلى غير ذلك من الموبقات مع تحذيرهم منها، ووعدهم على ارتكابها، فكل سورة هذا شأن آياتها فهي مكية.

١١ - تضمن آيات السورة حث العرب على التحلي بأصول الفضائل وأمهات المكارم، من الصدق في الحديث، والصبر على المكاره، والأمانة، والعدل، ورعاية الجوار، والوفاء بالعهد وبر الوالدين والتواضع، ولين الجانب والعفة، والعلم، والإخلاص، ومحبة الغير، وطمهارة القلوب ونظافة الألسنة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من الفضائل، فكل سورة تضمنت آياتها ما ذكر أو شيئاً منه فهي مكية. وهذه العلامة واللذان قبلها بحسب الغالب أيضاً. إذ قد توجد آيات في سورة مدنية مشتملة على ما شرحناه في العلامات الثلاث.

ب - علامات المدني

١ - اشتغال السورة على آية صدرت بلفظ «أيها الذين آمنوا» فذكر الآية المصدرية بهذا اللفظ في السورة - سواء كانت هذه الآية في أول السورة، أم في وسطها، أم في آخرها - أماراً على أن هذه السورة مدنية، والسبب في ذلك أن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة، فخطبوا بأيها الذين آمنوا وإن كان غيرهم داخلًا فيهم.

وهذه العلامة مطردة، فإذا وجد هذا اللفظ في سورة ما - كانت هذه السورة مدنية قطعاً.

٢ - طول أكثر سوره وآياته، قال بعض المحققين: لأن أهل المدينة لم يكونوا يظاهنون أهل مكة في الذكاء وطول الباع في البلاغة والبيان، فيناسب أهل المدينة الشرح والإيضاح - وذلك يستتبع كثيراً من البسط والإسهاب - يضاف إلى ذلك أن سور المدني وآياته طويلة نظراً لما اشتملت عليه من الأحكام والشريعات.

ومن شواهد طول السور المدنية وطول آياتها على السور المكية وآياتها أن معظم السور الطوال مدنية، ومعظم السور القصار مكية، وأن سورة الأنفال وهي

مدنية قد اشتملت على خمس وسبعين آية، وأن سورة الشعراء وهي مكية قد اشتملت على سبع وعشرين ومائتي آية مع أن كلا منهما نصف جزء، فطول السورة وطول آياتها دليل على أنها مدنية. وهذا بحسب الأكثر والغالب إذ قد توجد سورة طويلة وآياتها طوال وهي مكية كسورة الأنعام وإن كان ذلك قليلاً فهذه العلامة أغلبية لا مطردة. وتعبيرنا بأكثر في قولنا: طول أكثر سوره وآياته لإفادة أن من المدني سوراً قصيرة مشتملة على آيات قصار كسورة النصر، وأن منه سوراً قصيرة مشتملة على آيات طوال كالحجرات والمجادلة والممتحنة.

٣ - دعوة أهل الكتابين: اليهود والنصارى إلى الانضواء تحت لواء الإسلام وإقامة البراهين على فساد عقيدتهم، وبعدهم عن الحق والصواب، وتحريفهم كتاب الله تعالى.

٤ - اشتمال السورة على الإذن بالجهاد - وبيان أحكامه - لأن الجهاد لم يشرع إلا في المدينة.

٥ - تضمن السور بيان قواعد التشريع التفصيلية، والأحكام العملية في العبادات، والمعاملات، والفرائض، وأحكام الحدود، وأنواع القوانين المدنية، والجنائية، والحربية، والاجتماعية، وأحكام الأحوال الشخصية، ونظام الأسرة، إلى غير ذلك من دقائق التشريع.

٦ - اشتمال السورة على أحوال المشاغبين، وموقفهم من الدعوة المحمدية، وتوقيف الرسول على جلبه أمرهم، وما يكون له من حسد وعداوة. ذلك أن المنافقين لم تنشأ جماعتهم إلا في المدينة.

وهذه العلامات الأربع مطردة، ويتبين أن يعلم أن الحكم على السورة بأنها مكية يصدق بحالين:

الأول: أن يكون جميع آياتها مكيّاً، كسورة المدثر فإن آياتها كلها مكية، وليس فيها آية مدنية.

الثانية: أن يكون معظم آياتها مكيّاً، ويكون بعضها مدنياً كسورة النحل فإنها كلها مكية ما عدا الآيات الثلاث في آخرها من قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾

فَعَارِفُونَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴿١٠﴾ إلى آخر السورة، فإنها مدنية، وكذلك الحكم على السورة بأنها مدنية يصدق بحالين:

الأول: أن يكون جميع آياتها مدنياً كسورة النور.

الثانية: أن يكون أغلب آياتها مدنياً، ويكون بعضها مكياً كسورة محمد ﷺ، فإنها كلها مدنية، إلا قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْنٍ مِنْ أَشْدَقُوهُ مِنْ قَرْنِكَ يَا أَيْمَنَ كِرْحَاتِكَ أَعْدَىٰ لَكُمْ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ أَهْلُ عَذَابِ النَّارِ أَصْحَابُهَا هُمْ فِيهَا مُخَلَّدُونَ ﴿١٠١﴾ فإنها مكية، لنزولها حين خروج النبي ﷺ من مكة إلى الغار قاصداً الهجرة.

فالحكم على السورة بكونها مكية أو مدنية تابع لجميع آياتها أو لمعظمها، فإن كان جميع الآيات أو معظمها مكياً كانت السورة مكية، وإن كان جميع الآيات أو معظمها مدنياً كانت السورة مدنية^(١).

٥ - الخصائص العامة للمعصرين المكي والمدني:

سبق أن بينا أن لنزول القرآن الكريم فترتين:

- ما قبل الهجرة.

- ما بعد الهجرة.

ولكل من المكي والمدني خصائص ومميزات تميز بينهما.

أ - العصر المكي وخصائصه:

تتميز الآيات التي أنزلت في مكة بما يأتي:

أولاً: من حيث الشكل - بقصرها - في الجملة عن الآيات المدنية وهذا أغلب لا مطرد، فجزء عم، وهو الجزء الثلاثون من المصحف أغلبه مكّي وإذا أنت تلوته رأيت قصر آياته وتعدد فواصله، نعم هناك آيات مكية طويلة نوعاً ما كسورة الأنعام وأكثرها مكّي وآياتها طويلة نوعاً ما فإنها تقع في تسعة أرباع ونصف الربع، ومع ذلك لم تتجاوز آياتها ١٦٥ آية، ومثلها سورة النحل، فإنها

(١) الإتيان، ٤٧/١.

تقع في ستة أرباع وهي مكة إلا الآيات الثلاث الأخيرة منها، والسورة كلها آياتها ١٢٨ آية.

والحكمة في ذلك - والله أعلم - أن القوم - في مكة لعنادهم - في حاجة إلى ما يقرع آذانهم ويثير انتباههم، وهذا يدعو إلى كثرة الفواصل وهذا المعنى يدرسه الخطباء، بينما المحاضر العلمي لا يعنيه هذا بل يعني بوحدة الموضوع.

وثانياً: من ناحية الشكل - أيضاً - إنك واجد في الآيات المكية ألفاظاً كثيرة لا يعرف معناها إلا المتعمقون في اللغة العربية المتحرسون على أساليبها، ولعل الحكمة في ذلك أن أهل مكة كانوا أكثر العرب اختلاطاً بالقبائل العربية الضاربة في شبه الجزيرة، فإن مجامع العرب، ومواسم احتشادهم كانت في مكة كموسم الحج أو حولها كيدرو وعكاظ وذئ المجاز، فكان أهل مكة أفدر الناس على تدقيق الأساليب العربية على اختلاف لهجاتها، ولهذا كانت لغة قريش - وهم أهل مكة - هي اللغة المختارة عند العرب وتعتبر - عند العرب - كلغة قومية، اللهم إلا القبائل الضاربة في أطراف الجزيرة - فقد كانت لهم لهجاتهم الخاصة التي لم تتأثر بلغة قريش إلا بعد الإسلام - اعمل مقارنة بين ما في جزء قد سمع، وهو كله مدني وبين جزء هم، وأكثره - كما قلنا - مكّي، ثم انظر إلى الكلمات التي نحتاج فيها إلى مراجعة المعاجم في كل منهما، فلذلك ستجد أن ذلك كثير في الجزء الأخير.

ثالثاً: من ناحية الموضوع - أن الآيات والسور المنزلة في مكة تعني بالعقيدة وما يصل بالإيمان بوجود الله تعالى، وإثبات صفاته ووجوب توحده بالعبادة دون غيره، وتجد في الآيات المكية نعيماً على المشركين الذين يعتقدون وجود الله ولكنهم يشركون به غيره، كما أنك تجد فيها الدعوة إلى وجوب الإيمان بالملائكة واليوم الآخر وفيها كذلك إقامة البرهان على صدق الرسول، وأن هذا القرآن ليس من صنعه ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كَيْسٍ وَلَا قَهْطٍ يَمِينًا وَإِنَّا لَأَرْسَلْنَاكَ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قُلْ هُوَ مَا يَشَاءُ يَنْتَهِ فِي سُورِ الذِّكْرِ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُمُونَ يَتَأْتِينَا

إِلَّا الْفَلِيلُوتُ ﴿٢١﴾ ﴿١﴾ وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْنَا مَائِدَاتُنَا بَيَّنَّتُ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا
 آتِي بِشَرِّ مَا نَحْنُ بِهَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي بِغَيْرِ قَدَرٍ إِنْ أَرَادَ إِلَّا مَا يُوْحَى
 إِلَيَّ وَإِنِّي لَأَنفَاءُ إِنْ عَصَيْتُ رَفِيْعًا يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا
 أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿٢﴾

وهذا في المكي كثير جداً، والتحدي بالقرآن وقع كثيراً في مكة لصفاها
 أهلها، ووقع قليلاً في المدينة لفلة المعاندين، ولعل وجود التحدي في المدينة
 وهو دار إسلام لأشعار العالمين، إن التحدي بالقرآن باق إلى يوم القيامة، لتقوم
 الحجة على الجميع أن هذا الكتاب من عند الله تعالى وأن إعجازه خالد مخلود
 السماوات والأرض، آمن الناس أو كفروا.

وبالجملة فإنك تجد أصول الدين وعقائده في السور المكية

رابعاً: يكثر - في المكي - الدعوة إلى أصول مكارم الأخلاق التي اتفقت
 عليها الشرائع السماوية وأقرتها الفطر السليمة، كالنهي عن الفواحش ما ظهر منها
 وما بطن، وذلك لأن الإسلام لا يرضى من متبعيه أن يعتقدوا عقائده فحش، بل
 لا بد أن يكونوا على خلق عظيم، وسجايا كريمة ليكونوا مثلاً طيبة حتى يقتدي
 بهم غيرهم، فليس كمكارم الأخلاق دعاية لدين جديد أو فكرة جديدة.

اقرأ إن شئت ما قصه الله تعالى من وصية لقمان لابنه في سورة لقمان من الآية
 ١٢ إلى ١٩ واقرأ - كذلك - وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان من الآية ٦٣ إلى
 آخر السورة فكلها مكية إلا ثلاث آيات هي ٦٨، ٦٩، ٧٠ قبل إنها مدنية.

خامساً: نجد أكثر الفصوص في القرآن الكريم في السور المكية وذلك لأن
 الفصوص في القرآن تهدف إلى تسلية الرسول الكريم حتى لا تذهب نفسه حسرات
 على معاندة قومه، فيقص الله عليه أخبار الأنبياء السابقين ليثبت فؤاده وفؤاد
 أتباعه القليلين لأن مشيئة الله تعالى - أن ينصر رسوله وأتباعه ﴿إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٨ - ٢٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٥ - ١٦.

وَأَذِيتَ مَا تَتَوَفَّى الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿١١﴾ ﴿١﴾

ومن أهداف القصص في القرآن تحذير المعاندين من عاقبة عنادهم بضرب الأمثال لهم بمن سبقهم من الأمم المعاندة.

اقرأ سورة الشعراء، وأكثرها مكي، فتجد فيها قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وقومه وقصة إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه وقومه، ثم قصة نوح - عليه السلام - مع قومه، ثم قصة عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة مع أنبيائهم، وقد ختمت كل قصة من هذه القصص بالآيتين التاليتين: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١﴾﴾ (٢)

وفي هاتين الآيتين إنذار شديد وتحذير من انتقام الله العزيز الذي لا يغلب، الرحيم الذي يقبل توبة التائبين لا عن خوف منهم أو خشية من قوتهم ومكانتهم.

واقرا كذلك - سورة القمر - وأكثرها مكي - وفيها قصص مجمل لنوح وهود وصالح عليهم الصلاة والسلام - مع أقوامهم وكيف كانت عاقبتهم، وقد اتبعت كل قصة، بالآيتين التاليتين: ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١١﴾﴾ (٣)

ثم ذكر فيها قصة لوط - عليه السلام - مع قومه، وأعقبها بقوله: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١١﴾﴾ (٤)

ثم تحدثت السورة عن فرعون وتكذيبه للنذير. واتبع هذا القصص كله بقوله - جل شأنه - ﴿أَكْفَرُكُمْ سَعْيَةً مِنْ أَوْلِيَاءِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿١٠﴾﴾ (٥)

وإذا أنت تبعت القصص في القرآن الكريم وجدت أكثره يهدف إما إلى تسلية الرسول وأتباعه أو تحذير أعدائه.

(١) سورة طه، الآية: ٥١.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨ - ٩.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٦ - ١٧.

(٤) سورة القمر، الآية: ٣٩ - ٤٠.

(٥) سورة القمر، الآية: ٤٣.

وهناك هدف آخر من أهداف القصص القرآني، وهو جعل هذا القصص حجة على أن هذا القرآن من عند الله، فإن الرسول ﷺ لم يدرس تاريخاً ولم يجلس إلى معلم قط، ثم يأتي بهذا القصص الذي قامت البراهين على صدقه، فكان هذا دليل على أنه من عند الله، ففي سورة هود بعد أن قص الله قصة نوح بتفصيل لم يرد في سورة أخرى أعقب هذه القصة بقوله جل شأنه: ﴿ تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١)

وفي سورة يوسف - وأكثرها - مكي - والقصة كلها مكية - بعد أن قص الله خبر يوسف - عليه السلام - مع إخوته، وكيف كانت عاقبة أمره أعقب ذلك بقوله جل شأنه مخاطباً رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ تَدْرِي إِذْ أُجْعِلُوا أَعْرَابَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (٢)

وهذا المعنى كثير في القرآن الكريم، وفي السور المكية بالذات هذا، وإن هذه الأهداف من القصص القرآني أنبأ للمجتمع المكي العنيد في خصومته الشديد في عداوته.

سادساً: يقل - في العصر المكي - التشريع العملي سواء كان راجعاً إلى العبادات أو المعاملات، لأن الدعوة حينئذ في حاجة إلى تثبيت أصولها وإرساء قواعدها، وسنمّر مروراً سريعاً على التشريعات الحكيمة العملية، وقد نعود - إن شاء الله - إلى نوع من التفصيل عند الكلام على التدرج في التشريع.

فكما شرع - في مكة ونزل فيه القرآن - وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فهناك آيات كثيرة مكية تدل على ذلك، إلا أن الزكاة المفروضة في مكة كانت من باب التعاون على البر ووجوب مساعدة السائل والمحروم وأما الزكاة بنظامها المعروف فهذا كان بالمدينة، وستناول ذلك تفصيلاً فيما بعد، ومن ذلك - أيضاً - حرمة التلطيف في الكيل والوزن ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُوحِيهَا عَلَى قَلْبِكَ بِالْوَسْطَى الْوَسْطَى ﴾ (٣)

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٢.

يَسْتَوُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ أَوْ لِيَجْزِيَوكُمْ فِي الْبَلَدِ فَأُولَئِكَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

ومن التشريعات العملية المكية ما يتصل بالدباح والقرايين، ذلك لاتصالها بالعقيدة، وقد فصلت سورة الأنعام كثيراً من هذه الأحكام، وأغلب السورة مكي، والآيات التي تعرضت لهذه الأحكام من المكي وإليك بعض هذه الآيات التي فيها من التفصيل في هذا الموضوع بالذات:

يقول الله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذْ كُنْتُمْ مِنْ أُمَّةٍ مَعْنِي وَمَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٣١﴾ ﴿١٣٢﴾، فالآية الأولى فيها إباحة أكل الذبيحة التي ذكر عليها اسم الله، وربط ذلك بالإيمان، فإن مقتضى الإيمان أن لا يحرم الإنسان إلا ما حرم الله، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن يراد هذا الحكم في التشريع المكي لارتباطه بالعقيدة.

والآية الثانية فيها استفهام إنكاري لتحريم ما أحل الله من أكل الذبيحة التي ذكر عليها اسمه - تعالى - بعد أن فصل لهم ما حرم عليهم في قوله تعالى في هذه السورة أيضاً: ﴿ قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أُرْسَى إِلَيْكُمْ مَاعَلَى طَائِفَةٍ يَنْظُرُهُمْ وَلَا أَنْ يَكُونَ مَبْسُوتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴿٣١﴾ أَوْ لَحْمِ خَيْرٍ فَإِنَّهُمْ رَجَسٌ أَوْ يَسْقَ أَهْلًا ﴿٣٢﴾ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِرَأْسِهِ قَمَحًا غَيْرَبَاقٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولا يضر تأخر هذه الآية في التلاوة، فقد سبق أن عرفت أن القرآن نزل منجماً، وترتيب التلاوة ليس ترتيب النزول، والظاهر من الآية ١٢٩ أنها نزلت بعد الآية ١٤٥.

(١) وهي كما قيل آخر سورة نزلت، بمكة المطلقين / ١ - ٢ - ٣ -

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٨ - ١١٩.

(٣) مسفوحاً: أي سائلاً.

(٤) الإهلال: في اللغة رفع الصوت والمراد به ذكر غير اسم الله على الذبيحة.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

وسب نزول الآيتين الأوليين كما قال الواحدي: أن المشركين قالوا: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - الله تعالى قتلها، قالوا: تزعم أن ما قتل أنت وأصحابك حلال، وما قتل الصقر والكلب حلال، وما قتله الله حرام فنزلت هذه الآية^(١).

وفي الآية الثانية: بيان لأخلاق كثير من الناس أنهم يضلون بأهوائهم بغير علم، فيحرمون ما لا يتفق مع أهوائهم، ويحلون ما اتفق مع هذا الهوى.

وفي هذه السورة - أيضاً - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا تَرَىٰ يُذَكَّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْتِيَكَ بِوَسْوَسَاتٍ لِّئَلَّا تُبْصِرَ ۚ وَإِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لَشُرُكُونَ﴾^(٢).

ففي هذه الآية - وهي مكة أيضاً - نهى عن تحريم ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه، والحال أن هذا فسق، وأن مجادلتهم في أمر الميتة وغيرها إنما هو من وحي الشياطين ومن الوهم واتباع الهوى.

هذا، وفي سورة الأنعام أحكام أخرى عملية، كإنكار قتل الأولاد وتفضيل الأبناء على البنات في المأكل، ولكن لما كان وراء هذه الأعمال عقائد كفرية تعرضت لها هذه السورة المكية - تراجع الآيات من ١٣٦ - ١٤٠ - وفي هذه السورة المذكورة - أيضاً - حكم عملي لا يرجع إلى العقيدة، ولكنه يرجع إلى وجوب التعاون على البر والتقوى، وهو وجوب زكاة الزروع والثمار وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوسَاتٍ بِحَدِيثٍ مُّتَشَابِهٍ وَالزَّرْعِ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٣).

وقد سبق أن قلنا: أن مبدأ الزكاة كان بمكة، ولما كانت الآية سيفت لبيان نعمة الله وقدرته في الزروع والثمار ناسب أن يبين لهم أن هذه النعمة تستحق

(١) يراجع الألوسي: ١٣/٨

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

الشكر وذلك بإيتاء حقها يوم حصادها، والمقصود الأول هو الامتنان كما يدل عليه سياق السورة من مبدئها ولحاقها حتى نهايتها.

ب - العصر المدني للتزليل وخصائصه:

بعد هجرة الرسول الأكرم إلى المدينة أصبح لجماعة المسلمين دولة نعلو فيها كلمة الحق، وكان لهذه الدولة حاجة ملحة إلى التنظيم السياسي والاجتماعي، ومست الحاجة إلى وضع نظم ثابتة تنظم علاقة الفرد بربه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه الذي يعيش فيه، كما دعت الحاجة إلى تنظيم علاقة المسلمين بمخالفهم في الدين. وبدأت الآيات تتري بين كل ما يحتاجه المجتمع من تشريعات، بعضها بنصوص قطعية في دلالتها على مقصود الشارع بحيث لا يختلف اثنان يعرفان اللغة العربية في فهم مدلول النص.

وهذا النوع يسمى قطعي الدلالة: والأمثلة عليه كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال: آيات المواريث في سورة النساء: تراجع الآيات ١١، ١٢، ١٧٦.

وآيات المحرمات من النساء فإن أكثرها قطعي الدلالة - أيضاً - تراجع الآيات ٢٢، ٢٣، ٢٤ من سورة النساء أيضاً.

هنا ومن رحمة الله بعباده، وتوسعته عليهم، ولكي يعملوا عقولهم أنزل آيات لبيان بعض الأحكام تحتمل أكثر من معنى، وتسمى هذه الآيات ظنية الدلالة، وكلف عباده أن يجتهدوا في فهمها، وتقبل منهم العمل بما تصل إليه عقولهم - وجعل للمصيب أجرين وللمخطئ - في اجتهاده أجراً واحداً، وهذا اللون كثير - أيضاً - كقوله تعالى في شأن المطلقات: ﴿وَأَنطَلَقْتُمْ يُرْضَعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(١).

وإنما كانت هذه الآية ظنية لأن لفظ القرء ورد في اللغة بمعنيين:

أولهما الطهر، وثانيهما الحيض، وعلى المجتهد أن يعمل فكره في اختيار أي المعنيين أقرب إلى مقصود الشارع، وسأحاول بمشيئة الله أن أبين لك

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

مميزات السور والآيات المدنية، وهذه المميزات ترجع كذلك إلى الشكل والموضوع:

أما ما يرجع إلى الشكل فهي:

١ - طول الآيات المدنية، وهذا في غالب الجملة، وقد بيئت الحكم فيما تقدم.

٢ - قلة الألفاظ التي يحتاج فهمها إلى المعاجم، وقد بيئت الحكمة - كذلك - فيما تقدم.

٣ - أن كل آية يبدأ الخطاب فيها بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مدنية قطعاً، فقد أصبح المؤمنون - في مجتمعهم الجديد - جماعة لها من القوة والمكانة ما يدعو إلى تشریفهم بندااء الله لهم وبصفة الإيمان.

وبهذه المناسبة، فقد قال بعض العلماء: إن كل آية بدأت بـ ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهي مكية، وما بدأت بـ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مدنية، وباستفراء القرآن نستطيع أن نقول: إن الشق الثاني صحيح، وأما الشق الأول فغير مسلم، اللهم إلا أن يقال: إن ذلك أغلبي، وإليك آيات مدنية قطعاً وهي مبدوءة بـ ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾.

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اصْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾^(١) الثانية: قوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾^(٢).

الثالثة: قوله عز من قائل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ﴾^(٣).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ الرَّمُوسُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٣٣﴾ (١)

السادسة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٣٤﴾ (٢)

السابعة: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِذَا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَحَمَلْتُمْ أَوْ جَاءَ بَلٌّ لَعَنُوا وَإِنْ أَكْرَمَكُمْ بِعَدْوِيٍّ أَلْفَيْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣٥﴾ (٣)

ولا اعتقد أن الخطاب: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ في السور المكية يزيد عن هذا العدد إلا قليلاً.

فهناك آية في سورة الأعراف ١٥٨ وفي بونس الآية ٥٧، ١٠٤، ١٠٨، وفي سورة الحج ثلاث آيات هي ١، ٥، ٧٣، وفي سورة فاطر ثلاث آيات أيضاً هي الآيات ٣، ٥، ١٥.

والمستبح للآيات المبدوءة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يجدها تدعو إلى الإيمان بالله، كما تدعو إلى أمر تفره الفطر السليمة كلها من غير حاجة إلى سبق إيمان، اقرأ الآيات المذكورة آنفاً، وهي مذبذبة ثم اقرأ الآيات المكية التي أشرت إليها، فسنجدها كلها لا تخرج عما قرره آنفاً، بينما الآيات التي بدأت: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ مَأْمُونًا﴾ تطلب أموراً لا بد أن يسبقها إيمان.

وأما المميزات المعنوية فهي ما يأتي:

١ - تفصيل الكثير من الأحكام العملية كتنظيم الأسرة، وهو ما يعرف الآن

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(بالأحوال الشخصية) وما يتصل بذلك من الموارث والوصايا وأغلب هذه الآيات في سورة البقرة والنساء والأحزاب والطلاق، وقليل من هذه الأحكام التي تتصل بالمعاملات المالية ووضعت الخطوط الرئيسية لأسس المعاملة بين الناس، ونصت على بعض الأحكام بأسلوب قطعي الدلالة كتحریم الربا وأكل أموال الناس بالباطل أو عن غير تواض منهم.

وبالجملة فإن العصر المدني فيه كثير من التشريعات القرآنية التي تنظم الحياة في دولة أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

وكذلك نجد في المدني - كل ما يتصل بالتشريع الجنائي.

٢ - عرض التنزيل - في المدينة - لبيان النفاق، وفضح المنافقين، وهؤلاء اللون من التنزيل لا نجده في مكة لأن أهلها كانوا أعداء معلنين، ولم يظهر النفاق إلا في المدينة من قوم مرضى الأخلاق خافوا من سطوة المسلمين، فقد أصبحت لهم شوكة، ولم تكن عند هؤلاء الشجاعة - كأهل مكة - أن يجهروا برأيهم ورأوا أن الدولة تتسع أركانها كل يوم فطلبوا المعانم بإظهار الإسلام وأبطنوا الكفر حقاً وحسداً، ولما كان هؤلاء أخطر على الدولة الناشئة من أعدائها المجاهرين كثرت الآيات فيهم تكشف خباياهم وتحذر من شرهم، وفي سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والثوبة آيات كثيرة في شأنهم، وهناك سورة سميت باسمهم (المنافقون).

فإذا وجدت حديثاً في القرآن عن النفاق أو المنافقين فاعلم أنه مدني يقيناً.

٣ - مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كان رسول الله ﷺ في مكة يجاور قوماً من المشركين عبدة الأوثان أو الذين لا يعرفون لهم إلهاً ويقولون: (ما يهلكنا إلا الدهر) وقلما كان التنزيل يتعرض لأهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بقدر ما يتصل بتصحيح عقيدة المشركين.

مثال ذلك: ما ورد في سورة مريم - وأكثرها مكي - من قصة عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - وقد نزلت هذه القصة - في مكة - ولم يكن بها أحد من النصارى - يومئذ - إلا قلة قليلة جداً لا يؤبه بهم ولا يكاد أحد يشعر

بوجودهم، وردت لقطع أطماع بعض المشركين الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، تشبهاً بالنصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله. فقص عليهم قصة عيسى منذ حملت به أمه حينما نفخ فيها الملك من روح القدس إلى أن وضعت، ثم أنت به قومها تحمله، وبرا الله مريم من قرية اليهود والذين لا يعرف عنهم التاريخ قديماً وحديثاً إلا الافتراء على أكرم الناس من الأنبياء والمرسلين والأطهار من الرجال والنساء، ثم ختمت قصة عيسى مع أمه - عليهما الصلاة والسلام - بالمعزى الذي سبقت له، وهو تصحيح عقيدة المشركين - ومن تشبهوا بهم - بقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣١﴾ مَا كَانَ يَلْوَنَ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سِحْنَةً إِذَا فُضِّقَ آمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١)

ومثال آخر في سورة طه - وأكثرها مكي - وتكاد قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، ومع بني إسرائيل تشعب السورة:

نزلت في مكة تسلية للرسول الأكرم حتى لا تذهب نفسه حيرات من عناء قومه، فقص الله عليه قصة موسى وما لاقاه من فرعون، وما لاقاه من بني إسرائيل الذين أنقلهم الله على يده، كأنه يقول له: ما كنت بدعاً من الرسل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ كَذِبًا وَأَكْبَارًا ﴿١﴾ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (٢) ولهذا انتحت سورة طه بقوله تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا قُرْآنًا مَنشُورًا ﴿٢﴾ إِلَّا تَسْحِرَةٌ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿٣﴾ نَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَالْخَلْقُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أُنذِرُكَ حَيْثُ مُوسَى ﴿٩﴾ ﴾ (٣)، فانت ترى أن الله مهّد للقصة بأنها للتسلية فما أنزل عليه القرآن ليشتق بالحسرة، وإنما هو تذكرة وعبرة.

هذا وقد ختمت القصة - في هذه السورة - بما يؤكد هذا المعنى بقوله جل

(١) سورة مريم، الآية: ٣٤ - ٣٦.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٣) سورة طه، الآية: ١ - ٩.

شانه : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا إِنَّ مِنْ أَعْرَافِ عَتَمَةٍ قَوْمًا
يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (١)

وأنت لو تتبعت السور المكية لوجدت أن الحديث فيها عن اليهود والنصارى ليس جدلاً مباشراً معهم ، وإنما هو تصحيح لعقيدة المشركين أو تسلية للمرسول ﷺ وأتباعه أو تحذيراً للمشركين من عنادهم .

هذا شأن الرحي المنزل (القرآن الكريم) في مكة مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولكن بعد الهجرة أخذ الحديث عن اليهود والنصارى لوناً جديداً فقد كان في المدينة وحولها أقوام من اليهود، ثم اتصل المسلمون بنصارى نجران وتغلب والقبائل العربية المتحصرة التي كانت في شمال الجزيرة متاخمين للروم ، فحصل احتكاك في المعاملة ثم مجادلة في العقيدة ثم خلاف في الرأي أدى إلى وقوع صدام بين المسلمين وبين أهل الكتاب، وكان لا بد من أن يكون لذلك صدى في كتاب الله لأنه - كما قلنا أولاً - نزل منجماً بحسب المحادث والنوازل، وبهذا نرى السور المدنية كثيرة الحديث عن اليهود وعنادهم وسوء أدبهم مع الله تعالى، فإن المشركين - ولم يكن لهم سابق هداية سماوية - لم يسيئوا الأدب مع الله كما أساء اليهود الأدب معه ، فالمشركون كانوا إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض قالوا: إنه الله، وكانوا يعطون عبادتهم للأوثان بأنها تقربهم إلى الله زلفى .

أما اليهود فقد قالوا: كما حملنا الله عنهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكُمْ ﴾ وقالوا أخزاهم الله ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنَةُ إِبْرَاهِيمَ إِذَا سَأِلُوا بِأَيْدِيهِمْ كَيْفَ بَشَأَهُ ﴾ .

وترى أسلوب مجادلة النصارى أسلوباً علمياً حول إبطال عقيدة التثليث وبنوة المسيح لله تعالى، وإدعاء ألوهيته، وإبطال الصلب .

وأكثر هذا الحديث عن اليهود والنصارى في سورة البقرة وآل عمران

(١) سورة طه، الآية: ٩٩ - ١٠١ .

٤ - من مميزات السور والآيات المدنية: الحديث عن الغزوات وما يتصل بها من أحداث. وهذا منطقي، لأن القتال إنما شرع في المدينة للدفاع عن العقيدة ورد طغيان الأعداء الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأقواهم، وليس من الحق والعدل أن يخرج قوم من ديارهم، وتصادر أموالهم ويضطهد ضعفاؤهم، ثم يقف المظلومون مكتوفي الأيدي يتلقون الطعنات ثم لا يدافعون عن أنفسهم بعد أن صارت لهم شوكة وعزة، تراجع سورة آل عمران ففيها حديث عن غزوة أحد، وسورة الأنفال وفيها الحديث عن غزوة بدر الكبرى وسورة التوبة وفيها الحديث عن غزوة العسرة، وهي غزوة تبوك، وسورة الأحزاب وفيها تفصيل غزوة الخندق وتسمى غزوة الأحزاب، وفيها كذلك حديث عن غزوة بني قريظة ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... ﴾^(١) وسورة الحشر ففيها حديث عن غزوة بني النضير.

هذه جملة المميزات بين التنزيل المكي والتنزيل المدني.



(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٦.

الفصل الثالث

المحكم والمتشابه

معنى المحكم والمتشابه :

يقال حكمه في الأمر تحكيماً أمره أن يحكم فاحتكم. وسورة محكمة غير منسوخة والآيات المحكمات ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبِّي ﴾^(١) إلى آخر السورة. أو من الأحكام الذي معه إلى بيان. أو من الأحكام بمعنى الإنقار والمنع عن الفساد. ومن ذلك الحكمة بالتحريك، وهي ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه، وفيه معنى المنع^(٢).

ويقال: شابهه وأشبهه مائله... وتشابها واشتبها أشبه كل منهما الآخر حتى النساء، وشبته إياه وبه تشبيهاً مثله، وأمور مشتبهة ومشبته مشكلة، والشبهة بالضم الالتباس والمثل بالكسر، وشبه عليه الأمر تشبيهاً لبس عليه بالتشديد، وفي القرآن المحكم والمتشابه^(٣).

هذا في اللغة، فأما تعريف المحكم والمتشابه في الاصطلاح، فقد تعددت فيه الأقوال، وتباينت الآراء، متقاربة في جوانب ومبتاعدة في جوانب أخرى.

١ - المحكم هو ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره. والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل. نحو الحروف المقطعة في أوائل السور. روي هذا القول

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٢) أنظر القاموس المحيط، ج ٢/ ١٠٠.

(٣) نفس المرجع، ج ٤/ ٢٨٨.

عن جابر والشعبي وسفيان الثوري .

- ٢ - المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً . والمتشابه ما يحتمل وجوهاً .
- ٣ - المحكم ناسخه وحرامه وحلاله وقرائضه وما تؤمن به وتعمل به . والمتشابه منسوخه وأمثاله وأقسامه ، وما تؤمن به ولا تعمل به . ونسب هذا القول إلى ابن عباس .
- ٤ - المحكم الناسخ . والمتشابه المنسوخ . ونسب إلى ابن مسعود وقتادة والزبيح والضحاك .
- ٥ - المحكم الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له ، المتشابه ما فيه تصريف وتحريف وتأويل . ونسب إلى مجاهد وابن إسحاق ورجحه ابن عطية .
- ٦ - المحكم ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره . والمتشابه ما يرجع فيه إلى غيره . رجحه النحاس ، وقال : وهذا أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات .

قال القرطبي : ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية ، وهو الجاري على وضع اللسان وذلك لأن المحكم اسم مفعول من أحكم ، والأحكام : الإتيان . ولا شك أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد ، إنما يكون كذلك لوضوح مقدرات كلماته وإتقان تركيبها . ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال^(١) .

وقيل : إن المتشابه ما يحتاج إلى بيان . وهو مروى عن الإمام أحمد ، والمحكم ما يقابله^(٢) .

وقيل : المحكم ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور^(٣) .

(١) انظر تفسير الشوكاني ، ج ١ / ٣١٤ .

(٢) انظر تفسير المنار للشيخ رضا ، ج ٣ / ١٣٧ .

(٣) الإتيان ، ج ١ / ٢ .

وحول محكم القرآن ومتشابهه، حكى ابن حبيب النسابوري في المسئلة
ثلاثة أقوال:

أحدها - إن القرآن كله محكم لقوله تعالى ﴿ كَتَبْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحْكِمًا ﴾^(١)
الثاني - كله متشابه لقوله تعالى: ﴿ وَأَتُوا بِهَا مُتَشَابِهًا ﴾^(٢).

الثالث - وهو الصحيح - انقسامه إلى محكم ومتشابه لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾^(٣).

ويراد بالإحكام في الآية الأولى: الإتيان والصدق والتمييز بين الحق
والباطل. وسبك الكلام بعضه ببعض وإعجاز نظامه. وبالشابه في الآية الثانية:
المماثلة والتقوية، فيصدق بعضها بعضاً ويشبه بعضها بعضاً في الكمال والجودة.
وتقسيم الآية الثالثة لآي القرآن إلى محكم ومتشابه، والذي كان مثار
الاختلاف بين العلماء في تحديد كل منهما، كما سبق ذكره.

إمكانية معرفة المتشابه من القرآن

في القرآن الكريم المتشابه كما فيه المحكم، ويبدو ذلك في النص الشاهد
﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾، وهذه المتشابهات أو
القسم المتشابه من القرآن، هل بالإمكان معرفتها أم لا؟

اختلف بين العلماء حول إمكانية الاطلاع على المتشابه من القرآن إلى
قولين، ومنشأ هذا الاختلاف يعود إلى علاقة النظم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾^(٤).

فمنهم من قال بالوقف عند لفظ الجلالة (إلا الله) واعتبر (والراسخون)

(١) سورة هود، الآية: ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧.

كلاماً مستأنفاً ذا طبيعة ابتدائية، والخير (يقولون آناً به).

ومنهم من قال بالعطف بين (والراسخون) ولفظ الجلالة (الله).

فمن قال بالوقف عند لفظ الجلالة ذهب إلى عدم الاطلاع على المشابه، وإن هذا مما احتص به علم الله تعالى.

وإلى إمكانية الاطلاع ذهبت طائفة بسيرة، منهم مجاهد، وهو رواية عن ابن عباس واختاره الثوري، وقال هو الأصح، لأنه يعد مخاطبة العباد بما لا سبيل إلى معرفته لأحد، وهو الظاهر، كما قال ابن الحاجب^(١).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فِي الْغَيْبِ﴾. «ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ من المشابه إلا أن يقولوا (آناً) لم يكن لهم فضل على الجاهل، لأن الكل قائلون ذلك، ونحن لم نر المفسرين إلى هذه الغاية توقفوا عن شيء من القرآن، فقالوا: هو مشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمره على التفسير، حتى فسروا الحروف المقطعة»^(٢).

وعلى هذا الرأي فلا وقف عند لفظ الجلالة، والواو في (والراسخون) عطفية و (يقولون) حال أو خير.

وذهب الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم خصوصاً أهل السنة، وهو أصح الروايات عن ابن عباس^(٣)، إلى كون ما بعد لفظ الجلالة مستأنفاً وقد أخرج ابن جرير عنه - ابن عباس - مرفوعاً: أنزل القرآن على أربعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته وتفسير نفسه العرب، وتفسير نفسه العلماء ومثابه لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب^(٤).

وروى عن ابن عباس: إنه كان يقرأ (وما يعلم تأويله إلا الله) ويقول (والراسخون في العلم يقولون آناً به) فهذه وإن لم تثبت بها قراءة، فأقل درجتها

(١) الإتيان، ج ٢/٣.

(٢) البرهان، ج ٢/٧٣.

(٣) الإتيان، ج ٢/٣.

(٤) الإتيان، ج ٢/٣.

أن تكون خبراً بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن^(١).

وروي عنه خلاف ذلك، أي من القول بالعطف لا الاستئناف^(٢).

وقال الراغب في مفردات القرآن: الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه. فالمتشابه بالجملة ثلاثة أضرب، متشابه من جهة اللفظ فقط ومن جهة المعنى فقط، ومن جهتهما، فالأول ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة إما من جهة الغرابة، نحو ﴿الآبِ﴾^(٣) و ﴿يَزْفُونَ﴾^(٤) أو الاشتراك ﴿كَالْبَدِ﴾^(٥) و ﴿الْيَمِينِ﴾^(٦)، وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركب وذلك ثلاثة أضرب، لاختصار الكلام نحو ﴿وَلَنْ حَقَّتْ آلاؤُنَا لِقَيْطُوا فِي الْيَنْفَى فَانكَبُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾^(٧) وضرب لسطه نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٨)، لأنه لو قيل ليس مثله شيء كان أظهر للسامع. وضرب لنظم الكلام، نحو ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِجَابًا ۝ قِيَمًا﴾^(٩)، تقديره أنزل على عبده الكتاب فيما ولم يجعل له عوجاً.

والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة، فإن تلك الأوصاف لا تتصور لنا إذا كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم تحسّه أو ليس من جنسه، والمتشابه من جهتهما خمسة أضرب: الأول من جهة الكمية كالعموم

(١) الإنفان، ج ٢/٣.

(٢) البرهان، ج ٢/٧٣.

(٣) سورة عبس، الآية: ٣١ ﴿وَلِكَلِمَةٍ وَأَنَا لَكَ﴾ - الأب: الكلام وسائر أنواع المرعى. وقيل غير ذلك.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٩٤ (الزف: العد وسرعة).

(٥) سورة القنق، الآية: ١٠.

(٦) سورة الزمراء، الآية: ٦٧.

(٧) سورة النساء، الآية: ٣.

(٨) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٩) سورة الكهف، الآية: ١ - ٢.

والخصوص نحو ﴿فَاتَّقُوا الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، والثاني من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو ﴿فَاتَّقُوا مَا مَلَكَكُمْ مِنَ السَّاءِ﴾، والثالث من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِيهِ﴾^(٢)، والرابع من جهة المكان والأمور التي تزلت فيها نحو ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾^(٣) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(٤)، فإن من لا يعرف عاداتهم في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية، الخامس من جهة الشروط التي يصح بها الفعل ويفسد شروط الصلاة والنكاح. قال: وهذه الجملة إذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم. ثم جمع المشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة، ونحو ذلك، وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام الغلقة، وضرب متردد بين الأمرين يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم وهو المشار إليه بقوله ﷺ لا ين عباس: اللهم فقعه في الدين وعلمه التأويل. وإذا عرفت هذه الجهة عرفت أن الوقوف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ووصله بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جائز أن وأن لكل واحد منهما وجهاً جسيماً دل عليه التفضيل المتقدم^(٥).

الحكم في المتشابه من آيات الصفات

المتشابه من آيات الصفات، نحو قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى السَّمَوَاتِ
أَسْتَوَى﴾^(٦)، و﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٧) و﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ إِلَّا

- (١) سورة التوبة، الآية: ٥ ﴿فَاتَّقُوا الْمُشْرِكِينَ﴾.
- (٢) سورة عمران، الآية: ١٠٢. قيل: إن هذه الآية منسوخة بالحكم بالآية رقم ١٦ من سورة التغابن.
- (٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
- (٤) سورة التوبة، الآية: ٣٧.
- (٥) ذكره السيوطي في الإتيان، ج ٢/ ٥.
- (٦) سورة طه، الآية: ٥.
- (٧) سورة الفتح، الآية: ١٠.

وَكَيْفَهُمْ^(١) . وهكذا في كل آية تتعلق بأوصاف الله تعالى .

فما كان من متعلقات هذه النصوص ، بفروض الأمر فيه إلى الله تعالى ولا نخوض في حقيقته . ذهب إلى ذلك جمهور أهل السنة بمن فيهم من السلف وأهل الحديث ، وقالوا : لا نفسرها مع تنزيها له عن حقيقتها . والصحيح أن أهل السلف يثبتون معنى الصفة له على حقيقتها التي تليق بذاته ، لأن ذات الخالق تختلف عن ذات المخلوق ، والتفويض إنما يكون في الكيفية وليس في المعنى .

روى عن أم سلمة في قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾^(٢) أنها قالت : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به من الإيمان والجحود به كفر .

وسئل الإمام مالك ، فقال : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

ونسب إلى محمد بن الحسن قوله : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الترمذي في حديث الرؤية : المذهب عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ومالك وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وغيرهم أنهم قالوا تروي هذه الأحاديث كما جاءت وتؤمن بها ولا يقال كيف ولا نفسر ولا نتوهم^(٣) .

وعلى هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها وأئمة الحديث^(٤) .

وذهبت طائفة من أهل السنة إلى التأويل على ما يليق بجلاله تعالى^(٥) . وهو مذهب الخلف ، واختاره ابن برهان وغيره من الأشعرية ، وهو الموافق لمذهب عامة المتكلمين من القول بأن كل القرآن يجب أن يكون معلوماً ، وإلا

(١) سورة القصص ، الآية : ٨٨ .

(٢) الإتيان ، ج ٦/٢ .

(٣) نفس المرجع . وانظر البرهان ج ٧٩/٢ ، قاله ابن الصلاح .

(٤) الإتيان ، ج ٦/٢ .

لأدى إلى إبطال فائدة الانتفاع به، ولذا فقد قالوا بعطف (والراسخون) على (إلا الله) (١). وهذا الاختلاف ناشىء عن اختلافهم في جواز شيء في القرآن لا يعلم معناه وعدم الإذعان لذلك، بل لا يوجد شيء في القرآن لا يعلم معناه.

فمن قال بالجواز اعتقدوا التبريه، ومن قال بعدم الجواز حملهم على ذلك استحالة التشبيه والجسمية في حق الباري تعالى، فحملوا الكلام على خلاف المفهوم من ظاهره (٢).

وذكر ابن القيم عن أبي المعالي الجويني: ذهب أئمة السلف إلى الانكشاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مرادها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي ليرتضيه رأياً وتدينين الله به عقد اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع والدليل السعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مشد معظم الشريعة وقد درج أصحاب الرسول ﷺ ورضي عنهم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، والمستظنون بأعناء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، ولو كان تأويل هذه الظواهر موسعاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بقروع الشريعة، وإذا انصرف عصرهم وعصر التابعين لهم على الإضراب عن التأويل، كان ذلك قاطعاً بأن الوجه الصحيح، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزيه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب تعالى. وعند إمام القراء وسيدهم الوقوف على قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْمُؤُا تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ من العزائم، ثم الابتداء بقوله: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾.

وذكر عن أبي الوليد بن رشد المالكي: فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه، وهؤلاء أهل الجدل والكلام، وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيراً مما ظنوه ليس على ظاهره، وقالوا: إن هذا التأويل هو المقصود به، وإنما أمر الله به في صورة المشابهة ابتلاء لعباده واختياراً لهم.

(١) البرهان، ج ٢/ ٧٨.

(٢) البرهان، ج ٢/ ٨١.

ونعود بالله من سوء الظن بالله، بل نقول: إن كتاب الله العزيز إنما جاء معجزاً من جهة الوضوح والبيان، فما أبعد من مقصد الشارع من قال فيما ليس بمشابه: إنه مشابه، ثم أول ذلك المشابه يزعمه، وقال لجميع الناس: إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل، مثل ما قاله في آية الاستواء على العرش وغير ذلك مما قالوا: إن ظاهره مشابه، ثم قال: وبالجمله فأكثر التأويلات التي زعم القائلون بها أنها المقصود من الشرع إذا تأملت وجدت ليس يقوم عليها برهان^(١).



(١) انظر: أعلام الموقعين ج ٤/ ٢٤٥. فيه بحث قيم حول التأويل في مشابه القرآن، وكتابه: الصواعق المرملة، الجزء الأول حيث خصصه للكلام عن التأويل. وانظر: نقض المنطق لابن تيمية، ٥٦.

الفصل الرابع

الناسخ والمنسوخ

١ - في أهمية هذا العلم:

من عظيم الشأن العلم بمعرفة الناسخ من المنسوخ، وقد لاقى هذا العلم اهتماماً كبيراً، لدى الأئمة والأعلام، فصنّف فيه كثيرون، منهم: أبو عبيد القاسم بن سلام، والتحاس، وابن العربي، وابن الجوزي^(١).

ومرّ الإمام علي رضي الله عنه على قاصّ، فقال: تعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت.

ومرّ ابن عباس رضي الله عنه بقاصّ يقصر، فركضه برجله، فقال: تدري ما الناسخ من المنسوخ؟ قال: وما الناسخ من المنسوخ؟ قال: وما تدري ما الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال هلكت وأهلكت^(٢).

ومما قاله الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسّر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ^(٣).

(١) البرهان، ج ٢/ ٢٨.

(٢) نفس المرجع.

(٣) نفس المرجع.

٢ - معنى النسخ:

النسخ في اللغة له معانٍ متعددة، منها نقل الشيء من مكان إلى آخر مع بقاءه في نفسه، ومنها تناسخ الموارث وهو انتقالها من قوم إلى آخر ومنها التسجيل والضبط، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْنِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) ومنها الإزالة والإعدام^(٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْفِتْيَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ مَأْمَرَهُ﴾^(٣) ومن هذا قولك نسخت الشمس الظل، إذا أزالته^(٤).
وأما مراد النسخ في الشرع: هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر^(٥) فقوله: «حكم شرعي» يخرج الحكم العقلي، وهو البراءة الأصلية، فإن رفعها بإثبات إيجاب العبادة في الشرع يدل على خلاف حكم العقل من براءة الذمة ولا يسمى نسخاً.

وقوله «بدليل شرعي» يخرج ما ارتفع من الأحكام الشرعية بالموت، فلا يكون نسخاً بل هو سقوط تكليف. والدليل الشرعي قد يشمل السنة فضلاً عن الكتاب^(٦).

٣ - طرق معرفة الناسخ والمنسوخ:

إذا ما وجد دليلان شرعيان، قد تعذر الجمع بينهما، نزع إلى معرفة الناسخ منهما والمنسوخ، دفعا للتناقض في كلام الله تعالى. وهذا يقتضي البحث عن سبيل صحيحة نعرف منها اللاحق من السابق، فيكون اللاحق ناسخاً للسابق. وقد تقدم معرفة طرق الناسخ والمنسوخ في علم الحديث، ومع هذا نوجزها للتذكرة:

- (١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
- (٢) الفيروزآبادي، القاموس، ج ٤/٢١.
- (٣) سورة الحج، الآية: ٥٢.
- (٤) انظر: الزرقاني: مناهل العرفان ج ٢/٢٠٩، ابن الصلاح: المقدمة ص ١٧٩.
- (٥) انظر المحلاوي: تسهيل الوصول إلى علم الأصول، ص ١٢٩.
- (٦) المرجع السابق.

أ - النقل الصريح عن النبي ﷺ، أو عن صحابي بطريق صحيحة .

ب - إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ .

ج - معرفة المتقدم من المتأخر .

هذه الأسس المعتمدة في معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب العزيز^(١).

أنواع النسخ في القرآن :

تنوع النسخ في القرآن إلى :

أ - نسخ التلاوة والحكم معاً، ومثاله :

ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات . وتوفي رسول الله ﷺ وهو فيما يقرأ من القرآن»^(٢)، وتوضيح كلام عائشة :

أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً حتى أنه توفي رسول الله ﷺ وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآناً متلوّاً لكنه لم يبلغه النسخ لقرب عهده فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا أن لا يتلى وهذا من نسخ التلاوة دون الحكم^(٣) عند البعض .

ب - نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، ومثاله :

ما ورد في الفاحشة الكبرى^(٤) من قبل الشبخين - كبير السن - الشيخ

(١) انظر الإتيان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٠ . متأهل العرفان ج ٢ ص ١٧٩، ومنتاع قطان : مباحث في علوم القرآن ص ٢٣٨، والاعتبار في النسخ والمنسوخ للمحازمي الهمداني / ٤ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب : الرضاع، باب : التحريم بخمس رضعات (الحديث : ١٤٥٢) . وانظر سبل السلام ج ٣ ص ٢١٦ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) جريمة الزنا .

والشيخة إذا رنبا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم^(١)
 فهذا النص مشوخ مع بقاء الحكم في الزاني المحصن - المتزوج، ذكراً كان
 أو أنثى - وهو الرجم بالحجارة إلى الموت^(٢)
 ج - نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، ومثاله:

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ مَوَدَّةً
 ذَلِكَ سِرٌّ لَكُمْ وَالْمَهْرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

هذا الحكم نسخ مع بقاء تلاوة النص، وذلك بقوله تعالى: ﴿مَنْ تَقَدَّمَ أَنْ يُقَدِّمُوا
 بَيْنَ يَدَيْكُمْ مَوَدَّةً فَمَا تَقَدَّمُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

ومن هذا القبيل، قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴿٥٠﴾﴾. فظاهر هذا
 النص يفيد الترخيص بدفع الفدية، وقد نسخ هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ
 مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴿١٦٣﴾﴾ فكان الصوم إلزامياً، مع أن الآيتين متלותان^(٣).

(١) انظر سبل السلام ج ٤ ص ٤ (فيه توضيح منير حول هذه القضية) - فليراجع

(٢) المرجع السابق.

(٣) المجادلة، ١٢. وانظر: الشوكاني: فتح القدير (الجامع بين لفظي الرواية والدراية) ج ٥
 ص ١٨٥: «المتاجاة المسارعة والمعنى: إذا أرفتم مسارعة الرسول في أمر من أموركم
 فقتلوا بين يدي مسارعتكم صدقة. قال الحسن: لزلت بسبب أن قوماً من المسلمين
 كانوا يستحلون بالنبي ﷺ يناجون. فظن بهم قوم من المسلمين أنهم يتقصونهم في
 النجوى فشق ذلك عندهم فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى لتعلمهم عن استحلانهم»

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٣. وانظر المرجع السابق.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٥. وانظر: الشوكاني: فتح القدير، ج ١، ص ١٨٠ - ١٨١.

(٧) انظر: مناهل العرفان، ج ٢ ص ٢١٣.

٥ - الحكمة من النسخ:

أ - مراعاة مصالح العباد.

ب - تطور التشريع إلى رتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس.

ج - ابتلاء المكلف واختياره بالامثال وعدمه.

د - إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه

زيادة الثواب، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر^(١).

٦ - درجات النسخ:

النسخ في القرآن لم يكن على درجات متحدة، بل على درجات مختلفة، منها ما كان إلى غير بدل، ومنه ما كان إلى بدل، وهو بذاته على أنواع ثلاثة.

النوع الأول أن يكون مماثلاً للماضي، النوع الثاني أن يكون أخف منه، النوع الثالث أن يكون أثقل منه^(٢).

وفيما يلي الأمثلة التطبيقية لدرجات النسخ:

أولاً: مثال النسخ إلى غير بدل.

وهذا النوع يتمثل، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَحُونَكُمْ صَدَقْتُمْ لَمَّا أَتَى بَنِي إِسْرَائِيلَ رَسُولُكُمْ فَاسْتَأْذَنُوا لِلنَّبِيِّ إِنْ أُنزِلَ عَلَيْهِ مِنْ نَبِئَةٍ أَنْ يَأْتِيَنَّاهُمْ وَرِجَازِكُمْ كَفِيراً قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَى نَبِيِّكَ كَمَا نُنزِلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ بَلْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَى قَلْبِكَ وَأَنْزَلْنَاهُ عَلَى مَنَافِقِ الْوَالِدِينَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَاسَرْتَ الرَّسُولَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي اتَّخَذْتُمْ لِلرَّسُولِ مَنَافِقَ وَأَنْتُمْ تُكَفِّرُونَ ۝٣٣﴾^(٣).

فقد نسخت هذه الآية حكم قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَاسَرْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَحُونَكُمْ صَدَقْتُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣٤﴾^(٤).

(١) استخرجها مناع فطان في مباحث علوم القرآن، ص ٢٤٠. وانظر: مناهل العرفان

للزرقاني، ج ٢، ص ٢١٧.

(٢) انظر: مناهل العرفان، ج ٢، ص ٢٢٠.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

ثانياً: مثال النسخ إلى بدل -

أ - إلى بدل مماثل، ويمثل هذا النوع، كما في نسخ حكم التوجه في الصلاة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلْتُمْ وَجْهَكُمْ فِي السَّجْدِ فَلْتَأْتُوا بِنُورٍ قَبْلَهُ قَرَضْتُمْ قَوْلَ وَجْهَكُمْ سَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ قُولُوا وَجْهَكُمْ سَطَرَ ﴾ (١)

ب - إلى بدل أثقل، كنسخ حكم جريمة «الفاحشة الكبرى» من قبل النساء بالحبس في البيوت إلى إقامة الحد - مائة جلدة إن كانت غير محصنة، وإن كانت محصنة فالرجم بالحجارة إلى الموت -، قال تعالى: ﴿ وَاللَّيْ بَأْسُكَ أَنْفَجَسْتَهُ مِنْ سَاءِ بَعْدِكُمْ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّعَنَّ الْمَوْتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ (٢)

فقد نسخ هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿ الرَّأْيَةُ وَالرَّأِي لَأَجْلِدُوا كُلَّ وَجْهٍ مِنْهُمَا بِأَنَّهُ جَلْدَةٌ وَلَا تَأْخُذُكُمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

هذا حكم غير المحصن، أما المحصن فإن حكمه الرجم - ذكراً أو أنثى - وذلك بالحكم الباقي في المسوخ الثلاثة «الشيخ والشيخة» (٤)

ج - إلى بدل أخف، ويمثل هذا النوع ينسخ ما كتب علينا من صف ما كتب على الذين من قبلنا في قريضة الصيام، كما في قوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٥)

ومما كتب على الذين من قبلنا، أنه إذا صام أحدهم حرم عليه الطعام والشراب ومعاشرة الزوجة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥.

(٣) سورة النور، الآية: ٢.

(٤) انظر سبل السلام، ج ٤، ص ٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

فقد نسخ هذا الحكم إلى بدل أخف، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْلًا لَكُمْ لَيْلَةَ
الْصِيَّامِ الْرَفِئِ إِلَىٰ نَسَائِكُمْ مِمَّنْ يُبَاطِنُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٍ لَهُمْ عَلِيمٌ أَنَّهُمْ كُنْتُمْ تَحْتَابُونَ
أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقْدًا عَنْكُمْ فَأَلْفَنًا يُتْرَوْنَ وَأَتَعَوْا مَا كُتِبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكَلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّىٰ
يَبَيِّنَ لَكُمُ الْعَيْطَ الْأَيْضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (١).

فلم يمنع المسلمون من المباشرة والأكل والشرب إلا بطلوع الفجر
الصادق.

٧ - النسخ بين المبتين والمنكرين:

أجمع المسلمون على أن النسخ جائز عقلاً وواقع شرعاً إلا ما نقل عن أبي
مسلم الأصفهاني^(٢) في أحد النقلين عنه أنه غير واقع، ويؤول ما يراه الجمهور
نسخاً بأنه من باب انتهاء الحكم لانتهاء زمنه، ومثل هذا لا يعتبر نسخاً.

والصحيح في النقل عنه: أنه واقع بين الشرائع بعضها مع بعض ولكنه غير
واقع في الشريعة الواحدة، وبذلك يكون أبو مسلم مع الجمهور في أن النسخ
واقع، وإنما قلنا إن النقل الأخير هو الصحيح عنه لأنه هو الذي يتفق مع ما
أجمع عليه المسلمون من أن شريعة محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع السابقة،
ولا يسع أبو مسلم أن يخالف هذا الإجماع. أما اليهود فقد انقسموا إلى فرق
ثلاث، فرقة الشمعونية وهذه الفرقة ترى أن النسخ محال عقلاً وسمعاً، وفرقة
الغيسوية وترى أن النسخ جائز عقلاً وواقع شرعاً، ولكن شريعة محمد عليه
الصلاة والسلام ليست ناسخة لشريعة موسى وإنما هي خاصة ببني إسرائيل،
وفرقة العنانية: وهذه الفرقة تقول إن النسخ جائز عقلاً ولكنه غير واقع سمعاً.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) هو محمد بن بحر الأصفهاني، مفسر نحوي، كاتب بلخ، متكلم معتزلي، له في
تفسير القرآن (جامع التأويل لمحكم التنزيل) في أربعة عشر مجلداً على مذهب
المعتزلة، والناسخ والمنسوخ وغيرهما. ولد سنة ٢٥٤ هـ. وتوفي سنة ٣٢٢ هـ. وهو
غير الجاحظ، خلافاً لما ذكره الأستوي في نهاية السؤل (١٢٩/٢) وانظر ترجمته في
معجم الأدباء (٣٥/١٨) بغية الوعاة (٥٩/١) الفهرست (٢٠٢).

وبذلك تكون المذاهب في النسخ خمسة بيانها كالآتي:

- ١ - جائز عقلاً واقع سمعاً في الشريعة الواحدة وبين الشرائع المختلفة وهو رأي جميع المسلمين ما عدا أبا مسلم الأصفهاني.
- ٢ - جائز عقلاً واقع سمعاً بين الشرائع المختلفة وغير واقع في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام وهو رأي أبي مسلم الأصفهاني.
- ٣ - محال عقلاً وسمعاً وهو رأي الشيعونية من اليهود.
- ٤ - جائز عقلاً وغير واقع سمعاً وهو رأي العنانية.
- ٥ - جائز عقلاً وواقع سمعاً، وشريعة محمد عليه الصلاة والسلام غير ناسخة لشريعة موسى وهو رأي العيسوية.

أ - أدلة المذاهب:

استدل الجمهور على الجواز بدليلين:

الدليل الأول: أن النسخ لا يترتب على فرض وقوعه محال، وذلك لأن أحكام الله تعالى إما أن تشرع لمصالح العباد أو لا تشرع لمصالحهم، فإن قلنا بالأول كما تقول المعتزلة فلا شك أن المصالح تختلف باختلاف الأشخاص كما تختلف باختلاف الأزمان، فما يكون مصلحة لشخص قد يكون غير مصلحة لآخر كشرب الدواء مثلاً، فهو مصلحة للمريض ولكنه غير مصلحة للصحيح في الزمن الواحد، وما يكون مصلحة في زمن قد يكون غير مصلحة في زمن آخر بالنسبة للشخص الواحد كشرب الدواء بالنسبة لزيد فهو مصلحة له في زمن مرضه غير مصلحة له في زمن صحته، وما دامت المصالح تختلف باختلاف الأزمان والأشخاص، والأحكام يراعى في شرعيتها مصالح العباد، فلا شك أن ذلك مما يجعل النسخ أمراً لا بد منه، لا أن يكون محالاً.

وإن قلنا بالثاني وهو أن الأحكام لا يراعى في شرعيتها مصالح العباد فظاهر أيضاً أن النسخ لا يترتب عليه محال، لأنه لم يخرج عن كونه فعلاً من أفعال الله تعالى، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

فظهر أن النسخ في الحالتين لا يترتب على فرض وقوعه محال، فكان

جائزاً عقلاً، لأن شأن الجائز العقلي ذلك.

نوقش هذا الدليل من قبل القائل بعدم الجواز، بأن النسخ يترتب عليه محال فيكون محالاً، وبذلك لم تتم لكم الصغرى في الدليل.

وبيان ذلك أن الحكم الناسخ إما أن يكون قد شرع لمصلحة علمها الله بعد أن لم يكن علمها، أو يكون قد شرع لا لمصلحة، فإن كان الأول فقد تحقق البداء وهو الظهور بعد الخفاء، وذلك باطل على الله تعالى لما يلزمه من نسبة الجهل إليه تعالى.

وإن كان الثاني كان عبثاً، والعبث من الشارع محال.

ويجاب عن ذلك بأن هناك فسماً ثالثاً قد تركتموه قلنا أن تختاره، وذلك القسم هو أنه تعالى شرع الحكم الثاني لمصلحة علمها أولاً ولم تخف عليه أصلاً، ولكن وقتها إنما يجيء عند انتهاء الحكم الأول بما اشتمل عليه من المصلحة، وهذا لا يترتب عليه بداء ولا عبث.

الدليل الثاني: وهو مسوق في وجه اليهود المحيلين له عقلاً والقائلين بأن شريعة محمد عليه السلام خاصة بالعرب من بني إسماعيل.

وحاصل هذه الكلمة أن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ثبتت بالدليل القاطع، وهو المعجزة الدالة على ذلك، فيكون صادقاً فيما يقوله عن ربه تعالى وينقله عنه، وقد نقل عنه تعالى قوله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَرْسَلْنَا﴾ (١) ومعنى الآية: أن نسخ نأت ومثل ذلك إنما يقال فيما هو جائز عقلاً لا فيما هو محال.

فكانت الآية الدالة على أن النسخ جائز وهو المطلوب.

وقد نوقش هذا الدليل بأن الآية لا دلالة فيها على الجواز لأنها إنما تفيد صدق التلازم الحاصل بين الشرط والجزاء، وصدق هذا التلازم لا يتوقف على وقوع الشرط والجزاء ولا على جواز وقوعهما.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

بل إن التلازم يصدق ولو كان الشرط محالاً مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (١) فالكلام صحيح مع أن الشرط محال وقوعه.

وقد ذكر الأسنوي جواباً عن ذلك يتلخص في أن الآية مع قطع النظر عن سبب نزولها لا دلالة فيها على الجواز كما تقولون، ولكن إذا نظرنا إلى سبب النزول وهو أن اليهود عابوا على رسول الله ﷺ تحوله عن بيت المقدس إلى البيت الحرام وقالوا إن محمداً يأمر بالشيء ثم ينهي عنه، فأنزل الله تعالى رداً عليهم ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا فَأُنَافِئُ بِحَرْمِهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ (٢)

نقول: إذا نظرنا إلى ذلك كان في الآية دليل على الجواز لأنها ردت عليهم في شيء عابوه قد وقع فعلاً.

واستدلوا على الوقوع بما يأتي:

أولاً: أن التوجه إلى بيت المقدس كان واجباً ثم زال ذلك الوجوب بالتوجه إلى البيت الحرام، وتقديم الصدقة بين يدي الرسول كان واجباً بقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَيَّعُ الرَّسُولُ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُودِكُمْ صَدَقَةً ﴾ (٣) ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿ مَا تَشَفَّعْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُودِكُمْ صَدَقَةً فَإِذَا لَرْتُمْ فَعْمَلُوا وَنَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِسُوا الصَّلَاةَ ﴾ (٤)

ثانياً: أن آدم عليه السلام كان يزوج بناته من بنيه، وكان ذلك بأمر من الله تعالى كما ثبت في التوراة ثم نسخ ذلك إتفاقاً.

وكذلك ورد في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من الفلك بعد النجاة من الطوفان «يا نوح إني قد جعلت كل ذاية حية مأكلاً لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما عدا الدم فلا تأكلوه» ثم حرم على ذريته كثيراً من الدواب في شريعة موسى وحكى القرآن ذلك فقال: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ ذُرِبَتْ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

هَذَا وَاحْرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ (١) الآية.

ولا شك أن تحريم الشيء بعد إباحته بشرع سابق نسخ لثلك الإباحة. وبذلك يكون النسخ واقعاً بين الشرائع المختلفة، وفي ذلك رد على الشمعونية والعنانية.

ب - موقف اليهود من النسخ:

يتفق اليهود على شيء واحد: هو أن الشريعة الإسلامية لم تسخ شريعتهم ولكنهم يفترون فيما عدا هذه القضية إلى ثلاث فرق، لكل منها موقفاً الخاص من النسخ:

الفرقة الأولى: الشمعونية.

الشمعونية: نسبة إلى شمعون بن يعقوب، تقرر أن النسخ لا يجوز عقلاً، ولم يقع سمعاً.

الفرقة الثانية: العنانية.

العنانية: نسبة إلى عنان بن داود (٢)، ترى أنه لا بأس بالنسخ في حكم العقل، لكنه لم يقع.

الفرقة الثالثة: العيسوية.

العيسوية: نسبة إلى أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني (٣) تذهب إلى

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

(٢) هو رأس الجالوت، تخالف فرقة سائر اليهود في السبت والأعياد وينهون عن أكل الطير والقطباء والسماك والجراد، ويذبحون الحيوان على الفقاه، ويصدقون عيسى عليه السلام في مواعظه وإشاراته، ويقولون إنه لم يخالف التوراة البتة، بل قررها ودعا الناس إليها. وهو من بني إسرائيل المتعبدين بالتوراة. ومن المستجيبين لموسى عليه السلام إلا أنهم لا يقولون بنبوته ورسالته (النظر الملل والنحل: ١٩٦ من القسم الأول).

(٣) قيل إن اسمه عوقيد الوهيم، أي عابد الله. كان في زمن المنصور، وابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية، مروان بن محمد. فاتبعه بشر كثير من اليهود وادعوا له آيات ومعجزات، وزعموا أنه لما حورب لخط على أصحابه خطأ بعود أس، وقال: أقيموا في

أن النسخ جائز في حكم العقل، وأنه قد وقع فعلاً لكنها تمنع أن تكون شريعة محمد ناسخة لشريعة موسى عليهما السلام، لأن رسالة محمد كانت خاصة بالعرب، ولم تكن عامة لجميع الناس.

وهكذا يتضح أن اليهود لم يتفقوا فيما بينهم على الربط بين النسخ والبداء وأن ما درج عليه المؤلفون في تقرير هذه القضية ليس صحيحاً على إطلاقه، فقد رأينا كيف تجيزه العناية عقلاً، وكيف لا يتكر العيسوية وقوعه ولو أن بينه وبين البداء عندهم تلازماً - كما يقال في تصوير موقفهم منه - ما أجازة فرقتان من فرقهم الثلاث عقلاً، وقرر فريق من هذين الفريقين أنه قد وقع.

فلنقرر الحقيقة التي حاول اليهود - بجميع فرقهم - أن يسموها على عادتهم إذاً، ولتكشف القناع عن وجه هذه الحقيقة، لينضح الهدف الذي رموا إليه بمذاهبهم في النسخ، على ما بينها من خلاف.

إن إنكار النسخ ليس غاية عندهم، ولكنه وسيلة فحسب. أما الغاية فهي إنكار رسالة محمد ﷺ، على الإطلاق، فإن أعجزهم إدراك هذه الغاية - فلا أقل من إنكار أنهم مطالبون بتصديقه، واتباعه فيما جاء به.

وقد كان السامعون أشدغم غلواً في هذا، فراحوا يثيرون الشبه على جواز النسخ عقلاً، ليحكموا باستحالة وقوعه. وهؤلاء الذين ربطوا بينه وبين البداء واعتبروهما متلازمين.

هذا الخط، فليس ينالكم عدو سلاح. فكان الأعداء يحصلون عليهم حتى إذا بلغوا الخط رجعوا عنهم. خوفاً من ظلمهم، أو عزيمة ربما وضعها، ثم إن أبا عيسى خرج من الخط وحده على فرسه. فقاتل وقتل من المسلمين كثيراً، وذهب إلى أصحاب موسى بن عمران الذين هم وراء النهر المرسل، ليسمعهم كلام الله، وقبل إنه لما حارب أصحاب المنصور بالري قتل وقتل أصحابه.

وقد كان يزعم أنه نبي، وأنه رسول المسيح المنتظر، وأنه واحد من خمسة يأتون قبل عيسى واحداً بعد واحد، وأن الله تعالى كلمه وكلفه أن يخلص بني إسرائيل من أيدي الأمم العاصين، والملوك الظالمين؛ كما زعم أن المسيح أفضل ولد آدم، وأنه أعلى منزلة من الأنبياء الماضين. وإذا هو رسوله. فهو أفضل الكل أيضاً، وكما خالف اليهود في هذا - خالفهم في كثير من أحكام التوراة (الفطر السبل والنحل، ١/١٩٦ - ١٩٧).

ثم كان العنانية مغالطين، منكرين للواقع، حين حكموا بأن النسخ لم يقع وإن كان العقل لا يرى استحالته. وهؤلاء - كما هو واضح - لا يذهبون إلى ما ذهب إليه الشمعونية من استلزام النسخ للبداء.

أما العيسوية فلم يرتبوا على وقوع النسخ مستحيلاً عقلياً، ولم ينكروا وقوعه. لكنهم لم ينسوا الهدف المشترك، فقرروا أن شريعة الإسلام لم تنسخ شريعتهم، لسبب غير هذا كله، هو أن محمداً ﷺ لم يرسل إليهم بل أرسل إلى العرب، وشريعته إنما أنزلت ليعمل بها العرب لا ليعملوا هم بها.

وهؤلاء لا يربطون بين البداء والنسخ، من قريب أو من بعيد كما يتبين من حكمهم بجواز النسخ ووقوعه، مع تترتيبهم الله عز وجل عن البداء كسائر اليهود.

ويقتضينا المنطوق ونحن بصدد الرد على اليهود - أن تبدأ بمناقشة الشمعونية. وذلك أنهم يرون استحالة النسخ عقلاً ويحكمون بأنه لم يقع، فإذا نحن أبطلنا ما أثاروه من شبه على الجواز العقلي، وأثبتنا بواقع لا ينكرونها أنه قد وقع في شريعتهم، وفي الشرائع السابقة لها - فرغنا بذلك من أمرهم ومن أمر العنانية أيضاً، لأن إثبات وقوع النسخ إبطال لمذهبهم الذي يقوم على إنكار وقوعه.

أما العيسوية فيجيء الرد عليهم بعد هؤلاء وأولئك وسرى كيف يطل الدليل الذي استدلوا به من الثوراة على أن شريعة موسى مؤيدة، وكيف يقوم دليلنا قوياً على عموم شريعة محمد ﷺ ودوامها؛ وعلى أنها تنسخ كل شريعة سبقتها ولا تنسخها شريعة أخرى، لأنها خاتمة الشرائع، ونبيها ﷺ خاتم النبيين.

شبه الشمعونية:

إن الشمعونية - كما تقدم يرون استحالة النسخ عقلاً، فإذا أبطلنا ما أثاروه من شبه على الجواز العقلي، وأثبتنا بواقع لا ينكرونها أنه قد وقع في شريعتهم وفي الشرائع السابقة عليهم كان ذلك رداً على العنانية الذين ينكرون وقوع النسخ.

ج - وهذه هي شبه التي تعلقوا بها:

الشبهة الأولى:

يقولون: لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكماً من أحكامه لكان ذلك، إما لحكمة ظهرت له كانت خافية عليه، وإما لغير حكمة. وكل هذين باطل. أما الأول فلأنه يستلزم تجويز البداء والجهل بالعواقب على غلام الغيوب، وأما الثاني فلأنه يستلزم تجويز العبث على الحكيم العليم اللطيف الخبير والبداء والعبث مستحيلان عليه سبحانه بالأدلة العقلية والنقلية فما أدى إليهما وهو جواز النسخ محال.

والجواب على هذه الشبهة أن نسخ الله تعالى ما شاء من أحكامه، منبني على حكمة كانت معلومة له أولاً، ظاهرة لم تخلف عليه ولن تخفى عليه أبداً. غاية الأمر أن مصالح العباد تتجدد مع الأزمان، وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، وأسراره وحكمه سبحانه لا تنتهي، ولا يحيط به سواء فإذا نسخ حكماً بحكم، لم يخل هذا الحكم الثاني من حكمة جديدة غير حكمة الحكم الأول، هي مصلحة جديدة للعباد في الحكم الجديد، أو هي غير ذلك وسبحان من أحاط بكل شيء علماً. وإذن فلا يستلزم نسخ الله لأحكامه بداء ولا عبثاً.

ولكن هؤلاء الجاحدين غفلوا أو تغافلوا عن هذا، حتى جاء الترديد في شبهتهم ناقصاً لم يستوف وجوه الاحتمالات كما ترى ولو استوفوه لقالوه: النسخ إما أن يكون لحكمة ظهرت له كانت خافية، أو لحكمة كانت معلومة له لم تكن خافية عليه أو لغير حكمة. وأكبر الظن أنهم لم يفتنوا إلى هذا ولو فطنوا له ما شبهوا ولو شبهوا بعد قطعتهم له لاخترنا الشق الثاني من هذا الترديد، ثم آيدنا بتواتر أدلة العقل والنقل عليه كما قررنا.

الشبهة الثانية:

يقولون: لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكماً بحكم، للزم على ذلك أحد باطلين: جهله جل وعلا، وتحصيل الحاصل. وبيان ذلك أن الله تعالى إما أن يكون قد علم الحكم الأول المنسوخ على أنه مؤبد، وإما أن يكون قد علمه

على أنه مؤقت. فإن كان قد علمه على أنه مستمر إلى الأبد ثم نسخه وصيره غير مستمر، انقلب عليه جهلاً والجهل عليه تعالى محال. وإن كان قد علمه على أنه مؤقت بوقت معين ثم نسخه عند ذلك الوقت، ورد عليه أن المؤقت ينتهي بمجرد انتهاء وقته، فإنهاؤه بالنسخ تحصيل للحاصل، وهو باطل.

الجواب على ذلك: بأن الله تعالى قد سبق علمه أن الحكم المنسوخ مؤقت لا مؤبد، ولكنه علم بجالب ذلك أن تأقبت إنما هو بورود النسخ لا بشيء آخر كالتيقيد بغاية لمي دليل الحكم الأول، وإذن فعلمه بإنتهائه بالنسخ لا يمنع النسخ بل يوجبه، وورود النسخ محقق لما لمي علمه لا مخالف له.

شأنه تعالى في الأسباب ومسبباتها، وقد تعلق علمه بها كلها. ولا تنسى ما قررناه ثمة من أن النسخ بيان بالنسبة إلى الله، رفع بالنسبة إليها.

الشبهة الثالثة:

يقولون: لو جاز النسخ للزم أحد باطلين: تحصيل الحاصل، أو ما هو في معناه. وبيان ذلك أن الحكم المنسوخ إما أن يكون دليله قد غيأ بغاية ينتهي عندها، أو يكون قد أبدته نصاً: فإن كان قد غيأ بغاية فإنه ينتهي بمجرد وجود هذه الغاية، وإذن لا سبيل إلى إنتهائه بالنسخ، وإلا لزم تحصيل الحاصل. وإن كان دليل الحكم الأول قد نص على تأييده ثم جاء النسخ على رغم هذا التأيد، لزم المحال من وجوه ثلاثة:

أولها: التنافس، لأن التأيد يقتضي بقاء الحكم. ولا ريب أن النسخ يتأقبه.

ثانيها: تعذر إفادة التأيد من الله للناس، لأن كل نص يمكن أن يقيد بتعطيل إفادته باحتمال نسخة. وذلك يفضي إلى القول بعجز الله وعيه عن بيان التأيد لعباده فيما أبدته لهم، تعالى الله عن ذلك.

ثالثها: استلزم ذلك الجواز نسخ للشريعة الإسلامية مع أنها باقية إلى يوم القيامة عند القائلين بالنسخ.

والجواب عن هذه الشبهة:

أولاً: بأن حصر الحكم المنسوخ في هذين الوجهين اللذين ذكرهما المانع،

غير صحيح، لأن الحكم المنسوخ يجوز ألا يكون مؤقتاً ولا مؤبداً، بل يجيء مطلقاً عن التأكيد وعن التأييد كليهما، وعليه فلا يستلزم طروء النسخ عليه شيئاً من المحالات التي ذكروها. وإطلاق هذا الحكم كاف في صحة نسخه، لأنه يدل على الاستمرار بحسب الظاهر، وإن لم يعرض له النص.

ثانياً: أن ما ذكره من امتناع نسخ الحكم المؤبد غير صحيح أيضاً، وما استندوا إليه منقوض بوجوه ثلاثة:

(أولها): أن استدلالهم بأنه يؤدي إلى التناقض، مدفوع بأن الخطابات الشرعية مقيدة من أول الأمر بالأمر بالآل يرد ناسخ، كما أنها مقيدة بأهلية المكلف للتكليف والآل يطرأ عليه جنون أو غفلة أو موت. وإذن فمجيء الناسخ لا يقتضي إلى تناقض بينه وبين المنسوخ بحال.

(ثانيها): أن استدلالهم بأنه يؤدي إلى أن يتعذر على الله بيان التأييد لعباده، مدفوع بأن التأييد يفهمه الناس بسهولة من مجرد خطابات الله الشرعية المشتملة على التأييد، وهو ما يشعر به كل واحد منا، وذلك لأن الأصل بقاء الحكم الأول وما اتصل به من تأييد أو تأييد، وطروء النسخ احتمال مرجوح، واستصحاب الأصل أمر يميل إلى الطبع، كما يؤيده العقل والشرع.

(ثالثها): أن جواز نسخ الشريعة الإسلامية إن لزمنا معاصر القائلين بالنسخ - فإنه يلزمنا على اعتبار أنه احتمال عقلي لا شرعي، بدليل أننا نتكلم في الجواز العقلي لا الشرعي. أما نسخ الشريعة الإسلامية بغيرها من الناحية الشرعية فهو من المحالات الظاهرة، لتضافر الأدلة على أن الإسلام دين عام خالد. ولا يضير المحال في حكم الشرع، أن يكون من قبيل الجائر في حكم العقل.

الشبهة الرابعة:

يقولون: إن النسخ يستلزم اجتماع الضدين، واجتماعهما محال، وبيان ذلك أن الأمر بالشيء يقتضي أنه حسن وطاعة ومحجوب لله، والنهي عنه يقتضي أنه قبيح ومعصية ومكروه له تعالى. فلو أمر الله بالشيء ثم نهى عنه، أو نهى عن

الشيء ثم أمر به، لاجتماع هذه الصفات المتضادة في الفعل الواحد الذي تعلق به الأمر والنهي.

والجواب على هذه الشبهة أن الحسن والقبح وما اتصل بهما، ليست من صفات الذاتية حتى تكون ثابتة فيها لا تتغير. بل هي تابعة لتعلق أمر الله ونهيه بالفعل. وعلى هذا يكون الفعل حسناً وطاعة ومحبولاً لله ما دام مأموراً به من الله، ثم يكون هذا الفعل نفسه قبيحاً ومعصيةً ومكروهاً له تعالى ما دام منتهياً عنه من تعالى. والقائلون بالحسن والقبح العقليين من المعتزلة، يقرون بأنهما يختلفان باختلاف الأشخاص والأوقات والأحوال. وبهذا التوجيه يتنهي اجتماع الضدين، لأن الوقت الذي يكون فيه الفعل حسناً، غير الوقت الذي يكون فيه ذلك الفعل قبيحاً، فلم يجتمع الحسن والقبح في وقت واحد على فعل واحد.

د - شبهة أبي مسلم:

النقل عن أبي مسلم مضطرب، فمن قائل: إنه يمنع وقوع النسخ مسمياً على الإطلاق. ومن قائل إنه ينكر وقوعه في شريعة واحد. ومن قائل: إنه ينكر وقوعه في القرآن خاصة. ورجحت هذه الرواية الأخيرة بأنها أصح الروايات وبأن التأويلات المنقولة عنه لم تخرج عن حدود ما نسخ من القرآن. وأبعد الروايات عن الرجل هي الرواية الأولى، لأنه لا يعقل أن مسلماً فضلاً عن عالم كأبي مسلم ينكر وقوع النسخ جملة، اللهم إلا إذا كانت المسألة ترجع إلى التسمية فقط. فإنها تهون حينئذ، على معنى أن ما نسيه لحن نسخاً، يسميه هو تخصصاً بالزمان مثلاً. وإلى ذلك ذهب بعض المحققين، قال التاج السبكي: إن أبا مسلم لا ينكر وقوع المعنى الذي نسيه لحن نسخاً، ولكنه يتحاشى أن يسميه باسمه. ويسميه تخصصاً اهـ.

احتج أبو مسلم بقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْغُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَبْرُؤًا مِنْ حِكْمِهِ تَبْدِيلًا﴾ (١).

وشبهته في الاستدلال أن هذه الآية تفيد أن أحكام القرآن الكريم لا تبطل

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

أبدأ. والنسخ فيه إبطال للحكم سابق.

والجواب على هذه الشبهة بأمرين:

أولها: أنه لو كان معنى الباطل في الآية هو متروك العمل به مع بقاء قرآنته، لكان دليله قاصراً عن مدعاه، لأن الآية لا تفيد حيثل إلا امتناع نوع خاص من النسخ وهو نسخ الحكم دون التلاوة فإنه وحده هو الذي يترتب عليه وجود متروك العمل في القرآن. أما نسخ التلاوة مع الحكم أو مع بقاءه، فلا تدل الآية على امتناعه بهذا التأويل.

ثانيها: أن معنى الباطل في الآية ما خالف الحق، والنسخ حق، ومعنى الآية أن عقائد القرآن موافقة للعمل، وأحكامه مسيرة للحكمة، وأخباره مطابقة للواقع، والفاظه محفوظة من التغيير والتبديل، ولا يمكن أن يتطرق إلى ساحته الخطأ بأي حال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١) ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾^(٢)

ولعلك تدرك معنى أن تفسير الآية بهذا المعنى، يجعلها أقرب إلى إثبات النسخ ووقوعه، منها إلى نفيه وامتناعه، لأن النسخ - كما قررنا - تصرف إلهي حكيم، تقتضيه الحكمة، وترتبط به المصلحة.

ثالثها: أن أبا مسلم على قرض أن خلافه مع الجمهور لفظي لا يعدو حدود التسمية، نأخذ عليه أنه أساء الأدب مع الله، في تحمسه لرأي قائم على نحاشي لفظ اختاره - جلت حكمته - ودافع عن معناه بمثل قوله: ﴿مَا نَفَخَ مِنْ مَائَةٍ أَوْ نُسَيْبًا نَأْتٍ بِخَيْرٍ مِمَّنْهَا أَوْ﴾^(٣) وهل بعد اختيار الله اختياراً؟ وهل بعد تعبير القرآن؟ ﴿سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٤)

رابعها: أن هناك فروقاً بين النسخ والتخصيص، فارجع إليها إن شئت.

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

حتى تعلم شلظ صاحبنا فيما ذهب إليه . جنبنا الله الشلظ وطريق العوج^(١) .

٨ - نسخ بعض القرآن ببعضه :

لا خلاف بين العلماء في أن القرآن جميعه لا يجوز نسخه لأنه من حيث لفظه معجزة مستمرة على التأيد ومن حيث اشتماله على أحكام الشريعة ذاتاً أو استدلالاً كحجية السنة والإجماع والقياس يكون رفعه رفعاً لتلك الشريعة . ورفع الشريعة كلها يتناقى مع كونها آخر الشرائع ، والناس لا يتركون بغير شريعة . ولكنهم اختلفوا في نسخ بعضه فأجازة الجمهور ومنعه أبو مسلم الأصفهاني .

استدلال الجمهور على مدعاهم بالوقوع فقالوا :

أولاً : إن عدة المتوفى عنها زوجها كانت سنة كاملة لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾^(٢) ثم نسخ بتربصها أربعة أشهر وعشراً فقط لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾^(٣) وكل من الآيتين قرآن .

ناقش أبو مسلم ذلك فقال : إن النسخ يقتضي عدم العمل بالحكم المنسوخ أصلاً .

وعدة المتوفى عنها زوجها بالسنة يعمل به فيما إذا مكث الحمل سنة فلا يكون منسوخاً وإنما يكون ذلك من قبيل التخصيص .

وأجيب عن هذا من قبل الجمهور بأن عدة المتوفى عنها زوجها بالسنة غير

(١) انظر متأهل العرفان (٢/٩٤ - ١٠٤) ، الضمير الكبير للفخر الرازي (٣/٢٥٦) ، أصول الفقه للشيخ محمد أبو النور زهير (٢/٤٨ - ٥٨) ، الأحكام للآمدني (٣/١٠٦ - ١١٥) ، تهذيب الأستوي للدكتور شعبان محمد اسماعيل (٢/١٥٣ - ١٥٥) .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٠ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤ .

معمول به أصلاً، وما ذكرته إنما هو اعتداد بالحمل لا بالسنة بدليل أنها لو وضعت الحمل قبل السنة حلت للزواج ولو مكث الحمل أكثر من سنة لم تخرج من عدتها حتى تضع الحمل.

فالمعتبر في العدة وضع الحمل فقط ولا عبارة بالسنة.

وقالوا ثانياً: إن تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول كان واجباً بقوله تعالى: ﴿يَكُنْهَا آلُيْنَ مَأْتَوْا إِذَا نَحَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ حُجُوكُمْ سَدَقَةً﴾^(١) ثم بقوله تعالى: ﴿مَأْتَفْتُمْ أَن تَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ حُجُوكُمْ سَدَقَتٍ فَإِذَا لَمْ تَقْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِسُوا الصَّلَاةَ﴾^(٢).

ناقش أبو مسلم ذلك فقال: إن تقديم الصدقة عند المناجاة كان مشروعاً لعلة هي تمييز المناق من غيره، فلما تميز المناقون وعرفوا زالت العلة فزال المعلول، وزوال المعلول لزوال علته ليس تسخاً.

وأجاب الجمهور عن ذلك أولاً: لا نسلم أن علة الحكم ما ذكرت من التمييز بين المناق وغيره، فإن ذلك يقضي بأن من يتصدق فهو مؤمن، ومن لم يتصدق فهو منافق مع أنه ثبت أن الذي يتصدق هو علي بن أبي طالب فقط، فهل ليس مؤمناً إلا علي بن أبي طالب؟

وأجاب الإمام الرازي عن ذلك بأنه يجوز أن يكون عدم التصديق من الصحابة غير علي منشؤه عدم إرادة المناجاة فلا يحكم عليه بالنفاق، لأن شرط تقديم الصدقة الذي يحصل به التمييز إرادة المناجاة فإذا لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط.

وعندي أن ذلك بعيد، فإن الصحابة كانوا يحرصون على مناجاة الرسول والاتصال به فلا يصح أن يقال إن عدم التقديم منشؤه عدم إرادة المناجاة.

وأجاب الجمهور ثانياً: بأننا سلمنا أن التمييز هو العلة ولكن لا نسلم أن تلك العلة قد زالت حتى يزول معلولها، فإن الصحابة رضي الله عنهم ما زالوا

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

غير مميزين للمنافق حتى وفاة الرسول عليه السلام، ولا يصح أن يقال إن التمييز إنما كان للرسول ﷺ لا للمصحابة لأن الرسول عليه السلام كان يعرف المنافقين بأعيانهم، ولذلك سماهم لصاحب سره حذيفة بن اليمان كما دلت على ذلك الأحاديث.

وأجاب الجمهور ثانياً: وهذا الجواب للبيضاوي، تبع فيه صاحب الحاصل، بأن النسخ هو رفع الحكم. وما دمت قد سلمت بأن الحكم قد ارتفع، فقد سلمت بأنه قد نسخ. وكون الرفع لزوال العلة أو لشيء آخر لا يفيد في عدم النسخ، ففي كلامك اعتراف بالنسخ الذي ندعيه.

٩ - أقسام النسخ والمنسوخ:

الحكم المنسوخ قد يكون ثابتاً بالكتاب، وقد يكون ثابتاً بالسنة وقد يكون ثابتاً بالقياس. فنسخ الكتاب بالكتاب، والسنة المتواترة، بالسنة المتواترة، والآحاد بالآحاد لا خلاف في جوازه بين القائلين بجواز النسخ، وإنما الخلاف بينهم فيما يأتي:

أ - نسخ الكتاب بالسنة المتواترة.

ب - نسخ السنة المتواترة أو الآحاد بالكتاب.

ج - نسخ المتواتر «سواء كان قرآناً أو سنة» بالآحاد.

١ - المسألة الأولى في نسخ الكتاب بالسنة المتواترة:

جمهور العلماء على أنه يجوز نسخ الكتاب بالسنة المتواترة^(١)، وقال الشافعي رضي الله عنه: لا يجوز نسخ الكتاب بالسنة المتواترة، ولا ينسخ الكتاب إلا كتاب مثله. وليس له في هذه المسألة إلا هذا القول^(٢). استدلل الجمهور على الجواز بالوقوع.

(١) أنظر: الاعتبار في النسخ والمنسوخ، ص ١٧ - والإتقان، ٢/٢١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

أولاً: أوجب الله تعالى الوصية للوالدين والأقربين بقوله: ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

ثم نسخ الوجوب بقوله عليه الصلاة والسلام (لا وصية لوارث) (٢).

دليل الإمام الشافعي:

استدل الشافعي على أنه لا يجوز نسخ الكتاب بالسنة بدليلين:
الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِثْلَهَا أَوْ مِثْلَهُمْ أَلَمْ تَلْمَ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

ووجه الاستدلال من الآية: أن الله تعالى أسد الإتيان بالبدل إليه، والذي يأتي به سبحانه، هو القرآن فقط، فكان الناسخ للقرآن هو القرآن لا السنة. وأيضاً فإن الله جعل البدل خيراً من المنسوخ أو مثلاً له، والسنة ليست خيراً من الكتاب ولا مثلاً له «فلا تكون السنة بدلاً عن الكتاب ولا ناسخة له».

وأيضاً فإن الله ذيل الآية قوله: ﴿ مِثْلَهَا أَلَمْ تَلْمَ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤).

فجعل النسخ ممن له القدرة الكاملة، وذلك هو الله سبحانه وتعالى، فكان الناسخ من جهته فقط وهو القرآن لا السنة.

ويجاب عن ذلك من قبل الجمهور: بأن السنة من عند الله كالقرآن وبشهاد لهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْمَوْكَلَاتِ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٥).

غاية الأمر أن القرآن معجز ويتعبد بتلاوته، والسنة ليست كذلك.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وابن ماجه، والترمذي، والسنائي، والدارقطني. كما أخرجه الإمام الشافعي عن سفيان عن سليمان الأحول عن مجاهد في الأم، ج ٤/٢٧. وفي الرسالة، ص ١٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣-٤.

والمراد بالخيرية والمثلية الخيرية والمثلية في الحكم لا في اللفظ، ولا شك الحكم الثابت بالسنة قد يكون أنفع للمكلف من الحكم المنسوخ.

فإذا كان الاتي بالسنة هو الله الذي بيده كل شيء، علم أن الآية ليس فيها دلالة على أن السنة لا تنسخ الكتاب.

الدليل الثاني للشافعي: قوله تعالى لبيد عليه السلام: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ مُبَيِّنًا لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١) ووجه الاستدلال من الآية، أن المراد من الذكر السنة، وما نزل للناس، هو القرآن.

وقد جعل الله السنة مبينة لكل القرآن لأن (ما) للعموم، فلو كانت السنة ناسخة للقرآن لكانت السنة رافعة للقرآن لا مبينة له، لأن النسخ رفع لا بيان وذلك بخلاف ما تدعيه الآية.

ويجاب عن ذلك: بأن النسخ نوع من البيان لأنه بيان انتهاء الحكم الشرعي بطريق شرعي متراخ عنه وما دام النسخ بياناً، وقد جعلت السنة مبينة للكتاب، فلا مانع من أن تكون السنة ناسخة للكتاب كما تفيد الآية.

ويبدو لي أن الراجح في هذه المسألة هو مذهب الإمام الشافعي، حيث أن كل الأمثلة التي استدال بها الجمهور إنما هي من قبيل التخصيص، لا النسخ، والجمهور قد مثلوا بها في التخصيص، فكيف يجمع بينهما؟

ب - المسألة الثانية في نسخ السنة بالكتاب:

أكثر الأصوليين على جواز نسخ السنة بالكتاب، ونقل عن الشافعي في ذلك قولان: أحدهما الجواز، وثانيهما عدم الجواز^(٢).

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) أنظر الرسالة فقرة (٢٢٤) بتحقيق الشيخ أحمد شاكر حيث قال: وهكذا سنة رسول الله ﷺ لا ينسخها إلا سنة لرسول الله ﷺ، ولو أحدث الله لرسوله في أمر من فيه غير ما سن رسول الله لسن فيما أحدث الله إليه، حتى يبين للناس أن له سنة ناسخة لتي قبلها مما يخالفها، وهذا مذكور في سنة ﷺ، اهـ.

الأدلة

- استدلال الجمهور على الجواز بالوقوع:

أولاً: كان التوجه إلى بيت المقدس واجباً، وليس في القرآن ما يدل على الوجوب، فكان ثابتاً بالسنة، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ وَمَنْعَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(١).

ثانياً: كانت المباشرة ليلاً بعد النوم حراماً، وليس في القرآن ما يفيد حرمتها، فكانت الحرمة ثابتة بالسنة، ثم نسخ التحريم بقوله تعالى: ﴿أَيُّلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الْبَيْتِ الْأَمْبِيَّةِ﴾^(٢).

وتوقف ذلك من قبل الشافعي.

بأن التوجه إلى بيت المقدس يجوز أن يكون ثابتاً بقرآن نسخت تلاوته، ويكون ذلك نسخاً للقرآن بالقرآن، ويجوز أن يكون ثابتاً بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فإن العلماء يقولون: إن البيان مراد من المين وإلا لم يصح أن يكون بياناً له، وعلى ذلك يكون التوجه إلى بيت المقدس مراداً من قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فيكون ثابتاً بالكتاب. فنسخه بالكتاب بعد جعل المسألة من نسخ الكتاب بالكتاب وهو قدر متفق عليه.

ويجاب عن ذلك من قبل الجمهور: بأن تجويز كون التوجه إلى بيت المقدس ثابتاً بقرآن نسخت تلاوته يؤدي إلى عدم تعيين الناسخ والمنسوخ، ومقتضى هذا أنه لا يثبت ناسخ ولا منسوخ إلا إذا قيل هذا ناسخ، وذلك منسوخ، وهو خلاف المعروف عن الأصوليين.

والقول بأن التوجه إلى بيت المقدس ثابت بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ غير ظاهر فإن أقصى ما تدل عليه الآية التزاماً، هو التوجه إلى أي جهة من الجهات. أما خصوص التوجه إلى بيت المقدس فلا دلالة لها عليه.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

وبذلك لا تكون الآية مثبتة لوجوب التوجه إلى بيت المقدس حتى يقال: إنه إذا نسخ بالكتاب كان الكلام من نسخ الكتاب بالكتاب، لا من نسخ السنة بالكتاب.

دليل الشافعي:

استدل الشافعي على عدم جواز نسخ السنة بالكتاب بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١).

ووجه الاستدلال: أن الله جعل السنة مبيئة للكتاب، فيكون الكتاب مبيئاً بها، ويكون متوقفاً عليها، ضرورة أن المبين متوقف على المبين، فلو جعل الكتاب ناسخاً للسنة لكان الكتاب مبيئاً لها، والسنة مبيئة به - لأن النسخ بيان - وذلك يقضي بأن السنة متوقفة على الكتاب، وقد قلنا إن الكتاب هو المتوقف على السنة، فجاء الدور لتوقف كل منهما على الآخر والدور الباطل: فامتنع أن يكون الكتاب ناسخاً للسنة وهو المدعي.

وأجاب الجمهور عن ذلك من وجهين:

الأول: أن هذا الدليل معارض بقوله تعالى في شأن القرآن: ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ والسنة شيء من الأشياء، فكان القرآن مبيئاً لها.

وبذلك تكون الآية الأولى دالة على أن السنة مبيئة للكتاب، وهذه الآية تدل على أن الكتاب مبين للسنة وهذا تعارض، وعند التعارض وعدم الجمع يلغى العمل بالدليلين معاً، وبذلك ترجع إلى ما يدل على جواز نسخ السنة بالكتاب وهو ما قلناه سابقاً.

الثاني: إن الاستدلال بالآية على أن السنة لا تنسخ بالكتاب، يتوقف على أن النسخ بيان لا رفع، وقد قلت قبل ذلك إن النسخ رفع لا بيان، فلا يصح الاستدلال بها هنا.

المسألة الثالثة في نسخ التواتر بالآحاد:

الكاتبون في هذه المسألة مختلفون في محل النزاع فيها، فجمهورهم

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

كالإمام الرازي وصاحب الحاصل وصاحب التحصيل والآمدني، ذهبوا إلى أن محل النزاع هو الجواز السمعي، أي الوقوع، وأما الجواز العقلي فقد رتب عليه بمعنى أن الكل متفق على أنه يجوز عقلاً نسخ المتواتر بالآحاد: وقليل من الكاتبيين كابن الحاجب والبيضاوي والكمال بن الهمام: ذهبوا إلى أن الخلاف جار في الجواز العقلي كما هو جار في الوقوع بمعنى أن من العلماء من يقول: إن نسخ المتواتر بالآحاد غير جائز عقلاً، ومنهم من يقول بجوازه عقلاً.

والقائلون بالجواز مختلفون في الوقوع، فمنهم من قال، وقع نسخ المتواتر بالآحاد، ومنهم من قال بعدم الوقوع.

رأي الإسنوي في التوفيق بين الكاتبيين:

قال الإسنوي: إن من جعل الجواز العقلي محل خلاف ليس له ما يعضده إلا ما نقله ابن برهان في الوجيز من قوله: نسخ المتواتر بالآحاد مستحيل من جهة العقل.

ويبعد أن يكون هؤلاء الكاتبيون قد اطلعوا على هذا لمن نقل، واختاروا مذهب تلك الطائفة من الاستحالة العقلية مذنباً لهم: لأن المعروف عن هؤلاء الكاتبيين، أمثال البيضاوي وابن الحاجب، أنهم مع الجمهور ولا يشذون عنهم فلم يبق إلا أن تكون عبارتهم مؤولة وليس مراداً بها ظاهرها، ويكون معنى قولهم «لا ينسخ المتواتر بالآحاد» أننا لا نحكم بالنسخ عند تعارض المتواتر بالآحاد بل نعمل بالمتواتر دائماً وإن كان متقدماً نظراً لقوته، ولا يعمل بالآحاد وإن تأخر نظراً لضعفه.

وعلى ذلك ترجع عبارتهم إلى أنه لم يقع نسخ المتواتر بالآحاد، ويكون الجواز العقلي ليس محل خلاف.

والذي حمل الأسنوي على هذا التوفيق، هو أن الدليل الذي استدلوا به على عدم الجواز ضعيف.

ذلك لأنهم استدلوا على عدم الجواز بأن المتواتر قاطع، والآحاد ظني،

والقاطع لا يرفع بالظني وهذا الدليل لا ينهض حجة على المدعي لوجوه ثلاثة .
١ - أن الحكم في المتواتر مقطوع به من حيث الابتداء لا من حيث
الدوام .

٢ - أن المتواتر قطعي من جهة الثبوت، ظني من جهة الدلالة، والآحاد
قطعي من جهة الدلالة، ظني من جهة الثبوت ففي كل جهة ضعف وجهة قوة،
فهما متعادلان، والعقل لا يمنع نسخ أحد المتساويين بالآخر مع ترجحه
بالتأخير، وإلا لما جاز نسخ الكتاب بالكتاب ولا السنة بالسنة .

٣ - أن العلماء نصوا على أن العام إذا عمل به ثم أخرج منه بعض المراده
بعد العمل، يكون ذلك نسخاً لا تخصيصاً، ومع هذا أجازوا إخراج بعض أفراد
العام بالآحاد مع أن العام قد يكون قرآناً فيكون متواتراً .

وقالوا في توجيه ذلك : إن العام ظني الدلالة قطعي الثبوت،
والخاص قطعي الدلالة ظني الثبوت، فبينهما تعادل وتكافؤ، ولا شك
أن هذا بعينه يجري في نسخ المتواتر بالآحاد، فلا ينهض الدليل على إثبات
المنع .

ومما تقدم يعلم أن الجواز العقلي متفق عليه، وأن الخلاف في الوقوع .
فجمهور الأصوليين على أنه لم يقع نسخ المتواتر بالآحاد، وقال داود الظاهري
وجماعة إنه قد وقع .

الأدلة

استدل الجمهور على عدم الوقوع بأننا قد استقرينا الأدلة الشرعية وتبعناها
فما وجدنا فيها متواتراً قد نسخه خبر آحاد، وهذا يدل على عدم الوقوع .

أدلة المجيزين والرد عليها :

واستدل داود ومن معه على الوقوع بما يأتي :

١ - قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا آيِدِي فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مَخْرَماً عَلَىٰ طَائِفَةٍ يَطْعَمُهُمْ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا

مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ^(١) فقد دلت هذه الآية على أن المحرم من
المطعومات محصور في الميتة والدم ولحم الخنزير، وأن غيرها من المطعومات
باق على الحل والإباحة الأصلية، ولكن ثبت أن النبي ﷺ: «نهى عن أكل كل ذي
ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير»^(٢).

والنهي يفيد التحريم، فافتضى هذا أن أكل كل ذي الناب من السباع، وذي
المخلب من الطير حرام، وهذا رفع للإباحة السابقة، ولا معنى للنسخ إلا هذا.
والحديث ليس متواتراً وإنما هو خبر آحاد، وعلى ذلك يكون المتواتر قد
نسخ بالآحاد فثبت ما ندعيه. ويجاب عن ذلك من قبل الجمهور بوجهين:

١ - لا نسلم أن الآية فيها حصر المحرمات بالنسبة للماضي والحال
والاستقبال بل نقول: إن أقصى ما تدل عليه الآية أن المحرمات إلى وقت نزول
هذه الآية، إنما هي الدم المسفوح والميتة ولحم الخنزير، وليس في ذلك ما
يمنع من أنه قد يحرم في المستقبل أشياء أخرى.

وإنما قلنا إن الآية لا حصر فيها بالنسبة للمستقبل، لأن الفعل في قوله:
(لا أجد) حقيقة في الحال فيحمل الكلام عليه، لأن الأصل في الكلام الحقيقة.
وإذا كان النسخ منعدماً هنا لعدم وجود حقيقته، كان الكلام من قبيل
التخصيص، وتخصيص المتواتر بالآحاد جائز عند الجمهور.

٢ - سلمنا حصر التحريم في المذكورات في الآية، ولكن لا نسلم أن ذلك
نسخ، لأن الحديث إنما رفع الإباحة الأصلية التي أكدتها الآية، ورفع الإباحة
الأصلية ليس نسخاً لأنها ليست حكماً شرعياً. والنسخ لا يكون إلا للحكم
الشرعي وقد تقدم ذلك في تعريف النسخ.

وإذا كان النسخ متعلداً هنا لعدم وجود حقيقته، كان الكلام من قبيل
التخصيص، وتخصيص المتواتر بالآحاد جائز عند الجمهور.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب الذبائح باب أكل كل ذي ناب (١٢٤/٧). والنسائي في كتاب
الصيد باب تحريم أكل السباع (١٧٧/٧).

واستدل أهل الظاهر على الوقوع ثانياً:

بأن التوجه إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة المتواترة لأهل قباة وغيرهم لأنهم مكثوا يصلون إلى مدة من الزمن تقرب من ستة عشر شهراً، ولكنه نسخ بالنسبة لأهل قباة بخبر الواحد، فقد روى الطبراني عن تأويلة بنت مسلم قالت: صلينا الظهر والعصر في مسجد بني حارثة واستقبلنا مسجد «إيلياء» أي بيت المقدس، فصلينا ركعتين ثم جاءنا من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام: فتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلينا السجدين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام. فحدثني رجل من بني حارثة أن رسول الله ﷺ قال: «أولئك رجال آمنوا بالغيب».

فهذا الحديث يفيد أن أهل قباة تحولوا في صلاتهم عن بيت المقدس إلى البيت الحرام، بناء على قول من أخبرهم بأن القبلة قد تحولت، وعلى ذلك يكون خبر الواحد قد نسخ المتواتر، فثبت ما ندعيه.

أجاب الجمهور عن ذلك: بأن محل النزاع إنما هو وقوع نسخ المتواتر بخبر الواحد المجرد عن القرائن المفيدة للعمل، ولا نسلم أن خبر الواحد في هذه الحادثة كان مجرداً عن تلك القرائن، لجواز أن يكون قد انضم إليه ما يفيد العلم كقربهم من مسجد رسول الله ﷺ وسماعهم لضجة الخلق، وترقيهم تغير القبلة وتحولها إلى البيت الحرام في أي زمن من الأزمنة.

١٠ - الفرق بين النسخ والتخصيص:

المميزات بين النسخ والتخصيص، تعود إلى خمسة وجوه، هي:

١ - النسخ لا يكون إلا متأخراً عن المنسوخ. والتخصيص يصح اتصاله بالمخصوص ويصح تراخيه عنه. وعند من لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة يجب اتصاله.

٢ - الدليل في النسخ لا يكون إلا خطايا، والتخصيص قد يقع بقول وفعل وقياس وغير ذلك.

- ٣ - نسخ الشيء لا يجوز إلا بما هو مثله في القوة أو بما هو أقوى منه في
الرتبة والتخصيص جائز بما هو دون المخصوص في الرتبة.
- ٤ - التخصيص لا يدخل في الأمر بمأمور واحد. والنسخ جائز في مثله
سواء على أصل من يرى نسخ الشيء قبل وقته.
- ٥ - التخصيص يخرج من الخطاب ما لم يرد به والنسخ رافع ما أريد إثبات
حكمه^(١).



لله العزة والكرام

سئل الأول: هل يجوز نسخ
الشيء بغيره، وإن كان أقوى
سئل الثاني: هل يجوز نسخ
الشيء بغيره، وإن كان أقوى
سئل الثالث: هل يجوز نسخ
الشيء بغيره، وإن كان أقوى

(١) الاعتبار في التاريخ المشوَّخ، ص ١٥.

الباب الثالث

أسلوب القرآن وبلاغته

الفصل الأول: الفواصل والمناسبة.

الفصل الثاني: إعجاز القرآن.

الفصل الثالث: القسم في القرآن.

الفصل الرابع: الأمثال في القرآن.

الفصل الخامس: الجدل في القرآن.

الفصل السادس: المخاطبة: المنطوق والمفهوم في القرآن.

الفصل الأول

الفواصل والمناسبة

١ - تعريف الفاصلة:

الفواصل جمع فاصلة، وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يبين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل، لأنه ينفصل عندها الكلام، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها، ولم يسورها أسجاعاً^(١).

فأما مناسبة^(٢) فواصل، فلقوله تعالى: ﴿ كَتَبْنَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ﴾^(٣)، وأما تجنب أسجاع، فلأن أصله من سجع الطير، فشرف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من

(١) أسجاع جمع سجع، وهو من المحسنات اللفظية يمثل في اتفاق فترتين أو أكثر في الحرف الأخير. مثال قول أحد الأعراب لرجل سأل غير كريم: نزلت بواد غير معطور وفناء غير معمر ورجل غير ميسور، فأقم بدم أو ارتحل بدم. والسجع أسلوب بدعي يزيد في موسيقية الألفاظ ويكسبها نغمة عذبة يأس بها السمع وتتأثر بها النفس. يتصرف من المنار في علوم البلاغة (عبد الحكيم نفاع)، ٢١٥.

(٢) المناسبة في اللغة، المقاربة، وفلان يناسب فلاناً، أي يقاربه وبشاكله، ومنه النيب الذي هو القريب المتصل، وما سميت بالمناسبة إلا لكونها رابطاً كالمناسبة في العلة في باب القياس: الوصف المقارب للحكم. (البرهان ج ١/ ٣٥).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣.

الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام آحاد الناس؛ ولأن القرآن من صفات الله عز وجل فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها وإن صح المعنى، ثم فرقوا بينهما فقالوا: السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يميل المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها^(١).

وذكر السيوطي في النوع التاسع والخمسين، تحت مبحث (فواصل الآية):

الفاصلة كلمة آخر الآية، كثافية الشعر وقربة السجع. وقال الداني: كلمة آخر الجملة، وقال الجعبري وهو خلاف المصطلح، ولا دليل له في تمثيل سيويه (يوم يأتي) و (ما كنا نبغي) وليس رأس آية، لأن مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية.

وقال القاضي أبو بكر: الفواصل حروف متشاكلة^(٢) في المقاطع يقع بها إفهام المعاني، وفرق الداني بين الفواصل ورؤوس الآية، فقال: الفاصلة هي الكلام المنفصل عما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية، وتغير رأس وكذلك الفواصل يكن رؤوس آية وغيرها وكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية. ولأجل كون معنى الفاصلة هذا ذكر سيويه في تمثيل القوافي يوم يأت، وما كنا نبغي ليس رأس آية بإجماع، مع إذا يسر وهو رأس آية باتفاق^(٣). فالفاصلة تعم النوعين، أي ما كان رأس آية، وما كان آخر الجملة، وتجمع هذين النوعين^(٤).

٢ - طريقة معرفة الفواصل:

ذكر سابقاً، أن الفاصلة تقع عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها. وهذا ما ذكره كل من الزركشي والسيوطي في الإنشقاق^(٥). وقد ذكر عن

(١) أنظر: البرهان، ج ١/ ٥٤.

(٢) متشاكلة، أي متقاربة في النطق.

(٣) الإنشقاق، ج ٢/ ٩٧. والبرهان، ج ١/ ٥٣.

(٤) البرهان، ج ١/ ٥٤، بصرف.

(٥) الإنشقاق، ج ٢/ ٩٧.

الجمعي كيفة خاصة: لمعرفة الفواصل طريقان، توفيني وقياسي، أما التوفيني فما ثبت أنه **وقف** عليه دائماً تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمال الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة أو لتعريف الوقف الثام أو للاستراحة، والوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها، وأما القياسي فهو ما ألحق بالمحتمل غير المقصود بالمنصوص لمناسب، ولا محذور في ذلك، لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان، وإنما غايته أنه محل فصل أو وصل والوقف على كل كلمة جائز ووصل القرآن كله جائز، فاحتاج القياس إلى طريق تعرفه، فتقول: فاصلة الآية كقرينة^(١) السجعة في الشتر وقافية البيت في الشعر من اختلال الحركة والإشباع والتوجيه، فليس يعيب في الفاصلة، وجاز الانتقال في الفاصلة والقرينة وقافية الأرجوزة من نوع إلى آخر بخلاف قافية القصيدة، ومن ثم ترى (ترجعون مع عليهم) والمبعاد مع التواب والطارق مع الثاقب^(٢).

ولما كانت القافية مخصوصة في الشعر، وقد سلب الشعر عن القرآن، فغير جائز أن تسمى الفواصل بالقوافي، لأن القوافي من مستلزمات الشعر كما أنه لا يجوز تسمية القوافي الشعرية بالفواصل، لأن كلاً منهما له خاصية ومتملق. فالقافية تتعلق بالشعر والفاصلة تتعلق بالقرآن^(٣).

٣ - حكم إطلاق السجع على فواصل الآي:

قال القاضي الباقلاني: ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن، وذكره أبو حسن الأشعري في غير موضع من كتبه، وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة كالتجيس والالفاظ وما

(١) وتسمى الفقرة وهي قطعة من الكلام مزوجة لأخرى، نحو (خامس الحقيقة، محمود الخليفة).

(٢) الإلتقان، ج ٢/٩٧ - والبرهان، ج ١/٩٨.

(٣) المرجع السابق نفسه.

أشبه ذلك من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة وأقوى ما يستدلون به عليه إتفاق الكل على أن موسى أفضل من هرون عليه السلام، ولمكان السجع قبل في موضع ﴿هَرُونَ وَمُوسَى﴾^(١)، ولما كانت القواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل ﴿مُوسَى وَهَرُونَ﴾^(٢)... ورد القاضي على ما يزعمونه، بما مفاده:

- لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلياً فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز أن يقولوا شعر معجز وخاصة أن هذا الأسلوب - السجع - كان مما يألفه الكهان، والكهانة تنافي النبوات وهي أحدر بالبعد والابتعاد من نفي الشعر.

- وما قدره سجعاً فهو وهم، وذلك لورود الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى، وفصل بين أن يتنظم الكلام في نفسه بالفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ.

- وما ذكر كاستدلال على وجود السجع في القرآن، من تقديم موسى على هرون عليهما السلام، في موضع وتأخير في موضع لمكان السجع ولتساوي مقاطع الكلام فليس بصحيح لأن الفائدة عندنا غير ما ذكره، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بالفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين فيه البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونهبوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله، مبتدأ به ومكرراً، ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بالفاظ لهم تؤدي معناها ونحوها وجعلوها بإزاء ما جاء به وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه وإلى مساواته فيما جاء به، كيف وقد قال لهم ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٣).

(١) سورة طه، الآية: ٧١.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الطور، الآية: ٣٤.

فعلى هذا يكون القصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز على الطريقتين جميعاً دون التسجيع الذي توهموه^(١) فالجمهور من العلماء على أنه لا يجوز استعمال السجع في القرآن، فالقرآن من صفاته تعالى فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها، وعلى هذا الزماني، من تقرير لما ارتآه الجمهور وما ذهب إليه الأشعري^(٢).

وما وجب التنبيه إليه، أن فواصل الشعر خصت بمصطلح القوافي لأن الشاعر يقفوها فيتبعها في شعره لا يخرج عنها، وهي في الحقيقة فاصلة لأنها تفصل آخر الكلام، فالقافية أخص في الاصطلاح، إذ كل قافية فاصلة، ولا عكس^(٣).

٤ - المناسبة في مقاطع الفواصل:

التعريف بالمناسبة:

واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلاناً، أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة. ومنه المناسبة في العلة في

(١) إعجاز القرآن للباقلاني. هامش الإتيان، ج ١/ ٨٦ وما بعدها. وانظر: الإتيان، ج ٢/ ٩٧-٩٨. والبرهان، ج ١/ ٥٤ وما بعدها.

(٢) الإتيان، ج ٢/ ٩٨.

(٣) البرهان، ج ١/ ٥٨. وما ذهب إليه الباقلاني في نفي السجع عن القرآن، فإنه فضلاً عن قال بخلافه ممن عاصروه فإنه لم يسلم من قلم الباحثين العصريين الذين يتصورون لوجود السجع في القرآن وأنه قضية الإعجاز التي تقوم على فن الكلمة في نظم القرآن، وأنه لا حاجة للتضييق والتحكم في منع استعمال الفاصلة في الشعر، لأن الفاصلة قد عرفتها العرب قبل الإسلام وهي الخرزة بين الخرزتين. وأن القضية من اختصاص أهل اللغة والبيان لا من اختصاص أهل العقيدة والكلام. ينظر العدد الثامن (سؤال) ١٣٨٦ هـ، مجلة الأزهر دراسات حول القرآن: السجع والقرآن، والباقلاني د. عبد الرؤوف مخلوف، ٨٠٤.

باب القياس: الوصف المقارب للحكم، لأنه إذا حصلت مقارنته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلفته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها^(١) وكذلك أمر المناسبة بين مقاطع الفواصل.

واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جداً، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً، ولذلك خرج عن نظم الكلام في مواضع^(٢) منها:

أ - زيادة حرف، مثال إلحاق الألف بالنون، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَنْظُرُونَ بِاللَّيْلِ﴾^(٣)، فزيدت الألف انقضاء لمقاطع فواصل هذه السورة بالألفات القلاباً عن التنوين في الوقت، ونظير «الظنون»: ﴿فَأَسْأَلُونَا السَّبِيلَ﴾^(٤) و: ﴿يَنْبَغِيْنَا أَلْفَعْنَا اللَّهُ وَأَلْمَعْنَا الرُّسُولَا﴾^(٥) وكما في زيادة الهاء في: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾^(٦)

ب - حذف حرف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِلِ إِذَا يَسِرُّ﴾^(٧) إذ الأصل (يسري) وإنما حذفت الياء لمناسبة مقاطع الفواصل ﴿وَالْفَجْرِ﴾^(٨) و﴿يَا عَشِيرَةَ﴾^(٩) وَالشَّفِيِّ وَالْوَكْرِ﴾^(١٠) و﴿يَا يَسِرُّ﴾^(١١).

ج - الجمع بين المجرورات، كما في قوله تعالى: ﴿يُمُّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَيْنًا يَدُ يَبِيْعًا﴾^(١٢) ففواصل الآيات المتقدمة كلها منصوبة، ووحدة النسق تقتضي إتيان (تبعاً) آخر الآية وهذا ما يرد على من يتساءل عن سر إتيان ثلاث مجرورات متتابعة

- (١) البرهان، ج ١/٣٥، وانظر: الإنقان، ج ٢/٩٩.
- (٢) البرهان، ج ١/٦٠.
- (٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٠٤.
- (٤) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.
- (٥) سورة الأحزاب، الآية: ٦٦.
- (٦) سورة الفارعة، الآية: ١٠.
- (٧) سورة الفجر، الآية: ٤.
- (٨) سورة الفجر، الآية: ١ - ٢ - ٣ - ٤.
- (٩) سورة الإسراء، الآية: ٦٩.

(لكم، علينا، به) مع أن الألف، الفصل بين هذه المجرورات، لما بينها من ثقل. وإن تأخر تبعاً لاقتضاء المناسبة بين هذه المقاطع في فواصل الآية^(١).

د - تأخير المقدم أصلاً، وهذا يكون في تأخير ما أصله أن يتقدم، كما في تأخير الفاعل عن موضعه، وذلك مراعاة للفاصلة. قال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾^(٢). فالأصل في الإملاء أن يكون فأوجس موسى في نفسه خيفة، فأجر موسى لمناسبة في الفواصل، ففواصل الآيات المتقدمة واللاحقة على نسق واحد، منتبهة بالألف المقصورة. فقبلها ﴿ أَنهَا تَعْنِي ﴾^(٣) وبعدها ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾^(٤) وهكذا. وهذه فصاحة لا يدرك سرها إلا أهل اختصاصها. ومن هذا النوع كثير في القرآن الكريم، كما في تأخير «أجل مسمى» في قوله تعالى: ﴿ وَوَلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾^(٥). وفي تأخير النذر في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ مَالِ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴾^(٦) وفي تأخير الفعل عن موضعه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾^(٧) وكما في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

هـ - إفراد ما هو جمع في الأصل، كما في إفراد الأنهار في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلنَّهْدِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ ﴾^(٨).

الأصل «الأنهار»، وإنما وُحِدَ لأنه رأس آية، فقابل بالتوحيد و«وس»

(١) الظور: البرهان، ج ١/٦٢.

(٢) سورة طه، الآية: ٦٧.

(٣) سورة طه، الآية: ٦٦.

(٤) سورة طه، الآية: ٦٨.

(٥) سورة طه، الآية: ١٢٩.

(٦) سورة القمر، الآية: ٤١.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٨) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٩) سورة القمر، الآية: ٥٤.

(لكم، علينا، به) مع أن الأفضح، الفصل بين هذه المجرورات، لما بينها من ثقل. وإن تأخر تبعاً لاقتضاء المناسبة بين هذه المقاطع في فواصل الآية^(١).

د - تأخير المقدم أصلاً، وهذا يكون في تأخير ما أصله أن يتقدم، كما في تأخير الفاعل عن موضعه، وذلك مراعاة للفاصلة. قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰ فِي تَفْسِيرِهِ خَيْفَةَ مُوسَىٰ ﴾^(٢). فالأصل في الإملاء أن يكون فأوحى موسى في نفسه خيفة، فأحر موسى لمناسبة في الفواصل، ففواصل الآيات المتقدمة واللاحقة على نسق واحد، منتهية بالألف المقصورة. قبلها ﴿ أَنهَا تَتَوَىٰ ﴾^(٣) وبعدها ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴾^(٤) وهكذا. وهذه فصاحة لا يدرك سرها إلا أهل اختصاصها. ومن هذا النوع كثير في القرآن الكريم، كما في تأخير «أجل مسمى» في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ كَيْفَةَ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾^(٥). وفي تأخير النذر في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَهُ مَا لَافِرُونَ التُّذُرُ ﴾^(٦) وفي تأخير الفعل عن موضعه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾^(٧) وكما في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

هـ - إفراد ما هو جمع في الأصل. كما في إفراد الأنهار في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلنَّهْدِيِّنَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴾^(٨).

الأصل «الأنهار»، وإنما وحده لأنه رأس آية، فقابل بالتوحيد رؤوس

(١) انظر: البرهان، ج ١/ ٦٢ -

(٢) سورة طه، الآية: ٦٧ -

(٣) سورة طه، الآية: ٦٦ -

(٤) سورة طه، الآية: ٦٨ -

(٥) سورة طه، الآية: ١٢٩ -

(٦) سورة القمر، الآية: ٤١ -

(٧) سورة البقرة، الآية: ٣ -

(٨) سورة الفاتحة، الآية: ٥ -

(٩) سورة القمر، الآية: ٥٤ -

الآي^(١) . ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيًّا ۚ وَلَمَّا كُنْتُمْ خِزْيَانًا لِّلنَّصَارَىٰ بَدَأْنَا مِنْ حَيْثُ وَكَّكْنَا بِهِ لَعْنَةُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَخْلَفُونَ ۚ ﴾^(٢) ، أي :
أعضاءه ، وإنما أفرد ليعدل رؤوس الآية بالأفراد^(٣) .

و - جمع ما هو مفرد في الأصل . كما في قوله تعالى : ﴿ مَن قَبَّلَ أَن يَأْتِيَ بَوْمًا لَا
يَسِيعَ فِيهِ وَلَا يُجَلُّ ۖ ﴾^(٤) والمراد بالخلال «خله» لكنه جمع لأجل المناسبة في
رؤوس الآي .

ز - تثنية مفرد الأصل . كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَأَلْنَا مَقَامَ رَبِّهِ
جَنَّتَانِ ۖ ﴾^(٥) وإنما ثناهما هنا ، لأجل الفاصلة ، رعاية للثني قبلها والتي بعدها
على هذا الوزن^(٦) وقد أنكر ابن قتيبة^(٧) على من يقول بهذا النوع ، لأنه مخالف لما
وعد الله تعالى ، ووعد الله تعالى صريح بجنتين اثنتين ، فكيف تقول جنة واحدة^(٨) .

ح - تأنيث مذكر الأصل ، كما في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۖ ﴾^(٩)
أنت مراعاة للفواصل المتقدمة واللاحقة : ﴿ نَلَّ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمُ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا
مُنشَرَةً ۖ ﴾^(١٠) كَلَّا لَآ يَخْتَفُونَ الْآخِرَةَ ۖ ﴾^(١١) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۖ ﴾^(١٢) .

ط - صرف الممنوع من الصرف في الأصل . كما في قوله تعالى :

- (١) قاله يحيى بن زياد القزاعي ، وهو إمام في علم النحو واللغة ، توفي سنة ٢٠٧ هـ .
- (٢) سورة الكهف ، الآية : ٥١ .
- (٣) قاله العالم الأندلسي علي بن اسماعيل الضرير المعروف بابن سيدة ، توفي سنة
٤٤٨ هـ .
- (٤) سورة إبراهيم ، الآية : ٣١ .
- (٥) سورة الرحمن ، الآية : ٤٦ .
- (٦) قاله القزاعي : انظر : البرهان ، ج ١ / ٦٥ .
- (٧) هو محمد بن قتيبة الدينوري ، توفي سنة ٢٧٠ هـ .
- (٨) ذكره صاحب البرهان ، ج ١ / ٦٥ .
- (٩) سورة المدثر ، الآية : ٥٤ .
- (١٠) سورة المدثر ، الآية : ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ .

﴿ وَطَائِفٌ عَلَيْهِمْ عِبَادٌ مِنْ قَبْلِهِمْ وَأَنْبِيَاءٌ مِنْ قَبْلِهِمْ قَدَرُوا نَجْيَهُمْ ﴾ (١) فالأصل في (قوارير) ألا تنصرف، ولكنها صرفت لوقوعها آخر الآية، وكذا في بدايتها للآية الثانية، لما هو مطلوب من جهة التناسب بينهما (٢).

في قوله تعالى: ﴿ وَالصَّحْنِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ ﴾ (٣). وكانت الإمالة هنا، لمقتضى التناسب المطلوب بين مقاطع الفواصل.

ك - العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المستقبل، مراعاة للمناسبة المطلوبة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَنْتَ كَبُرْتُمْ فَهَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَهَرِيقًا ﴾ (٤) إخباراً عن بني إسرائيل واستكبارهم عن طاعة الأنبياء والرسل. فالأولى ماضية (كذبتم)، والثانية (تقتلون) مستقبلة مراعاة لمقتضى التناسب في فواصل الآية، لأن ما قبلها ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴾ (٥) وما بعدها: ﴿ قَلَمَنَّا اللَّهُ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴾ (٦).

٥ - تقسيم الفواصل:

أ - التقسيم باعتبار التماثل والتقارب.

مما هو معروف أن السجع لا بد أن تكون حروف مقاطعه متماثلة، وأن ما لا يتماثل وإن تقارب، لا يعتبر سجعاً، وأن الفواصل قد جمعت التماثل والتقارب. ثم إن كلاً من التماثل والتقارب في حروف المقاطع، قد يأتي طوعاً تبعاً للمعنى دون تكلف، وقد يكون بتكلف.

فما كان بتكلف فمذموم، ولم يرد في القرآن شيء منه. أما ما أتى دون

(١) سورة الإنسان، الآية: ١٥ - ١٦.

(٢) انظر: البرهان، ج ١/ ٦٦.

(٣) سورة الضحى، الآية: ١ - ٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

تكلف، فهو محمود بحسن البيان والدلالة على الثقافة^(١). وقد وردت الفواصل،
تمائلاً وتقارباً بالصيغة المحمودة، منها:

في التماثل: قوله تعالى: ﴿ وَالطُّورِ ۝ وَكُنُوفٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَوْقٍ مَّشْهُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ
الْمَشْهُورِ ۝ ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿ وَالْعَنَيْدِ كَيْبَ حَبَا ۝ فَالْمُورِ كَيْبَ قَسَا ۝ ﴾^(٣). وقوله
تعالى: ﴿ فَلَا أُنِيمُ بِاللَّيْلِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ۝ وَالْأَيْلِ إِذَا سَمَسَ ۝ وَالشَّجِجِ إِذَا تَمَسَّ ۝ ﴾^(٤)
وقوله تعالى: ﴿ وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَى ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اسْتَقَى ۝ لَنُرَكَّبَنَّ مُطَبَّقًا عَن طَبَقِ ۝ ﴾^(٥)
وهكذا. كما في كثير من السور، الضحى، الأعراف، الإسراء، نذ.

أما المتضارب، فهو في كثيره. كما في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ ﴾^(٦) فهذا مضارب، لا
تمثال، وهو ليس بسجع عند من يقول بوجود السجع في القرآن^(٧). فواصل
القرآن الكريم لا تخرج عن هذين القسمين المذكورين، التماثل والمتضارب^(٨).

والقول بهذا الحصر، ترجيح لما ذهب إليه الشافعي في خذ آيات سورة
الفاتحة يسج، فهي عند الشافعي ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ وعند أبي حنيفة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
۝ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾

(١) البرهان، ج ١/٧٢، بصرف.

(٢) سورة الطور، الآية: ١ - ٢ - ٣ - ٤.

(٣) سورة العاديات، الآية: ١ - ٢.

(٤) سورة التكويم، الآية: ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨.

(٥) سورة الانشقاق، الآية: ١٨ - ١٩.

(٦) سورة الفاتحة، الآية: ٢ - ٣ - ٤.

(٧) البرهان، ج ١/٧٣.

(٨) البرهان، ج ١/٧٣.

ولما كانت رعاية التشابه في الفواصل لازماً، ولم تكن فاضلة (أنعمت عليهم) تشابه الفواصل المتقدمة والمتأخرة، لا تماثلاً ولا تقارياً، اقتضى ترجيح العذ على ما ذهب إليه الشافعي، وهو دليل يثبت كون البسطة آية من الفاتحة، وهذا ما ذهب إليه الشافعي^(١).

ب - تقسيم الفواصل عند أهل البديع:

قسم البديعيون كلاماً من السجع والفواصل إلى متواز ومتوازن ومطرّف:

١ - المتوازي: وهو أشرفها وأعلاها. ويكون عندما تتفق الكلمتان في الحروف والوزن كما في قوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ. وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾^(٢).

٢ - المتوازن: وهو أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّمَآ إِنهَآ لَطْفٌ ۝ نَرَاةَ لَشْوَى ۝ ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْبِلٌ إِذَا بُتسِي ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ ﴾^(٤) ومن هذا القبيل سورة الضحى ﴿ وَالضُّحَى ۝ وَأَنْبِلٌ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝ ﴾^(٥). وإن البعض قد ذكر بدل المتوازن في فواصل الأبي، الترصيع المكون من ثلاثة أشياء، هي: الوزن، القافية، التقابل في القرائن. وهذه شروط فيها شيء من التكلف، قيل بأنه لم يأت في القرآن شيء منها^(٦).

٣ - المطرّف: وهو الاتفاق في حروف السجع لا الوزن، مثال قوله تعالى: ﴿ وَيُنَادِ بِأَسْمَائِهِ وَيُنَادِ بِأَسْمَائِهِ وَيُنَادِ بِأَسْمَائِهِ وَيُنَادِ بِأَسْمَائِهِ ۝ مَا لَكُمْ لَا تُرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ ﴾^(٧). وقالوا: إن أحسن الفواصل ما تساوت قرائنه، مثال قوله تعالى: ﴿ فِي سَبْتٍ

(١) البرهان، ج ١/٧٥، بتصرف.

(٢) سورة الغاشية، الآية: ١٣ - ١٤.

(٣) سورة المعارج، الآية: ١٥ - ١٦.

(٤) سورة الليل، الآية: ١ - ٢.

(٥) سورة الضحى، الآية: ١ - ٢ - ٣.

(٦) البرهان، ج ١/٧٧.

(٧) سورة نوح، الآية: ١٢ - ١٣.

مَحْضُورٌ ﴿٢٠﴾ وَطَلْحٌ مَنُضُورٌ ﴿٢١﴾ وَظَلٌّ مَمْدُودٌ ﴿٢٢﴾ ﴿١﴾ . وكان الأحسن، لخصته على السمع .

ويأتي بعد هذا ما طالت قريته الثانية، مثال قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجِيرِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ﴿١﴾ مَا صَلَّ سَاجِدِكُمْ وَمَا هَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴿٢﴾ .

ويأتي بعد هذا ما طالت قريته الثالثة:

وهذا النوع إما أن يكون قصيراً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْبًا ﴾ ﴿١﴾ فَالْمُصِيفَاتِ عَصَاً ﴿٢﴾ ﴿٣﴾ ، أو طويلاً، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَهُمُ كَثِيرًا لَفُتِلَتْهُمُ وَاللَّشْرَعَةُ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يُدَاتِ السُّدُورِ ﴾ ﴿١﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّيَبْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾ ﴿٤﴾ أو متوسطاً، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفْتَرَيْتَ السَّاعَةَ وَالشَّمْسَ الْقَاهِرَةَ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعَرَّبٌ ﴿٢﴾ ﴿٥﴾ .

* * *

(١) سورة الواقعة، الآية: ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ .

(٢) سورة النجم، الآية: ١ - ٢ .

(٣) سورة المرسلات، الآية: ١ - ٢ .

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٣ - ٤٤ .

(٥) سورة القمر، الآية: ١ - ٢ . وانظر: الإنشقاق، ج ٢/ ٩٦ - ١٠٥ .

الفصل الثاني

إعجاز القرآن

١ - معنى الإعجاز في اللغة:

قال صاحب القاموس: وأعجزه الشيء فانه، وفلاناً وجده عاجزاً وصبره عاجزاً، والتعجيز الشيط، والنسبة إلى العجز، ومعجزة النبي ﷺ ما أعجز به الخصم عند التحدي^(١).

٢ - ما يعني بالمعجزة:

هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة. وقال صاحب الجوهرة: واعلم أن المعجزة لغة مأخوذة من العجز. وهو ضد القدرة، وعرفاً أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة. وقال السعد: هي أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله. وقد اعتبر المحققون فيها سبعة قيود:

الأول: أن تكون قولاً أو فعلاً أو تركاً، فالأول كالقرآن، والثاني كنيع الماء من بين أصابعه ﷺ، والثالث كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم.

الثاني: أن تكون خارقة للعادة، وهي ما اعتاده الناس واستمروا عليه مرة

(١) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج ٢/ ١٨٨.

بعد أخرى، وخرج بذلك غير الخارق، كما إذا قال آية صدقي مطلق الشمس من حيث تطلع، وغروبها من حيث تغرب.

الثالث: أن تكون على يد مدعي النبوة أو الرسالة، وخرج بذلك الكرامة وهي ما يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح.

والمعونة: وهي ما يظهر على يد العوام تخليصاً لهم من شدة.

والاستدراج: وهو ما يظهر على يد فاسق، خديعة ومكرأ به.

والإهانة: وهي ما يظهر على يده تكديباً له، كما وقع لمسلمة الكذاب،

فإنه تغل في عين أعور لئلاً فعصيت الصحيحة.

الرابع: بأن تكون مقرونة بدعوى النبوة أو الرسالة حقيقة أو حكماً بأن

تأخرت بزمن يسير. وخرج بذلك الأرهاس، وهو ما كان قبل النبوة والرسالة تأسيساً لها كما ظلال الغمام له ﷺ قبل البعث.

الخامس: أن تكون موافقة للدعوى. وخرج بذلك المخالف لها كما إذا

قال: آية صدقي انفلاق البحر فانفلق الجبل.

السادس: أن لا تكون مكذبة له، وخرج بذلك ما إذا كانت مكذبة له، كما

إذا قال آية صدقي نطق هذا الجماد فتطق بأنه مقتر كذاب. بخلاف ما لو قال: آية

صدقي تطق هذا الإنسان الميت وإحيائه فأحيى ونطق بأنه مقتر كذاب. والفرق

أن الجماد لا اختيار له فاعتبر تكذيبه لأنه أمر إلهي، والإنسان مختار فلا يعتبر

تكذيبه، لأنه ربما اختار الكفر على الإيمان.

السابع: أن تتعذر معارضته، وخرج بذلك السحر ومنه الشعيلة وهي حقة

في اليد يرى أن لها حقيقة، ولا حقيقة لها، كما يقع للحواة، ويزاد بعضهم ثامناً.

وهو ألا تكون في زمن نقض العادة، كزمن طلوع الشمس من مغربها، وخرج

بذلك ما يقع من الدجال كما مره للسماء أن تمطر وللأرض أن تثبت

فتثبت^(١).

(١) انظر: السجوري في شرحه علم الجوهرة في التوحيد، ج ٢/٣٥.

٣ - هل معجزة النبي محمد ﷺ حسية محدودة أم عقلية غير محدودة؟

لا يخفى أن معظم معجزات الأنبياء والرسل، كانت حسية، تخضع للبصر والجارحة، وهي على هذه الحال لا تأثير لها إلا على من شاهدها وعاش عصرها^(١).

أما معجزة سيدنا محمد ﷺ فقد تخطت الحيات لتمتلك العقليات، فإنه وإن كان لمحمد ﷺ نصيب والمر وحظ باهر في إطار المعجزات الحسية، فإن هذه ليس المعتمد الختامي المواكب لهذه الدعوى، وإنما المعجزة الختامية المواكبة لهذه الرسالة هي: القرآن الكريم (كلام الله تعالى المنزل بواسطة جبريل عليه السلام على النبي عليه السلام).

فما تبقى من معجزاته ﷺ، ذات دلالة محدودة، قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة، منها:

أ - انشقاق القمر.

ب - تسليم الحجر والشجر عليه ﷺ.

ج - حنين الجذع إليه ﷺ.

د - تسبيح الحصى في كفه ﷺ.

هـ - رد عين قتادة ﷺ حين سألت على خده بوقايته بوجهه السهام عن الرسول ﷺ.

و - شهادة الضب بنبوته ﷺ.

فإن الدعوى المحمدية، وإن أيدت بما سبق ذكره من المعجزات الحسية فالقرآن الكريم هو أفضل معجزاته وأدومها لبقائه إلى يوم القيامة. ولذا كان الاهتمام بمعرفة إعجاز القرآن، ووجوه إعجازه، هذه المعجزة التي يشهد لها ممر القرون والأجيال، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها^(٢).

(١) انظر: الإنفان في علوم القرآن، ج ٢/١١٦.

(٢) انظر: إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني، ج ١/٨.

٤ - القرآن الكريم معجزة الدعوى النبوية المحمدية:

إن القرآن الكريم، هو معجزة النبي ﷺ، وذلك لعمومه الثقلين (الإنس والجن)، ولزوم الحجة بها من أول وقت ورودها إلى يوم القيامة بثبات موزون وتنطق معلوم.

ولبيان هذا الأمر - القرآن هو المعجزة - وتوضيحه:

عندما بعث الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام رسولاً، جعل له معجزة، وكانت هذه المعجزة، هي القرآن الكريم، الذي هو مبنى هذه النبوة، وأدلة ذلك كثيرة، نذكر منها ما عساه أن يوصلنا إلى قصدنا، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد:

أولاً: قال تعالى: ﴿الرُّكُوتَاتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١).

فقد أخبر سبحانه، أنه أنزل القرآن الكريم ليقع به الاهتداء، وهذا لا يكون إلا في حال حجته، ولا حجة له إلا في إعجازه.

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

فيؤخذ من الآية الكريمة، أن سماع المشرك لكلام الله تعالى حجة عليه، ولا حجة إلا إذا كانت معجزة.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا إِنَّهُم غَالِقُونَ﴾ (٣).

وتوجيه النص، أن الله تعالى جعل القرآن سبب كون النبي عليه الصلاة والسلام نذيراً، وعلى العموم، ما من سورة افتتحت بالحروف المقطعة، إلا ودلت على إعجازية القرآن الكريم.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٩٢ - ١٩٥.

وكما يقول القاضي الباقلاني رحمه الله: فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن والتشبيه على وجه معجزته^(١).

٥ - الدلالة على إعجاز القرآن:

الأصل في دلالة الإعجاز، هو أن القرآن المتلو المحفوظ المرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبي محمد ﷺ، وقد تلاه ثلاثاً وعشرين سنة على من عاصره.

والطريقة التي يتعرف بها على هذا الأمر، هي النقل المتواتر الذي يوجب العلم الضروري (أي الاعتقاد)، وكل ما علم من الدين بالضرورة، ووجب الاعتقاد به ويكفر منكره. وتناقلته الأجيال من أهل هذا الدين، رجال عن رجال، كباراً وصغاراً، لما أكرمهم الله تعالى بحفظه جملة وتفصيلاً. فنناقله الخلف عن السلف حتى وصل إلينا، فلا شك فيه، لبطلان التشكك.

وقد وقع التحدي للمعاندین، فقرعهم سنين طوال، فكانوا عن ذلك عاجزين.

أولاً: قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِدَلٍّ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾ قَالُوا بَدِيعٌ قَدِيدٌ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾. فإذا كان محمد يتحدث من عنده وهذا القرآن، تدعونه حديثاً من نفسه، فأتوا بحديث يماثله إن تصدقوا فيما تقولون.

ثانياً: وقع التحدي للمعاندین، بأن أتوا بعشر سور مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترناه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتررات وأدعوا من استطعت من دون الله إن كنتم صادقين ﴿١١﴾ فإن لم يستجبوا لكم فاعلموا أننا أول بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿١٢﴾﴾ ﴿١٣﴾.

ثالثاً: وقع التحدي بسورة واحدة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ

(١) النظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ج ١/ ١١.

(٢) سورة الطور، الآية: ٣٣ - ٣٤.

(٣) سورة هود، الآية: ١٣ - ١٤.

عَبِيدًا فَأَتُوا سُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَبِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الْآلِئِ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿١﴾

رابعاً: وقع التحدي لكل من الثقلين، معاً، وأن يتآزروا مع بعضهم البعض
في سبيل إتيان مثل هذا القرآن، قال تعالى:

﴿ قُلْ لِيَنْصَبُوا آيَاتِي وَالْحِجْرَةَ عَنِّي أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢﴾

فقد عجز المعاندون المرتابون عن الوقوف أمام تحدي القرآن، الذي هو
بلسان عربي مبين، وهم آنذاك الفصحاء والبلغاء، فكيف بحال من هم دون ذلك
من العرب والعجم الذين يعجزون، حتى عن الركيك من الكلام فكيف بالكلام
المتقن، الذي هو كلام رب العالمين^(٣).

وهنا يتبادر إلى الأذهان، تساؤل حول زعم من يحصر إعجاز القرآن في
العصر الأول، ظاناً، بالإمكان قصور إعجازه عن أهل هذا العصر، أو غيره من
العصور المتقدمة.

الإجابة: هذا التساؤل، لم يكن فريداً عصر معين، بل قد تقدم في أذهان
أولئك المعاندين المشابهين بأذهان كل معاند من كل عصر، ولذا تترك الإجابة
لمن هم لنا قدوة بيان وأئمة دفاع.

أولاً: فإذا علمنا أن أهل العصر الأول كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله فمن
بعدهم أعجز، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يفتنون فيه من القول مما لا
يزيد عليه فصاحة من بعدهم، وأحسن أحوالهم: أن يقاربوهم أو يساووهم، فأما
أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا.

ثانياً: لقد علمنا عجز أهل سائر الأمصار كعلمنا بعجز أهل العصر الأول،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣ - ٢٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٣) انظر: إعجاز القرآن للباغلاتي، ج ١/ ١٩٧.

والطريق في العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد، لأن التحدي في الكل على جهة واحدة، والتنافر في الطباع على حد، والتكلف على منهاج لا يختلف ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١).

٦ - المقدار المعجز من القرآن الكريم:

الظاهر، أن مقدار المعجز من القرآن، مسألة غير متفق عليها. فقد ذهب بعض المعتزلة، إلى أن المقدار المعجز من القرآن، كل سورة برأسها. وذهب أهل السنة بزعامة أبي الحسن الأشعري، إلى أن المقدار المعجز من القرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان يقدرها.

ونسب إلى القاضي أبي بكر الباقلاني إلى أن أقل ما يعجز ما كان يقدر سورة من الكلام بحيث يبين فيه تفاضل قوى البلاغة، حتى ولو يقدر سورة الكوثر.

وذهب البعض إلى أن متعلق الإعجاز بقليل القرآن وكثيره ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾. وتخلص إلى أن القول في هذه المسألة متعدد:

- ١ - منهم من قال بجميع القرآن.
- ٢ - منهم من قال بسورة برمتها.
- ٣ - منهم من قال بسورة بغض النظر عن طولها وقصرها.
- ٤ - ومنهم من قال بقليل القرآن وكثيره.

ويلاحظ، أنه لا داعي لحصر الإعجاز في قدر معين، ونرى إعجازة من الصوت، الحرف إلى وقع الكلمة، إلى الآية إلى السورة، فيكفي أن القرآن هو كلام رب العالمين^(٢).

(١) انظر: إعجاز القرآن، ج ٢/١٤٧.

(٢) نفس المرجع السابق، وانظر: الإتقان في علوم القرآن، ج ٢/١٢٣.

٧ - وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:

تعددت الأوجه والآراء في وجوه الإعجاز من القرآن، كلها حكمة وصواباً، مع أن ما ذكر من آراء وأوجه، لم تبلغ واحداً من عشر معشاره، ذكر منها:

- ١ - الإيجاز مع البلاغة.
- ٢ - البيان والقصاحة.
- ٣ - الوصف والنظم.
- ٤ - كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر، مع كون حروفه في كلامهم ومعانيه في خطابهم، والفاظه من أنس كلماتهم، وهو بذاته قبيل غير قبيل كلامهم، وجنس آخر متميز عن اجناس خطابهم حتى أن من اقتصر على معانيه وغير حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه.
- ٥ - كون قارته لا يكمل وسامعه لا يمل، وإن تكررت عليه تلاوته.
- ٦ - هو ما فيه من الأخبار عن الأمور الماضية.
- ٧ - هو ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع.
- ٨ - كونه جامعاً للعلوم يطول شرحها ويشق حصرها^(١).

ونسب إلى الزركشي أنه قال: «وقال أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد على انفراد، فإنه جمع ذلك كله، فلا معنى لنسبه إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع - بل وغير ذلك مما لم يسبق»^(٢).

والحقيقة في: أن القرآن منطوق على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حسن تأليفه والتتام كلامه وفصاحته ووجوه إيجازه، وبلاغته

(١) انظر: الإنقان للسيوطي، ج ٢/١٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الإنقان، ج ٢/١٢٢.

الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن.

ثانياً: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومنها نظمها ونثرها الذي جاء عليه ووقفت عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصل كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، قال وكل واحد من هذين النوعين «الإيجاز والبلاغة» بذاتها، والأسلوب الغريب بذاته نوع إعجاز على التحفيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد خارج عن قدرتها مابين فصاحتها وكلامها، خلافاً لمن زعم أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب.

ثالثاً: ما الظوى عليه من الإخبار بالمعنيات، وما لم يكن فوجد كما ورد رابعاً: ما أتى به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع المنقرضة فهذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها.

وتحدثت عن معيّنات، هي بالحقيقة داخلة ضمن الوجوه الماضية، فقال: ومن الوجوه في إعجازه غير ذلك أي وردت بتعجيز قوم في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك كقوله لليهود: ﴿فَتَسْمَوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ مُسْذِقِينَ ۗ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ۗ﴾^(١) فما تسمأ أحد منهم، وهذا الوجه داخل في الوجه الثالث (الإخبار بالمعنيات)، ومنها البروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم، والهيئة التي تعربهم عند تلاوته، وقد أسلك جماعة عند سماع آيات منه، كما وقع لعجير بن مطعم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، قال: فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَلْقُونَ ۗ﴾. الْمُهَيَّبِيُّونَ ۗ﴾^(٢) كاد قلبي أن يطير قال: وذلك أول ما وفر الإسلام في قلبي، ومن وجوه إعجازه كونه آية باقية لا يعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه، ومنها أن فاعله لا يمله وسماعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيد حلاوة، وترديده يوجب له محبة، وغيره من الكلام يعادي إذا أعيد، ويحل مع التردد، ولهذا وصف ﷺ القرآن بأنه

(١) سورة النقرة، الآية: ٩٤ - ٩٥.

(٢) سورة الطور، الآية: ٣٥ - ٣٧.

لا يخلق على كثرة الرد، ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحد في كلمات قليلة وأحرف معدودة، قال: وهذا الوجه داخل في بلاغته فلا يجب أن يعد فناً مفرداً في إعجازه قال: والأوجه التي قبله تعد في خواصه وفضائله لا إعجازه «وحقيقة الإعجاز الوجه الأربعة الأول فليعتمد عليها»^(١)

واعلم: أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن لدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، كما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتعريف فيهما^(٢). وقال أبو حيان التوحيدي مثل بن دار الفارسي عن موضع الإعجاز من القرآن فقال هذه مسألة فيها حيف على المعنى وذلك أنه شيء بقولك ما موضع الإنسان من الإنسان، فليس للإنسان موضع من الإنسان مني أشرت إلى جمك فقد حفته ودلت على ذاته فكذلك الشأن لأنه لا يشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزة لما حوله وهدى لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأعراض الله في كلامه، وأسرازه في كتابه، فلذلك حازت العقول وتاهت البصائر عنده^(٣).

بعد تبيان وجوه الإعجاز، وأنها حقيقة بكل ما يعني الإعجاز من معنى دون تقييدها بأرقام، بل بجميع ما ذكر دون التفراد.

فهو معجز بأسلوبه البياني، وأسلوبه المعاني، وأسلوبه البدعي.

وهو معجز بنظامه التركيبي اللغوي.

وهو معجز بإخباره عن المغيبات، وحال الأمم العابرة.

وهو معجز بما فيه من معارف وعلوم، وشرائع وأنظمة لصالح العالمين،

وصدق الله تعالى فيه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٤).

والتحدث عن جميع وجوه الإعجاز في القرآن مسألة شاقة، كمن يزن

(١) لسب هذا التحليل للقاضي عياض، ذكره السيوطي في الإتيان، ج ٢/ ١٢٣.

(٢) لسب هذا الرأي إلى السكاكي، ذكره السيوطي، ج ٢/ ١٢٠.

(٣) النظر: الإتيان، ج ٢/ ١٢٠.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.

الرواسي الثابتات بحيزان من ذهب، ولذا نكتفي بالتعرض لبعض من هذه الوجوه، قصد التعرف على جوانب إعجازية من القرآن الكريم.

٨ - الإعجاز اللغوي:

وحول هذا الوجه الإعجازي، نضع بين أيدينا، ما قاله أحد الأئمة، الذين لهم باع في هذا الشأن.

إنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق، والذي أطلقه هو على هذه الجملة، ونحن تفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها، فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه، منها:

أ - ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تعدد وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز في تعرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أغراض الشعر على اختلاف أنواعه ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ثم إلى أصناف الكلام المعدل المستجع ثم إلى معدل موزون غير مسجع ثم إلى ما يرسل إرسالاً فتطلب فيه الإصابة والإقادة وإقحام المعاني المعشرفة على وجه بديع وترتيب لطيف وإن لم يكن معدلاً في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه ولا يتصنع له. وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق. فهذا إذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة، وإنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن. وتميز ما قبل في جميعه.

ب - إنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصريف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والثناب في البلاغة، وإشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع

فيها ما تبيته بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما تكشفه من الاختلاف، ويقع فيها ما نبديه من: التعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد حصل القرآن على كثرة وطوله متناسياً في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَلًا تَنْشُرُهُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ يَأْكُرُ اللَّهُ﴾ (١) ﴿الضَّلِيلَتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢)

فأخبر أن كلام الأديبي إن امتد وقع فيه التفاوت، وبأن عليه الاختلال... وفي ذلك معنى ثابت، وهو أن عجب نظمه ويدع تأليفه لا يتفاوت ولا يشبه على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواظب واحتجاج وحكم وأحكام وأعداء وإنذار ووعد ووعيد وتشير وتخوف وأوصاف وتعليم أخلاق كريهة وشيم رقيقة وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها.

ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المغلق (٣)، والخطيب المصنف (٤) يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم يسبق في التفريظ (٥) دون التأيين، ومنهم من يجود في التأيين دون التفريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل والحيل، أو سير الليل أو وصف العرب أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعراء، ويتداوله الكلام، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والتايغة إذا رعب، وتزهير إذا رعب، ومثل ذلك يختلف في الخطيب والرسائل وسائر أجناس الكلام، ومنى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره، على حسب الأحوال التي

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٣) الشاعر الذي يأتي بالمعجب.

(٤) الخطيب العالي الصوت، أو من لا يتنوع في كلامه.

(٥) التفريظ: هو مدح الإنسان وهو حي بحق أو باطل. وهنا يفارظان المدح: بمدح كل صاحبه.

يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعراء ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم . . . «وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبتدريج التأليف والرصف لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها، على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، قرآنا غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه، قد بينا فيه التفاوت الكثير وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب التي يتضمنها»^(١).

تقدم الحروف في أوائل السور وما فيها من إعجاز:

مما عد من باب الإعجاز اللغوي، ما تشير إليه الحروف المتقدمة أوائل السور وأنها وردت على سبيل التحدي، في مبنى اللغة العربية من جهة التوزيع والتقسيم على نمط نسي في التركيب أمام فصحاء اللغة وأربابها.

أولاً: من الملاحظ، عند التبع للحروف الأوائل، أنها أربعة عشر حرفاً: الألف، اللام، الهمزة، الضاد، ر، ك، هـ، ي، ع، ط، م، ح، ق، ذ.

ثانياً: قسمت الحروف العربية من حيث النطق إلى أقسام متعددة:

أ - تقسيمها إلى حروف مهموسة^(٢)، وحروف مجهورة^(٣) وإن الحروف المهموسة هي: ح، هـ، خ، ك، ش، ث، ف، ت، ص، م، (عشرة حروف).

(١) انظر ما ذكر حول الإعجاز النظمي اللغوي، إعجاز القرآن للماقلاني، ج ١/ ٥١.
 (٢) الحروف المهموسة هي الحروف التي تخرج مع النفس وضعف الاعتماد.
 (٣) الحروف المجهورة هي الحروف التي يعتمد عليها في الإتيان ويمنع فيها جريان النفس.

والحروف المجهورة، ما تبقى، وهي: أ، ب، ج، د، ذ، ر، ز، ض، ط، ظ، ع، غ، ق، ل، م، ن، و، ي، (ثمانية عشر حرفاً).

ب - تقسيمها إلى حروف حلقيّة^(١)، وغير حلقيّة^(٢). وإن الحروف الحلقيّة هي: ع، ج، هـ، هـ، ح، غ، (سنة أحرف).

والحروف غير الحلقيّة هي ما تبقى: ب، ت، ث، ج، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ف، ق، ك، ل، م، ن، و، ي، (الثان وعشرون حرفاً).

ج - تقسيمها إلى حروف شديدة^(٣)، وغير شديدة^(٤). وإن الحروف الشديدة هي ثمانية: أ، ق، ك، ج، ظ، ذال، ط، ب.

وإن الحروف غير الشديدة هي عشرون: ت، ث، ح، خ، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ع، غ، ف، ل، م، ن، هـ، و، ي.

د - تقسيمها إلى حروف مطبقة^(٥)، وغير مطبقة^(٦). وإن المطبقة هي أربعة أحرف وهي: ط، ظ، ض، ص.

وإن الحروف المطبقة (المتفتحة) هي أربعة وعشرون حرفاً وهي: أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، س، ش، ع، غ، ف، ق، ك، ل، م، ن، هـ، و، ي.

والذي يلاحظ حول هذا التقسيم والتوزيع، وما لحروف أوائل السور من نسبة تركيب فيها، يجد أنها موزعة على شكل نسبي موحد في شتى المجموعات والتقسيمات.

(١) هي الحروف التي مخرجها من أقصى الحلق (أ - هـ) ومن أوسط الحلق (ع - ح) ومن أدنى الحلق (غ - خ).

(٢) هي الحروف التي تخرج من اللسان أي تخالف في انطلاقها مخارج الحلق.

(٣) وهي ما امتنع الصوت أن يجري فيها.

(٤) هي ما جرى الصوت فيها.

(٥) هي الحروف التي تضخم عند النطق بها، وهذه الحروف من أقوى حروف التضخيم.

(٦) هي الحروف التي تكون مفتوحة ولا تضخم دائماً.

وفي المجموعة المهموسة: نصف حروفها من جملة حروف أوائل السور.
وفي المجموعة غير المهموسة: نصف حروفها من جملة حروف أوائل
السور.

وفي المجموعة الحلقية: نصف حروفها من جملة حروف أوائل السور.
وفي المجموعة غير الحلقية: نصف حروفها من جملة حروف أوائل
السور.

وفي المجموعة الشديدة: نصف حروفها من جملة حروف أوائل السور.
وفي المجموعة غير الشديدة: نصف حروفها من جملة حروف أوائل
السور.

وفي المجموعة المطبقة: نصف حروفها من جملة حروف أوائل السور^(١).
وفي المجموعة غير المطبقة: نصف حروفها من جملة حروف أوائل
السور.

وإنها لملاحظة، تلفت الأنظار، وتوقف العقول أمام التدبير والتفكير.
وكان هذه الحروف التي ابتدأت بها بعض السور، ذات شأن، لها دورها في
تركيب الكلام وتنظيم العبارات.

نسبة هذه الحروف من الحروف العربية هي نسبة: ١ - ٢.
ونسبة ما لهذه الحروف في كل مجموعة من المجموعات المشار إليها:
هي ذات النسبة أي ١ - ٢. أليس في هذا وجه إعجازي لغوي؟

ويقول القاضي الباقلاني رحمه الله تعالى حول هذا الإعجاز اللغوي: وإذا
كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام، لأغراض لهم في ترتيب
العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي ﷺ ورأوا مناني اللسان على
هذه الجهة، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التصنيف
الذي وصفناه، دل على أن وقوعها الموضع الذي يقع التواضع عليه، بعد العهد
الطويل، لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجل، لأن ذلك يجري مجرى علم
الغيب، وإن كان إنما نبهوا على ما بني عليه اللسان في أصله ولم يكن لهم في

(١) انظر بتصرف: إعجاز القرآن، ج ١/ ٦٨.

التقسيم شيء وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان. فذلك أيضاً من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان.

فإن كان أصل اللغة توفيقاً فالامر في ذلك أبين، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضاً، لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله تعالى، وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه^(١).

«الإعجاز العلمي»

القرآن الكريم، كتاب الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو كتاب في حقيقته المنزلة، تبيان لكل شيء، أحكامه صائبة، وحقائقه ثابتة.

وإنما شيء يجب وضعه على بساط المعرفة، قصد الإبقاء على القرآن الكريم في دائرته المكرمة ومحيطه السليم.

القرآن الكريم، كتاب هداية للناس، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾^(٢).

هو كتاب رحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣) هو كتاب إنذار، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا الْقُرْآنَ لَنُبَيِّنَ لَكُمْ بِهِ﴾^(٤).

هو كتاب هداية وبشرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِينَ هُمْ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

(١) إعجاز القرآن، ج ١/٦٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٩.

هو كتاب شفاء ورحمة، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

هو كتاب سعادة، قال تعالى: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (٢)

هو كتاب لا غموض فيه ولا شائبة، قال تعالى: ﴿ طَسَّيْنَا تِلْكَ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣)

هو كتاب حكيم فيما أخبر به وأمر به ونهى عنه، قال تعالى: ﴿ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴾ (٤) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٥) ﴿ (٤)

هو كتاب تذكرة وبيان، قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ (٥)

هو كتاب تيسر للتذكرة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ ﴾ (٦)

هو كتاب كريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٨) ﴿ (٧)

هو كتاب مجيد، قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ (٨) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٩) ﴿ (٨)

هو كتاب جامع لشتى جوانب الحياة الدنيا والآخرة، التي لها التأثير في ذات الإنسان سعادة وشفاء.

القرآن الكريم بما فيه من تبيان لكل شيء، في سياق الهداية، وكشف الستائر عن بصائر الناس، وإزالة الغشاوة عنها، وفي سياق الهداية من شتى أبوابها. يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَكْتُبْ لَكَ آيَاتٍ فِيهِ هُدًى

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة طه، الآية: ٢.

(٣) سورة النمل، الآية: ١.

(٤) سورة يس، الآية: ٢-٣.

(٥) سورة يس، الآية: ٦٩.

(٦) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٧) سورة الواقعة، الآية: ٧٧-٧٨.

(٨) سورة البروج، الآية: ٢١-٢٢.

لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾ ﴿١١﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢﴾ هو بيان وبينه
وهدى ورحمة ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ ﴿١٣﴾

فيه طرق البصائر: ﴿ هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٤﴾
﴿ هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٥﴾



وإن تعرض كتاب الله تعالى، في بعض آياته ونصوصه، لجوانب تدخل في
مضامين علمية، فلا نظن بهذا الكتاب الكريم أنه كتاب علوم، فنلحق به كل
مخترع علمي، وإنه لخطأ كبير، ما يتركه بعض الغيورين، الذين يراقبون كل
مخترع في جوانب الحياة، ثم يجهدون أنفسهم بإلحاق هذا المبتكر العلمي بآية،
أو سورة من كتاب الله تعالى إذ وجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ليس
بهذه الصورة، ولا من هذا المنطلق، فصورة النواحي العلمية، لا تخلو من
التخبط، والنقص الذي قد يطرأ عليها، لأن منطلقها قلبي، وما ورد في كتاب
الله تعالى من إشارات في هذا الجانب، هي حقائق ثابتة لا تقبل الخطأ وطروء
النقص.

والقرآن الكريم بإعجازه العلمي، كائن وكامن من منظار معين، يهدف في
النهاية النظر إلى الهداية من قرب، وعن وعي وتدبير وتفكير وإليك بعض
الإشارات العلمية التي قد صوب العقل قبلها، قصد التذكير والتدبير الموصل إلى
عظمة الخالق وقدرته عز وجل.

١ - أشار سبحانه في كتابه الكريم إلى جمع من النواحي العلمية، وعقبها
بأن مآل العارفين لهذه النواحي التي تتجلى فيها قدرة الله تعالى، هو خشية

(١) سورة البقرة، الآية: ١ - ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.

سبحانه . قال تعالى : ﴿ الَّذِمْرَ أَنَّى اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَمْرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيٌّ ۝۱۱ وَمِنَ الْأَنْهَارِ وَالْأَنْهَارِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۝۱۲﴾ .

في هذه الآية : إشارة إلى علم الفلك ، وطبقات الأرض ، والنبات ، وعلم الهيئة والحيوان .

٢ - وفي علم الطبيعة ، توفقت البحوث العلمية عند قولها بأن الذرة لا تتجزأ ، وقد أشير إلى بطلان هذا الاعتقاد ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّ ذَرَّةً مِنْ ذَرَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ قَدَرٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝۳۱﴾ (٣) إذن هناك ما هو أصغر من الذرة وهو فتات الذرة المحطمة .

٣ - وفي جانب علم التكوين والأجنة ، يشير القرآن الكريم إلى مراحل الجنين في التكوين فيقول سبحانه : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ أُنزِلَتْ فَلْيَا خَلْقنَاكُمْ مِنْ نَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُسَجَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ وَغَيْرِ مُخْتَلِفٍ لَيْسَ لَكُمْ مِنْكُمْ فِي الْأَرْحَامِ مَا تَشَاءُ إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ نُحْمِلُكُمْ بِطَفَلًا ثُمَّ نَحْنُلُكُمْ أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُنْفِقُ وَمِنْكُمْ مَنْ يَبْذُرُ وَإِنْ أَنْزَلْنَا الْمُمْرِ لِيُكْتَبَ يَعْلَمَ مِنْ نَعْمٍ عَلَيْهِ شَيْئًا وَنَرَى الْأَرْضَ كَامِدَةً فَمَا أَذَلْنَا لِرَأْسِنَا أَلَمَّا أَفْرَجَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ ۝۱۱﴾ (٤)

ويوجه سبحانه العقول إلى الكون والتفكير فيه ، وأن من يحسن بهذه الآيات الباهرة للعقول ، والقلوب ، هم أولو الألباب ، قال تعالى :

﴿ إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝۱۱ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَرَبِّمَا خَلَقَتْ

- (١) المراد : شلبيد السواد ، قال الفراء : في الكلام تظلم وتأخيرا ، تغليوه ، وسود حرايب ، فتح القدير ، الشوكاني ، ج ٤ / ٣٤٨ .
 (٢) سورة فاطر ، الآية : ٢٧ - ٢٨ .
 (٣) سورة يونس ، الآية : ٦١ .
 (٤) سورة الحج ، الآية : ٥ - ٦ .

هَذَا بِنَوْلِ مُسْحِكِكَ فَمِنَّا عَذَابُ النَّارِ ﴿١١﴾

وفي كتاب الله، إشارات علمية، لها مدخل في الإنتاج النباتي، وعلاقتها بطيقة الهواء، فهناك من النباتات ما لا يشعر إلا بالتلقيح الخارجي، كشجرة البلح مثلاً، إذ لا بد لها من تلقيح خليطي خارجي، فالتلقيح، إما ذاتي، زهرته تشمل على عضوية التذكير والتأنيث، وغير ذاتي، أي بحاجة إلى تلقيحه من شجرة ثانية مكتملة لتكامل العضوية التناسلية. فكانت الرياح هي الوسيط بين العضوين (التذكيري والتأنيثي). قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾^(١).

ما تقدم ذكره، نموذج من إشارات تدفع العقول والافكار للتصرف عليهما، وتدبير أمرها وما سبقت من أجله.

وتحت قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَدَّةٌ لِلنَّاسِ وَالْبَحْرُ وَلَيْسَ الْمُرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْمُرَّ مِنَ الْأَنْفِ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، يقول بعض الدعاة الباحثين: إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته، تصوره واعتقاده، ومشاعره ومفهوماته، وسلوكه، وأعماله، وروابطه وعلاقاته. أما العلوم المادية، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله ومثاقمه وحسونه فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وحسونه وفروضه ونظرياته، بما أنها أساس خلافته في الأرض، وبما أنه مهياً لها بطبيعة تكوينه. والقرآن يصحح له فطرته كي لا تنحرف ولا تقسد، ويصحح له النظام الذي يعيش فيه كي يسمح له باستخدام طاقاته الموهوبة له، ويزوده بالتصور العام لطبيعة الكون وارتباطه بخالقه، وتناسق تكوينه، وطبيعة العلاقة القائمة بين أجزائه - وهو أي الإنسان أحد أجزائه - ثم يدع له أن يعمل في إدراكه الجزئيات والانتفاع بها في خلافته. ولا يعطيه تفصيلات لأن معرفة هذه التفصيلات جزء من عمله الذاتي.

وإني لأعجب لسلاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠ - ١٩١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها. . . كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه. وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها. لأنه هو الإنسان ذاته، الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها، والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان. والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه. بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره. كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المدخورة فيه. . . لا يجوز أن تعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن، بفروض العقل البشري ونظرياته ولا حتى بما يسميه «حقائق علمية» مما يتهي إليه بطريقة التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة، أما ما يصل إليه البحث الإنساني أياً كانت الأدوات المتاحة له - فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة - وهي مقيدة بحدوده تجارب وظروف هذه التجارب وأدواتها. فمن الخطأ المنهجي - بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته - أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية. وهي كل ما يصل إليه العلم البشري. هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية. . . والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى علمية. ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية، وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره، وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه. . . وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها. فهذه كلها ليست حقائق علمية حتى بالقياس الإنساني وإنما هي نظريات وفروض. يقول القرآن الكريم: ﴿ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ . . .

ثم توجد نظرية في الشبوة والارتقاء، «والاس» و«دارون» نفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة، وأن هذه الخلية نشأت في الماء وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان. فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلتهث وراء النظرية - لنقول: هذا هو الذي عناه القرآن!!!

لا. . . إن هذه النظرية ليست نهائية. فقد دخل عليها من التعديل في أقل من

قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائياً. وقد ظهر فيها من النقص المبني على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر، ما يكاد يطلها. وهي معرضة عدداً للنقص والبطلان. بينما الحقيقة القرآنية نهائية، وليس من الضروري أن يكون هذا معناها. فهي ثبت فقط أصل نشأة الإنسان ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة، وهي نهائية في النقطة التي تستهدفها وهي أصل النشأة الإنسانية. ويقول القرآن الكريم: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾. فثبت حقيقة نهائية عن الشمس وهي أنها تجري. . . ويقول العلم: «إن الشمس تجري بالنسبة لما حولها من النجوم بسرعة قدرت نحو ١٢ ميلاً في الثانية. . . ولكنها في دوراتها على المجرة التي هي واحدة من نجومها تجري جميعاً بسرعة ١٧٠ ميلاً في الثانية. . . ولكن هذه الملاحظات الفلكية ليست هي عين مدلول الآية القرآنية. إن هذه تعطينا حقيقة نسبية غير نهائية قابلة للتعديل أو البطلان. . . أما الآية القرآنية فتعطينا حقيقة نهائية - في أن الشمس تجري - وكفى. . . فلا تعلق هذه بطلب أبدأ» - «ومن ثم لا يجوز أن يقال عن أي فرض من الفروض العلمية في هذا الموضوع: إنه المدلول النهائي المطابق للآية»^(١) فضلاً عما للعلم من مكانة هامة في ذاتية المسلم، فقد وردت نصوص عديدة تحرك الجانب العلمي في عقلية الإنسان، داعية إياه إلى التدبير والتفكير.

قال تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِحَمْدِهِ تَرَوْنَهَا نِجْمًا مُسْتَوِيًّا عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ فَجَلَّ مُلْكُ يَوْمِئِذٍ لِلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿١٠١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجًّا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قَطَعٌ مَشْجُورٌ وَحَشَّتْ مِنْ أَعْصَابٍ وَرَدَعٌ وَنَجِيلٌ سِتْوَانٌ وَفِي سِتْوَانٍ بُسْتَانٌ وَبِجَادٍ وَتَفَضَّلَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ

(١) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ١/ ٢٥٨، بصرف.

يَعْقِلُونَ ﴿١﴾

ولما للعلم من أهمية: فإنه لا تسوية بين العالم والجاهل، قال تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

ومهما حظيت من علم، فإنه قليل، قال تعالى:

﴿ أَوْتِيَتْهُمِ الْعِلْمَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣)

• • •

(١) سورة الرعد، الآية: ٢ - ٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

الفصل الثالث

القسم في القرآن

النفوس البشرية مختلفة التركيب، كماختلف ألسنتها وألوانها، فليست متساوية في الاستعداد والقابلية لاحتواء الدعوة وفهم الخطاب، فمنها من بسط استعدادها للاستجابة، ومنها من ران عليها وخيمت عليها غشاوة الجهل والباطل، فأصبحت قاسية متحجرة تستوجب أسلوباً معيناً يهز بنيانها ويسترعي سماعها لما في هذا الأسلوب من منهجية المحاجة والدليل المفتح لتقبل الاعتراف بما جحد من حقائق ثابتة، وهذا الأسلوب يقتضي منهجية المخاطبة التأكيدية بصور تتقابل واختلاف النفوس وأحوال القلوب.

١ - الغاية من القسم :

يقصد بالقسم في أساليب المخاطبة تحقيق الخبر وتوكيده، وقد نسب إلى أبي القاسم القشيري رحمه الله قوله: إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنتين، إما بالشهادة وإما بالقسم فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة فقال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾^(١) وقال: أي وربّي إنه لحق^(٢).

وشيء معلوم في علم المعاني، إن أسلوب المخاطبة يتحدد بتوعية

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) انظر: الإنفاق في علوم القرآن، ج ٢/ ١٣٣.

المخاطب، وهذه - النوعية - لا تخرج عن ثلاث طبقات، هي:

أولاً: طبقة المبتدئين، وهي من خلا ذهنها من التشكك والإنكار.

ثانياً: طبقة المشككين، وهي من تتردد في أمرها، بين الخلود والإنكار.

ثالثاً: طبقة المنكرين، وهي من أنكرت الحكم والمطلوب.

والخير نوع من الصلة بين المخاطب والمخاطب، ولا بد أن تقوم صلته بهم على أساس قوى من تعرفه على نفسياتهم ووقوفه على مدى استعدادهم لتلقي مفاهيم إخباره بالقبول أو الرفض ومتى أدرك ذلك ألزمه أن يصوغ خبره في صورة خاصة تلائم حالتهم بحيث لا تختلف عنها في قليل أو كثير.

وبخلاصة القول أن أصرب الخبر ثلاثة:

١ - ابتدائي، وهو خال من التأييد ويلقى في مقام خلو ذهن المخاطب من مضمون الخبر ولو في اعتقاد المتكلم.

٢ - طلي، وهو مؤكد بمؤكد واحد استحساناً على سبيل الجواز ويلقى في مقام تردد المخاطب أو شكه في مضمون الخبر.

٣ - إنكاري، وهو مؤكد بأكثر من مؤكد وجوباً، ويلقى في مقام إنكار المخاطب لمضمون الخبر^(١).

والقسم نوع من أنواع المؤكدات (إن، أن، لام الابتداء، أحرف التبيه، نون التوكيد، الحروف الزائدة، قد، أما الشرطية، التكرار، اسمية الجملة، القصص، ومنها القسم).

والقسم في كلام الله تعالى يزيل الشكوك ويحبط الشبهات ويقوم الحجة ويؤكد الأخبار ويقرر الحكم في أكمل صورة^(٢).

وإذا كنا قد علمنا أصرب الخبر ودور القسم في أساليب المخاطبة أوجب تبيان تركيبة القسم وصيغته.

(١) النظر: عبد الحكيم نعمان: المنار في علوم البلاغة/ ٤٥٠.

(٢) انظر: الدر المنثور: شرح الحصص، ج ٣/ ٢.

٢ - التعريف بالقسم وصيغته :

القسم مفرد للأقسام، وهو بمعنى الحلف واليمين، الذي هو عبارة عن عقد قوى به عزم الحالف، وهو لا يكون إلا بالله سبحانه وتعالى الذي وحده يستحق التعظيم^(١).

وللقسم صيغة خاصة في تركيبه، وهذه تتكون من الآتي:

١ - فعل القسم (أقسم، أحلف).

٢ - أداة القسم (الباء، الواو، التاء) وقد تضرمت:

أقسم بالله - والله - تالله - الله، فأداتها مضمرة، محذوفة لفظاً موجودة تقديراً.

وإذا ورد الفعل - فعل القسم - فلا بد من ذكر الباء المتعدية، كما في قوله

تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾^(٢). وهذا الأصل في الأقسام.

٣ - المقسم به.

٤ - المقسم عليه.

ونستعرض حال كل من المقسم به والمقسم عليه، وما بينهما من تنوع

للقسم من جهة الصيغة والتركيب.

أولاً - المقسم به:

الأصل المعهود بالمقسم به، اقتضاه على الله سبحانه وتعالى حيث لا

يجوز الحلف إلا بالله سبحانه. عن ابن عمر رضي الله عنه أنه أدرك عمر بن

الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه فناداه رسول الله ﷺ: «ألا إن الله يتهاكم أن

تحلفوا بأبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله، وإلا فليصمت»^(٣).

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إن الله يتهاكم أن

(١) القاموس المحيط، مادة (قسم).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩. سورة النحل، الآية: ٣٨.

(٣) متفق عليه.

تحلفوا بأبائكم» (١)

هذا، وإن الأقسام القرآنية، بحد ذاتها صادرة عن الخالق سبحانه لا عن المخلوق، وفي هذا كما يبدو ويظهر مخالفة للأصل المعهود - أن يكون الله تعالى هو المقسم به - إذ كثيراً ما نجد قسم الله تعالى ببعض من مخلوقاته، والقسم منه سبحانه بذاته المقدسة، لم يوجد إلا في مواضع معدودة.

ورد القسم منه سبحانه بذاته المقدسة: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ كُنْ يُعْتَقَلُ لِي وَرَبِّي لَتُعَذِّبُنَّهُ﴾ (٢)

وفي قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِي وَرَبِّي لَتَأْتِيَ كُنُوزٌ﴾ (٣)

وفي قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ (٤)

وفي قوله سبحانه: ﴿قَوْلِكَ لَنَحْشُرَنَّكَ وَالشَّيْطَانِ ثُمَّ لَنَنْصِرَنَّكَ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ (٥)

جَنَّتَا ﴿٥﴾ وفي قوله سبحانه: ﴿قَوْلِكَ لَنَسْلُفَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٦)

وفي قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٧)

وفي قوله سبحانه: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَّا لَقَائِدُهُ﴾ (٨)

هذه المواضع التي ورد القسم فيها بالله سبحانه، وما تبقى من أقسام، فهي بمخلوقاته، وهنا يعترض تساؤل، وهو: في القسم تعظيم، والتعظيم مقصور على الخالق سبحانه، فكيف يعظم الله تعالى مخلوقاته؟

الجواب: ورد القسم في القرآن في مواضع عديدة بغير الله تعالى من

(١) متفق عليه، وانظر سبل السلام، ج ٤/ ١٠١.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٧.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣.

(٤) سورة يونس، الآية: ٥٣.

(٥) سورة مريم، الآية: ٦٨.

(٦) سورة الحجر، الآية: ٩٢.

(٧) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٨) سورة المعارج، الآية: ٤٠. والظر: الإنشقاق، ج ٢/ ١٣٣.

المخلوقات مع أن هذا ظاهراً مخالفاً لقواعد القسم، إذ القسم لا يجوز إلا بالله سبحانه، وعلى هذا يجب:

١ - قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾، فالذي يظهر هنا أن المقسم به هو السماء والطارق، مع أن المقسم به هو الله تعالى، وهو مضاف محذوف أي ورب السماء والطارق.

٢ - نزل القرآن والحال أن العرب تعظم هذه الأشياء فنزل يقسم على ما يعرفونه.

٣ - إن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجعله، وهو فوقه والله تعالى ليس فوقه شيء، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على باريه وصانع.

ونسب إلى ابن أبي الأصبع في أسرار الفواتح: القسم بالمصنوعات مستلزم القسم بالصانع، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل مفعول دون فاعل.

هذا... وقد أخرج عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله ولا ذراً ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكْرِنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١).

والقسم إما أن يكون صادراً عن العبد أو الخالق سبحانه، فإن كان صادراً عن العبد فلا يجوز منه إلا بالله تعالى، وإن كان صادراً منه سبحانه فله أن يقسم بما يشاء، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن الله أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله^(٢).

أنواع المقسم به:

لا يخلو القسم منه سبحانه بمخلوقاته عن وجهتين إما لفضيلة، كما في

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٢.

(٢) انظر: الانتقار في علوم القرآن، ج ٢/ ١٣٤.

قوله تعالى: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ۝١١ ﴾ ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝١٢ ﴾ وإما لمتفعة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْيَمِينِ وَالرَّهْمَانِ ۝١٣ ﴾.

وعلى العموم، فأنواع المقسم به: إما أن تكون بذاته سبحانه، أو بفعله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا ۝١٤ وَالْأَرْضَ وَمَا لَحْنَهَا ۝١٥ ﴾، أو بمفعوله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١٦ ﴾ ﴿ وَاللُّلُؤِ ۝١٧ وَكُنُوبِ مَسْطُورٍ ۝١٨ ﴾.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور. إننا يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته وأقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته.

وأضع بين يديك شيئاً من التطبيق، حول قسمه سبحانه بفعله ومفعوله، أو بآياته ومخلوقاته، ناظرين إلى الحكمة من ذلك وبالله التوفيق:

١ - قال سبحانه: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١٩ وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّيْلِ ۝٢٠ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝٢١ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا ۝٢٢ وَالْأَرْضَ وَمَا لَحْنَهَا ۝٢٣ وَاللُّلُؤِ ۝٢٤ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝٢٥ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَلَهَا ۝٢٦ ﴾.

بعد ذكر لمعاني الآيات، قال ابن القيم: وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله (وقد خاب من دساها) فقال: دس معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين، يرى

(١) سورة التين، الآية: ٢.

(٢) سورة التين، الآية: ٣.

(٣) سورة التين، الآية: ١.

(٤) سورة الشمس، الآية: ٥ - ٦.

(٥) سورة النجم، الآية: ١.

(٦) سورة الطور، الآية: ١ - ٢.

(٧) انظر: التبيان في أقسام القرآن، ص ١ - الإيقان، ج ٢/١٣٤.

(٨) سورة الشمس، الآية: ١ - ١٠.

الناس أنه متهم وهو منظر على غير ما يتطوي عليه الصالحون.

وقالت طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله سبحانه، قال ابن عباس: في رواية عطاء. قد أفلحت نفس رزأها الله وأصلحها. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد بن جبير ومقاتل، قالوا: سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، ونجابت وخسرت نفس أصلحها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها.

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله، حتى لا يقطن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق وقضاء متقدم، قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سبقت له السورة^(١).

وقد تضمن هذا المقسم الإقسام بالخالق، والمخلوق، فأقسم بالسما، وبانبها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها.

وقد قيل إن ما مصدرية، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه. ويصنعه الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته ونوحيده. ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً، ويعلمون بالبداهة أن الحادث لا يد له من محدث، كان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً. فلم يذكر الفاعل في الإقسام الأربعة. ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمن على الصانع وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذْ خَلَقْتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقْتَ النَّبْلَ وَالنَّهَارَ لَأَنْتَ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

٢ - قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ١ وَلَيْلٍ إِعْشَرَ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ هَذَا الَّذِي قَسَمَ لِيَّيَّ جَمْرٍ ٥﴾^(٣).

(١) انظر: البيان في أقسام القرآن، ١٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة الفجر، الآية: ١ - ٥.

إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالاً معظمة، من الصناصك وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والشك عبودية محضة لله، وذلك خضوع لعظمته (١)

٣ - قال تعالى: ﴿وَالَّتِي وَأَنْثُونَ﴾ و﴿طُورِ سِينِينَ﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٢﴾

قال ابن القيم رحمه الله: فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما. وهو أرض بيت المقدس. فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً. وقال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما، فإن التين فاكهة مخصصة من شوائب الشغصن، لا عجم له وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم. ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة، وطبعه طبع الحياة الحرارة، والرطوبة. وشكله من أحسن الأشكال. ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرجات، وله لذة يمتاز بها عن سائر القواكه ويزيد في القوة، ويوافق البياض، وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطباً ويابساً. وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر فإن عوده يخرج ثمرأ، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصنع للأكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى. وشجره باق على مر السنين المتطاولة وورقه لا يسقط. وهذا الذي قالوه حق، ولا ينافي أن يكون منبته مراداً، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيقة بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة. فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله كلمته موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه ولما جاء، وأرسله إلى فرعون وقومه

ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله، سيد ولد آدم، وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم

(١) التينان في أقسام القرآن » ٢٨

(٢) سورة التين، الآية: ١ - ٣.

ثنى بموضع مظهر الكليم . ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله ، وأكرم الخلق عليه . وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح ، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ، ونبوة محمد ﷺ وعليهما بعدها بمنزلة استعلانها وظهورها للعالم^(١) .

ثانياً - المقسم عليه:

يبحث المقسم عليه في القرآن الكريم من وجهتين اثنتين ، هما:

الوجهة الأولى: التركيبية النظامية .

الوجهة الثانية: التحقيقية والتوكيدية .

التركيبية النظامية: الغالب في جواب القسم أن يذكر، وذلك كما في قوله

تعالى: ﴿حَمَّ ۝۱ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝۲﴾ **﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾**^(٢) .
فجواب القسم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ .

وقد يحذف الجواب، وحذفه أكثر ما يكون في جواب «لو» كما في قوله

تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ ۝۱ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝۲﴾^(٣) . «ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام لأن المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت هولاً عظيماً، فليس في ذكر الجواب زيادة على ما يدل عليه الشرط . وهذه عادة الناس في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبة وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها يقول أحدهم: لو رأيت ما جرى يوم كذا في موضع كذا»^(٤) .

ويحذف، إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه، فإن

المقصود يحصل بذكره فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كما في قوله تعالى: ﴿صَّ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝﴾^(٥) . فإن المقسم به من تعظيم القرآن ووضعه

(١) الشبان في أقسام القرآن، ص ٤٤ .

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١ - ٣ .

(٣) سورة التكاثر، الآية: ٥ .

(٤) الشبان، ص ٨٧ .

(٥) سورة ص، الآية: ١ - ٢ .

بأنه ذو الذكر المتضمن لتذكير العباد وما يحتاجون إليه والشرف والقدرة ما يدل على المقسم عليه، وهو كونه حقاً من عند الله تعالى، غير مقترى كما يقول الكافرون^(١) ولهذا قال كثيرون إن تقدير الجواب أن القرآن لحق. وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك كقوله تعالى: ﴿قَبَّ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ۝١﴾ ﴿لَا أَفِيحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝٢﴾ فإنه يتضمن إثبات المعاد.

وقد يستحسن حذف اللام من الجواب، وهذا يكون عند إطالة الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتِ وَخُضَّتْهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝٢ وَالنَّجْمِ إِذَا جَلَّتْهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَلَّهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَعْنَهَا ۝٦ وَفِيهَا وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۝٩﴾^(٢).

فحذفت اللام من «قده» استحساناً.

الوجه الثانية: للمقسم غاية ترجى، وقصد يطلب.

قال ابن القيم رحمه الله: فهو سبحانه يقسم على أصول الإيمان، التي يجب على الخلق معرفتها، تارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان^(٣).

١ - أقسم سبحانه على التوحيد، فقال: ﴿وَالْقَائِلَاتِ صَفَا ۝١ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا ۝٢ وَالسَّمَاوَاتِ وَخُضَّتْهَا ۝٣ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝٤ وَالنَّجْمِ إِذَا جَلَّتْهَا ۝٥ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٦ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَلَّهَا ۝٧ وَالْأَرْضِ وَمَا طَعْنَهَا ۝٨ وَفِيهَا وَمَا سَوَّاهَا ۝٩ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝١٠ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۝١١﴾^(٤).

٢ - أقسم سبحانه على كون القرآن حقاً، فقال: ﴿قَالَ أَفِيحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝١ وَالسَّمَاوَاتِ وَخُضَّتْهَا ۝٢ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝٣ وَالنَّجْمِ إِذَا جَلَّتْهَا ۝٤ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٥ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَلَّهَا ۝٦ وَالْأَرْضِ وَمَا طَعْنَهَا ۝٧ وَفِيهَا وَمَا سَوَّاهَا ۝٨ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٩ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۝١٠﴾^(٥).

(١) التبيان، ص ٨٠.

(٢) سورة ق، الآية: ١.

(٣) سورة القيامة، الآية: ١، وانظر: الإتهان، ج ٢/١٣٥.

(٤) سورة الشمس، الآية: ١ - ٩.

(٥) التبيان، ٣.

(٦) سورة الصافات، الآية: ١ - ٤.

(٧) سورة الواقعة، الآية: ٧٥ - ٧٧.

٣ - أقسم سبحانه على بعثة الرسول محمد ﷺ ونبوته، فقال: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ① إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ② عَلَى سِرِّهِمْ مُسْتَقِيمٌ ③﴾ (١).

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ④ مَا مَسَّكَ مَا بِيَدِهِ ⑤ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ⑥﴾ (٢).

٤ - أقسم سبحانه على وقوع الوعيد والجزاء، فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّجْمِ إِذَا تَوَلَّىٰ ② سَآءَ مَا يَدْعُنَا إِلَىٰ ذِكْرِهَا ③ فَمَا نَلْفِيقُهَا ④ وَكُنَّا عَلَىٰ قُورُونًا نَتَعَدَّىٰ ⑤ نَتَعَدَّىٰ لَوْفَعًا ⑥ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ⑦ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ⑧ مَا مَسَّكَ مَا بِيَدِهِ ⑨ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ⑩﴾ (٣).

وفي قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ① وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ الْوَالِيَةِ ②﴾ (٤) قال صاحب التبيان: فقد تضمن الأقسام ثبوت الجزاء، ومستحق الجزاء، وذلك يتضمن إثبات الرسالة، والقرآن، والمعاد. وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة، ويقررهما أبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلى معرفتها، والإيمان بها. وأمر رسوله أن يقسم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَمَسْتَقِيمًا ① أَحَقُّ ②﴾: أحق هو قل: أي وربي إنه لحق. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَأْتِيَنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَأَتِيَنَّكُمْ ③﴾. وقال تعالى: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتَأْتِيَنَّكُمْ ④﴾. فهذه ثلاثة قواطع لا رابع لها، يأمر نبيه ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة، والقرآن والمعاد، (٥).

٥ - أقسم سبحانه على حال الإنسان، فقال: ﴿وَأَنبِئْ إِذَا يَبَسَتْ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ②﴾

- (١) سورة يس، الآية: ١ - ٤.
- (٢) سورة النجم، الآية: ١ - ٣.
- (٣) سورة المرسلات، الآية: ١ - ٧.
- (٤) سورة الطور، الآية: ١ - ٨.
- (٥) سورة القيامة، الآية: ١ - ٢.
- (٦) التبيان في أقسام القرآن، ١٤.

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٦﴾ إِذْ سَبَقَكُمْ لِتَعْلَمَ ﴿١﴾ ﴿١﴾ ويراد بالسعي في الآية، العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه بحسب الإمكان.

٦ - أقسم سبحانه على صفة الإنسان، فقال: ﴿وَالْعَالِيَيْنِ سَبْعًا ﴿١﴾ فَأَلْمُورِيِّنِ قَدَسًا ﴿٢﴾ فَأَلْمُعِيرِيِّنِ سُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَتْرُونَ بِهِ نَعْمًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴿٢﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالزَّانِبِينَ ﴿١﴾ وَلَطُورِ سَيِّئًا ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾

٣ - أنواع القسم: القسم في القرآن أنواع، هي:

النوع الأول:

قسم ظاهر، وهو ما ذكر فيه المقسم به، سواء ذكر فعل القسم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴿١﴾﴾ أو لم يذكر الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَأْلَفُوهُ لَكَيْدًا أَتَقْنَمُكُمْ ﴿٥﴾﴾

النوع الثاني:

في قوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ تَتْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ ﴿١﴾﴾، فالمقسم به مضمراً أي: والله لتتلون في أموالكم، وهذا إضمار بعد اللام. وأيضاً، يكون القسم مضمراً بالمعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكُرْهُ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، والتقدير: والله إن منكم إلا واردةا.

- (١) سورة الليل، الآية: ١ - ٤.
- (٢) سورة العاديات، الآية: ١ - ٦.
- (٣) سورة التين، الآية: ١ - ٤، وانظر: الإتقان، ج ٢ / ١٣٤ - ١٣٥.
- (٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩. سورة النحل، الآية: ٣٨. سورة النور، الآية: ٥٣. سورة فاطر، الآية: ٤٢.
- (٥) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧.
- (٦) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

وهناك نوع من القسم، أجرى مجراه، وهو على شعبتين:

الشعبة الأولى: هي ما كانت على شاكلة الأخبار، ولا يوجد فيها ذكر لجواب القسم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾^(١) فهذا إخبار عن قسم إلا أنه لا ذكر للجواب، فصح أن يكون قسماً، كما يصح أن يكون حالاً.

الشعبة الثانية: هناك آيات تحتوي الفاظاً، يحكم عليها بالقسم من خلال الجواب فقط: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

وضع أداة القسم: إذا ورد فعل القسم، لا بد أن يتعدى إلى القسم به بالياء، وإذا حذف فعل القسم، أبدلت الياء بالواو في الأسماء الظاهرة، فقال: والعليم، والنجم إذا هوى، وعند ذكر الله وأسمائه تبدل بالياء (تالله)، علماً أنه عند كثرة القسم يحذف الفعل، ويكتفي عنه بالياء (ياالله)^(٣).

موضع (لا) من القسم: وردت «لا» في موضع القسم، في بعض الأقسام، مثال ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٤) ﴿فَلَا أَقِيمُ يَوْمَ التَّجْوِيرِ﴾^(٥)، فما هو دورها من الأقسام الواردة عليها؟

قال أبو عبيدة من المفسرين: إن لا زائدة، والتقدير: أقسم، قال السمرقندي: أجمع المفسرون أن معنى لا أقسم: أقسم، واختلفوا في تفسير لا فقال بعضهم: هي زائدة، وزيادتها جارية مجرى كلام العرب كما في قوله: ما منعك ألا تسجد يعني أن تسجد، ولئلا يعلم أهل الكتاب. ومن هذا قول الشاعر:

تذكرت ليلى فاعترتني صياحة وكاد صميم القلب لا يقطع

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧، وانظر: الإتيان في علوم القرآن، ج ٢/١٣٤.

(٣) انظر: الشبان، ٣.

(٤) سورة القيامة، الآية: ١.

(٥) سورة الواقعة، الآية: ٧٥.

وقال بعضهم: هي رد لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم: أقسم بيوم القيامة، وهذا قول الفراء وكثير من النحويين، كقول القائل لا والله، فلا...

وقيل للنفي، لكن لا لنفي الإقسام، بل لنفي ما ينشأ عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه كأن معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامه به حتى إعظامه. فإنه حقيقي بأكثر من ذلك، وقيل إنها لنفي الإقسام لوقوع الأمر، لكن نفي الإقسام مردود ومدفوع بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ لَوِ تَعْلَمُونَ عَظِيمًا﴾^(١). والرأي الراجح هو الأول (على أنها زائدة) وزيادتها تفيد التأكيد^(٢).



[Faint bleed-through text from the reverse side of the page, mostly illegible.]

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧٦.
(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني، ج ٥/١٥٨ - ٣٣٤.

الفصل الرابع

الأمثال في القرآن

١ - اهتمام العلماء بذكر الأمثال:

من أسلوب القرآن الكريم ذكر الأمثال، وقد باتت تشكل علماً خاصاً شغل بال الكثير من العلماء الذين نذروا أنفسهم لتبيان معارفه وكشف معالمه وتمييز مضامينه.

فقد أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال»^(١). وقال الماوردي^(٢): «من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه لا يشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، والممثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام». وقال الزمخشري: التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني وإدناء المتوهم من الشاهد فإن كان الممثل له عظيماً كان الممثل به مثله وإن كان حقيراً كان الممثل به كذلك».

وقال الأصفهاني^(٣): «الضرب الأمثال واستحضار العلماء النظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق تريك المتخيل في

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٤٥٦/١.

(٢) هو: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي. توفي ٤٥٠ هـ.

(٣) هو: الإمام الراغب الأصفهاني صاحب كتاب (مفردات غريب القرآن).

صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغالب كأنه شاهد.

وقال الزركشي: «ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة» ولما لهذا العلم من أهمية، فقد أوجب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى على المجتهد معرفة الأمثال من القرآن^(١).

دفع القرآن الكريم العقول إلى فهم الأمثال والاهتمام بها:

تعددت الآيات حول الاهتمام بذكر القرآن الكريم، منها: قوله تعالى:

﴿تَتَوَفَّىٰ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ يَأْتِيَنَّهَا وَيُغْنِيهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِلُونَ﴾^(٣)

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا تَنْصَدِرًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤)

٢ - التعريف بالمثل:

ورد تحت مادة (المثل): بالكسر والتحريك الشبه جمع أمثال، والمثل: محرّكة: الحجة والحديث جمع أمثلة. وتمثل بالشيء: ضربه له مثلاً، والمثال: المقدار والقصاص وصفة الشيء جمع أمثلة ومثل. الأمثل: الأفضل الطريقة المثلى: الأشبه بالحق. ومثله له تمثيلاً: صورته له حتى كأنه ينظر إليه^(٥). فالأمثال جمع مثل، والمثل والمثل والمثيل: كالشبه والشيء لفظاً ومعنى^(٦).

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ص ١٣١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٥) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج ٤/ ٤٩.

(٦) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٨٢.

والمثل في الجانب الأدبي: عبارة عن قول محكي سائر يقصد به تشبيه
حال الذي حكى فيه بحال الذي قبل من أجله، مثال (رب رمية من غير رام).

والمثل قد يطلق ويراد به الحال والقصة ذات الشأن العجيب، كما في قوله
تعالى: ﴿مَثَلُ الْمُنْتَفِعِ إِلَىٰ وَعِدِ الْمُنْتَفِعِينَ فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءِ غَيْرِ مَائِهِ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ
حَمْرِ لَدْنِ الشَّرْبِيِّ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ زَيْتِهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ
وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾^(١).

وقد جمع الزمخشري في كشافه المعاني الثلاثة (المثل، الحجة والحديث،
الحال والقصة): (والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير، ثم قيل للقول
الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلاً ولا رأوا أهلاً للتسير ولا جديراً
بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه) (وقد استعير المثل للحال
أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة)^(٢).

وعند علماء المعاني معنى للمثل، وهو المجاز المركب المتأصل من
الإستعارة التمثيلية كمن يقول: (مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى).

والمجاز المركب: هو اللفظ المفرد المستعمل في غير ما وضع له بعلاقة
مع قرينة مانعة من إرادته الطلب. فإن كانت علاقته المشابهة بين الطرفين سمي
استعارة تمثيلية لأنه استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه.

وقد كانت استعارة تمثيلية نسبة للتمثيل وهو التشبيه مطلقاً، والمراد هنا ما
كان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من عدة أمور، فإن الاستعارة المركبة التمثيلية
يجب أن يكون وجه الشبه فيها هيئة منتزعة من متعدد^(٣).

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.

(٢) الزمخشري، الكشاف، وانظر: البرهان، ج ١/ ٤٩٠.

(٣) الدردير: تحفة الاخوان في علم البيان، ص ٢٠.

٣ - معنى المثل في القرآن الكريم:

المثل في القرآن الكريم له ميزة خاصة تفوق محتويات علم اللغة والأدب والمعاني لتحديد المثل وحصره، ولذا فإن للمثل معنى في القرآن فوق محاسن المثل في كل من العلوم الآتفة الذكر.

وقد تعرض العلامة ابن القيم، رحمه الله للذكر الأمثال في القرآن وحكمتها فيضع لها تقسيماً بعد تعريفه بالأمثال، بقوله: (ومن هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون، فإنها تشبه شيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر)^(١).

والمثل في القرآن ورد على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول:

أمثال، التشبيه فيها صريح. ويمثل لهذا النوع بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٢) ثُمَّ بِكُمْ عُنُقِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ^(٣) أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُودٌ يَجْعَلُونَ أَسْجِدًا لِّمَنَازِلِهِمْ وَأَذَانًا مِّنَ السَّمَاءِ يَهِيمُ حَتَّىٰ تَمُوتَ وَأَنَّهُ يُحِيطُ بِالسَّكِرَاتِ^(٤) يَكَادُ الْهَرَقُ يَخْفُفُ أُنْزُرُهُمْ كَمَا أُنْزِرُ لَهُمْ مَسَاقِيهَ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ سَاءَ لَدُنَّ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ لَئِن لَّا عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ لِّقَدِيرٍ^(٥) ﴿١٢﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمنافقين حسب أحوالهم، وأحوالهم تقتضي التشبه في التمثيل، ولذا ففي هذه الآيات مثلاً، مثل ناري، ومثل مائي، في النار: مادة النور، وفيه الإضاءة والإشراق.

في الماء: مادة الحياة. وجعل الله تعالى الوحي المنزّل من السماء متضمناً للحياة والنور، فمن قبله فهو حي في النور يعيش، ومن رفضه فهو ميت في

(١) أعلام الموقعين، ١/١٥٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧ - ٢٠.

الظلمات. وشبه الله تعالى حال المنافقين من الوحي بعد معرفته بمن استوقد ناراً
لنضيء له ويتنفع بها. ولكن لم يكن لانطفاعهم أي أثر من نور في قلوبهم،
أطفئ عنهم النور وذهب الله بنورهم، وأبقاهم في إحراق النار حالهم كحال من
أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر.

ثم يشبههم الله تعالى بمن حظوا بصيب^(١) من المطر الحاوي على ظلمات
ورعد وبرق ومالهم من ضعف البصيرة وضيق العقل قد اشتدت عليهم الزواجر
من وعيد وتهديد وأوامر ونواهي.

حال هؤلاء كمن أصابه مطر فيه رعد وبرق وظلمة، وما فيهم من ضعف
وخوار جعلوا أصابعهم في آذانهم وغمضوا أعينهم خشية الصواعق، ونهاية هؤلاء
وأمثالهم أنهم لا يد هلكت وفي سقوط مميت. فمن ثقلت عليه الأوامر والنواهي
أبى أن يسمع ويستجيب لما هو عليه من الضلال والبهتان^(٢).

والمثلان هنا فيهما علاقة التشبيه التصريحية، وهذا ظاهر: مثلهم كمثل
الذي استوقد ناراً. أو كصيب فيه ظلمات ورعد وبرق. قأداة التشبيه مصرح بها:
مثل، ك.

الوجه الثاني:

أمثال، التشبيه فيها ضمن (استعارة تمثيلية). ومثاله قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ
مَأْمُورًا أَجْتَبِئُوا كَثِيرًا مِّنَ الظُّلَمِ إِنَّكَ بِعَضِّ الظُّلَمِ إِنَّهُ وَلَا يَحْسَبُونَ وَلَا يَتَّقُونَ بَعْضًا لِّبَعْضٍ
أَعْدُوهُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣﴾

ويقول ابن القيم: هذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنه شبه تمزيق عرض

(١) الصيب هو المطر وهو مثل للمنافق في ضوره بتكلم بما منعه من كتاب الله مراعاة للناس
فإذا خلا وحده عمل بغيره فهو في ظلمة ما أقام على ذلك. الشوكاني: فتح القدير،
ج ١/ ٤٩.

(٢) أعلام الموقعين، ج ١/ ١٦٨.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

الأخ يتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يتمزق عرض أخيه في غيبته كان بمثابة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، ولما كان المغتاب عاجزاً عن دفعه عن نفسه بكونه غالباً عن ذمه كان بمثابة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الدم والعيب والظعن كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيائه والذب عنه، ولما كان المغتاب متمتعاً بعرض أخيه متفكهاً بغيته وذمه متحلياً بذلك شبه يأكل لحم أخيه بعد تقطيعه، ولما كان المغتاب محباً لذلك معجباً به شبه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتاً، ومحبه لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتشثيل وحسن موقعه ومطابقتها المعقول فيه المحسوس^(١). فقد خلا هذا التمثيل من أدوات التشبيه، واكتفى بالاستعارة التي هي تشبيه ضمني.

الوجه الثالث:

أمثال خلت من التشبيه بنوعيه (تصريح، ضمني) ويمثل لهذا الوجه بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّارُ حُرُبٍ مَثَلٍ فَاسْتَجَمَعُوا لِلَّهِ الْكِبْرَ بَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ أَحْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَاسْتَنْقَدُوهُ وَمَنْ ضَعُفَ الْقَلْبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٢٣﴾ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرٍ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٤﴾﴾^(٢)

فهو تمثيل لكنه لا تشبيه فيه تصريح ولا ضمني.

ولذا بالإمكان، القول، إن الأمثال في القرآن الكريم لا تخضع لقاعدة الأمثال في كل من علم اللغة وعلم البيان، حيث اشترط التركيب والتشبيه صريحاً كان أم ضمناً وإنما هي كما قد تكون ذات مورد فقد تكون مبتدأة لا مورد^(٣) لها، ولذا كان أحسن ما قيل في تعريف الأمثال في القرآن إبراز المعنى

(١) أعلام الموقعين، ج ١/ ١٧٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٣) المورد: الغاية.

في صورة رائعة موجزة، لها وقعها في النفس، سواء كان تشبيهاً أو قولاً
مرسلاً^(١).

٤ - أقسام الأمثال في القرآن:

الأمثال في القرآن ثلاثة أقسام هي:

أولاً - الأمثال التشبيهية، هي نوعان:

أ - النوع الأول: أمثال تصريحية، وهي ما ذكرت فيها أداة التمثيل والتشبي
(مثل، ك) وتضرب لها بأمثلة:

١ - قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَرْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا فَأَخْتَلَجَتِ السِّبْلَ زَيْبًا رَابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَيْدٌ مِثْلُكُمْ. كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ بَدَاهُ
جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٢١﴾^(٢)

أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال: هذا مثل ضربه الله
أحتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها فأما الزبد فيذهب جفاء وهو الشك
وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض وهو اليقين كما يجعل الحلى في النار
فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك^(٣).

٢ - قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ
قَدِيزُوا عَلَيْهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾^(٤). فقد شبه سبحانه زينة الدنيا في عين الناظر فيسر
بزيبتها وزخرفها فيحيل إليها ويهوها غروراً ظاناً أنه قد ملكها، فما هي إلا خفرة

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن لمناج فطاح، ص ٢٨٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٣) انظر: الإنفاق في علوم القرآن، ج ٢/١٣٣.

(٤) سورة يونس، الآية: ٢٤.

وجيزة إلا وقد سلب ما هو فيه، كما هي حال الأرض، تزين بنباتها وأعشابها مما يروق لها الناظر، فما هي إلا والآفة قد حالت بينها وما قد راق لها.

٣ - قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾^(١)

يقول ابن القيم رحمه الله: ففاس من حملة سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبير ولا تفهم ولا إتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه، كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حماله على ظهره ليس إلا: فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه ولم يرعه حتى رعاه^(٢).

ب - النوع الثاني: أمثال وقع فيها التشبيه على صورة الاستعارة^(٣).

ثانياً - الأمثال الكامنة:

وهي أمثال دالة على معان لها روعة بإيجاز حال كونها خالية من عناصر التشبيه نصريحاً أو ضمناً. وهذا النوع من الأمثال يكون على طريقة التخريج. فقد مثل الحسن بن الفضل، فقيل له: أنت تخرج أمثال العرب والمعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله خير الأمور أو ساطها قال: نعم في أربعة مواضع، قوله تعالى: ﴿لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرَهُوا وَإِنِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَأَلَيْكَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ سَغُولًا إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥٠.

(٢) انظر: أعلام الموقعين، ج ١/ ١٦٥.

(٣) انظر: الوجه من معنى المثل في القرآن الكريم.

وانظر: الإتقان، ج ٢/ ١٢٢.

بصلاتك ولا تخافت بها وابتنع بين ذلك سيلاً ﴿١﴾

ومن هذا القبيل: ١ - من جهل شيئاً عاداه.

يخرج عليه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ﴾ ﴿٢﴾

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّبِقُولُونَ هَذَا إِنَّكَ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣﴾

٢ - احذر شر من أحسنت إليه.

يخرج عليه: ﴿وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أُغْنِيَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿٤﴾

٣ - ليس الخبر كالعيان.

يخرج عليه: ﴿أَوَلَمْ تَوَدَّ أَنْ يُقَالَنَّ لَكَ وَلَكِنَّ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ﴿٥﴾

٤ - كما تدبّر تدان.

يخرج عليه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿٦﴾

٥ - لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

يخرج عليه: ﴿هَلْ أَمْتَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْتَكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿٧﴾

٦ - لا تلد الحية إلا حية.

يخرج عليه: ﴿وَلَا يُلْدُوا إِلَّا إِعْرَافًا كَفَّارًا﴾ ﴿٨﴾

٧ - الجاهل مرزوق والعالم محروم.

يخرج عليه: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ ﴿٩﴾

(١) انظر: الإتيان، ج ٢/ ١٣٢. وانظر البرهان، ج ١/ ٤٨٧ أركان وهو الذي لا ذكر

للمثل فيه وحكمه حكم الأمثال.

(٢) سورة بونس، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٧) سورة يوسف، الآية: ٦٤.

(٨) سورة نوح، الآية: ٢٧.

(٩) سورة مريم، الآية: ٧٥.

هذه النصوص وما شاكلها خلت من عناصر التمثيل والتشبيه، وإنما عند نقلها إلى ما يشبهها من مضارب الأمثال يتبين لنا أنها أمثال كاملة ولا تكون إلا بطريقة التخريج، كما سبق ذكره. وعلى سبيل التوضيح: تأتي بمثل مضروب، مثال: الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام لا يأتيك إلا جزافاً. فإذا وجدنا آية هي في معنى هذا المثل فتخرج عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ كَانَتْهُمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَكَّتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾^(١).

ثالثاً - الأمثال المرسلة:

هي أقوال أرسلت، فجرت مجرى المثل دون أن يكون لها أية علاقة بالتشبيه مضرباً ومورداً، وضربوا لهذا النوع من الأمثال نصوصاً عديدة، منها^(٢):

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَافِدَةٌ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقِّ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا نَدَّمتْ أَيديكُمْ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ تُشَقَّرُ﴾^(٧)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِئُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٨)

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْحَيِّثُ وَالطَّيِّبُ﴾^(٩)

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣. المضروب، ما أريد من الكلام عند التشبيه. والمورود، ما

ورد فيه الكلام من الحالة الأصلية.

(٢) انظر: الإتيان في علوم القرآن، ج ٢/ ١٣٣.

(٣) سورة النجم، الآية: ٥٨.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٥١.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٥١.

(٦) سورة يوسف، الآية: ٤١.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٦٧.

(٨) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٩) سورة العائدة، الآية: ١٠٠.

قوله تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾^(١)
 قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾^(٢)

٥ - فوائد ذكر وضرب الأمثال في القرآن:

لذكر الأمثال في القرآن الكريم تأثير كبير في النفوس، فهي تذكرة وعبرة،
 ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ﴾^(٣) ﴿ وَتِلْكَ
 الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٤) فهي قوة دفع على التذكر والتدبر
 والتفكير، مع أنها في فهمها محصورة في فئة معينة من الناس ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ
 نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾^(٥) إنها بحاجة - فضلاً عن قلوب نيرة -
 إلى عقول لديها قدرة التمييز وتحري الحقائق ووضعها في محيط بعيد عن
 الأباطيل المضللة.

فلضرب الأمثال فوائد جمة وغايات نبيلة ومقاصد قيمة حسنة، منها:

أولاً: إبراز المعاني المعقولة في صورة محسوسة، بحيث تقرب المفهوم
 بوضع الصورة الحسية أمام القدرة الذهنية، وكأنها شيء يرى بالعين ويلمس
 بالجوارح، كما في تمثيل المنطق لغير وجه الله تعالى مراعاة أمام الناس، فحاله
 كمن هو واضع تراباً على حجر أملس معرض للأمطار فالنتيجة ذهاب التراب
 بالواهل، وأيضاً من أنفق مراعاة، قال سبحانه: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطِلُوا صِدْقَتِكُمْ
 بِالْمَعْنِ وَالْأَدَى كَأَلْدَى يُنْفِقُ مَالَهُ رِقْدًا فَالتَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ
 عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٦)

- (١) سورة الحشر، الآية: ١٤.
- (٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.
- (٣) سورة الزمر، الآية: ٢٧.
- (٤) سورة الحشر، الآية: ٢١.
- (٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.
- (٦) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

ثانياً: يضرب المثل ويراد به الترغيب في فعل الخير، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذِرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي تَلْحِي سُبُلَهَا وَإِنَّ حَبَّةَ وَاللَّهِ يُضَاعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦١﴾﴾^(١) ولا شك أن هذا الأجر من الحسنة إلى السبعمة إلى الأضعاف المضاعفة، كافٍ في دفع الإنسان إلى الانكباب على فعل الخيرات.

ثالثاً: يضرب المثل ويراد به الرمي بضعف العقل ووهن الإرادة، وذلك كما اعتصم بغير الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعَنْهَا وَيَتَّوَكَّلُونَ الْآبَتِ الْمَكْتُوبَةَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾﴾^(٢)

رابعاً: يضرب المثل ويراد به الرمي بالجهل، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوَابَ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَتَّخِذُ أَنْثَارًا﴾^(٣) وذلك فيمن يحمل علماً ولا يعرف مضمونه أو لا يعمل به.

خامساً: يضرب المثل ويراد به الحث نحو التفكير والتدبير، قال تعالى: ﴿وَمَنْ رَبِّ لَنَا مَثَلًا وَسَيِّءَ خَلْقًا قَالَ مَنْ يُعْبَى الْعَظِيمُ وَهِيَ رَيْسٌ ﴿١٥٠﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿١٥١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتُمْ مِنْهُ نُورٌ قَدُونَ ﴿١٥٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَشْفَعُ عَنْكُمْ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَنِينَ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿١٥٣﴾﴾^(٤) وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥١﴾﴾^(٥)

سادساً: يضرب المثل ويراد به المدح، كما وصف هذه الأمة، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٤) سورة يس، الآية: ٧٨ - ٨١.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الْجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيمٍ أَخْرَجَ مَثَلَهُمْ فَتَأْتِرُهُمْ فَاسْتَقَلُّوا فَأَسْتَخَيُّوا عَلَىٰ سُوقِهِمْ يُعْجِبُ الرِّزْقَ لِيُعْطِيَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾

سابعاً: يضرب المثل ويراد به إبراز الصفة المرعية في الموصوف، كما في وصف نساء الجنة، قال تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿١١﴾ كَأَمْثَلِ الذُّرَى الْمَكُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ (١١).

ثامناً: يضرب المثل ويراد به التحذير من المخالفة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُبَدِّلَ قَوْمًا صَيْرَ كُمْ لَعَلَّكُمْ لَا تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ﴾ (١٣).

ما ذكر، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، إذ لكل جانب من جوانب الحياة والفكر والنفوس مضرب أمثال، وصدق الله تعالى: ﴿ وَقَدْ سَرَقْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا ﴾ (١٤) ﴿ وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَاتٍ لِيَتَّقُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (١٥) ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٦).

٦ - حكم ضرب الأمثال بالقرآن:

كره العلماء تلاوة القرآن عند عرض من الحياة الدنيا، والأكثر كراهة ما يقال عند المزاج، كمن يقول لمن يأتيه على غير موعد (جئت على قدر يا موسى) أو كمن يقول للمريد الدخول البيت (إخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى) ... وهكذا، فلا يناظر القرآن إلا القرآن، وليس للمقرآن شبيه بالقول أو الفعل.

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٢٢ - ٢٣.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٩.

(٥) سورة الروم، الآية: ٥٨.

(٦) سورة الحشر، الآية: ٢١.

كما أنه يحظر التعدي والتخطي والتجاوز لمقاهيم الإعجاز القرآني، ومن هذا المستنكر، ما جرى بين أبي العباس بن سريح الشافعي ومحمد بن داود الظاهري عند ازدحام المناظرة حول الأخذ بالقياس، كأصل من أصول الشرع الإسلامي، فقال أبو العباس لابن داود: أنت تقول بالظاهر وتنكر القياس، فما تقول في قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فمن يعمل مثقال نصف ذرة ما حكمه؟ فسكت محمد طويلاً، وقال: أبلغني ربي، فقال له أبو العباس: أبلغتك دجلة، قال: أنظرنني ساعة، قال: أنظرتك إلى قيام الساعة، واقتربا ولم يكن بينهما غير ذلك. فقالوا فيه - أبو العباس -: وهذا من مغالطات أبي العباس بن سريح، وعدم تصور ابن داود، لأن الذرة ليس لها أبعاض فتمثل النصف والربع، وغير ذلك من الأجزاء، ولهذا قال سبحانه: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ فلذكر سبحانه ما لا يتخيل في الوهم أجزاءه، ولا يدرك تفرقه^(١).

وأما استعمال بعض آيات القرآن في الرسائل والخطب والشعر فقد أجاز البعض ذلك لمن هو متمكن من اللغة العربية، وهذا ما أشار إليه سلطان العلماء العز بن عبد السلام في قوله ﷺ: (وجهت وجهي) والتلاوة (إني وجهت وجهي) وما ورد في الرسائل إلى الملوك، كما في الرسائل الموجهة إلى هرقل زعيم الروم (سلام على من اتبع الهدى) والتلاوة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ وذكر القاضي الباقلاني: إن تضمين القرآن في الشعر مكروه، وجوز ذلك أئمة البيان، وجعلوه من أنواع البديع، وسماه القدماء تضميناً، والمتأخرون اقتباساً^(٢).

٧ - ذكر الأمثال في السنة الشريفة:

السنة هي الوحي المنطوق بألفاظ وأقوال الرسول ﷺ، ولم تخل السنة من

(١) انظر البرهان، ج ١، ص ٤٨٤.

(٢) البرهان، ج ١، ص ٤٨٢ - بتصرف واختصار.

ذكر وضرب للأمثال، التي حظيت بدورها في تبليغ الرسالة وتوضيح الشريعة عن طريق إبراز الصور المعنوية بالصور الحسية فأصاب بذلك أهدافاً وفوائد، منها:

١ - يضرب المثل النبوي، ويراد به إظهار قيمة الفهم والإدراك والاستيعاب للدعوة، عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا» وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

٢ - يضرب المثل النبوي، ويراد به وضع صورة الدعوة المحمدية بالصورة الحسية، وهذه لها تأثير في النفوس وإبراز المعقول بصورة المحسوس، فعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلني ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تغفلون من يدي»^(٢).

٣ - عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٣) فبِهِ الحَضُّ على التعاون بين المسلمين.

٤ - يضرب المثل، ويراد به الحَضُّ على اختيار المجلس الصالح والابتعاد عن جلس سوء، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: فضل من علم وعمل (الحديث: ٧٩) وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم (الحديث: ١٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (الحديث: ٢٧).

(٣) متفق عليه، البخاري (حديث: ٦٠١١)، ومسلم (حديث: ٦٦).

«إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك وناقح الكبر فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، وناقح الكبر، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً متنتة»^(١).

٥ - يضرب المثل ويراد به الترغيب والحض على الصلاة وتبيان فعاليتها في صحيفة المسلم، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار مر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات»^(٢).

وأن أفردنا المثل النبوي عقب الأمثال في القرآن، فإننا لا نعني مساواته التركيبية النظامية للأمثال في القرآن الكريم الذي له فعالية الإعجاز، وهل هو إلا كلام رب العالمين؟



- (١) متفق عليه. البخاري (حديث: ٢١٠١)، ومسلم (حديث: ١٤٦).
- (٢) رواه مسلم في كتاب: المساجد، باب: المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا (الحديث: ٢٨٤). وانظر: عز الدين بليق: منهاج الصالحين ص ٨٦٦، فقد عقد عنواناً خاصاً حول أمثال الرسول ﷺ.

الفصل الخامس

الجدل في القرآن

١ - معنى الجدل لغة :

ورد في القاموس: جدله، يجد له، ويجد له أحكم قتله. والجديل الزمام المجدول من آدم، أو شعر في عنق البعير والوشاح. والجدل محرّكة: اللدد في الخصومة والقدرة عليه^(١).

واللدد، ولذّه خصمه: أي قدر عليه في الخصومة المتبادلة. وبهذا يكون معنى الجدل: المجادلة والمفاوضة المبينة على أحكام الدليل قصد إرضاخ الخصم وإلزامه.

والجدل مما قد فطر عليه الإنسان، فهو من تركيبته الذاتية التي خلق عليها، وقد اتخذ سلاح منازعة للدفاع عن الرأي والمبدأ. ولما للجدال من امتزاج بالكامن الذاتي، فقد أخبرنا المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئٍ جَدَلًا﴾^(٢).

وقد تردد في كتاب الله (القرآن) حول الجدل والجدال، بصيغ مختلفة متعددة، قد قاربت ثلاثين موضعاً منها: النساء، هود، غافر، الحج، العنكبوت، الأعراف، الأنعام، الرعد، الشورى، النحل، الكهف، الزخرف، البقرة، الأنفال.

(١) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج ٣/٣٥٧.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

وللجدل أهمية كبرى، كمضمون من مضامين القرآن، حتى كانت هناك سورة خصت باسم (المجادلة) ذات الرقم (٥٨)^(١) من كتاب الله الكريم.

٢ - طريقة الجدل والمناظرة في القرآن الكريم:

للقرآن الكريم، في مناظرة الخصم ودفعه للالتزام بالحجة والبرهان، طريقة خاصة مميزة عن طرق المتكلمين والمتطيقين، وليست طريقة القرآن في مناظرته وجداله بتلك التي تخضع لنظام الاستدلال بما اصطلح غيره، كالاستدلال بالقياس الاستقرائي^(٢) والقياس التمثيلي^(٣)، بل له طريقة منفردة تلزم الخصم اعتراقاً، وخضوعاً، ويستوي فيها من له أدنى معرفة مع المتبحر المتخلف.

ولا يعني بهذا، أن البراهين في القرآن قاصرة عن الشمول والاستيعاب كما يزعم البعض. فقد ورد عن ابن أبي الاصبغ في رده على الجاحظ الزاعم أن القرآن لا يوجد فيه المذهب الكلامي^(٤)، فقال: «زعم الجاحظ أن المذهب

- (١) ومطلع هذه السورة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي دِينِهَا...﴾
- (٢) القياس الاستقرائي: هو استدلال بجزئي على كلي، كما إذا تتبع الكيميائي بعض الغازات فوجد أن حجمها ينقص بزيادة الضغط عليها، ويزيد بقلتها فحكم على ما يتبعه منها وما لم يتبعه بأنه كلما زاد الضغط على الغازات قل حجمها، وكلما نقص الضغط عليها زاد حجمها.
- (٣) القياس التمثيلي: هو تشبيه جزئي بجزئي في معنى مشترك بينهما لينتج في المشبه الحكم الثابت في المشبه به الممثل بذلك المعنى. ومثاله: النيل كالخمر في الإسكار إذن هو حرام.
- ويؤخذ على الاستدلال بكل من القياسين: إن نتيجة القياس الاستقرائي ظنية وذلك لاحتمال وجود غازات لا ينطبق عليها هذا الحكم، وفي القياس التمثيلي أيضاً لا يقيد سوى الظن؛ لأنه لا يلزم من تشابه أمرين في معنى، تشابههما في كل شيء. انظر: المنطق الوافي لحسن حسن حنبلي، ص ٧٠.
- (٤) علم الكلام: هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة. انظر: مقدمة ابن خلدون، ٤٥٨.

الكلامي لا يوجد منه شيء في القرآن، وهو مشحون به، وتعريفه المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له على طريقة أرباب الكلام^(١) إنه احتجاج.

أورد السيوطي رحمه الله: قال العلماء قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة. ما من برهان ودلالة وتقسيم وتحليل تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به لكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قاله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾.

ثانيهما: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم الأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً، فأخرج تعالى مخاطبانه في محاجة خلقه في أجل صورة ليفهم العامة من جليها ما يقتنعهم وتلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أبنائها ما يرسى على ما أدركه فهم الخطباء^(٢).

واعلم أن القرآن الكريم، وإن كان لا يخضع لنظام الأقيسة، فلا يعني أنه لا يوجد فيه، بل هو أعم منه وأشمل، فمما تعرض له من أسلوب محاجة المتكلمين، مثلاً، في دلالة التمانع:

قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا مَا لَمْ يَلِدْ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٣)، فقد استدلل بهذه الآية الكريمة على أن الصانع واحد أحد، وذلك بدلالة قاعدة دلالة التمانع: لو كان للعالم صانعان لم يكن التدبير على نظام، إذ لو أراد أحدهما إحياء وأراد الآخر إماتة، فإما أن تنفذ إرادتهما أو لا.

فإن نفذت إرادتهما، كان هناك تناقض لاستحالة تجزئة الفعل وذلك على افتراض الاتفاق بينهما. وعلى افتراض الاختلاف، لا تنفذ إرادتهما وذلك لامتناع

(١) انظر: الإنقاذ في علوم القرآن، ج ٢/ ١٣٥.

(٢) الإنقاذ، ج ٢/ ١٣٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

اجتماع الضدين، وهذا مآله العجز.

وإن لم تنفذ إرادة أحدهما، فهذا أيضاً عجز فيه، مع العلم القاطع أن الإله لا يكون عاجزاً. فيتوصل بدلالة التمانع، الظاهرة من الآية الكريمة: إن الإله الصانع هو واحد أحد^(١).

ومما عذ من جدل النوع المنطقي عند البعض من العلماء الاستدلال على المعاد الجسماني بضروب:

أ - قياس الإعادة على الابتداء كما قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾^(٢) ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ ﴾^(٣) ﴿ أَمَعِينَا بِالْمَلَأِ الْأَوَّلِ ﴾^(٤).

ب - قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريقة الأولى، قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾^(٥).

ج - قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ مَآئِنِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(٦).

د - قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَصَدْرَ آدَمَ مَثَلًا وَلَيْسَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾^(٧) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(٨) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنشَأْتَهُ تَشْوَدُونَ^(٩).

(١) الإنفان، ج ٢/ ١٣٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة ق، الآية: ١٥.

(٥) سورة يس، الآية: ٨١.

(٦) سورة الروم، الآية: ٢٤.

(٧) سورة يس، الآية: ٧٨ - ٨٠. علم المنطق: هو قوانين يعرف بها الصحيح من القاسد في الحدود المعرّفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات. النظر: مقدمة ابن خلدون/

وقد روى المحاكم وغيره أن أبي بن خلف جاء بعظم ففتته فقال: أياحي الله هذا بعدما بلى ورم فأنزل الله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا إِلَهِتُ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(١). فاستدل سبحانه وتعالى برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث. ثم زاد في الحجاج بقوله: الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً. وهذا في غاية البيان في رد الشيء إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراس عليهما.

هـ - في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلْ وَتَنَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَرَبِّكَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ لِيَسْئَلَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَيَلْعَلَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿١٦﴾﴾^(٢).

وتقريرها: أن اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والحق في نفسه واحد، فلما ثبت أن هاهنا حقيقة موجودة لا محالة وكان لا سبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف، إذ كان مركزاً في فطرنا وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبله ونقلها إلى صورة غيرها صح ضرورة أن لنا حياة أخرى، غير هذه الحياة فيها يرتفع الخلاف والعناد وهذه هي الحالة التي وعد الله بالمصير إليها، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غَلٍ﴾^(٣)، فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث الذي ينكروه المنكرون كذا قرره ابن السيد^(٤).

٣ - رأي في المذهب الكلامي والمنطقي:

لما كان الالتجاء إلى الدقائق الخفية لا يخلو من الغار وغموض مقصور فهمه على الخواص، فحسب دون بقية الناس، مع أن الإتيان بالحلي من الكلام

- ٤٨٩ -

(١) الدر المشور، ٢٦٩/٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٨ - ٣٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٤) الإتيان في علوم القرآن، ج ٣/١٣٦.

والمحااجة الذي يفهمه العامة والخاصة هو من سمو المخاطبة والمناظرة، إذ الإتيان بالمحااجة والمناظرة على طريقة الكلاميين والمنطقيين هو من اتباع لقياس الشمول والتعميل والاستقراء، والقضايا المركبة من مقدمات، وهذا كله لا يخلو من العيوب من كل جانب. وقد كان لابن تيمية رحمه الله، رأي خاص، حول هذا الموضوع، فقد ذكر في كتابه «الرد على المنطقيين»^(١)

وما يذكره النظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى، لا يدل على شيء منها على عينه، وإنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، فإذا قلنا هذا محدث، وكل محدث فلا يدل له من محدث أو ممكن، والممكن لا يدل له من واجب، وإنما يدل هذا على محدث مطلق، أو واجب مطلق.

لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، - وقال: «غيرهاتهم لا يدل على شيء معين بخصوصه، لا واجب الوجود ولا غيره، وإنما يدل على أمر كلي والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله». وقال: وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْمُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بُعْدَ مَوْتِهَا وَنَسَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتٍ وَتَمْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْحَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تِلْكَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وغير ذلك، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِقَوْمٍ قَانِعِينَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِقَوْمٍ قَانِعِينَ لِقَوْمٍ قَانِعِينَ لِقَوْمٍ قَانِعِينَ لِقَوْمٍ قَانِعِينَ﴾^(٢) «فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره، فإن كل ما سواه مفتقر إليه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

نفسه، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه^(١).

٤ - أنواع المناظرة والمحاجة الجدلية:

بالإمكان، القول إن للمناظرة والمحاجة الجدلية وجهتين اثنتين، هما:

الوجهة الأولى: ما ذكر من الآيات الكونية ذات العلاقة الماسة بأصول الدين كالوحدانية والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر. وذلك عن طريق التدبير والتفكير، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالتَّخْلِيفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا تُشْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٠٢﴾﴾^(٢).

﴿الَّذِينَ إِذْ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَجْنَا بِهِ، فَخَرَجْنَا بِهِ، فَمَرَجَتْ مَجْرَلًا أَلْوَنًا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنًا وَعُظُقْمٌ ﴿١٣﴾ سُوْرَةُ ﴿١٤﴾ وَمِنَ النَّارِ وَالذَّوَابِّ وَالتَّخْلِيفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿١٥﴾﴾^(٣).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آمِنًا وَأَرْبَابًا أَلَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾^(٤).

وهكذا الآيات الكونية الدافعة لما في أمرها من تقرب وخضوع للمولى سبحانه.

الوجهة الثانية: هي أنواع من المناظرة التي تحتاج الخصم والمعاند وتلزمه الفهم والاعتراف. منها:

(١) النظر: الرد على المتطيقين، نقلًا من صياح في علوم القرآن لمناع قطان/ ٣٠٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠ - ١٩١.

(٣) يذكر معناها فيما بعد.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٧ - ٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١ - ٢٢.

أ - قرع سمع المخاطب بما سلمت به العقول عن طريق الاستفهام؛ كالاستدلال على المخلوق بالمخلق عقب دعوى المشركين حول نبوة محمد ﷺ في سورة الطور، وذلك بإنكارهم لأهوائهم، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَأَمْ هُمْ الْخَلْقُونَ﴾ (١) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٢﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمْ الْمُسْتَظْهِرُونَ ﴿٣﴾ أَمْ لَمْ يَسْمَعُوا بِيَوْمِ اللَّيْلِ إِذْ يُسْتَعْتَمِبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَهَلْ كَانَ لَكُمْ إِلَهُاتٌ غَيْرُ اللَّهِ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤﴾ أَمْ يَرِيدُونَ أَنْ يُنَادُوا لِلَّهِ الْأَعْلَى كَمَا يُنَادُوا لِلَّهِ الْأَسْفَلَى فَسُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥﴾

ب - الاستدلال على المعاد الجسماني بضروب، منها:

١ - قياس الإعادة على الابتداء، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢) ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ (٣) ﴿أَفَمِنَّا بِالْأَوَّلِ﴾ (٤)

٢ - قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٥) وقياس الإعادة على النشأة الأولى، جمعاً بينهما بعبارة الحدوث، قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٦)

ج - السير والتقسيم: قال تعالى: ﴿فَتَنبِيئَةَ أَرْوَاحٍ يُرَى السَّكَّانُ أَتَتْهُمُ وَمِمَّا تَصْعَقُ النَّاسُ عَلَى مَا لَدَعُّوا مِنْ حَرَمٍ أَمِ الْأَنْبِيَاءِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيَّوِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ وَاللَّكَّاتِينِ حَرَمٌ أَمِ الْأَنْبِيَاءِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّلَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَعْلَمُ بِمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُنْفِلَ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

(١) سورة الطور، الآية: ٣٥ - ٤٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة ق، الآية: ١٥.

(٥) سورة يس، الآية: ٨١.

(٦) سورة يس، الآية: ٧٨.

أَقْلَبِيكَ ﴿١١﴾

قال السيوطي رحمه الله: فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإنائها أخرى رد تعالى ذلك عليهم بطريق السبر^(١) والتقسيم فقال: «إن الخلق لله تعالى خلق من كل زوج مما ذكر، ذكراً وأنثى، قسم جاء تحريم ما ذكرتم؟ أي ما علمته؟»

لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة، أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدري له علة، وهو التعبدية، بأن أخذ ذلك عن الله تعالى، والأخذ عن الله تعالى إما بوحى وإرسال رسول، أو سماع كلامه، ومشاهدة نلقى ذلك عنه وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّلَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها: والأول: يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً.

والثاني: يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً.

والثالث: يلزم عليه تحريم الصنفين معاً.

فيطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة، لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل، ولم يدعوه وبواسطة رسول كذلك، لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى: وهو أن ما قالوه، افتراء على الله وضلال^(٢).

د - القول بالموجب: وهو رد كلام الخصم من فحوى كلامه وهو قسمان:

القسم الأول: أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فثبتها لغير ذلك الشيء، ومثاله، قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَالرُّسُولُ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَلِيُكَفِّرَ التَّافِثِينَ لَا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) السبر: في اللغة الاختبار، وفي الاصطلاح: اختيار الوصف على يصلح للعلة أم لا.

والنقسم هو: أن العلة إما كذا وإما كذا.

(٣) انظر: الإتيان، ج ٢/ ١٣٧.

يَقُولُونَ ﴿١١﴾ فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم. والأذل وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريق المؤمنين. وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة المنورة. فأثبت الله تعالى في الرد عليهم الصفة المدعاة على المؤمنين (وهي الأذل) وأثبت الصفة المدعاة لهم (الأعز) للمؤمنين.

فكانه قيل: صحيح ذلك، ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن الأعز المخرج الله ورسوله والمؤمنون، والأذل المخرج هم المنافقون.

القسم الثاني. حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله

بذكر متعلقه، ومثاله، قوله تعالى: ﴿ وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذنٌ قُلْ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ومعنى ذلك، ونوجيئه: أن المنافقين، كانوا يقولون على وجه الطعن والذم للرسول ﷺ: هو أذن: أي يسمع مقال كل أحد، فإذا أذوا النبي ﷺ، أتوا إليه معذرين، فيقبل منهم، اعتقاداً منهم، بأنه ﷺ قد صدقهم فيما اعتلروا، فيطعنون فيه عليه الصلاة والسلام، بأنه ليس إلا أذن سامعة (جارحة) دون تفریق بين صحيح وباطل. لكن الله يرد عليهم، بأنه عليه السلام أذن خير ورحمة لهم حيث لم يكشف أسرارهم وفضائلهم فكانه قال: هو أذن كما قلتم، لكنه أذن خير لكم، لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه، إلا أنه فسره بما هو مدح له وإناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بقطعه عليه السلام. ﴿١٣﴾

هـ - التسليم: وهو أن يفرض المحال إما متقياً أو مشروطاً بحرف الامتناع ليكون المذكور منتج الوقوع لامتناع وقوع شرطه ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدياً. ومثاله قوله تعالى: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيِّكَ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ الْوَالِدِ لَدَعِبَ كُلِّ الْوَالِدِ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْثَهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَخَّرْنَا اللَّهُ حَمَاقًا يَصِفُونَ ﴿١٤﴾

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦١.

(٣) انظر: الشوكاني: فتح القدير، ج: ٣٧٦/٩.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

وتوجيه النص: إنه لا إله مع الله سبحانه. ولو سلمنا وجود إله معه لنرم
ذهاب كل إله بما خلق، وتعاليا على بعضهما البعض، فلا تنتظم أحوال
المعمورة، ولا حال السموات والأرض، وهذا محال، فيلزم فرض إله ثان فرضاً
محالاً.

و - الانتقال: وهو انتقال المستدل إلى غير الذي كان آخذاً فيه لعدم فهم
الخصم وجه الدلالة من الأدل. ومثال هذا النوع، كالمناظرة التي حدثت بين
إبراهيم عليه السلام وجبار عصره، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّنا يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنأ أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
فَأَلِكِ اللَّهُ بِأَمْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَآتَتْ بِهَا مِمَّنَّ الْمَقْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

فلما لم يفهم من أوتي الملك، وذكر بالله وأنه سبحانه يحيي ويميت، من
باب المغالطة: انتقل عليه السلام إلى استدلال لا يجد له هذا الجبار مخرجاً.

ز - المناقضة: وهو تعليق أمر على مستحيل إشارة إلى استحالة وقوعه
ومثاله، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأُتُوا بِهَا لَاطِحٌ لَّهُمْ أَيُّونَ السَّمَاءِ وَلَا
يَسْمُرُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاقَ الْهَمْدَ فِي سَعِيرٍ ﴿١١﴾ الْحَبَابِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

ح - مجازاة الخصم ليعثر بأن يسلم بعض مقدماته حيث يراد نكيتها
والرأفة. ومثاله قوله تعالى:

﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ شَافِعًا لِلْأَرْضِ بِدَعْوَتِكُمْ لِيَعْرِضَ لَكُمْ مِنْ
دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أُنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نُصَدِّقَوكُمْ
بِأَنَّا نَعْبُدُ مَا نَآؤُنَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ قَالَتْ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِنَّ نَعْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٢) المراد: سم - هو لقب الإبرة، وقد خص الحمل بالذكر لكونه يضرب به المثل في كبر
الذات، وخص سم الخياط، وهو لقب الإبرة بالذكر لكونه غاية في الضيق.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ (١)

والتوجيه:

إن نحن إلاً بشر مثلكم فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين على البشرية
فكانهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، وليس مراداً، بل هو من باب مجازاة الخصم
ليعثر، فكانهم قالوا: ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره ولكن هذا لا ينافي
أن يمين الله تعالى علينا بالرسالة.

* * *

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٠ - ١١.

الفصل السادس

المخاطبة: المنطوق والمفهوم في القرآن

١ - وجوه المخاطبة:

ذكر السيوطي رحمه الله عن بعض الأقدمين، أنزل القرآن على ثلاثين نحواً، كلُّ نحو منه غير صاحبه، فمن عرف وجوهها ثم تكلم في الدين أصاب ووفق ومن لم يعرفها وتكلم في الدين كان الخطأ إليه أقرب، . . «والسب والإضرار مثل واسأل القرية أي أهل القرية. والخاص والعام مثل يا أيها النبي فهذا في المسموع خاص إذا طلقتم النساء فصار في المعنى عاماً. والأمر وما بعده إلى الاستفهام أمثلتها واضحة»^(١).

ونقل عن ابن القيم، تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك وله الحمد كله أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه وموردها إليه مستويّاً على العرش لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته عالماً بما في نفوس عبده مطلقاً على أسرارهم وعلانيتهم.

«وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً جواداً رحيماً جميلاً هذا شأنه، فكيف لا تحبه وتتنافس في القرب منه وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحبَّ إليها من كل ما سواه مرضاة، وأثر عندها من رضا كل من سواه. وكيف لا تلهج بذكره وتصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها

(١) الإتقان، ج ٢، ص ٣٥.

ودواؤها بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها^(١).

وللمخاطبة في القرآن وجوه متعددة، شغلت بال الأعلام، ففاضوا في كتاب الله تعالى يستخرجون هذه النماذج من أوجه الخطابة.

تعرض لها ابن الجوزي في كتابه «النيس» فذكر أن الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهاً، وذهب غيره إلى أن الخطاب أكثر من ثلاثين وجهاً^(٢).

وبين يدي هذا الفصل تعرض هذه الأوجه مستدين إلى السيوطي رحمه الله في كتابه «الإتقان»^(٣).

أولاً: خطاب العام ويراد به العموم، نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَدَّكُمْ ثُمَّ يُعِيْشُكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً وَشِئْنَهُمْ وَقَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٤١﴾﴾^(٤). فصيغة الخطاب عامة والمراد عموم الناس.

ثانياً: خطاب الخاص ويراد به الخصوص، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾^(٥). ووجه الخصوص في أهل البدع والضلال، الذين ستكون وجوههم مسودة يوم الدين فضلاً عن كل من كفر بالله تعالى وفضل في حياته.

ومن هذا القبيل، الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْقَىٰ مَا أُرْسِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ وَرِسَالَتَهُ وَأَنْتُمْ يَعْتَصِمُونَ مِنَ الْكَاذِبِينَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٦﴾﴾^(٦). فالمخاطب في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ﴾ هو الرسول محمد ﷺ، ولا يراد به غيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام.

(١) الإتقان، ج ٢، ص ٣٤.

(٢) نقله السيوطي في الإتقان، ج ٢، ص ٣٢.

(٣) انظر الإتقان، ج ٢، ص ٣٢.

(٤) سورة الروم، الآية: ٤٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.

(٦) سورة العائدة، الآية: ٦٧.

ثالثاً: خطاب العام ويراد به الخصوص، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١)...

فالمخاطب عام، وهو كل الناس، فقد حوِّطوا بالتكليف (التقوى)، فالصيغة عامة مع أن المراد لا يشمل العموم، بل الخصوص يراد، وذلك لخروج فئات من الناس عن خطاب التكليف، مثل الأطفال والمجانين وغيرهم.

رابعاً: خطاب الخاص ويراد به العموم، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِدَنِّيهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِتْنَةٍ مُمَيَّنَةٍ وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (٢).

فصيغة الخطاب خاصة بالنبي ﷺ، والمراد سائر الأمة في من ملك منها الطلاق (٣).

خامساً: خطاب النوع، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿يَسْبِقِ لَكُمْ بِالْذِّكْرِ أَنْتُمْ بِلِ اللَّهِ وَإِنَّمَا يَتَّبِعِ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَاتِكُمْ﴾ (٤).

فلا يخفى، أن الخطاب ورد بصيغة المخاطبة لفئة معينة من الناس، وهي بنو إسرائيل.

سادساً: خطاب العير، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٥).

(١) سورة النساء، الآية: ١.
 (٢) سورة الطلاق، الآية: ١.
 (٣) انظر: السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٣.
 الشوكاني: الجامع بين فني الرواية والدراية، ج ٥، ص ٢٤٠.
 (٤) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

هذا القبيل الخطاب في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا شُعَيْبُ أَقِمْ صَلَاتَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ مُخْلِصٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١) والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَاسُوسُ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣).

والخطاب في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ الَّذِينَ آمَنُوا لِيَكُونَ لَكُم مِّنْ آلَاءِ اللَّهِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ أَقْبَلُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤) ولم يقع في القرآن الخطاب بيا محمد بل يا أيها النبي، يا أيها الرسول، تعظيماً له وتشريعاً وتخصيصاً بذلك عما سواه وتعليماً للمؤمنين أن لا يتادوه باسمه (٥).

ولم يقع في القرآن الخطاب بيا محمد بل يا أيها النبي، يا أيها الرسول، تعظيماً له وتشريعاً وتخصيصاً بذلك عما سواه وتعليماً للمؤمنين أن لا يتادوه باسمه (٦).

سابعاً: خطاب الدم، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهَا تُخْرِجُونَ مِمَّا كُنْتُمْ تُعْمَلُونَ﴾ (٧).

فهذا خطاب يقال للكفار عند إدخالهم النار تأييداً لهم وقطعاً لأطماعهم (٨). ثامناً: خطاب الإهانة، كالخطاب الموجه لإبليس عند مخالفة لأمر الله تعالى، والحكم عليه بالطرد من الجنة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَانْفِرْ مِنْهَا لِيَأْتِيَنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (١٠) ومن هذا القبيل خطابه سبحانه لأهل النار

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٤ - ١٠٥.

(٤) سورة النمل، الآية: ١٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٦) الإيقان، ج ٢، ص ٣٣.

(٧) سورة التحريم، الآية: ٧.

(٨) الشوكاني: الجامع بين فني الرواية والدراية، ج ٥، ص ٢٥٤.

(٩) سورة الحجر، الآية: ٣٤ - ٣٥.

عند دخولها. ﴿ قَالَ أَحْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَسْكَبُوا ﴾^(١)

تاسعاً: خطاب التهكم، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَذِيبُ الْكَرِيمُ ﴾^(٢) فإنه يقال للملائكة الذين هم خزنة جهنم: خذوا هذا الأليم بعنف إلى سواء الجحيم، وقوموا بتعليبه، حال كونكم صابرين فوق رأسه العذاب الحار، ثم قولوا له تهكماً وتوبيخاً، ذق العذاب إنك أنت العزيب الكريم، وقيل إن أبا جهل كان يزعم أنه أعز أهل الوادي وأكرمهم، فيقولون له: ذق العذاب أيها المتعزب المتكرم في زعمك وفيما كنت تقول^(٣).

واقراً قوله تعالى: ﴿ حُدُّوهُ فَأَضِلُّوهُ إِلَى سَوَاءِ الْمَلْحِمِ ﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيبِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَذِيبُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾^(٤)

عاشراً: خطاب الجمع بلفظ الواحد، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴾^(٥) مع أن صيغة الخطاب وردت بالإنسان الذي هو لفظ مفرد، إلا أن المراد الجمع. فقد يراد كفار مكة، أو غيرهم والأولى الإطلاق في كل من كذب بالدين من كفار مكة وغيرهم. هذا ما يدل عليه قوله سبحانه فيما بعد: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ ﴾^(٦)

الحادي عشر: خطاب الواحد بلفظ الجمع، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَامْتَلُوا مِنْهَا إِلَىٰ يَمِينِكُمْ عَلِيمٌ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَأَنْكُرًا أَنَّهُ وَجَدَهُ وَأَنَا رُبُّكُمْ فَاقْبَلُوا^(٧) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ مِمَّا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ فَذَرَعُوا فِي عَصْرَتِهِمْ نَسْفَةً سَعِينَ ﴾^(٨). فالخطاب ورد بصيغة الجمع «يا أيها الرسل» وهي باعتبار الغالب اللغوي تشمل كل الرسل، مع أن المخاطب في هذه الآية هو الرسول محظ

- (١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.
- (٢) سورة الدخان، الآية: ٤٩.
- (٣) الشوكاني: الضمير، ج: ٥٦٩/٤.
- (٤) سورة الدخان، الآية: ٤٧ - ٥٠.
- (٥) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
- (٦) سورة الانشقاق، الآية: ٩.
- (٧) سورة المؤمنون، الآية: ٥١ - ٥٤.

عليه الصلاة والسلام^(١)، وما يدل على هذا، كونه ﷺ لا يبي بعده، وتعقيب الخطاب «فذرهم» يدل على هذه الخصيصة الانفرادية إذ التوجيه له عليه الصلاة والسلام، بأن يدع الكفار في جهلهم، فهم ليسوا أهلاً للهداية، وأن العذاب واقع بهم في أرائه، فضلاً عما يشير إلى الكفار من تهديد بهذا الخطاب^(٢).

وقد وعد من هذا القبيل الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلِيْنَ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِمْ وَلِيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّاصْبِرِيْكُمْ﴾^(٣).

قصيفة الخطاب بالجمع «عاقبتم» «فعاقبوا» «ما عوقبتم به» «اصبرتم»، والقاعدة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومع هذا فالمراد بالخطاب عند بعض من العلماء، النبي محمد ﷺ، فقد روى أن المسلمين لما أصيبوا يوم أحد، ورأوا من أصيب قد مثل به، ومنهم حمزة رضي الله عنهم جميعاً، أخذوا عهداً لمثلن بالكفار عند إصابتهم، فلما كان يوم أن فتح الله عليهم مكة، نزل قوله تعالى: ﴿وَلِيْنَ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾ فقد قيل إن الخطاب بتوجيه للنبي ﷺ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٤) وأيضاً فقد ورد أن النبي ﷺ لما رأى حمزة قد مثل به، قال: «الأمثلن بسبعين منهم»^(٥).

ومن هذا القبيل، الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَسَّجَدُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٦). قصيفة الخطاب بالجمع كما تبدو من الآية الأنفة الذكر، والتوجيه: فإن لم يفعلوا ما طلبت منهم وتحدثت بهم من الإتيان بعشر سور مثله، فاعلم أيها الرسول، وقيل له وللمؤمنين، وقيل له بمفرده وقد جمع تعظيماً وتفخيماً. وما يدل على كون المراد الرسول ﷺ ما قيل

(١) قاله الزجاج: انظر تفسير الشوكاني، ج ٣/ ٤٨٠.

(٢) الشوكاني: الضمير، ج ٣/ ٤٨٠.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

(٥) رواه الكثير منهم: البزار والطبراني والحاكم وصححه.

(٦) سورة هود، الآية: ١١.

في هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَلَمَّا نُنزِّلْنَا آفْقَةً تَلْفُ قُلُوبًا فَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُقْرَبُونَ ﴾ (١) . ومما لا يخفى أن الأمر هنا هو للرسول ﷺ .

الثاني عشر: خطاب الواحد بلفظ الاثنين، كما هو في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَجِثَارِ بُعِيدٍ ﴾ (٢) فالشبهة صيغة الخطاب في «أليسا»، ومن هنا اللذان يرادان بالخطاب؟ قيل: السابق والشهيد، وقيل: الملكان من خزنة النار. ومما قيل فيه: إن الخطاب هنا من باب: خطاب الواحد بثنائية، فقد نقل عن الخليل والأخفش: هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون: أرحلها، وأزجراها، وخدها وأطلقها للواحد. قال القراء: العرب تقول للواحد: قوما عتاء وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورقفته في سفره اثنا، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك (٣) . ومن هذا قول الشاعر:

فما نبك من ذكرى حبيب ومنزل يسقط اللوى بين الدخول فحومل
وقيل في قوله تعالى (أليسا) يدل على ألق ألق. قال المبرد: هو ثنية على التوكيد فناب (أليسا) مناب (ألق ألق) (٤) .

الثالث عشر: خطاب الاثنين بلفظ الواحد، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَزَقْنَاهَا يَتُومِسِينَ ﴾ (٥) . فصيغة الخطاب مفردة (يا موسى) مع أن المراد موسى هارون، وخص موسى بالذكر لأنه الأصل في الرسالة.

الرابع عشر: خطاب الاثنين بلفظ الجمع، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْحَبْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَلْيَسَا أَن تَتُومَ الْيَتِيمَ كَمَا يَتُومُكُمَا يُعْمِرُ يَتِيمًا وَأَجْمَلُوا يُتُومِكُمْ قَسِدًا وَأَلْيَسَا الضَّلَاطَةُ وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) .

(١) سورة هود، الآية: ١٣ .

(٢) سورة ق، الآية: ٢٤ .

(٣) انظر: تفسير الشوكاني (الجامع بين في الرواية والدرابة) ج ٥/٧٦ .

(٤) انظر: المرجع السابق .

(٥) سورة طه، الآية: ٤٩ .

(٦) سورة يونس، الآية: ٨٧ .

الخامس عشر: خطاب الجمع بلفظ الاثنين، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ صِغَرِ عَذِيبٍ ۖ﴾^(١) ففي قول أن المخاطب هو خزنة جهنم والزمانية.

السادس عشر: خطاب الجمع عقب الواحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلَوْنَ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبَيِّنُونَ فِيهِ وَمَا يَسْمُرُ ۗ﴾^(٢) عن رَبِّكَ مِنْ شِقَالِ ذُرِّهِ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَسْمَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۖ﴾^(٣)

فصيغة الخطاب أنت للواحد ابتداء ثم تعقبها بصيغة الجمع على أن المراد بالخطاب الرسول ﷺ وأمه معه.

وقد عد من هذا القبيل الخطاب في قوله تعالى: ﴿بَلَّغْنَا السَّيِّئِينَ إِذَا مَلَاقَتُمُ السَّلَاطَةَ فَبَلِّغُوهُمْ ۖ﴾^(٤)

السابع عشر: خطاب الواحد بعد الجماعة، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْتَمِعُوا فِي الرِّجَالِ﴾^(٥) ابتداء الخطاب بصيغة الجمع (واقموا) ثم بالمفرد (وارتمعوا). وأفرد موسى بالتبشير لكونه الأصل في الرسالة وهارون تبع له.

الثامن عشر: خطاب الاثنين بعد الواحد، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّهُمْ مَأْوَئُهُمْ وَإِنَّا لَكُنَّا لَهُمُ الْكَاذِبِينَ﴾^(٦) ابتداء الخطاب بصيغة المفرد (اجتئنا) أي يا موسى، ثم نثيت الصيغة (لكما). وحكمة التثنية بعد الأفراد، أن الكفار أسندوا الاضطهاد (الابتعاد) إلى موسى لكونه المقصود بالرسالة، ثم جمع بينه وهارون في ضمير

(١) سورة ق، الآية: ٢٤.

(٢) يعرب بالرفع، وقيل بالكسر، ومعناها يغيب، وقيل يبعد، وقيل يلعب وهي معان متضاربة.

(٣) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٥) سورة يونس، الآية: ٨٧.

(٦) سورة يونس، الآية: ٧٨.

الثنية لأنهم ألبسوا ثوب الكبرياء لهما معاً.

التاسع عشر: خطاب الواحد بعد الاثنين، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَزَقْنَاهُمْ مِمَّا فِي الْبُقْعَاتِ﴾ (١) خص موسى بالخطاب لأصلبته في الرسالة.

العشرون: خطاب العيين وإرادة الغير، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أُنذِرِ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَىٰ أَنْ يَدْعُوا إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ (٢) وقيل: ﴿أَنْتَ اللَّهُ وَلَا تُلْجَأُ إِلَيْهِ الْكَاذِبِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

فالمخاطب بصيغته موجه إلى النبي ﷺ، مع أن المراد، التعريض بالمنافقين والكافرين، وقيل: المراد تحذير أمته عليه الصلاة والسلام من الكافرين والمنافقين.

الحادي والعشرون: خطاب الغير وإرادة العيين، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤). ذكرتم صفة لكتاباً والمراد بالذكر هنا الشرف، أي فيه شرفكم كقوله - وإنه لذكر لك ولقومك - وقيل: فيه ذكركم: أي ذكر أمر دينكم وأحكام شرعكم وما نصيرون إليه من ثواب أو عقاب وقيل فيه حديثكم. قاله مجاهد. وقيل مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم (٥).

الثاني والعشرون: خطاب العام ولم يقصد به مخاطب معين، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتْ اللَّهَ يَجْعُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِمَّنَّا نَائِبِينَ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَاهُ وَإِنْ كَفَرَ يَهْدِهِ اللَّهُ فَسَاءَ مَا يَحْكُمُ اللَّهُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٦). والخطاب في هذه الآية لكل من يصلح له وهو كل من تتأني منه الرؤية، والمراد بالسجود الانقياد الكامل، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء (٧).

وتحو هذا الوجه، الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَرَّبْتَ كَذِبًا إِذِ الْمُنْتَهَىٰ لَكَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٨).

(١) سورة طه، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠.

(٤) انظر: الشوكاني: تفسير الجامع، ج ٣/٤٠٠.

(٥) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٦) الشوكاني: تفسير الجامع، ج ٣/٤٤٣.

رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانزِعْنَا نَعْمَلْ صَلَاحًا إِنَّا مَرْغُوبُونَ ﴿١٦﴾ ﴿١١﴾
الخطاب هنا لكل من يصلح له.

الثالث والعشرون: خطاب الشخص ثم العدول إلى غيره، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿فَأَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ (١١). في وجه، الضمير في (لكم) لرسوله الله ﷺ وللمؤمنين معاً، والضمير في (فاعلموا) متوجه للرسول ﷺ وحده. أو الضمير في (فإن لم يستجيبوا) يعود إلى معاضدة ومناصرة الكفار، والضمير في (لكم) للكفار ذاتهم اللذين وقع معهم التحدي. ثم عدل إلى (فاعلموا) أي أيها الكفار المعاندون، وهل أنتم داخلون في الإسلام بعد هذا الإعجاز (١٢).

الرابع والعشرون: خطاب الحمادات بخطاب من يعقل، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿١٦﴾. وذكر الإمام السفي (١٣) رحمه الله تحت تفسير هذه الآية «المعنى أن أتيا على ما ينبغي عليه أن أتيا من الشكل والوصف». ومعنى الإتيان الحصول والوقوع كما تقول أتى عمله مرضياً وقوله طوعاً أو كرهاً لبيان تأثير قدرته فيهما وإن امتناعهما من تأثير قدرته محال كما تقول لمن تحت يدك لتضلعن هذا شئت أو أبيت ولتضلعن طوعاً أو كرهاً. وانتصابهما على المحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين وإنما لم يقل طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى لأنهما سموات وأرضون لأنهن لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفهن بالطوع والكره قبل: طائعتين في موضع طائعات كقوله «ساجدين» (١٤). ومن هذا الشيل

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢.

(٢) سورة هود، الآية: ١٤.

(٣) تفسير الجامع، ج ٢/٤٨٦.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٥) هو الإمام حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود السفي. توفي عام

٧٠٦ هـ. صاحب التفسير المسمى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل».

(٦) انظر السفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ج ٣/٩٦.

تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (١)

الخامس والعشرون: خطاب التهيج، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمَا الذُّكُورُ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَالْقَوْمُ عَلَيْكُمْ غِيلُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

عندما جين قوم موسى عند الأمر بالدخول، هيجوا على الدخول بالتوكل على الله. وقرأ قوله تعالى: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَمَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرُدُّوا عَنْهَا آذَانَكُمْ فَتُنْفِلُوا فَسْخِيبًا حَسِيرًا﴾ (٣) ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جبارين وَإِنَّا لَنُدْخِلُهَا حَتَّىٰ نَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٤)

السادس والعشرون: خطاب التحبب، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَبَدَّدَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٥). فهو خطاب من خليل الله إبراهيم عليه السلام إلى أبيه تحبباً في إيمانه وإبعاده له عن الكفر والضلال. ولحق هذا الوجه الخطابي، ما بين موسى وأخيه هارون عليهما السلام عند وقوع ضلالة السامري، قال تعالى: ﴿يَبْتَلِيكُمْ لَأَن تَأْخُذَ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَفَرِّقْ بَيْنَ﴾ (٦) ﴿قَوْلِي﴾ (٧). وقد نسب موسى عليه السلام إلى أمه، مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور استعطافاً وترقيقاً لقلبه.

السابع والعشرون: خطاب البشارة، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا آلَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْسَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٨). فقد قيل: إن هذه الآية أرجس آية في كتاب

(١) سورة ق، الآية: ٣٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢١ - ٢٢.

(٤) سورة مريم، الآية: ٤٢.

(٥) سورة طه، الآية: ٩٤.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

الله سبحانه، لاشتمالها على أعظم بشارة. فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصده تشریفهم ومزيد تبييرهم ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالتهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب. فالتهي عن القنوط للمعتبين غير الصرفين من باب الأولى ويفحوى الخطاب^(١)

الثامن والعشرون: خطاب الشريف، وهو كل ما في القرآن من مخاطبة يقول فإنه تشریف منه تعالى لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة^(٢). والآيات بهذا الوجه الخطابي كثيرة، طاقت المائة آية، ذكر في «البقرة»، «آل عمران»، «النساء»، «المائدة»، «الأنعام»، «الأعراف»، «الأنفال»، «التوبة»، «يونس»، «هود»، «يوسف»، «الرعد»، «إبراهيم»، «الحجر»، «النحل»، «الإسراء»، «الكهف»، «مريم»، «طه»، «الأنبياء»، «الحج»، «المؤمنون»، «الفرقان»، «النور»، «الشعراء»، «النمل»، «القصص»، «العنكبوت»، «الروم»، «القمان»، «السجدة»، «الأحزاب»، «سبا»، «فاطر»، «يس»، «الصافات»، «ص»، «الزمر»، «عافر»، «فصلت»، «الشورى»، «الزخرف»، «الجنابة»، «الأحقاف»، «الفتح»، «الحجرات»، «الطور»، «الواقعة»، «الجمعة»، «التغابن»، «الملك»، «الجن»، «النارعات»، «الكاغرون»، «الإخلاص»، «العلق»، «الناس»^(٣).

التاسع والعشرون: خطاب المعدوم، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿يَبْنَىٰ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَدِّي سَوَاءَ بِيكُم وَرِشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ مَّآيَةِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَبْنَىٰ آدَمَ لَا يَقِينَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ

(١) الشوكاني: تفسير الجامع، ج ٢ / ٤٧٠.

(٢) السيوطي: الاتقان، ج ٢ / ٣٠.

(٣) انظر المعجم المفهرس للقرآن الكريم / ٥٧٣. وراجع الآيات في السور المذكورة أعلاه.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

عَنْهَا لِيَأْسُهَا لِرَبِّهَا سَوَاءً بِهَا إِنَّكُمْ بِرَبِّكُمْ هُمْ وَقِيلَ لَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ آيَةً
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ ﴿١﴾

وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُ مَا دَمٌ خُدَّوْا رَبَّنَا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٢﴾ ﴿١﴾

وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُ مَا دَمٌ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ يَتَّبِعُونَ آيَاتِي فَأَتَى اتَّقَى وَأَسْلَحَ فَلَا
خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ بَيْنَ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴿٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْوَعْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴿٥﴾

فالخطاب بـ (بني آدم) خطاب شمولي، للماضي والحاضر والمستقبل.

الثلاثون: خطاب المدح، وهي كالخطابات القرآنية المبتدأ بـ (يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا)، وهي كثيرة في القرآن الكريم، ذكرت في كل من: (البقرة آي:
١٠٤، ١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، ١٨٣، ٢٠٨، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٢) و (آل عمران آي:
١٠٠، ١٠٢، ١١٨، ١٣٠، ١٤٩، ١٥٦، ٢٢٠) و (النساء)
و (المائدة) و (الأنفال) و (التوبة) و (الحج) و (النور) و (الأحزاب) و (الأحقاف)
و (الحجرات) و (الحديد) و (المجادلة) و (الحشر) و (المتحة) و (الصف)
و (الجمعة) و (التغابن) و (المنافقون) و (التحریم) و (الانشقاق) ﴿١﴾.

الحادي والثلاثون: خطاب الذم، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

- (١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
- (٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.
- (٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٥.
- (٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
- (٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
- (٦) انظر المعجم المفهرس / ٨٢.

عَنْهُمَا لِيَأْسَمُنَا بَرِيهُمَا سَوَاءً لِيَوْمِئِذٍ إِنَّكُمْ بَرْتُمْ كَمَا هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَأْتُونَهُمْ إِنَّا جَمَعْنَا الشَّيَاطِينَ لَأُولِي
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴿١﴾

وقوله تعالى: ﴿يَبْنَىءُ آدَمَ عُدْوًا رِيضًا كَرِيهًا عَلَىٰ مَسْجِدٍ وَكَلَّمَا وَاشْرَبُوا وَلَا تَنسُوا أَنَّهُ
لَا يُحِبُّ الشَّارِكِينَ ﴿٢٨﴾ ﴿٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يَبْنَىءُ آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رُسُلٌ يَكْتُمُونَ عَلَيْكُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأُخْرَىٰ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا هُمْ يَخْشَوْنَ ﴿٢٩﴾ ﴿٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴿٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْوَعْدِ وَالْحَرَمِ وَالْحَرَمِ وَوَدَّعْتَهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
وَقَضَّيْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَقْضِيًّا ﴿٣١﴾ ﴿٥﴾

فالخطاب بـ (بني آدم) خطاب شعولي، للماضي والحاضر والمستقبل

الثلاثون: خطاب المدح، وهي كالخطابات القرآنية المبتدأ ببدء: ﴿يَعَابُهَا
الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهي كثير في القرآن الكريم، ذكرت في كل من: (البقرة أي: ١٠٤، ١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، ١٨٣، ٢٠٨، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٢)
و (آل عمران أي: ١٠٠، ١٠٢، ١١٨، ١٣٠، ١٤٩، ١٥٦، ٢٢٠) و (النساء)
و (المائدة) و (الأنفال) و (التوبة) و (الحج) و (النور) و (الأحزاب) و (الأحقاف)
و (الحجرات) و (الحديد) و (المجادلة) و (الحشر) و (المتحنة) و (الصف)
و (الجمعة) و (التغابن) و (المنافقون) و (التحریم) و (الانشقاق) ﴿٦﴾

الحادي والثلاثون: خطاب المدح، كالخطاب في قوله تعالى: ﴿يَعَابُهَا الَّذِينَ

- (١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
- (٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.
- (٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٥.
- (٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
- (٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
- (٦) انظر المعجم المفهرس/ ٨٢.

كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّا كَائِدُونَ ﴿١١﴾^(١)، موجه إلى الكفار عند إدخالهم النار تأييداً لهم وقطعاً لأطماعهم^(٢)، علماً أن خطاب الكفار بالمواجهة لم يذكر إلا في موضعين اثنين: الموضع الأول: الآية المذكورة سابقاً. والموضع الثاني: الآية الأولى من سورة (الكافرون)^(٣). وبقية المخاطبات وردت بلفظة الغياب على سبيل الإعراض عنهم. مع أن خطاب المؤمنين بالمواجهة ورد في آيات كثيرة من سور متعددة^(٤).

الثاني والثلاثون: خطاب الكرامة، وهذا الوجه أكثر ما يظهر في مخاطبة الرسول ﷺ، بـ (يا أيها الرسول) في موضعين من القرآن، قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ وَمَسَّلَتْهُ وَأَلَّهَ يَعِصُوكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٦). وبقية المخاطبة بـ (يا أيها النبي) في كثير من السور، في (الأنفال ٦٤، ٦٥، ٧٠) (التوبة ٧٣) (الأحزاب ١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٦) (المتحنة ١٢) و (الطلاق ١) و (التحريم ١، ٩).

٢ - التعريف بالمنطوق:

هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق، أي يكون حكماً للمذكور وحالاً من أحواله. فإن أفاد معنى لا يحتمل غيره، فهو: النص، ومثاله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنذِرْتُمْ مِنَ الْعَمْرِ إِلَىٰ كَلْبٍ مَا أَسْبَغَ مِنَ الْهَدْيِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الْيَوْمَ فِي كَلْبٍ وَسَمِعْتُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكُمْ عَشْرَةَ كَابِلَةً﴾^(٧).

(١) سورة التحريم، الآية: ٧.

(٢) انظر الشوكلي: التصير، ج ٥/٢٥٤.

(٣) سورة الكافرون، الآية: ١.

(٤) انظر: خطاب المدح.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

وإن احتمل غير ما أفاد من المعنى احتمالاً مرجوحاً، فهو: الظاهر، ومثاله قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُسْلِيَ بِهِ لَيْقِيَ اللَّهُ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ (١).

البعي: كلمة من معانيها المرجوحة الجهل بالشيء. وأما الراجح منها فهو الظلم والعدوان.

ونحو هذا، قوله تعالى: ﴿وَسْتَفْلُواكَ مِنَ الْمَجِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَرِلُوا الْبَسَاءَ مِنَ الْمَجِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ﴾ (٢).

فللطهر معان، منها المرجوح، وهو: الانقطاع، ومنها الراجح، وهو: الوضوء والعتل، والمراد الثاني الذي هو أرجح وأظهر. فيكون المعنى «فلا تقربوهن حتى يغتسلن». وقد يحمل على المعنى المرجوح بقريئة أو دليل.

فإن حمل على المعنى المرجوح بقريئة أو دليل: فهو: المأول، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَخْلِصْ لَهَا جَنَاحَ الْأَلْبِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَا صَغِيرًا﴾ (٣).

فلقظة «جناح» بظاهرها تطلق على جناح الطير، وليس للإنسان جناح كالطير، فيحمل المعنى على الخضوع وحسن الخلق والخذل، أي الخدمة المناسبة. وقد يكون اللفظ مشتركاً بين حقيقتين أو حقيقة ومجاز، مع صحة حمل اللفظ على هذين المعنيين على السواء. وهذا يقتضي تقديم بيان موجز حول الحقيقة والمجاز، وكيفية تقسيم اللفظ باعتبار استعماله في المعنى.

وينقسم اللفظ باعتبار استعماله في معناه إلى أربعة أقسام، لأنه إن استعمل فيما وضع له «فحقيقة» وإن استعمل في غير ما وضع له «فمجاز» وكل منهما إن كان ظاهر المراد بحسب الاستعمال «فصريح» وإلا «فكنائية».

ومتى أمكن العمل بالحقيقة سقط المجاز لأنه خلف عنها، والخلف لا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

يعارض الأصل، فلفظ النكاح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ
بَيْنَ النِّسَاءِ﴾^(١).

لفظ «النكاح» في معناه الحقيقي «الوطء»، وفي معناه المجازي العقد
(عقد الزواج). فإن حملنا النكاح على الحقيقي ترتب على هذا حرمة مؤنية الأب
على الابن عند البعض من العلماء. وهنا يقع إشكال حول من عقد عليها الأب.
هل تدخل في النهي الوارد أم لا؟ مع أن دخول العقد في النكاح من حيث
المعنى دخول مجازي لا حقيقي. لأن المعنى الحقيقي للنكاح هو الوطء
(شرعي، محرم) ومن معاني النكاح العقد. وعند البعض لا يجمع بين الحقيقة
والمجاز، فخص هؤلاء بالحرمة الوطء بتسميه (حلال، حرام) وأحالوا الحرمة
بالعقد للإجماع لا إلى نص الموضوع. وعند آخرين يراد بالنكاح الوارد العقد.
وعند من يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز في مقام النهي فإن الآية تشمل
الحرمة الكلية (الوطء، المطلق، العقد).

ويحكم للحقيقة: ثبوت ما قصد به من معناه الموضوع له.

المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لملاحظة مناسبة بينه وبين
الموضوع له. ويحكم له ثبوت المعنى الذي أريد منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ
كُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾. فعند الحنفية، يراد باللمس الجماع، وهو معنى مجازي،
والمعنى الحقيقي هو الملامسة للبدن. ومن هنا وقع الخلاف في حكم اللمس
البيدني. فذهب الشافعية إلى نقض الوضوء باللمس عملاً بالمعنى الحقيقي
(الامتنع) وذهب الحنفية إلى عدم نقض الوضوء باللمس، حاملين الملامسة في
الآية على الجماع^(٢).

٣ - الجمع بين الحقيقة والمجاز:

إذا ورد لفظ مفرد له حقيقة ومجاز، الأصل امتناع الجمع بينهما، حال

(١) انظر: محمد عبد الرحمن المحلاوي: تسهيل الوصول إلى علم الأصول، ٩٣.

(٢) انظر: نفس المرجع بتصريف.

كونهما مقصودين عند التخاطب، لأن المعنى الحقيقي هو ما يتبادر إلى الذهن عند السماع، ذهب إلى هذا جمع من الأئمة الأصوليين الحنفية وبعض الشافعية ومثلوا له، يقولك: لا تقتل الأسد، تريد السبع والرجل الشجاع معاً.

وعند ورود «عموم المجاز»، وهو اللفظ الذي يراد به المعنى المجازي وقد اندرج تحته معنى حقيقي، كقولك، والله لا أضع قدمي في دار فلان، فالذي يراد من وضع القدم: الدخول، فوضع القدم سبب للمسبب وهو الدخول، وهو معنى مجازي يشمل الدخول حافياً ومستعلاً بأية طريقة كانت، فيحذف بعموم المجاز، إلا إذا نوى معيناً فيحال على النية^(١).

وسواء قلنا بصحة الجمع بين الحقيقتين أو الحقيقة والمجاز أو لا، يحمل اللفظ على المعنيين المشتركين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا نَسَّيْتُمْ وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾^(٢).

فكل من المعنيين صالح لأن يكون هو المراد، ولذا يحمل عليهما كليهما أولاً: فلا يضارر الكاتب والشهيد بعلم في الكتابة والشهادة. ثانياً: فلا يضارر كل من الكاتب والشهيد من قبل صاحب الحق بالزامهما الشهادة والكتابة.

وعند توقف دلالة اللفظ على «مضمر» فهي دلالة اقتضاء كما في قولك: «إسئل القرية» أي أهلها. وإن لم تتوقف على مضمر، ودل اللفظ على المقصود، سميت «دلالة إشارة» كما في قوله تعالى: ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الْوَسْيَاءِ الرَّفَّتْ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ مَن لَّيْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَسَّ لَهْمٌ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَنَ بَشِيرُهُمْ وَأَسْتَعْوَأَ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَكُمْ وَأَشْرَبُوا حَتَّىٰ يَلْتَمِسَ لَكُمْ الْغَيْظَ الْأَيْبُسَ مِنِ الْغَيْظِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾^(٣) فهي تدل بالإشارة على صحة صوم من أصبح جنباً لكونه قد أبيح الجماع حتى إلى طلوع الفجر، وإباحة الجماع إلى طلوع الفجر، تستلزم

(١) النظر: تسهيل الوصول إلى علم الأصول، ٩٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

كونه جنباً في جزء من النهار^(١).

٤ - «التعريف بالمفهوم»:

لما كان المنطوق معرّفاً بما دل عليه اللفظ في محل النطق، يعني أن اللفظ مستعمل فيه بحيث لا تتوقف استفادته منه إلا على مجرد النطق به. أما إن توقفت استفادته على الانتقال من معنى آخر، أي المنطوق إليه فهذا هو «المفهوم». والمفهوم نوعان اثنان هما:

أولاً: مفهوم الموافقة، وهو: ما كان المعنى المستقل إليه موافقاً للمنطوق في الحكم، فإن كان أعلى من المنطوق فيسمى «فحوى الخطاب» كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أَمَرَ﴾^(٢). فحكم المنطوق النهي عن التأنيف. وهذا يقتضي النهي عن الضرب من باب أولى، وإن كان مساوياً له فيسمى «لحن الخطاب» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهِمْ ظُلْمًا﴾^(٣). فقد استدل بحرمة أكل أموال اليتامى ظلماً على حرقتها، وقد ساوتها بجامع الإتلاف في كل منها^(٤).

ثانياً: مفهوم المخالفة: وهو ما يخالف حكمه المنطوق، وهذا أنواع عدة، منها:

١ - مفهوم الصفة، وهو تعليق الحكم على الذات بأحد الأوصاف، كما في قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَلَىٰ فَتَيْنُوا﴾^(٥). يفهم منه أن غير الفاسق لا يطلب التبيان في خبره، مما يوجب قبول خبر الواحد العدل. ومن هذا القبيل منطوق قوله تعالى: ﴿الْمَعْشَرُ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ﴾^(٦) يفهم منه عدم صحة

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن، ج ٢ / ٣٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٤) انظر: الإتيان، ج ٢ / ٢٣ - ٣٢.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

الإحرام في غير هذه الأشهر^(١).

ب - مفهوم الشرط، وهو ما فهم من تعليق المحكم على شيء بأداة شرط، كإِنْ وَإِذَا^(٢) ومثاله، قوله تعالى: ﴿وَأَنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾. يفهم أن غير أولات الحمل من المطلقات طلاقاً باتناً لا يجب الإنفاق عليهن كما هو مفهوم الشرط لهذه الآية.

ج - مفهوم الغاية، وهو: حل الحكم بالي أو حتى، وغاية الشيء آخره، مثاله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْمِلْ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾، يفهم من أداة الغاية أنه بتمام النكاح تحل له.

د - مفهوم الحصر، وهو ما فهم من أداء حصر في الآية، مثال قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾^(٣) فمحل النطق في الآية هو الله، والمنطوق هو الألوهية، ومحل المسكوت غير الله، والمفهوم انتفاء الألوهية، فغيره ليس بآله.

ومن هذا القبيل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾^(٤)، أي لا غيره.

وهناك مفاهيم أخرى، نقف عن ذكرها والخوض فيها، باعتبارها من اختصاص علم الأصول الذي له مجال التوسع في مبحث المنطوق والمفهوم من حيث الدلالة، والحجية^(٥).



(١) إرشاد الفحول إلى التحقيق من علم الأصول / ١٨٠.

(٢) تسهيل الوصول إلى علم الأصول للمحلاوي، ١١٠.

(٣) سورة طه، الآية: ٩٨.

(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٥) انظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للإمام الشوكاني، ص ١٨٠ وما بعدها. وتسهيل الوصول إلى علم الأصول لمحمد عبد الرحمن المحلاوي، ص ١٠٠ وما بعدها.

الباب الرابع

تلاوة القرآن وآدابها

الفصل الأول: فضائل القرآن الكريم.

الفصل الثاني: آداب تلاوة القرآن الكريم.

الفصل الثالث: علم القراءات.

الفصل الرابع: في الأصول.

الفصل الأول

فضائل القرآن الكريم

من خصائص القرآن الكريم أن تلاوته عبادة يثاب عليها الإنسان، ويتال بها الأجر من الله عز وجل، وهذه الخاصية ليست لغيره من الكتب السابقة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ ۚ لِيُؤْتِيَهُمُ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝﴾^(١) وفي هذه الآية الكريمة إشادة بالتالين لكتاب الله تعالى، وبيان لعظيم أجرهم، وكريم جزائهم، وليس المراد بالتلاوة مجرد المرور بالكلمات، وترديدها على الأفواه من غير فكر ولا روية، وإنما المراد التلاوة التي يصحبها التمعن والتدبر الذي ينشأ عنه الإدراك والتأثر، ولا شك أن التأثر يفضي بالقارئ لا محالة إلى العمل بمقتضى قراءته، ولذلك اتبع الله القراءة بإقامة الصلاة، وبالإنفاق سراً وعلانية من فضل الله ثم برجاء القارئ - بسبب ذلك - تجارة لن تبور. فهم يعرفون أن ما عند الله فيها خير مما ينفقون، ويتاجرون تجارة كاسبة، مضمونة الربح، يعاملون الله وحده، وهي أربح معاملته، ويتاجرون بها تجارة تؤدي إلى توفيتهم أجرهم، وزيادتهم من فضل الله تعالى، إنه غفور شكور يغفر التقصير - ويشكر الأداء، وشكره تعالى كناية عن رضاه تعالى عن هؤلاء، وحسن جزائهم عنده.

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٩ - ٣٠.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» أخرجه مسلم^(١).

والكربة هي الشدة التي توقع صاحبها في الكرب، ومعنى تضيئها تفريجها وإزالتها، وقوله «في بيت من بيوت الله» ليس البيت قيداً فإذا اجتمعوا في مكان آخر غير المسجد كان لهم هذا الفضل أيضاً، فالتقيد ببيت الله خرج المخارج الغالب فلا مفهوم له.

فالاجتماع للتلاوة في أي مكان يترتب عليه هذا الفضل وإن كان الاجتماع للتلاوة والندارة في المسجد أفضل من الاجتماع في أي مكان آخر لما في المسجد من مزايا وخصائص لا توجد في غيره.

والمراد بالسكينة طمأنينة النفس، وانسراح الصدر، وهدوء الضمير.

قال الإمام النووي: وفي الحديث فضل قضاء حوائج المسلمين، ونفعهم بما يسر من علم، أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة، أو غير ذلك، وفيه فضل السعة على المسلمين، وفضل إنظار المعسر، وفضل المشي في طلب العلم، انتهى.

وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله أوصني، قال عليك بتقوى الله تعالى فإنها رأس الأمر كله، قلت يا رسول الله زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض، وذخر لك في السماء. أخرجه ابن حبان^(٢).

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (الحديث: ٣٨).

(٢) أخرجه ابن حبان (الحديث: ٣٦١).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: إن لله أهلين من الناس، قيل من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته. أخرجه أحمد^(١).

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم^(٢).

وعن النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ قال: أفضل عبادة أمي تلاوة القرآن. أخرجه البيهقي.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله. أخرجه الديلمي.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، أما إنني لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» رواه الترمذي^(٣) وقال حديث حسن صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: يقال لصاحب القرآن اقرأ وأرتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن مترلك عند آخر آية تقرأها رواه أبو داود والترمذي^(٤) وقال حديث حسن صحيح.

والمراد بصاحب القرآن في الحديث من يلزمه بتلاوته والعمل بما فيه. ومعنى ارتق: اصعد في درجات الجنة «ورتل» أي القراءة وترتيل القراءة والثاني فيها، وتبين حروفها وحركاتها، قال الخطابي: جاء في الأثر أن عدد آي القرآن على قدر ما كنت تقرأ من آي القرآن، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استوفى

(١) أخرجه أحمد: ١٢٧/٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (الحديث: ٢٥٢).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن (الحديث: ٢٩١٠).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: استحباب الترتيل في القراءة (الحديث: ١٤٦٤). وأخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ١٨ (الحديث: ٢٩١٤).

على أقصى درج الجنة، ومن قرأ جزءاً منها كان رقيه في الدرج على قدر ذلك فيكون منتهى الثواب عند منتهى القرامة، انتهى.

والأثر الذي أشار إليه الخطابي رواه البيهقي عن عائشة مرفوعاً: عدد درج الجنة عدد آي القرآن، فمن دخل الجنة من أهل القرآن فليس فوقه درجة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يحيى القرآن يوم القيامة فيقول يا رب حلة فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول يا رب ارض عنه فبرضى عنه، فيقال له اقرأ وارق ويؤاد بكل آية حسنة. رواه الترمذي^(١) وقال حديث حسن.

وعن تميم الداري عن النبي ﷺ قال: من قرأ عشر آيات في ليلة كتب له قطار، والقطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك عز وجل اقرأ وارق بكل آية درجة، فيقرأ آية ويصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له اقبض فيقبض، ثم يقال له: أتدري ماذا في يديك؟ فإذا في يده اليمنى الخلد، وفي يده اليسرى النعيم. أخرجه الطبراني.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: من قرأ القرآن قرأه أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صفى الله، وصفى ما عظم الله. وليس ينبغي لحامل القرآن أن يسفه فيمن يسفه، أو يغضب فيمن يغضب، أو يحقد فيمن يحقد ولكن يعفو ويصفح لفضل القرآن. أخرجه الطبراني.

وكان الإمام أبو عبد الرحمن السلمي إذا حتم عليه الحاتم القرآن أجلسه بين يديه، ووضع يده على رأسه وقال له يا هذا اتق الله فما أعرف أحداً خيراً منك إن عملت بما علمت.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مريده إذ جالت فرسه فقرأ، ثم جالت أخرى فقرأ، ثم جالت أيضاً. قال أسيد فحسيت أن تظا يحيى، فضمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ١٨ (الحديث: ٢٩١٥).

السرّج عرجت في الجو حتى ما أراها، فغدوت على رسول الله ﷺ، فقلت يا رسول الله: بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مردي إذ جالت فرسي فقال ﷺ «اقرأ ابن حضير» فقرأت ثم جالت أيضاً فقال رسول الله ﷺ «اقرأ ابن حضير» فانصرفت وكان يحيى قريباً منها خست أن تظأه فرأيت مثل الغلّة فيها أمثال السرّج عرجت في الجو حتى ما أراها فقال رسول الله ﷺ: تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصيحت يراها الناس ما نستر منهم. رواه البخاري ومسلم^(١).

وقوله «مردي» هو بكسر الميم وفتح الياء الموضع الذي تربط فيه الإبل. وقوله جالت فرسه أي وثبت واضطربت، والظلة السحابة، والسرّج المصاييح. وقول رسول الله ﷺ له اقرأ ابن حضير: معناه كان ينبغي أن تستمر على قراءتك لتستمر لك البركة بنزول الملائكة.

قال النووي: وفي الحديث جواز رؤية آحاد الأمة للملائكة، وفيه فضيلة القراءة، وأنها سبب نزول الرحمة، وحضور الملائكة، وفيه فضيلة استماع القرآن الكريم، انتهى.

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل الثمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»^(٢).

قال النووي: وفي الحديث فضيلة حافظ القرآن، واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد، وفيه الحضر على حفظ القرآن، ودوام تلاوته والعمل بما فيه.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: نزول السكينة (حديث: ٥٠١٨) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: نزول السكينة لقراءة القرآن (حديث: ٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قراءة الفاجر (الحديث: ٧٥٦٠). وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضيلة حافظ القرآن (الحديث: ٢٤٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: الماهر بالقرآن مع
السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ ويتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران^(١) رواه
مسلم.

والماهر هو الحاذق الكامل في الحفظ الذي لا يتوقف، ولا تشق عليه
القراءة لجودة حفظه وإتقانه والسفرة الملائكة، جمع سافر.

قال ابن الأنباري: سموا بذلك لتزولهم بالوحي وما يقع به الصلاة تشبهاً
بالسفير الذي يصلح بين الرجلين. وقال ابن عرفة: سموا بذلك لأنهم يسفرون
بين الله وبين أنبيائه أي يتزولون برسالات الله تعالى إلى الأنبياء وهو بمعنى الأول.
وقيل: السفرة الكتبة من الملائكة ويسمى الكاتب سافراً لأنه يبين الشيء، ويقال
أسفر عن الشيء بينه ووضحه.

والبررة: المطيعون. قال المهلب: ومعنى كون الماهر بالقرآن مع السفرة
أنه معهم في الحفظ في درجة واحدة، وقال القاضي عياض: ويحتمل أن يكون
معهم في منازلهم في الآخرة، أي يكون رفيقاً لهم فيها لاتصاله بصفاتهم في
حملهم كتاب الله تعالى، ويحتمل أن يكون المعنى عامل بعملهم كما يقال: معي
بنو فلان أي في الرأي والمذهب، كما قال لوط عليه السلام: ﴿وَتَحْتِي وَمَنْ تَحْتِي مِنْ
الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١). وجاء أن من تعلم القرآن من صغره وعمل به خلطه الله تعالى
بالحمة ودمه وكتبه عنده من السفرة الكرام البررة. انتهى.

وقوله: ويتتبع فيه. قال القرطبي: التتبع التردد في الكلام عيا وصعوبة
فالمعنى يتردد فيه لقلّة حفظه، والأجران أحدهما في ثلاثه، والثاني في تبعه
ومشغته، ودرجات الماهر فوق ذلك كله لأنه قد كان القرآن متتبعاً عليه ثم ترقى
عن ذلك إلى أن شبه بالملائكة.

قال القاضي عياض: وليس المعنى أنه أكثر أجراً من الماهر. بل الماهر
أكثر لأنه مع السفرة، وله أجور كثيرة، وكيف يلتحق من لم يعتن بكتاب الله
تعالى بمن اعتنى به حتى مهر فيه. انتهى.

(١) سورة الشعراء، الآية: ١١٨.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين. رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار» رواه البخاري ومسلم^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل علمه القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال: ليثي أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله ما لا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل ليثي أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل. رواه البخاري^(٢)».

وقوله: لا حسد إلا في اثنتين. المراد بالحسد هنا الغبطة وهي أن تمنى مثل ما لغيرك. وآناء الليل وآناء النهار: ساعاتهما. ومعنى فهو يهلكه في الحق ينفقه في الطاعات.

قال في شرح المشكاة: أثبت الحسد لإرادة المبالغة في تحصيل التعمتين الخطيرتين يعني ولو حصلنا بهذا الطريق المدموم فينبغي أن يتحرى ويجتهد في تحصيلهما، فكيف بالطريق المحمود، لا سيما وكل واحدة من الخصلتين بلغت آية لا أمد فوقها ولو اجتمعنا في امرئ بلغ من العلياء كل مكان.

قال ابن كثير: ومضمون هذين الحديثين أن صاحب القرآن في غبطة، وهي حسن الحال فينبغي أن يكون شديد الاحتياط بما هو فيه، ويستحب تغيطه بذلك غبطة يغبطه بالكسر إذا تمنى مثل ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المدموم، وهو تمنى زوال نعمة المحسود عنه سواء حصلت هذه النعمة للمحاسد أم لا، وهذا مدموم شرعاً ومهلك وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم على ما منحه الله تعالى من الكرامة والإعظام، والحسد الشرعي الممدوح هو تمنى حال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول النبي ﷺ: رجل آتاه الله (الحديث: ٧٥٢٩). وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه... (الحديث: ٢٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: اغتياط صاحب القرآن (الحديث: ٥٠٢٦).

مثل حال ذلك الذي هو على حال سارة.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين» فذكر النعمة القاصرة، وهي تلاوة القرآن آتاء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَكُونُ خَسِرًا﴾^(١).

ويدل على أن المراد بالحسد في الحديث العبطة ما روى عن رسول الله ﷺ قال: «لا تنافس بينكم إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آتاء الليل والنهار، ويتبع ما فيه فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلاناً فأقوم به كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتفق ويتصدق، فيقول رجل لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلاناً فأصدق به»^(٢) انتهى.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» رواه البخاري^(٣).

وفي هذا الحديث بيان فضل تعليم القرآن، والترغيب فيه، وقد مثل مفيان الثوري عن الرجل يغزو أحب إليك أو يقرأ القرآن؟ فقال يقرأ القرآن لأن رسول الله ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». فلبت في مسجد الكوفة أربعين سنة بسبب سماعه لهذا الحديث، بقول: ذلك الذي أتعدي مقعدي هذا.

قال ابن كثير: والغرض أنه ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهذه صفات المؤمنين المتبعين للرسول، وهم الكملة في أنفسهم المكملون في أنفسهم لغيرهم وذلك جمع بين الضع القاصر والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكفار الذين لا يتضعون ولا يتركون أحداً أن يتضع، كما قال تعالى في حقهم

(١) سورة قاطره، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (حديث: ١٢٥)، ومجمع الزوائد: ١٠٨/٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن (الحديث: ٥٠٢٧).

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَشَدَّ كُفْرًا﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عِتَّةً وَيَتَّبِعْ عِتَّةً﴾^(٢) يعني أنهم يتهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم أيضاً، فجمعوا بين التكذيب والصد كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِكَايِبَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عِتَّةً﴾^(٣) فهذا شأن شرار الكفار، كما أن شأن الأخيار الأحرار الأبرار أن يتكلموا في أنفسهم وأن يسعوا في تكميل غيرهم كما في هذا الحديث، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَصَلَّى صَلِيحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٤) فجمع بين الدعوة إلى الله - سواء أكان بالأذان أم بغيره من أنواع الدعوة إلى الله من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك مما يتعي به وجه الله تعالى، وعمل هو في نفسه صالحاً أيضاً فلا أحسن من هذا. انتهى.

وعن أبي هريرة أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ يا أبا هريرة علم الناس القرآن وتعلمه فإنك إن مت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما يزار البيث العتيق^(٥).

قال القرطبي: قال العلماء: تعليم القرآن أفضل الأعمال لأن فيه إعانة على الذين فهو كتلقين الكافر الشهادة ليسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخراب^(٦) رواه الترمذي^(٦) وقال حديث حسن صحيح.

والجوف: القلب. والخراب بفتح الخاء وكسر الراء الخراب قال الطيبي: أطلق الجوف وأريد به القلب، إطلاقاً لاسم المحل على الحال. وقد استعمل على حقيقته في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِنْ قَلْبَتِ فِي جَوْفِهِ﴾^(٧) وأحسب للمذكور ليم التشبيه له بالبيت الخراب بجامع أن القرآن إذا كان في الجوف يكون

(١) سورة محمد عليه الصلاة والسلام، الآية: ١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٥٧.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٥) رواه السلفي في البلدانيات (لطف الإشارات، ١/١٢١).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ١٨ (الحديث: ٢٨١٣).

عامراً مزيئاً بحسب قلة ما فيه وكثرتة، وإذا خلا عما لا بد منه من التصديق والاعتقاد الحق والتكبير في آلاء الله تعالى ومحبتة وصفاته يكون كالبيت الحرب الخالي عما يعمره من الأثاث والتجميل. انتهى.

وروى ابن عمر عنه رضي الله عنه أنه قال: «تفتح أبواب السماء لخمسة: نزول الغيث، وقراءة القرآن، ولقاء الرحم، والأذان، والدعاء». رواه الطبراني في الأوسط.

وعنه رضي الله عنه قال: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قالوا يا رسول الله، فما جلاؤها؟ قال تلاوة القرآن» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الرب تبارك وتعالى: من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفي رواية زيادة، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» رواه الترمذي ^(١).

قال القرطبي: فأخبر رضي الله عنه أن من قرأ القرآن واشتغل به عن الدعاء أعطاه الله تعالى أفضل سؤال سأل أحد من خلقه. انتهى.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال صلى الله عليه وسلم: «من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين» أخرجه البزار وغيره.

وروى الطبراني بسنده عن كعب الأحمير أنه قال: ثلاث من عمل بواحدة منهن دخل الجنة: رجل شهد يأساً من بأس المسلمين فصر حتى قتل أو فتح الله على المسلمين.

ورجل قعد في حلقة فقرأ عليهم القرآن فحمدوا ربهم عز وجل ثم دعوه سبحانه على إثر ذلك، فيقول للملائكة: علام اجتمع هؤلاء - وهو أعلم بهم - ولكن يريد أن يكونوا شهداء فيقولون: أي ربي أنت أعلم فيقول: إني أعلم ولكن أنبئوني بعلمكم فيقولون: يسألونك أن تدخلهم الجنة وترزحهم عن النار فيقول: أشهدكم أنني قد أوجبت لهم الجنة ورزحهم عن النار. ورجل قام من

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ٢٥ (الحديث: ٢٩٢٦).

دفته ومن فراشه ولعله أن يكون قام من عند امرأته في ليلة قرءة - أي باردة - فإن كان جنباً اغتسل، وإن لم يكن جنباً توضأ وأحسن وضوءه فقام ودعا ربه عز وجل، فيقول الله للملائكة: ما أقام عبدي من دفنة وفراشه فيقولون يا رب خوفته عذابك، ورغبته في رحمتك وهو يستجير من عذابك ويرجو رحمتك فيقول: أشهدكم أنني قد أجرته مما يخاف وأوجبت له ما يرجو.

قال القرطبي: ومثل هذا لا يقال من جهة الرأي فهو مرفوع وقد ثبت معناه في غير ما حديث مرفوع والحمد لله. انتهى.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما تكلم العباد بكلام أحب إلى الله من كلامه، وما تقرب إليه المتقربون بأحب إليه من كلامه».

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «اقرأوا القرآن فإن الله تعالى لا يعذب قلباً وعى القرآن» وإن هذا القرآن مادة الله فمن دخل فيه فهو آمن، ومن أحب القرآن فليشره، رواه الدارمي^(١).

قال القرطبي: يقال مادة بضم الـدال، ومادة بفتحها، فمن قال بالضم أراد الصنيع من الطعام يصنعه الإنسان فيدعو إليه الناس لإكرامهم فشب القرآن - وهو معقول بشيء محسوس وهو صنيع يصنعه الله لعباده لهم فيه خير ونفع، ومن قال بالفتح فإنه يذهب به إلى الأدب يجعله مفعلة من الأدب.

ويحتج بحديثه الآخر: إن هذا القرآن مادة الله عز وجل فتعلموا من ماديته. انتهى.

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل» أخرجه الطبراني^(٢). والمراد بأصحاب الليل القائمون بالأسحار بالصلاة، والتهجد، والذكر، والتبذل.

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد».

(١) أخرجه الدارمي في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن (الحديث: ٣٣٠٧).

(٢) أخرجه البيهقي في مجمع الزوائد: ١٦١/٧.

يقول الصيام: منعه الطعام والشهوات بالنهار فشغني فيه، ويقول القرآن: منعه
النوم بالليل فشغني فيه فيشفعان^(١) أخرجه وصححه الحاكم على شرط مسلم^(٢)

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إكرام
ذي الشية المسلم» وحامل القرآن، غير الغالي فيه، والجاني عنه، وإكرام ذي
السلطان المقسط» رواه أبو داود^(٣)، والغالي فيه هو الذي يتغالي ويتنطع في تنفيل
أحكامه، ويبالغ ويسرف في العمل به، وهو في ذلك مخالف لتعليم الرسول ﷺ
وهديه حيث يقول: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المتبت لا أرضاً
قطع، ولا ظهراً أبقى، والجاني عنه هو المجانب لأحكامه والعمل بما فيه،
والمقسط هو العادل»^(٤).

وعن أبي ذر عن النبي ﷺ: «لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله تعالى خير
لك من أن تصلي مائة ركعة» أخرجه ابن ماجه^(٥).

وعن معاذ الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن وعمل به أليس
والداه تاجاً يوم القيامة صوره أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا، فما
ظنكم بالذي عمل بهذا» أخرجه أبو داود^(٥).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن
قاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل
بيته كلهم قد استوجبوا النار» أخرجه الترمذي^(٦).

وعن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه
ومات مع الجماعة بعثه الله يوم القيامة مع السقرة» رواه أبو نصر في الإبانة.

(١) أخرجه الحاكم: ٥٥٤/١.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في تزهد الناس منازلهم (الحديث: ٤٨٤٣).

(٣) أخرجه أحمد: ١٩٩/٣.

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المقدمة، باب: فضل من تعلم القرآن (الحديث: ٢١٩).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (الحديث: ١٤٥٣).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل قارىء القرآن
(الحديث: ٢٩٠٥).

ويؤخذ من هذه الأحاديث أن الثواب الذي أدخره الله تعالى لقراء القرآن لا يحصل عليه منهم إلا من عمل بالقرآن، فأمر بأوامره وانتهى عن نواهيه.

ولذلك روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن من شر الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن لا يرعوي إلى شيء منه» رواه النسائي.

وقال ابن مسعود: ليس حفظ القرآن بحفظ حروفه ولكن بإقامة حدوده.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي القرآن إلى الذي حمله فأطاعه في صدره حسنة فيأخذ بيده حتى يأتي ربه عز وجل فيصير خصيماً من دونه فيقول: أي ربي حفظته إياي، فتخير حامله، حفظ حدودي، وعمل بفرائضي، وعمل بطاعتي واجتنب معصيتي فلا يزال يقذف دونه بالحجج حتى يقال له: فشأنك به، قال فيأخذ بيده لا يدعه حتى يسقيه بكأس الخلد، ويثوجه تاج الملك، قال: ويأتي صاحبه الذي حمله فأضاعه فيأخذ بيده حتى يأتي ربه عز وجل فيصير له خصيماً فيقول: يا رب حملته إياي فشر حامله، ضيع حدودي، وترك فرائضي واجتنب طاعتي، وعمل بمعصيتي، فلا يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال له: فشأنك به، فيأخذ بيده فلا يدعه حتى يكتبه على منخره في نار جهنم، أخرجه البزار وغيره.

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن شافع مشفع وما حل مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار» أخرجه ابن حبان^(١)، ومعن ما حل: محادل وفي حديث مسلم: «والقرآن حجة لك أو عليك يعني إن عملت به كان حجة لك وإن لم تعمل به كان حجة عليك».

وعنه ﷺ: قال من قرأ القرآن يقوم به آتاء الليل والنهار يحل حلاله ومحرم حرامه حرم الله لحمه ودمه على النار وجعله رفيق السفرة الكرام البررة حتى إذا كان يوم القيامة كان القرآن له حجة^(٢).

(١) أخرجه ابن حبان (الحديث: ١٢٤).

(٢) القرطبي، ص ١ - ٨، ط الشعب. تحفة الأحمدي (١٧٨/٨) مع القرآن الكريم للشيخ المصري. وقد أخرجه ابن ماجه في كتاب: الإقامة، باب: في حسن الصوت بالقرآن (الحديث: ١٣٤٠).

الفصل الثاني

آداب تلاوة القرآن الكريم

روى البخاري^(١) عن «قتادة» قال: سألت أنساً عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كان يمد مداً إذا قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم.

وروى الترمذي عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته يقول: الحمد لله رب العالمين ثم يقف، الرحمن الرحيم ثم يقف، وكان يقرأ مالك يوم الدين، قال: حديث غريب، وأخرجه أبو داود بنحوه^(٢).

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحسن الناس صوتاً من إذا قرأ رأته يخشى الله تعالى»^(٣). وروى عن زياد النميري: أنه جاء مع القراء إلى أنس بن مالك فقيل له: اقرأ فرفع صوته وطرب وكان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه وكان على وجهه خرقه سوداء؟ فقال: يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون؟ وكان إذا رأى شيئاً ينكره كشف الخرقه عن وجهه. وروى عن قيس بن عباد أنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الذكر.

وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن سعيد بن المسيب

- (١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: من القراءة (الحديث: ٥٠٤٥).
- (٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الحروف والقرآن، باب: ١ (الحديث: ٤٠٠١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: القراءات، باب: في فاتحة الكتاب (الحديث: ٢٩٢٧).
- (٣) رواه ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه.

وسعيد بن جبير والقاسم بن محمد والحسن وابن سيرين والنخعي وغيرهم،
وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب
فيه.

روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمرو بن عبد العزيز يوم الناس فطرب
في قراءته، فأرسل إليه سعيد يقول - أصلحك الله - إن الأئمة لا تقرأ هكذا، فترك
عمر التطريب بعد.

وروى عن القاسم بن محمد: أن رجلاً قرأ في مسجد النبي ﷺ فطرب،
فأنكر ذلك القاسم وقال: يقول الله عز وجل: ﴿وَلَيْسَ لَكُنُوبُكُمْ عَزِيزٌ ۝١١﴾ لا يأنع الباطل
من بين يديه ولا من خلفه ﴿١١﴾ الآية.

وروى عن مالك: أنه سئل عن النبر في قراءة القرآن في الصلاة فأنكر ذلك
وكرهه كراهة شديدة، وأنكر رفع الصوت به.

وروى ابن القاسم عنه: أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال: لا
يعجبني، وقال: إنما هو غناء يتغنون به لياخذوا عليه الدراهم، وأجازت طائفة
رفع الصوت بالقرآن والتطريب به، وذلك لأنه إذا حسن الصوت به كان أوقع في
النفوس وأسمع في القلوب، واحتجوا بقوله عليه السلام: «زينوا القرآن
بأصواتكم»^(٢).

رواه البراء بن عازب. وأخرجه أبو داود والنسائي، ويقول عليه السلام:
«ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أخرجه مسلم^(٣). ويقول أبو موسى للنبي ﷺ، لو

(١) سورة فصلت، الآية: ٤١ - ٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول النبي ﷺ: الماهر (الحديث: ٢٨١/٩)
تعليقاً، وأخرجه أحمد: (الحديث: ١٨٤٥١) و (الحديث: ١٨٤٧٢) و (الحديث: ١٨٦٥٩)
و (الحديث: ١٨٦٦٤)، وأخرجه الحاكم: ٥٧١/١، ٥٧٢/١، ٥٧٣/١،
٥٧٤/١، ٥٧٥/١. وأخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: قراءة القرآن
(الحديث: ٧٤٩) و (الحديث: ٧٥٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن
(الحديث: ٢٣٣ و ٢٣٤) بنحوه. وأخرجه أبو داود في كتاب: الوتر، باب: استحباب

أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبرته لك تحبيراً، وما رواه عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسير له سورة الفتح على واحلته فرجع في قراءته، وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وابن المبارك والنضر بن شمبل، وهو اختيار أبي جعفر الطبري وأبي الحسن بن بطلال والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم. قلت: القول الأول أصح لما ذكرناه ويأتي.

وأما ما احتجوا به من الحديث الأول فليس على ظاهره، وإنما هو من باب المقلوب أي زينوا أصواتكم بالقرآن. قال الخطابي: وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث: زينوا أصواتكم بالقرآن؛ وقالوا: هو من باب المقلوب كما قالوا: عرضت الحوض على الناقة، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض؛ قال: ورواه معمر عن منصور عن طلحة فقدم الأصوات على القرآن وهو الصحيح.

قال الخطابي: ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء أن رسول الله ﷺ قال: «زينوا القرآن بأصواتكم» أي الهجوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعاراً وزينة وقيل: معناه الحض على قراءة القرآن والدروب عليه، وقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «زينوا أصواتكم بالقرآن».

وروى عن عمر أنه قال «حسنوا أصواتكم بالقرآن» قلت: وإلى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أي ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن، كذلك تأوله عبد الله بن أبي مليكة.

قال عبد الجابر بن الورد: سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال عبد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فإذا رجل رث الهيئة، فسمعت يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرايت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع. ذكره أبو داود، وإليه يرجع أيضاً قول أبي موسى للنبي ﷺ: إن لو

التزيين في القرآن (الحديث: ١٤٧٣) بخرو. وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت (الحديث: ١٨٠/٢).

علمت أنك تستمع لقراءتي لحست صوتي بالقرآن وزينته ورتلته، وهذا يدل أنه كان بهذا^(١) قراءته مع حسن صوته الذي جبل عليه، والتحبير: التزيين والتحسين، فلو علم أن النبي ﷺ كان يسمعه لمد في قراءته ورتلها كما كان يقرأ على النبي ﷺ، فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة. ومعاذ الله أن يتأول على رسول الله ﷺ أن يقول: إن القرآن يزين بالأصوات أو غيرها، فمن تأول هذا فقد واقع أمراً عظيماً أن يحوج القرآن إلى من يزينه، وهو الثور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه، وقد قيل: إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا.

وتقدير ذلك أي زينوا القراءة بأصواتكم فيكون القرآن بمعنى القراءة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي قراءة الفجر، وقوله: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعْ لَهُ﴾^(٢) أي قراءته وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآناً، أي قراءة.

وقال الشاعر^(٣) في عثمان رضي الله عنه:

صحوا بأشعث عنوانه السجود به يقطع الليل تسيحاً وقرآناً

أي قراءة، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحاً إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدها على ما تبينه فيمتنع، وقد قيل: إن معنى يتغنى به يستغنى به من الاستغناء الذي هو ضد الافتقار، لا من الغناء، يقال: تغنيت وتغائيت بمعنى استغنيت.

وفي الصحاح: تغن الرجل بمعنى استغنى، وأغناه الله وتغائوا أي استغنى بعضهم عن بعض.

قال المتعبدة بن جبناء الشيمي:

(١) الهد في القراءة: الإسراع فيها.

(٢) سورة القيامة، الآية: ١٨.

(٣) هو حساد بن ثابت رضي الله عنه.

كنا غنى عن أخيه حياته ونحن إذا امتنا أشد تغاليا

والى هذا التأويل ذهب سفیان بن عیینة وروکیع بن الجراح، ورواه سفیان عن سعد بن أبی وقاص، وقد روى عن سفیان أيضاً وجه آخر، ذكره اسحاق بن زاهويه أي يستغني به عما سواه من الأحاديث والى هذا التأويل ذهب البخاري محمد بن إسماعيل لإتياعه الترجمة بقوله تعالى: ﴿أَوْلَتْ بِكَلِمَةٍ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمِكْنَبَ يُشَلِّ عَلَيْهِمْ لِيَكُ﴾^(١) والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم، قاله أهل التأويل.

وقيل إن معنى يتغنى به يتحزن به، أي يظهر على قارته الحزن الذي هو ضد السرور، عند قراءته وتلاوته، وليس من الغيبة لأنه لو كان من الغيبة لقال: يتغاضى ولم يقل يتغنى به، ودعب إلى هذا جماعة من العلماء: منهم الإمام أبو محمد بن حبان البستي، واحتجوا بما رواه مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه، قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. الأزيز بزايين: صوت الرعد وغيلان القدر. قالوا: فقي هذا الخبر بيان واضح عنى أن المراد بالحديث التحزن، وعضدوا هذا أيضاً، بما رواه الأئمة عن عبد الله قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ علي» فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٢) فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان، فهذه أربعة تأويلات ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي في قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال: كانت العرب تولع بالعتاء والنشيد في أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجيراًهم مكان العتاء فقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

التأويل الخامس: ما تأوله من استدل به على الترجيع والتطريب فذكر عمر بن شبة قال: ذكرت لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة في قوله: يتغنى

(١) سورة المكنب، الآية: ٥١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

يستغني، فقال: لم يصنع ابن عيينة شيئاً.

وسئل الشافعي عن تأويل ابن عيينة فقال: نحن أعلم بهذا، لو أراد النبي ﷺ الاستغناء لقال: من لم يستغن، ولكن لما قال: «يتغن» علمنا أنه أراد التغني. قال الطبري: المعروف عندنا في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع.

وقال الشاعر:

تغن بالشعر مهما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

قال: وأما ادعاء الزاعم أن تغنيت بمعنى استغنيت فليس في كلام العرب وأشعارها، ولا نعلم أحداً من أهل العلم قاله، وأما احتجاجه بقول الأعشى:

وكنت امرأة زماً بالعراق خفيت العناخ طويلاً التغن

وزعم أنه أراد الاستغناء فإنه غلط منه وإنما غنى الأعشى في هذا الموضع الإقامة من قول العرب: غنى فلان بمكان كذا أي أقام، ومنه قوله تعالى: ﴿يَكُنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾^(١) وأما استشهاده بقوله:

ونحن إذا متنا أشد تغانيا

فإنه إغفال منه، وذلك أن التغاني تفاعل من نفسين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال تضارب الرجلان إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه. ومن قال هذا في فعل الاثنين لم يجز أن يقول مثله في الواحد وغير جائز أن يقال: تغاني زيد وتضارب عمرو، وكذلك غير جائز أن يقال أتغنى بمعنى استغنى.

قلت: ما ادعاه الطبري من أنه لم يرد في كلام العرب تغنى بمعنى استغنى، فقد ذكره الجوهري كما ذكرناه وذكره الهروي أيضاً. وأما قوله: إن صيغة فاعل إنما تكون من اثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة: منها قول ابن عمر: وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام، وتقول العرب: طارقت الفعل وعاقبت اللص

(١) سورة هود، الآية: ٦٨.

وداويت العليل، وهو كثير، فيكون تغاني منها.

وإذا احتمل قوله عليه الصلاة والسلام: «يتغنن الغناء والاستغناء أولى» فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الاستغناء أولى، لو لم يكن لنا تأويل غيره. لأنه مروى عن صحابي كبير كما ذكر سفيان.

وقد قال ابن وهب في حق سفيان: ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة، ومعلوم أنه رأى الشافعي وعاصره.

وتأويل سادس: وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء أذنه لبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به».

قال الطبري: ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى قلنا: قوله يجهر به لا يخلو أن يكون من قول النبي ﷺ أو من قول أبي هريرة أو غيره. فإن كان الأول وفيه بعد فهو دليل على عدم التطريب والترجيح لأنه لم يقل: يطرب به. وإنما قال: يجهر به أي يسمع نفسه ومن يليه، بدليل قوله عليه السلام للذي سمعه وقد رفع صوته بالتهليل: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصم ولا غائياً الحديث وسيأتي كذلك إن كان من صحابي أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه.

وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال: وهذا أشبه لأن العرب تسمى كل من رفع صوته ووالى به غائياً، وفعله ذلك غناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء. قال: وعلى هذا فسر الصحابي وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال.

وقد احتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعي فقال: وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابن أبي شيبة، قال: حدثنا زيد بن الحباب قال حدثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتعلموا القرآن وعنتوا به واكتبوه فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيلاً من المخاض من العقل»^(١) قال علمائنا: وهذا الحديث وإن صح سنده فيرده ما يعلم على

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (الفتح الكبير ٢ - ٢٣١).

القطع والثبت من أن قراءة القرآن تلقيناً متواترة عن كافة المشايخ جيلاً فجيلاً إلى العصر الكريم إلى رسول الله ﷺ، وليس فيها تلحين ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين في مخارج الحروف وفي المد والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفية القراءات. ثم إن في الترجيع والتطريب همز ما ليس يهيموز ومد ما ليس بممدود، فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة^(١) الواحدة شبهات فيؤدي ذلك إلى زيادة في القرآن وذلك ممنوع. وإن وافق ذلك موضع ثير وهمز صيروها ثيرات وهمزات، والنبرة حينما وقعت من الحروف فإنما هي همزة واحدة لا غير، إما ممدودة وإما مقصورة.

فإن قيل: قد روى عبد الله بن معقل قال: قرأ رسول الله ﷺ في مسير له سورة الفتح على راحته فرجع في قراءته، وذكره البخاري، وقال في صفة الترجيع: أراءه ثلاث مرات.

قلنا: ذلك محمول على إشباع المد في موضعه، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هز الراحلة كما يعتري رافع صوته إذا كان راكباً من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب، وإذا احتمل هذا فلا حجة فيه. وقد أخرج أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: كانت قراءة رسول الله ﷺ المد ليس فيها ترجيع، وروى ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذن يطرب، فقال رسول الله ﷺ: «إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحاً سهلاً وإلا فلا تؤذن» أخرجه الدارقطني في سننه. فإذا كان النبي ﷺ قد منع ذلك في الأذان فأحرى ألا يجوزه في القرآن الذي حفظه الرحمن. فقال وقوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحَدِّثُكَ وَاللَّهُ لَمَّ كَلِمَاتٍ لَمَّا كَلِمَاتٍ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الضَّلُّ بِمُؤْتَمِرِينَ وَلَا يَنْزِيلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا﴾^(٣).

قلت: وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بتدريج الأصوات

(١) لعل أصل العبارة - والشين الواحدة شينات، أو والشدة الواحدة شدات.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٢.

وكثرة الترجمات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق
كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرؤون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون
على ذلك الأجور والجوائز.

ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذي الحكيم في
نوادير الأصول من حديث حذيفة: أن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا القرآن بلحون
العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي
قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم
وقلوب الذين يعجبهم شأنهم». اللحن: جمع لحن وهو التطريب وترجيع
الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء.

وأخرج ابن ماجه، وصححه ابن حبان والحاكم، من حديث فضالة بن عبيد
مرفوعاً: «لله أشد أذنأ - أي استماعاً (للرجل) الحسن الصوت بالقرآن، من صاحب
القبنة، إلى قبته. والقبنة المغنبة^(١)، وقال عمر بن شبة: ذكرت لأبي عامر
النبيل تفسير ابن عيينة فقال: لم يصنع شيئاً».

حدثني ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير، قال: كان داوود عليه
السلام يتغنى - يعني: حين يقرأ، ويكي ويكي، وعن ابن عباس: أن داوود كان
يقرأ الزبور سبعين لحناً، ويقرأ قراءة يطرب منها المحموم، وكان إذا أراد أن
يكي نفسه لم يبق دابة في بر ولا بحر إلا أنصت له، واستمعت، ويكت.
وبالجملة: فليس ما قرره سفيان بن عيينة بمدفوع وإن كانت ظواهر الأخبار
ترجح أن المراد: تجسين الصوت، ويؤيده قوله: «يجهر به»، ويمكن الجمع بين
أكثر التاويلات المذكورة، وهو أنه يحسن به صوته جاهراً به، مترنماً على طريق
التحزين، مستغنياً به عن غيره من الأخبار طالباً به غنى النفس، راجياً غنى اليد.

ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم، لأن للتطريب تأثيراً

(١). أخرجه ابن ماجه في كتاب: الإقامة، باب: في حسن الصوت بالقرآن (الحديث: ١٣٤٠). وأخرجه الحاكم: ٥٧١/١. وأخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: قراءة القرآن (الحديث: ٧٥٤).

في رقة القلب وإجراء الدموع وذلك سبب للرقعة، وإثارة الخشية، وإقبال النفوس على استماعه، وكان بين السلف اختلاف في جواز القراءة بالألحان، أما تحسين الصوت، وتقديم حسن الصوت على غيره فلا نزاع فيه.

وقد حكى القاضي عبد الوهاب المالكي عن مالك تحريم القراءة بالألحان وحكاة أبو الفليب الطبري وابن حمدان الحنبلي عن جماعة من أهل العلم، وحكى ابن بطال والقاضي عياض، والقرطبي - من المالكية، والماوردي، والبندنجي، والغزالي - من الشافعية، وصاحب الذخيرة - من الحنفية - الكراهة، واختاره أبو يعلى - وابن عقيل - من الحنابلة، وحكى ابن بطال عن جماعة من الصحابة والتابعين الجواز، وهو المتصوص للشافعي، ونقله الطحاوي عن الحنفية، وقال القوراني من الشافعية في الإبانة: يجوز، بل يستحب.

وسئل هذا الخلاف إذا لم يختل شيء من الحروف عن مخرجه، فلو تغير قال النووي في الشيبان! أجمعوا على تحريمه، ولفظه: أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ما لم يخرج عن حد القراءة بالتنطيط، فإن خرج حتى زاد حرفاً أو أخفاه حرم، قال: وأما القراءة بالألحان فقد نص الشافعي في موضع على كراهتها وقال في موضع آخر: لا بأس بها، فقال أصحابه ليس على اختلاف قولين، بل على اختلاف حالين، والبندنجي، وصاحب الذخيرة - من الحنفية: إن لم يفرط في التنطيط الذي يشوش النظم استحبه، وإلا فلا. وقال الرافعي: إن أفرط في المد وفي إشباع الحركات حتى يتولد من الفتحة الف، أو من الضمة واو، أو من الكسرة ياء، أو يدغم في غير موضعه كره، فإن لم يته إلى هذا الحد فلا كراهة.

وقال في زوائد الروضة: والصحيح أن الإفراط على الوجه المذكور، يفسد به القارىء، ويأثم المستمع، لأنه عدل به عن تهج القويم، قال: وهذا مراد الشافعي بالكراهة، وأغرب الرافعي فحكى عن أمالي السرخسي: أنه لا يضر التنطيط مطلقاً، وحكاة ابن حمدان رواية عن الحنابلة، وهذا شذوذاً لا يعرج عليه، والذي تحصل من الأدلة: أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن حسناً فليحس ما استطاع، كما قال ابن أبي مليكة، أحد رواة الحديث. وقد

أخرج ذلك عند أبو داود بإسناد صحيح.

ومن جملة تحسينه: أن يراعى فيه قوانين النغم، فإن الحسن الصوت يزداد حسناً بذلك، وإن خرج عنها أثر ذلك في حسه. وغير الحسن ربما انجبر بمراعاتها، ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل الفن، فإن خرج عنها لم يف تحسین الصوت بقیح الأداء، ولعل هذا مستند من كره القراءة بالأنغام، لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعى الأداء، فإن وجد من يراعيهما معاً فلا شك أنه أرجح من غيره، لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت، ويجنب الممنوع من حرم الأداء.

وقد ابتدع قوم في القرآن أصوات الغناء الجامعة للمنطرب الذي لا ينفك عن المد في غير موضعه، وزيادته فيه مما لا يجيزه الأئمة، وغير ذلك مما عمت به البلوى. قيل: وأول ما غنى به من القرآن قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّيِّئَةُ فَكَانَتْ لِلسَّكَكِينَ يُعْتَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾^(١)، نقلوا ذلك من تغنيهم بقول الشاعر:

أما القطاة فإني لست أنعتها نعتاً يوافق عندي بعض ما فيها

وقد قال عليه السلام في هؤلاء: مقتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم^(٢).

مسائل وأحكام تتعلق بالقرآن:

ذكر العلماء مسائل عدة تتعلق بالقرآن الكريم سواء بذاته أم عند تلاوته. وهي أحكام تتراوح بين الأمر والتدب والتبهي، وذلك تعظيماً لحرمة القرآن وقدميته. ومن هذه الأحكام:

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

(٢) هذا آخر حديث ذكره الحافظ أبو الحسين رزين، وأبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول من حديث حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها. وإياكم ولحون أهل الفسق، ولحون أهل الكتابين، وسيجيء بعدي قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم...» انظر القرطبي من ص ٨، ط الشعب - لطائف الإشارات للسيوطي (١/٢١٤).

أولاً - أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

ورد في صحيح البخاري أن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله تعالى^(١).

وقال أبو الليث السمرقندي في كتاب البستان: التعليم على ثلاثة أوجه: أحدها للحسبة ولا يأخذ به عوضاً، والثاني أن يعلم بالأجرة، الثالث أن يعلم بغير شرط، فإذا أهدى إليه قبل.

فالأول: مأجور عليه، وهو عمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والثاني: مختلف فيه، قال أصحابنا المتقدمون: لا يجوز، لقوله ﷺ (يلغوا عني ولو آية). وقال جماعة من المتأخرين يجوز، مثل عصام بن يوسف ونصر بن يحيى وأبي نصر بن سلام، وغيرهم قالوا: والأفضل للمعلم أن يشارط الأجرة للحفظ وتعليم الكتابة، فإن شارط لتعليم القرآن أرجو أنه لا بأس به، لأن المسلمين قد توارثوا ذلك واحتاجوا إليه.

وأما الثالث: فيجوز في قولهم جميعاً، لأن النبي ﷺ كان معلماً للمخلوق وكان يقبل الهدية، ولحديث اللديغ لما رقوه، بالفاتحة، وجعلوا له جعلاً، وقال النبي ﷺ: (واضربوا لي معكم فيها بسهم)^(٢).

ثانياً - تعليم القرآن وحفظه:

لقد بين النبي ﷺ فضل التعلم والتعليم للقرآن، فعن طريق عثمان (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)^(٣). وورد في الأثر (تعلموا القرآن خمساً خمس آيات، فإن النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل عليه السلام خمساً خمساً). وفي رواية (من تعلمه خمساً خمساً لم يتسه).

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب (الحديث: ٥٧٣٧).

(٢) انظر: الزمان، ح ٤٥٠/١.

(٣) رواه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن (الحديث: ٥٠٢٧).

فتعليم القرآن فرض كفاية على الأمة وكذا حفظه واجب. ومعنى هذا أن يبقى عدد التواتر موجوداً فيه، بحيث يضمن التبديل والتحريف، فإذا قام بهذا الواجب فنته فقد سقط الحكم عن الباقيين وإلا فالإثم لاحق بالكل. فإذا لم يوجد في بلدة أو قرية من يثلو القرآن تطرق الإثم إلى ساثرهم.

ومما يجب التنبيه إليه، أنه ينبغي تعليمه على التأليف المعهود، فإن هذا التأليف توقيفي. إلا ما رخص فيه عند تعليم الصبيان، وذلك بالابتداء من آخر المعوذتين، تدرجاً بالمفصل إلى البقرة^(١).

ثالثاً - القيام للمصحف:

لم يعهد القيام للمصحف في الصدر الأول، ولذا عدّه العز بن عبد السلام، بدعة ونقل عن النووي أن هذا القيام مستحب، قصد تعظيم القرآن وما له من شأن يقتضي العزوف عما يعتبر إهانة به وقد نص على أن هذا هو الصواب^(٢).

رابعاً - قطع القرآن لمكالمة الناس:

ينبغي ألا تقطع القراءة بغية كلام الناس، وبعد ذلك من باب المكروه لما فيه من تفضيل كلام الناس على تلاوة القرآن^(٣).

خامساً - مس المصحف للمحدث:

ذهب جمهور العلماء^(٤) إلى منع المحدث من مس المصحف، سواء كان الحدث، حدثاً أصغر أو حدثاً أكبراً، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٥).

(١) البرهان، ج ٢/٤٥٦، بتصرف.

(٢) انظر: الإنقان، ج ٢/١٧٢، البرهان، ج ١/٤٧٦.

(٣) البرهان، ج ٢/٤٦٤.

(٤) انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج ١/٤٢، ٥٠. الشعراني: الميزان الكبرى،

ج ١/١٢٢، والإنقان، ج ١٧٣، وانظر كتب الفروع.

(٥) سورة الواقعة، الآية: ٧٩.

سادساً - تعطيل بعض أوراق المصحف البالية:

عند الاحتياج إلى تعطيل بعض أوراق المصحف لبلاء أصابها، لا يجوز تعطيلها بأي تصرف تتعرض به لوطء الأقدام، كوضع في شق ونحوه، كما وأنه لا يجوز تمزيقها لما في من تقطيع للحروف والكلم، إذ هو إهانة وإزراء بكتاب الله تعالى. وتردد الأئمة بين طريقتين للتعطيل، بين الغسل والإحراق. والإحراق قام به عثمان رضي الله عنه يوم النسخ، لبعض الصحف المحتوية آيات وقراءات مسوخة، ولم تتعرض هذه الطريقة لمنكر.

وذكر عن البعض بأن الغسل أولى من الإحراق، ومنهم من منع الإحراق لما فيه من مخالفة للاحترام. وعند البعض أنه لا يحرق ولا يغسل، وإنما يحفر له فيدفن، وفي هذا نظر لأنه معرض لعلو الأقدام وطأ^(١).

ولعل طريقة الإحراق هي الأولى، لما لها من سابقة دون إنكار.

سابعاً - تقبيل المصحف:

ذكر السيوطي: أن تقبيل المصحف مستحب، وأن عكرمة بن أبي جهل كان يفعله. وعد ذلك لتقبيل الحجر قياساً، فضلاً عن كونه هدية.

وعند البعض روايات ثلاثة، الجواز والاستحباب، والثوقف وإن كان فيه رفعة وإكرام لمنع القياس هنا، فعمر رضي الله عنه قال: لولا أنني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك^(٢).

ثامناً - الاستحباب والندب:

على المرء المسلم أن يستجيب للأمور التالية من استحباب وندب بغية صون القرآن الكريم وعدم امتهانه، وذلك مما نقل عن كبار الأئمة وغالية العلماء. ومن هذه الأمور:

(١) البرهان، ج ١/ ٤٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: تقبيل الحجر (الحديث: ١٦١٠). وأخرجه أيضاً في الكتاب نفسه، باب: الحجر الأسود (الحديث: ١٥٩٧).

١ - أن يقرأ ترتيباً استجابة لأمر الله تعالى في القرآن، وأقل الترتيل أن يأتي بما بين ما يقرأ به، وإن كان مستعجلاً في قراءته، وأكمله أن يتوقف فيها ما لم يخرجها إلى التمديد والتمطيط. وكان حقاً على كل مسلم قرأ القرآن أن يرتله. وكمال ترتيبه تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه والإفصاح لجميعه بالتدبر حتى يصل بكل ما بعده، وأن يسكت بين النفس والنفس حتى يرجع إليه نفسه.

٢ - أن يشغل قلبه في التفكير في معنى ما يقرأ به، فيعرف من كل آية معناها، فيتأثر بها.

٣ - أن يتعوذ قبل القراءة عند ابتداء الترتيل استجابة لنداء الله تعالى في قرآنه.

٤ - أن يقرأ البسملة عند أول كل سورة، تحريزاً من مذهب الإمام الشافعي، ما عدا سورة براءة (التوبة)، ولا يجوز وصل البسملة بآخر السورة والوقوف عليها لأنه يوهم أن البسملة ملحقة بآخر السورة.

٥ - أن يكون متوضئاً، وجازاً للمحدث المحدث الأصغر قراءة القرآن دون من.

٦ - الاستياك وتطهير القم.

٧ - تطهير البدن بالطيب تكريماً لحال التلاوة.

٨ - أن يلبس من الثياب ما يتجمل به بين الناس.

٩ - أن يستقبل القبلة.

١٠ - أن يجهر بالقراءة وذلك في حال عدم الرياء، وفي حال عدم التأذي للمصلين والنائمين. وكان الجهر بالتلاوة من آدابها نظراً لتعدي فائدته إلى السامعين.

١١ - أن يفصل كل سورة عما قبلها إما بالوقف أو بالبسملة.

١٢ - أن يكون المكان نظيفاً طاهراً، وأفضل الأمكنة المساجد.

١٣ - أن يتميز بالخشوع والسكينة والوقار.

١٤ - أن يحسن صوته ويزينه.

١٥ - أن يقرأ حسب ترتيب المصحف، ورتخص في تعليم الصبية وغير العربي.

تاسعاً - المنع والكراهة:

- ١ - تكره قراءة القرآن حال خروج الريح من الإنسان.
- ٢ - يكره قطع القراءة لمكالمة الناس.
- ٣ - يكره التحدث بحضور قراءة القرآن.
- ٤ - يكره الضحك والعبث والنظر عند قراءة القرآن.
- ٥ - تكره قراءة القرآن بلا تدبير.
- ٦ - الإمساك عن القراءة عند الثأوب حتى يزول، لأن المرتل مخاطب ربه ومناجيه، والثأوب من الشيطان، لذا يستحب الاستعاذة بالله سراً من الشيطان.
- ٧ - يحرم السفر بالقرآن إلى أرض العدو.



الفصل الثالث

علم القراءات

١ - معنى القراءة:

قرأ الكتاب قراءة وقرآنًا، وقرأ الشيء قرآنًا بالضم أيضاً جمعه وضمه، ومنه سمي القرآن لأنه يجمع السور ويضعها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾... ﴿١٧﴾ وجمع القارئ قراء، مثل كافر وكفرة، والقراءة بالضم والعذ المتسك، وقد يكون جمعاً لقارئ^(١).

فالقراءات جمع قراءة، وقراءة، مصدر لقراء، وعندما تذكر القراءة، كأن تقول هذه قراءة حفص، فإنه يراد بها اصطلاحاً مذهب من مذاهب النطق في القرآن تبعاً لإمام من الأئمة القراء، لا يشاركه فيها غيره من بقية القراء.

وأعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبه الحروف أو كفيبتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما^(٢).

فالقراءات: علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقل. خرج النحر واللغة والتفسير، وما أشبه ذلك. والمقريء العالم بها من رواها مشافهة،

(١) أنظر: لسان العرب، ج ١/١٣٠. والقاموس المحيط، ج ١/٢٥. ومختار الصحاح،

٢٥٦. والمعجم الوسيط، ج ٢/٧٢٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ج ١/٣١٨.

فلو حفظ التيسير مثلاً، ليس له أن يقرئ بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به
مسللاً، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسمع والمشافهة، والقارىء
المبتدىء من شرع في الأفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات. والمتبهي من نقل
القراءات أكثرها وأشهرها^(١).

وقال ابن الجزري رحمه الله: ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ
الصدر والقلوب لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من
الله تعالى لهذه الأمة، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال:
«إن ربي قال لي قم في قریش فألذهم. فقلت له: رب إذا بثلغوا رأسي حتى
يدعوه خبزة، فقال: مبتليك ومبتلي بك، ومترل عليك كتاباً لا يغسله الماء،
تقرؤه نائماً ويقظاناً، قابض جنناً أبعت مثلهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك»
وأنتق ينفق عليك^(٢). فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة
تغسل بالماء بل يقرؤوه في كل حال، كما جاء في صفة أمه «أناجيلهم في
صدورهم»، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه لا في الكتب ولا
يقرؤونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب، ولما خص الله تعالى بحفظه من شاء من
أهله أقام له أئمة ثقات تجردوا لتصححهم، ووذلوا أنفسهم في إتقانه، وتلقوه من
النبي ﷺ حرفاً حرفاً، لم يهملوا منه حركة ولا سكوتاً ولا إثناناً ولا حذفاً، ولا
دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم، وكان منهم من حفظه كله، ومنهم من
حفظ أكثره، ومنهم من حفظ بعضه، كل ذلك في زمن النبي ﷺ. وقد ذكر
الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في أول كتابه في القراءات من نقل عنهم شيئاً من
وجوه القراءة من الصحابة وغيرهم. فذكر من الصحابة أبا بكر، وعمر، وعثمان
وعليا، وطلحة، وسعداء، وابن مسعود، وحذيفة، وسالماء، وأبا هريرة، وابن
عمر، وابن عباس وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله، ومعاوية، وابن الزبير وعبد
الله بن السائب، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وهؤلاء كلهم من المهاجرين،
وذكر من الأنصار أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبا الدرداء، وزيد بن ثابت،

(١) متحد المقرئين ومرشد الطالبين/ ٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة، باب: الصفات التي يعرف بها... (الحديث: ١٧٣).

وأبا زيد، ومجمع بن حارثة، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين^(١).

ويعد نسخ المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه، وإرساله عدة نسخ منها إلى شتى الأمصار، من الكوفة، والبصرة، والشام، ومكة، واليمن، والبحرين، وإيقائه لنسخة في المدينة، وإجماع الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف وترك ما خالفها. فقد قرأ كل أهل مصر بما في مصحفهم و تلقوا ما فيه عن الصحابة الذين تلقوه من في رسول الله ﷺ ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ.

٢ - أترجم الأئمة القراء وطرق آسانيدهم:

أولاً - نافع:

هو أبو رويم بن عبد الرحمن بن أبي نعيم. ولد سنة (٧٠) وتوفي سنة (١٦٩) ثقة ثبت صالح^(٢). أصوله من أصبهان. ذو لون أسود حالك صبيح الوجه. حسن الخلق. أخذ القراءة عرضاً عن جماعة من التابعين من أهل المدينة، أخذ عن: عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، ومسلم بن جندب، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وصالح بن خوات، وشيبة بن نصاح، ويزيد بن رومان.

وقرأ الأعرج على عبد الله بن عباس وأبي هريرة وعبد الملك بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وسمع شيبة القراءة من عمر بن الخطاب، وقرأ مسلم وشيبة وابن رومان على عبد الله بن عياش، وقرأ صالح على أبي هريرة، وقرأ الزهري على سعيد بن المسيب، وهو بدوره قرأ على ابن عباس وأبي هريرة، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وابن عياش على أبي بن كعب، كما قرأ ابن عباس على زيد بن ثابت.

(١) النشر في القراءات العشر، ج ١/٦.

(٢) أنظر ترجمة نافع في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥/٣٦٨. والنشر في القراءات العشر، ج ١/١١٢.

وقرأ كل من أبي وزيد وعمر رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ^(١)

ثانياً - ابن كثير المكي:

هو عبد الله أبو معيط العطار الداري الفارسي الأصل. إمام أهل مكة في القراءة. ولد سنة (٤٥) وتوفي رحمه الله سنة (١٢٠).

كان ابن كثير أمام الناس في القراءة بمكة، لم يتازعه فيها منازع، قال ابن مجاهد^(٢): لم يزل هو الإمام المجتمع عليه في القراءة بمكة حتى مات. وقال الأصمعي: قلت لأبي عمرو قرأت على ابن كثير؟ قال: نعم، ختمت على ابن كثير بعدما ختمت على مجاهد وكان أعلم بالعربية من مجاهد وكان قصيحاً بليغاً مفوهاً أيضاً اللحية، طويلاً أسمر جسيماً أشهلاً يخضب بالحناء، عليه السكينة والوقار، لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير وأبا أيوب الأنصاري وأنس بن مالك رضي الله عنهم.

وقرأ على عبد الله بن السائب بن أبي السائب المخزومي، وعليه أبي الحجاج مجاهد بن جبر المكي، وعليه درياس مولى ابن عباس.

وقرأ عبد الله بن السائب على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب.

وقرأ أبو الحجاج على عبد الله بن عباس وعبد الله بن السائب.

وقرأ درياس على مولاة ابن عباس. وقرأ ابن عباس على أبي بن كعب وزيد بن ثابت.

وقرأ أبي وزيد وعمر على رسول الله ﷺ^(٣).

ثالثاً - أبو عمرو بن العلاء:

هو زيان بن العلاء التميمي المازني البصري. ولد سنة (٦٨) وتوفي سنة

(١) سعيد الأفغاني: مقدمة تحقيق حجة القراءات لابن زنجلة/ ٥٠.

(٢) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي صاحب كتاب السبعة في القراءات. وصاحب الروية العالمية في القراءات والدفاع عنها. توفي سنة (٣٢٤).

(٣) الشر في القراءات العشر، ج ١/ ١٤٩.

(١٥٤). إمام في العربية والإقراء مع الصلح والثقة والزهد وازدياد الشيوخ عن غيره، قرأ بمكة والمدينة، وبالكوفة والبصرة على جماعة كثيرة، وسمع أنس بن مالك وغيره. قرأ على أبي جعفر بن القعقاع ويزيد بن رومان وشيبة بن نصاح وعبد الله بن كثير ومجاهد بن جبر والحسن البصري وأبي العالية وحميد بن قيس الأعرج المكي وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى بن عباس وعاصم بن أبي النجود ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر: وجل هؤلاء يتعمون في القراءة إلى أبي موسى الأشعري وعمر بن الخطاب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وابن عباس وأبي هريرة وعثمان.

وقرأ أبو موسى الأشعري وعمر بن الخطاب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وعثمان رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ^(١).

رابعاً - ابن عامر:

هو إمام أهل الشام أبو عمران عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة اليحصبي ولد سنة إحدى وعشرين للهجرة، وقيل سنة ثمان. كان إماماً كبيراً وتابعياً جليلاً وعالمياً شهيراً، أم المسلمين بالجامع الأموي سنين كثيرة في أيام عمر بن عبد العزيز، الذي كان يأنم به، وهو أمير المؤمنين، فضلاً عما عرف من مناقبه، وخاصة جمعه بين الإمامة والقضاء ومشيخة الإقراء بدمشق، ودمشق آنذاك دار الخلافة ومحط رجال العلماء والتابعين، وأجمع الناس على قراءته، وعلى تلقيها بالقبول، وهم الصدر الأول الذين هم أفاضل المسلمين^(٢).

خامساً - عاصم:

هو إمام الكوفة وقاريتها، أبو بكر عاصم بن أبي النجود بن بهدلة الأسدي، توفي سنة ١٢٧ هـ، وقيل سنة ١٢٨ هـ.

(١) انظر: كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد، ص ٢٩. وكذلك النشر في القراءات العشر، ج ١، ص ١٤٣.

(٢) النشر في القراءات العشر، ج ١، ص ١٤٤ - ١٤٦. ومقدمة تحقيق حجة القراءات لابن زنجلة، ص ٥٧.

جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد، وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكما وصفه الإمام أحمد بن حنبل: عاصم رجل صالح ثقة خير.

قرأ على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب وبيعة السلمي الضرير، وعلى ابن مريم زرين حيش بن حياشة الأسدي، وعلى أبي عمرو معد بن الياس الشيباني وقرأ هؤلاء على عبد الله بن مسعود، كما قرأ كل من السلمي وزر على عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.

وقرأ ابن مسعود وعثمان وعلي وأبي وزيد على رسول الله ﷺ.

سادساً - حمزة:

هو إمام الكوفة أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي الزيات. ولد سنة (٨٠ هـ) وتوفي سنة (١٥٦ هـ) عن ست وسبعين من العمر. كان رحمه الله - إمام الناس في القراءة بالكوفة بعد عاصم والأعمش، وكان ثقة كبيراً حجة قيمة بكتاب الله مجوداً عارفاً بالفرائض والعربية، حافظاً للحديث ورعاً غابداً خاشعاً نامكاً زاهداً قانتاً لله، لم يكن له نظير، وقد لقب بحبر القرآن، وروى عنه، أنه قال: ما قرأت حرفاً من كتاب الله إلا بأثر.

قرأ على الأعمش وعلي بن حمزة حمزان، وعلي بن إسحاق، وعلي بن أبي ليلى، وعلي طلحة الياحي وعلي جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، وقراءة من ذكر تنسب إلى علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، وكل من علي وابن مسعود قرأ على رسول الله ﷺ.

سابعاً - الكسائي:

هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن يهمل بن فيروز الكسائي

(١) النشر، ج ١، ص ١٤٦ - وفيات الأعيان، ج ٣/٩.

(٢) أنظر في ذلك: النشر، ج ١/١٥٨.

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢/٢١٢ (وعنه أخذ أبو الحسن الكسائي القراءة).

مقدمة تحقيق حجة القراءات لابن زنجلة/ ٦٠.

الكوفي ولد سنة تسع عشرة ومائة وتوفي سنة (١٨٩). وكان رحمه الله أمام الناس في القراءة في زمانه وأعلمهم بالقراءة. وقال أبو بكر بن الأبياري: اجتمعت في الكسائي أمور: كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم في الغريب. وكان أوحد الناس في القرآن فكانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط الأخذ عليهم، فيجمعهم في مجلس ويجلس على كرسي ويتلو القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون ويضبطون عنه حتى المقاطع والمبادئ، وقال ابن معين: ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي^(١).

وقد ألف الكتب الكثيرة في اللغة والنحو والقراءة منها: معاني القرآن، القراءات، مقطوع القرآن وموصله، الهاءات، وقد توفي رحمه الله ومحمد بن الحسن القاضي صاحب أبي حنيفة مع الرشيد متوجهاً إلى خراسان، فقال الرشيد: دفنا الفقه والنحو بالري^(٢).

ثامناً - القعقاع:

هو إمام قراء المدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المدني تابعي مشهور ثقة. روى ابن مجاهد عن أبي الزناد، قال: لم يكن بالمدينة أحد أقرأ للسنن من أبي جعفر. وقال ابن خلكان^(٣): مات أبو جعفر يزيد بن القعقاع سنة الثنتين وثلاثين ومائة بالمدينة، وقال غيره: مات سنة ثمان وعشرين ومائة، وقال أبو علي الأهوازي في أول كتاب الإقناع، في القراءات، قال ابن جمار: ولم يزل أبو جعفر إمام الناس في القراءة إلى أن توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة بالمدينة. وقيل إنه توفي في سنة ثلاثين ومائة والله أعلم. قرأ على مولاة عبد الله بن عياض بن أبي ربيعة المخزومي، وعلى الحبر عبد الله بن عباس وعلى أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي، وقرأ هؤلاء على أبي الحنذر أبي بن كعب الخزرجي وقرأ أبو هريرة وابن عباس على زيد بن ثابت، وقيل إن أبا جعفر قرأ

(١) النشر، ج ١/ ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) الأفغاني في مقدمة تحقيق حجة القراءات لابن زنجلة، ٦٢.

(٣) وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٧٥.

بنفسه على زيد بن ثابت وقرأ أبي وزيد رضي الله عنهما على رسول الله ﷺ^(١).

تاسعاً - يعقوب الحضرمي:

هو أبو محمد يعقوب بن اسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي بالولاء، البصري المقرئ المشهور، وهو أحد القراء العشرة، وهو المقرئ الثامن^(٢)، وله في القراءات رواية مشهورة منقولة عنه، وهو من أهل بيت العلم بالقراءات والعربية وكلام العرب والرواية الكثيرة للحروف والفقه وكان من أقرأ القراء^(٣).

وتوفي رحمه الله سنة (٢٠٥ هـ) على الأصلح، وله من العمر ثمان وثمانون عاماً^(٤).

ويتهيئ سند يعقوب في القراءة إلى أبي موسى الأشعري، وأبو موسى قرأ بنفسه على رسول الله ﷺ. وسنده يمتاز بقاءة من الصحة والعلو كما قال ابن الجزري، بعد ذكر سلسلة السند المتدرجة في العلو والصحة^(٥).

عاشراً - خلف بن هشام:

هو أبو محمد بن هشام بن تغلب، ويقال: هشام بن طالب بن غراب البزاز المقرئ، توفي سنة تسع وعشرين ومائة^(٦). كان إماماً كبيراً عالمياً ثقة زاهداً عابداً^(٧). وسنده في القراءة هي أسانيد كل من المقرئين عاصم والكسائي، وأسانيد هذين رحمهما الله تعالى إلى النبي ﷺ قد ذكرت. وهي تعود إلى زيد بن

(١) النشر، ج ١/ ١٧٤.

(٢) هو المقرئ الثامن في تعداد ابن خلكان، كما ورد، وترقيمه في المذكرة التاسع، وهذا مني على ما نهلت من ابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر. هذا ما يلاحظ للتتبع.

(٣) وفيات الأعيان، ج ٦/ ٣٩٠.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) النشر، ج ١/ ١٨٠ - ١٨٢.

(٦) الوفيات، ج ٢/ ٢٤٣.

(٧) النشر، ج ١/ ١٩٠.

ثابت وعلي وأبي وعثمان وابن مسعود^(١).

٣ - التعريف بأئمة القراءات الشاذة:

أ - محمد بن عبد الرحمن السهمي بالولاء المكي. له رتبة العلمية من حيث الثقة والقراءة. إلا أن قراءته اعتبرت من الشواذ، لكونها قد خالفت رسم المصحف.

وذكر أنه لما أجاز القراءة بالشاذ، عقد له مجلس استتيب فيه بعد اعترافه، وكتب على نفسه محضراً بالتوبة. توفي سنة (١٢٣ هـ).

ب - يحيى بن المبارك العدوي بالولاء البصري. كان لغوياً مقرئاً وثقة علامة، وخاصة في العربية والنحو. أخذ القراءة عن أبي العلاء وحمزة. توفي سنة (٢٠٢ هـ).

ج - الحسن البصري (أبو سعيد بن يسار). له مكانته العلمية المعروفة، قرأ على الرقاشي، والرقاشي أخذ عن أبي موسى الأشعري، وعن أبي العالية عن أبي بن كعب وزيد بن ثابت وعمربن الخطاب. وبالفصاحة شهد له الشافعي. وكما قيل فيه الحسن البصري أشهر من أن يعرف. توفي سنة (١١٠ هـ)^(٢).

د - سليمان بن مهران، أبو محمد الكوفي مولى بن أسد، إمام جليل توفي سنة (١٤٨ هـ)^(٣).

٤ - «أقسام القراءات»:

أولاً - مشاهير أقوال الأئمة في تقسيم القراءات:

أ - ذهب القاضي جلال الدين البلقيني إلى القول بتقسيم القراءة إلى ثلاثة

(١) انظر ترجمة كل من عاصم والكسائي السابقة. وأنظر كذلك النشر، ج ١/ ١٩٠.

ومقدمة الأفغاني في تحقيق حجة القراءات لابن زنجلة، ص ٦٣.

(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٦٩/٢.

(٣) يتصرف من: مقدمة حجة القراءات لابن زنجلة، ص ٧٣ وما بعدها.

أنواع، هي:

١ - القراءة المتواترة، وهي القراءات السبعة المشهورة.
٢ - القراءة الأحادية، وهي القراءات الثلاثة المكملة للعشرة، ويلحق بها قراءة الصحابة.

٣ - القراءة الشاذة، وهي قراءات التابعين كالأعمش وابن ثابت يحيى وابن جبير ونحوهم^(١).

ب - وذهب الإمام السيوطي إلى وجهة مبنية على مقول ابن الجزري، فقال: أتقن ابن الجزري هذا الفصل جراً وقد تحرر لي منه أن القراءات أنواع:

١ - المتواترة وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن قسطنطين إلى متناه، وغالب القراءات كذلك.

٢ - المشهورة: وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة المتواتر ووافق العربية والرسم واشتهر عند القراء، فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، ويقرأ به على ما ذكره ابن الجزري.

٣ - الآحاد، وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور ولا يقرأ به.

٤ - الشاذ، وهو ما لم يصح سنده وفيه كتب مؤلفة، من ذلك قراءة ملك يوم الدين، بصيغة الماضي.

٥ - الموضوع، وهو كقراءات الخزامي - (إنما يخشى الله من عباده العلماء) برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء. نسبها إلى الإمام أبي حنيفة. ويقول السيوطي: وظهر لي سادس يشبه من أنواع الحديث المدرج، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير كقراءة سعد بن أبي وقاص (وله أخ أو أخت من أم)... وهكذا^(٢).

ج - وذهب الإمام المحقق ابن الجزري - رحمه الله - إلى وضع قاعدة اجتمعت فيها خصائص القراءة الصحيحة فقال: هي عند أئمة التحقيق من السلف

(١) الإقنان، ج ١/٧٥.

(٢) الإقنان، ج ١/٧٧.

أنها (كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية، ولو احتمالاً وضح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين؛ ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة، أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عن من هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق^(١).

وما قاله ابن الجزري هو ما استحسه السيوطي، إذ يقول فيه: وأحسن من تكلم في هذا النوع أمام القراء في زمانه شيخ شيوخنا أبو الخير ابن الجزري^(٢).

وهذا ما أشار إليه «أبو شامة»^(٣) وأكثر، فقال: لا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تعزى إلى أحد السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة، وأنها أنزلت هكذا، إلا إذا دخلت في ذلك الضابط، وحيث لا يفرد بنقلها ووصف عن غيره ولا يختص ذلك بنقلها عنهم، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء، فذلك لا يخرجها عن الصحة، فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف، لا على من تنسب إليه، فإن القراءة المنسوبة إلى كل قارئ في السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم^(٤).

ثانياً - خصائص القراءة الصحيحة عند أئمة التحقيق:

فمما قد لاحظته سابقاً، أن أئمة التحقيق قد اعتمدوا شروطاً، يلزم وجودها في القراءة حتى تأخذ حكم الصحة، كما حقق ذلك أمام القراء ابن الجزري، وهذه الشروط تبان وتوضح بالآتي:

(١) ابن الجزري: الشر في القراءات العشر، ج ١/٩.

(٢) الإنفان، ج ١/٧٥.

(٣) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة المقدسي (٦٦٥ هـ).

(٤) الإنفان، ج ١/٧٥.

١ - الموافقة للعربية ولو بوجه: والمراد، موافقتها للعربية ولو بوجه من وجوه النحو، سواء كان أفصح أم نصيحاً، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله ما دامت هذه القراءة قد شاعت وداع أمرها وتلقيت بالإستاد الصحيح، كما في إسكان (بارتكم)^(١). وقال أبو عمرو الداني: وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الألف في اللغة، والأفيس في العربية، بل على الأئمة في الأثر والأصح في النقل والرواية إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فلو لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها^(٢).

٢ - الموافقة لأحد المصاحف، ويراد به الموافقة لبعض المصاحف، كما في قراءة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾^(٣) بغير واو عند ابن عامر وكما في ﴿وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٤) بزيادة الباء في الاسمين موافقة للمصحف الشامي.

وسواء كانت هذه الموافقة صريحة أم احتمالية، أي ولو على سبيل التقدير، وذلك بعد كما في القراءة المخالفة لصريح الرسم بالإجماع في (السموات، الصلوة، الربوا). فموافقة القراءة هنا تقديرية، لا تصريحية، أو أن يقال: احتمالية لا تحقيقية. وقد توافق البعض من القراء الرسم تحقيقاً، والبعض الآخر تقديراً، كما في: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٥) مرسومة بغير ألف في جميع المصاحف، وقراءة الحذف تحقيقية، وقراءة الإتيان - أي زيادة الألف - تقديرية (ألف قصيلة).

٣ - صحة سند القراءة: ويعني به كينونة القراءة مروية عن العدل الضابط عن مثله حتى منتهى السند، فضلاً عن شهرتها عند أئمة هذا الشأن، وغير معدومة عندهم من الغلط أو من الشواذ ولو عند البعض^(٦).

(١) النشر، ج ١/٩.

(٢) ذكره ابن الجزري في النشر، ج ١/١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٤.

(٥) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

(٦) انظر النشر، ج ١/٩ - ١٠. والإتقان، ج ١/٧٥.

وقال ابن مجاهد^(١): فمن حملة القرآن المحرّب العالم بوجوه الإعراب والقرآن العارف باللغات ومعاني الكلمات البصير بعيب القراءات المتقدم للآثار، فذلك الإمام الذي يفرّج إليه حفاظ القرآن في كل مصر من أمصار المسلمين، ومنهم من يعرب ولا يلحن ولا علم له بغير ذلك، فذلك كالأعرابي الذي يقرأ بلغته ولا يقدر على تحويل لسانه فهو مطبوع على كلامه. ومنهم من يؤدي ما سمعه ممن أخذ عنه ليس عنده إلا الأداء لما يعلم، لا يعرف الإعراب ولا غيره، فذلك الحافظ، فلا يلبث مثله أن ينسى إذا طال عهده فيضيع الإعراب لشدة تشابهه وكثرة فتحه وضمه وكسره في الآية الواحدة لأنه لا يعتمد على علم بالعربية ولا يعبر بالمعاني يرجع إليه، وإنما اعتماده على حفظه وسمعه، وقد ينسى الحافظ فيضيع السماع ونشبه عليه الحروف، فيقرأ بلحن لا يعرفه، وتدعوه الشبهة إلى أن يرويه عن غيره ويبرئ نفسه، وعسى أن يكون عند الناس مصدقاً فيحمل ذلك عنه، وقد نسيه ووهم فيه وجسر على لزومه والإصرار عليه، أو يكون قد قرأ على من نسي وضيع الإعراب ودخلته الشبهة فتوهم، فذلك لا يقلد القراءة ولا يحتج بنقله.

ومنهم من يعرب قراءته ويصير المعاني ويعرف اللغات، ولا علم له بالقراءات اختلاف الناس والآثار، فربما دعاه بصره بالإعراب إلى أن يقرأ بحرف جاتر في العربية لم يقرأ به أحد من الماضيين فيكون بذلك مبتدعاً^(٢).

ثم ذكر آثاراً فيما قاله ونبه عليه، منها:

قول عبد الله بن مسعود «اتبعوا ولا تتدعوا فقد كفيتم».

قول حذيفة بن اليمان «اتقوا الله يا معشر القراء. وخذوا طريق من كان قبلكم والله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموهم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً».

(١) هو الإمام الحافظ أبو بكر أحمد ابن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي المتوفى سنة (٣٢٤ هـ).

(٢) ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات/ ٤٦. تحقيق شويفي ص ١٠٠.

قول علي بن أبي طالب من طريق عبد الله بن مسعود (أن رسول الله ﷺ
بأمركم أن تقرؤا القرآن كما علمتم).

فالقراءة كما وردت سنة ملزمة ولا يصح الخروج عنها، وقد أشار الأئمة
إلى هذه السنة المتبعة، وحظرية الخروج عنها:

قال أبو عمرو بن العلاء: لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قد قرىء به
لقرأت حرف كذا وحرف كذا وكذا.

وروى الأصمعي عن عمه، قال: قلت لأبي عمرو بن العلاء (وباركنا عليه)
في موضع وقال (وتركنا عليه) في موضع، أيعرف هذا؟ فقال: ما يعرف إلا أن
يسمع من المشايخ الأولين. وقال أبو عمرو: إنما نحن قبيح مضي كيقبل في
أصول نخل طوال.

وقال محمد بن المنكدر: قراءة القرآن سنة يأخذها الأول عن الآخر. وهذا
ما أكدته الصحابي الجليل، زيد بن ثابت بقول: (القراءة سنة) وفي قبول آخر:
(القراءة سنة، فاقروا كما تجدونه)^(١).

فميزان الأخذ بالقراءة على الأئمة في الأثر والأصح في النقل وإذا ثبت
الرواية لم يرد لها قياس عربية ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها
والمصير إليها، وهذا ما عليه أئمة القراء^(٢).

ثالثاً: مرتبة القراءة الصحيحة من العلو والإستناد:

أ - تواتر القرآن:

قبل النظر في مرتبة القراءة الصحيحة يلزم التعرف على مرتبة القرآن، مما
لا خلاف فيه أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواتراً في أصله وأجزائه،
وأما في محله ووضع وترتيبه فكذلك عند محققي أهل السنة، للقطع بأن العادة
تقتضي بالتواتر في تفاصيل مثله، لأن هذا المعجز العظيم الذي هو أصل الدين
القوميم والصراط المستقيم مما تتوفر الدواعي على نقل جملة وتفصيله، فما نقل

(١) كتاب السبعة في القراءات / ٤٩.

(٢) ذكر ذلك عن الداني.

آحاداً ولم يتواتر بقطع بأنه ليس من القرآن قطعاً، وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط في ثبوت مما هو من القرآن، بحسب أصله، وليس بشرط في محله ووضع وترتيبه، بل يكثر الآحاد، قبل وهو الذي يقتضيه صنع الشافعي في إثبات البسمة من كل سورة ورد هذا المذهب بأن الدليل السابق يقتضي التواتر في الجميع... وقد بنى المالكية وغيرهم ممن قال بإنكار البسمة قولهم على هذا الأصل، وفرروا بأنها لم تتواتر في أوائل السور، وما لم يتواتر فليس بقرآن، وأجيب من قبلنا بمنع كونها لم تتواتر قرب تواتر عند قوم دون آخرين في وقت دون آخر، ويكتفي في تواترها إثباتها في مصاحف الصحابة فمن بعدهم بخط المصحف مع منعهم أن يكتب في المصحف ما ليس منه كأسماء السور وآمين والأعشار، فلو لم تكن قرآناً لما استجازوا إثباتها بخطه من غير تمييز، لأنه يحمل على اعتقادها قرآناً فيكونون مغررين بالمسلمين حاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآناً، وهذا مما لا يجوز اعتقاده في الصحابة^(١).

وقال الغزالي في البسمة، منبهاً على الفرق بين مسألتي التواتر والوضع: والبسمة من القرآن في سورة النحل^(٢) فهي مقطوع بكونها من القرآن، وإنما الخلاف في أنها من القرآن مرة واحدة أو مرات كما كتبت، فهذا يجوز أن يقع الشك فيه، ويعلم بالاجتهاد، ولأنه نظر في تعيين موضع الآية بعد كونها مكتوبة بخط القرآن، فهذا جائز وقوعه، والدليل على إمكان الوقوع وأن الاجتهاد وقد تطرق إليه، أن النافي لم يكفر الملحق والملحق لم يكفر النافي، بخلاف القوت والشهد فصارت البسمة نظرية، وكتبتها بخط القرآن مع القرآن مع صلاية الصحابة وتشددهم في حفظ القرآن عن الزيادة قاطع، أو كالقاطع في أنها من القرآن فإن قيل: فالمسألة صارت نظرية وخرجت عن أن تكون معلومة بالتواتر علماً ضرورياً فهي قطعية أو ظنية، قلنا: الإنصاف أنها ليست قطعية، بل هي اجتهادية، ودليل جواز الاجتهاد فيها وقوع الخلاف فيها في زمان الصحابة رضي الله عنهم، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما سرق الشيطان من الناس آية، ولم

(١) الإنفاق، ج ١/ ٧٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٠.

يكفر بالحقاقها بالقرآن، ولا أنكر عليه. وتعلم أنه لو نقل الصديق رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ، لو نقل أن القنوت في القرآن لعلم بطلان ذلك بطريق قاطع لا شك فيه، وعلى الجملة إذا أنصفنا وجدنا أنفسنا شاكين في مسألة البسمة، قاطعين في مسألة التعمود والقنوت وإذا نظرنا في كتبها مع القرآن بأمر الرسول ﷺ، مع أن الاجتهاد لا ينطرق إلى أصل القرآن، أما ما هو مكتوب من القرآن وهو مكتوب بخطه، فالاجتهاد فيه ينطرق إلى تعيين موضعه، وأنه من القرآن مرة أو مرات. . . فإن قيل قد أوجبتم قراءة البسمة في الصلاة، وهو مبني على كونها قرآناً، ويكونها قرآناً لا يثبت إلا بالظن فإن الظن علامة وجوب العمل في المجتهديات، وإلا فهو جهل أي ليس يعلم كالتتابع في قراءة ابن مسعود قلنا: وردت أخبار صحيحة صريحة في وجوب قراءة البسمة، وكونها قرآناً متواتراً معلوم، وإنما المشكوك فيه، أيها قرآن أمرة في سورة النمل، أو مرات كثيرة، في أول كل سورة، فكيف تساوى قراءة ابن مسعود، ولا يثبت بها القرآن، ولا هي خبر، ومهما صحت أخبار في وجوب البسمة، وصح بالتواتر أنها من القرآن، وعلى الجملة فالفرق بين المسألتين ظاهر^(١).

وقال صاحب مسلم الثبوت^(٢): قالوا اتفاقاً، ما نقل آحاداً فليس بقرآن قطعاً، ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب، بدليل: أن القرآن مما تتواتر الدواعي على نقله لتضمنه التحدي، ولأنه أصل الأحكام باعتبار المضي والنظم جميعاً، حتى تعلق بنظمه أحكام كثيرة ولأنه يتبرك به في كل عصر بالقراءة والكتابة، ولذا عني جمهور الصحابة في حفظه بالتواتر القاطع وكل ما تتوفر دواعي نقله، ينقل متواتراً عادة، فوجوده ملزوم للتواتر عن الكل عادة، فإذا

(١) الغزالي: المصطفى، ج ١/ ١٠٤. والنظر شرح مسلم الثبوت، ج ٢/ ١٩. غالب البسمة آية من القرآن وإن اختلف فيها.

(٢) هو الإمام المحقق الشيخ محب الله ابن عبد الشكور، وأما الشارح له، فهو العلامة عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري. وهذا الكتاب يمثله وشرحه، من مصنفات الأصول عند الأحناف.

انتفى اللازم، وهو التواتر انتفى الملزوم قطعاً، والمنقول آحاداً ليس متواتر فليس قرآناً^(١).

ب - مرتبة القراءات :

ذهب الأئمة والأعلام إلى القول بتواتر القراءات الصحيحة المشهورة، سوى ما ورد عن الزركشي من القول بتواترها عن النبي ﷺ، فيه نظر^(٢) وهذا مخالف لما ارتأه الجمهور وأصحاب اليد الطولى في هذا الشأن، أمثال ابن الحاجب^(٣) والسبكي، والبيهقي^(٤)، والقراي، وغيرهم كثير. ثم إن التواتر ليس محصوراً في القراءات السبع فحسب، المعروفة، بقراءة كل من نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم بن أبي النجود، وحمزة بن أبي الزيات والكسائي، وابن عامر. هكذا كما ورد في مسبعة ابن مجاهد^(٥). والذي أثبت الكسائي من السبعة، هو ابن مجاهد على رأس الثلاثمائة، بدلاً من يعقوب الحضرمي^(٦).

ويلحق بالتواتر ثمة العشرة، وهم: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، أمام قراء المدينة ويعقوب الحضرمي، وخلف بن هشام.

ونظراً لما ورد في بعض كتب القراءات، من التنصيص على جواز القراءة في الصلاة، وغيرها بالقراءات السبع، وعلى عدم جواز ذلك بالشاذ، ومن أن هذا الظاهر قد يوهم أن غير السبعة من الشواذ، فقد نبه الأئمة، الذين يعتمد عليهم في قفل هذه القضايا، الناس على ما قد يتوهم، فبينوا ما ينبغي فهمه، والأخذ به، فنقل البيهقي: الإتفاق على القراءة بقراءة يعقوب وأبي جعفر مع

(١) فوائح الرحموت شرح مسلم الثبوت، ج ٢/ ٩.

(٢) البرهان، ج ١/ ٣١٩.

(٣) أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدونمي ثم المصري الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب، توفي سنة (٦٤٦ هـ).

(٤) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، المعروف بالقراء، البصري، الفقيه الشافعي توفي في شوال سنة (٥١٥ هـ).

(٥) كتاب السبعة في القراءات/ ٥٠ وما بعدها.

(٦) الإتقان، ج ١/ ٨١.

السبع المشهورة، ثم قال (واعلم أن الخارج عن السبع المشهورة على قسمين منه ما يخلف رسم المصحف، فهذا لا شك في أنه لا تجوز قراءته لا في الصلاة ولا في غيرها، ومنه ما لا يخالف رسم المصحف، ولم تشتهر القراءة به، وإنما ورد في طريق غريب، لا يعول عليها، وهذا يظهر المنع من القراءة به أيضاً ومنه ما اشتهر عن أئمة هذا الشأن القراءة به قديماً وحديثاً، فهذا الأوجه للمنع منه ومن ذلك قراءة يعقوب وغيره، قال والبيهقي أولى من يعتمد عليه في ذلك، فإنه مقرئ فقيه جامع للعلوم، قال: وهكذا التفصيل في شواذ السبعة، فإن عنهم شيئاً كثيراً شاذاً. هذا ما قال به، وما نقل عن البيهقي، الإمام الشيخ تقي الدين السبكي^(١).

وإن كانت القراءات السبع قد تميزت بشيء من الذكر والتدوين في بعض الكتب، كما في التيسر للشاطبي، وغيره كما في كتاب السبعة لابن مجاهد، فإن هذا التمييز لا يعطيها حقبة التواتر، دون غيرها، من القراءات العشر المكتملة، ولذا فقد نالت القراءات الثلاث المنعمة للعشرة، تقيماً ما نالت القراءات السبعة الأوائل، من حيثية التواتر، ومن ضرورة المعلوم من الدين، دون نزاع، أو مجادلة، وإلا فعدم التسليم بذلك جهل ومكابرة^(٢)، وامتنازت القراءات السبع بالذكر والتصويم، عندما أراد الناس الاقتصار على قراءات موافقة للرسم، وأئمة القراءات آنذاك كثيرة فنظروا إلى إمام مشهور بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة به، والاتفاق على الأخذ عنه، فأفردوا من كل مصر إماماً واحداً ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات، ولا القراءة به^(٣)، ولما وقع الاختيار على هذه القراءات السبع، صادف موافقة عدد الأحرف السبع، مما شكل قهماً خاطئاً عند من لم يفتن أصل هذه المسألة.

ولما كان من طبع هذا الاتفاق في العدد بين القراءات المختارة، والأحرف السبعة قد يشكل الوهم وسوء الفهم لدى الناس، فقد تعقب الأئمة هذا الاتفاق

(١) ذكر ذلك السيوطي بإتقانه، ج ١/٨١. وانظر البرهان، ج ١/٣١٩.

(٢) المرجع السابق، ٨٢. وانظر المناهل، ج ١/٤٣٠.

(٣) المرجع السابق، ٨١.

المصادف، تارة بالتيبان، وتارة أخرى بالتأنيب على ابن مجاهد، لعدم تداركه لهذه الزلة العقوبة. قال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل^(١).

وقال أبو العباس بن عمار: لقد نقل سبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإبهامه كل من قل نظره، أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر. وليته إذا اقتصر، نقص عن السبعة، أو زاد، ليزيل الشبهة، ووقع له أيضاً في اقتضائه على كل إمام على راويين، إنه صار من سمع قراءة راوٍ ثالث غيرهما أبطها^(٢).

ربما كان اختيار السبعة، لتقرير المناسبة، مع عدد المصاحف العثمانية، التي ارتحلت إلى الأمصار، وهي مع المحتمل منها تعد سبعة^(٣).

ولذا وقع الاختيار على أئمة، ذاعت شهرتهم، وطالت أعمارهم، فكان أبو عمرو من أهل البصرة، وحمزة وعاصم من أهل الكوفة وسوادها، والكسائي من العراق وابن كثير من أهل مكة، وابن عامر من أهل الشام، ونافع من أهل المدينة. واعلم أن التمسك بقراءة سبعة فقط ليس له أثر ولا سنة، وإنما السنة أن تؤخذ القراءة، إذا اتصلت روايتها نقلاً وقراءةً ولفظاً، ولم يوجد طعن على أحد من روايتها. وإنما وقع عليهم الاختيار لما عرف عنهم من صفات وأمارات علمية، وخلقية امتازوا بها عن غيرهم، ولعزم المختار لها، على أنه لا يروى إلا ممن اشتهر بالضبط والأمانة والعلم، وطول ملازمته للقراءة واتفاق الآراء على الأخذ منه^(٤).

(١) المرجع السابق، ٨٠.

(٢) الإتقان، ج ١/٨٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) نفس المرجع، وانظر المناهل ج ١/١١٠.

٥ - رأي الإمام أبي محمد مكي^(١) في مدى قبول القراءة ورفضها :

هذا الرأي الذي ينقله عنه الإمام المحقق ابن الجزري، وبه تظهر الفوارق بين القراءة الصحيحة والقراءة الشاذة، وهذا ما يفصده تبيان من حيثية مكانة القراءة الشاذة نقل ابن الجزري عن الإمام مكي، فقال: وقال الإمام أبو محمد مكي في مصنفه الذي الحقه بكتاب الكشف، له: فإن سأل سائل، فقال: ما الذي يقبل من القرآن الآن فبقراً به؟ وما الذي لا يقبل ولا يقراً به؟ فالجواب أن جميع ما روي في القرآن على ثلاثة أقسام:

١ - قسم بقراً به اليوم، وذلك ما اجتمعت فيه ثلاث خصال فهو أن ينقل عن الثقات عن النبي ﷺ، ويكون وجهه في العربية، التي نزل بها القرآن سائغاً، ويكون موافقاً لخط المصحف فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث قرئ به، وقطع على معية وصحته وصدقه، لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقة خط المصحف وكفر من جهده.

٢ - القسم الثاني، وهو ما صح نقله عن الأحاد وصح وجهه في العربية، وخالف لفظه خط المصحف، فهذا يقبل ولا يقراً به، لعنتين، أحدهما أنه لم يؤخذ بإجماع، إنما أخذ بأخبار الأحاد، ولا يثبت قرآن به بخير الواحد، والعلة الثانية أنه مخالف لما قد أجمع عليه فلا يقطع على معية وصحته، وما لم يقطع على صحته لا يجوز القراءة به، ولا يكفر من جهده ولبس ما صنع إذا جهده.

٣ - القسم الثالث، وهو ما نقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية، فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف^(٢).

وقد ذكر ابن الجزري أمثلة لهذه الأقسام الثلاثة، فمثل القسم الأول في

(١) أبو محمد مكي بن أبي طالب بن حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ. توفي سنة (٤٣٧ هـ) بقرطبة. له تصانيف كثيرة، وخاصة في علوم القرآن والقراءات.

(٢) النشر، ج ١/٩ بشي من التصرف.

﴿ مالك وملك ﴾^(١) و ﴿ ويخدهون دعون ﴾^(٢) و ﴿ يطوع وتطوع ﴾^(٣)، وهذه من القراءات المشهورة. وللقسم الثاني، (وما خلق الذكر والأنثى) بقراءة عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء (والذكر والأنثى) بإسقاط (وما خلق) وفي قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَثَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ . . . ﴿ وَأَمَّا الْفُلَانُ فَمَنْ أَتَاهُ . . . ﴾ (الكهف: ٧٩). بقراءة ابن عباس (وكان إمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وأما الغلام فكان كافراً) وللقسم الثالث، كما في ﴿ لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾^(٤) بقراءة ابن السميع وأبي السمال (وتكون لمن خلقك آية) بفتح سكون اللام. والقراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة، والتي لا أصل لها (إنما يخشى الله من عباده العلماء) برفع هاء لفظ الجلالة وفتح همزة العلماء. علماً بأن أبا حنيفة بريء مما نسب إليه، وما نسب إليه إلا وضعاً وزوراً. وهذا القسم يصدر عن غير ثقة.

وهناك قسم ثاني، ويصدر عن غير ثقة، ولا وجه له في العربية، ولا يكون هذا إلا من قبيل السهو والغلط وعدم الضبط، مثل ما رواه أبو علي العطار عن العباس عن أبي عمرو (ساحران تظاهرا) بتشديد الظاء. وهناك قسم ثالث هو أولى بالرد والرفض، وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل اليته، قال ابن الجزري: فهذا رده أحق ومنعه أشد ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر^(٥). وقد ذكر أن أبا بكر محمد بن الحسن بن مقسم البيهقي المقرئ النحوي أجاز القراءة بالقياس، فحدث أن عقد له مجلس ببغداد حضره الفقهاء والقراء وأجمعوا على منعه وأوقف للغرب فتاب ورجع وكتب عليه بذلك محضره ومن ثم فقد امتعت القراءة بالقياس المطلق، وهو الذي لا أصل له في القراءة يرجع إليه، ولا ركن وتحقيق في الأداء يعتمد عليه^(٦). وهذا ما أشرنا إليه سابقاً، وحاصله اتفاق الرواية عن جمع من الصحابة والتابعين، أمثال عمر بن الخطاب

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٨ - ١٨٤.

(٤) سورة يونس، الآية: ٩٢.

(٥) النشرة ج ١/١٦ - ١٧ بتصرف.

(٦) المرجع السابق نفسه.

وزيد بن ثابت، وابن المنكدر، وعروة ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز، وعاصم، والشعبي، أنهم قالوا القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول، فاقروا كما علمتموه.

٦ - «وجوه الاختلاف في القراءات»:

قبل ذكر منطلقات الاختلاف في القراءات، ووجوهها، ينبغي الإشارة إلى ملامح الفروق بين الأحرف السبعة، والقراءات السبع، حتى لا يشوب الفكر خلط بين هاتين المسألتين.

فالقراءات السبعة، هي تلك القراءات المنسوبة إلى أئمة القراءات السبعة الذي تقدم ذكرهم آنفاً. وأما الأحرف السبعة، هي تلك الأحرف التي أنزل القرآن عليها، والتي كانت موضع وجهات نظر متعددة، في توجيه معناها ومرادها، والتي وصلت إلى ما يقارب أربعين وجهة، منها القريب، ومنها البعيد.

ومما لا خلاف فيه بين العلماء المعتمدين أن الأحرف السبعة التي ذكر النبي ﷺ أن القرآن أنزل عليها ليست قراءات السبعة المشهورة^(١).

ونقل ابن الجزري عن القاضي عياض^(٢)، حول هذا التشابه، فقال عنه: فبين بما ذكرناه^(٣) أن القراءات المنسوبة إلى نافع وعاصم ليست هي الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها، وذلك باتفاق علماء السلف والخلف، وكذلك ليست هذه القراءات السبع هي مجموع حرف واحد من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعتمدين، بل القراءات الثابتة عن الأئمة القراء كالأعمش ويعقوب وخلف وأبي جعفر وشيبة ونحوهم هي بمنزلة القراءات الثابتة عن هؤلاء السبعة، عند من ثبت ذلك عنده، وهذا أيضاً مما لم يتنازع فيه الأئمة المتبعون من أئمة الفقهاء والقراء وغيرهم، وإنما تنازع الناس من الخلف في

(١) قاله ابن تيمية، ذكره صاحب النشر، ج ١/ ٣٩.

(٢) القاضي أبو الفضل عياض بن موسى البحصي السبتي ولد سنة (٤٧٠ هـ) وتوفي سنة (٥٤٤ هـ).

(٣) ذكر قبل ذلك من أن القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول.

المصحف العثماني الإمام الذي أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون لهم بإحسان والأمة بعدهم، هل هو بما فيه من قراءة السبعة وثماني العشرة، وغير ذلك من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها؟ أو هو مجموع الأحرف السبعة؟ على قولين مشهورين، والأول قول أئمة السلف والعلماء، والثاني قول طائفة من أهل الكلام والقراء وغيرهم^(١).

وهذا ما ينبغي ملاحظته، فإن القراءات تفوق بعددها السبعة، وصلت إلى العشرة وهي متواترة اشتهرت بين الأئمة والأمة، بالأخذ والقبول، وأنه لا رقص لقراءة اجتمعت فيها أركان الصحة، وأنه لا قبول لقراءة شاذة، وأنه لا تناسب مقصود بين الأحرف السبعة، والقراءات السبع، وأن القراءات العشر على حرف واحد من الأحرف السبعة، عند من يقول بجمع القرآن أخيراً، على حرف واحد منها، وأن القراءات العشر الثابتة، هي محتوى مجموع الأحرف السبعة عند من يقول بجمع القرآن على مجموعها السبعة.

٧ - «منطلق اختلاف القراءات»:

ذكر صاحب البرهان، تحت مبحث (معرفة اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص أو تغيير) الأمر السابع (أوجه اختلاف القراء)، وأرجعها إلى سبعة أوجه:
أولاً: الاختلاف في الإعراب، أو في الحركات، دون تغيير لصورتها ومعناها.

ومثال ذلك، قوله تعالى: ﴿فَنظِرَةً إِنَّ مَيَّسَّرَةً﴾^(٢) قرئت بالنصب، وقرئت بالرفع (وميسرة) والرفع قراءة نافع والنصب قراءة الباقين^(٣).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾^(٤) قرئت بفتح الباء

(١) النشر، ج ١/ ٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.

(٣) البرهان، ج ١/ ٣٣٤. هامش. وانظر: حجة القراءات لابن زنجلة/ ١٤٩. قال: وهما لغتان مثل (المشرفة والمشرقة).

(٤) سورة النساء، الآية: ٣٧.

والخاء عند حمزة والكسائي وخلف، وعند الباقيين برقع الباء وتسكين الخاء^(١).

ثانياً: اختلاف في إعراب الكلمة في حركات، يتغير به المعنى مع بقاء الصورة، مثال قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾^(٢) قرئت (ربنا باعد) عند يعقوب، وقرئت (ربنا باعد) عند الباقيين^(٣).

ثالثاً: اختلاف في تبديل حروف الكلمة مثال قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ آلِطَّائِرِ كَيْفَ تُنشِرُهَا﴾^(٤). قرأها كل من ابن عامر وعاصم، وحمزة والكسائي وقرأها الباقيون (نشرها) دون إعجام الراء^(٥).

رابعاً: اختلاف في الكلمة بما يغير صورتها، مع بقاء المعنى، ومثاله ما قرئ في قوله تعالى: ﴿كَأَلَيْهِنَّ السَّمَوَاتُ﴾^(٦) قرئت عند ابن مسعود (كالصوف المنفوش) والقراءات المشهورة الثابتة على الأولى. أما الثانية قراءة ابن مسعود - تقبل إذا صحت روايتها ولا يقرأ بها لمخالفتها لخط المصحف، فضلاً عن ثبوتها بخبر الأحاد^(٧).

خامساً: اختلاف في الكلمة بما يغير صورتها ومعناها معاً، مثال قوله تعالى: ﴿وَتَلَوَّحَ مَنشُورٌ﴾^(٨)، قرئت شذوذاً ﴿وَتَلَوَّحَ مَنشُورٌ﴾^(٩) وهذا لا يقرأ به لمخالفته الخط. ويقبل منه ما لم يكن فيه تضاد لما عليه المصحف^(٩).

سادساً: اختلاف بالتقديم والتأخير، مثال قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ

(١) حجة القراءات / ٢٠٣. قال: وهما لغتان مثل (التَّخْرُؤُ وَالْحَزْنُ وَالرَّشْدُ وَالرُّشْدُ).

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٩.

(٣) البرهان، ج ١ / ٣٣٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

(٥) حجة القراءات / ١٤٤. وانظر هامش البرهان، ج ١ / ٣٣٤. وانظر ابن خالويه في

الحجة في القراءات السبع / ١٠٠.

(٦) سورة القارعة، الآية: ٥.

(٧) البرهان، ج ١ / ٣٣٥.

(٨) سورة الواقعة، الآية: ٢٩.

(٩) البرهان، ج ١ / ٣٣٥.

يَأْتِي ﴿١١﴾ وقرئت عند أبي بكر وابن مسعود (وجاءت سكرة الحق بالموت) وأمثال هذا، لا يقرأ به فهو مخالف للمصحف (٢).

سابعاً: اختلاف في الحروف والكلم، زيادة ونقصاناً، مثال قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ (٣) وقرئت ﴿وما عملت أيديهم﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْدَقُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٥)، قراها الكل وقرأ ابن كثير بإثبات (من) (من تحتها الأنهار) (٦).

هي في مصحف مكة مثبتة - إثبات من - وفي بقية المصاحف - الشام والكوفة والبصرة والمدينة - بدون من.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٧) قال ابن زنجلة: قرأ نافع وابن عمر: فإن الله الغني الحميد «ليس فيها» هو «وكذلك في مصاحفهما». وقرأ الباقون «فإن الله هو الغني الحميد» (٨).

ويقبل من هذا الوجه، شرط أن لا يحدث حكماً لم يقل به أحد، ويقرأ منه ما اتفقت عليه المصاحف في إثباته وحذفه، ونحو ذلك مما اختلفت فيه المصاحف، التي وجه بها عثمان إلى الأمصار، شرط ألا يخرج عن خط المصحف، لا يزداد شيء، لم يزد فيها، ولا ينقص شيء، لم ينقص منها (٩).

(١) سورة ق، الآية: ١٩.

(٢) البرهان، ج ١/ ٣٣٦.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٥.

(٤) قراها حمزة والكسائي وأبو بكر حجة القراءات / ٥٩٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

(٦) حجة القراءات، ٣٢٢.

(٧) سورة الحديد، الآية: ٢٤.

(٨) حجة القراءات / ٧٠٢، وانظر الشوكاني في فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية)، ١٧٧: قرأ الجمهور (هو الغني) بإثبات ضمير الفصل، وقرأ نافع وابن عامر (فإن الله الغني الحميد بحذف الضمير).

(٩) البرهان، ج ١/ ٣٣٧.

٨ - «رأي الرازي في أوجه الاختلاف في القراءات»:

يرى أبو الفضل الرازي، أن الكلام لا يخرج اختلافه عن سبعة أوجه، هي:

- ١ - اختلاف الأسماء من أفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث ومبالغة.
- ٢ - اختلاف في تصريف الأفعال، وما يسند إليه، والإسناد إلى المذكر والمؤنث. والمتكلم والمخاطب والفاعل والمفعول به.
- ٣ - اختلاف الإعراب.
- ٤ - الزيادة والنقصان.
- ٥ - التقديم والتأخير.
- ٦ - القلب والإبدال، بين كلمة وكلمة وبين حرف وحرف.
- ٧ - اختلاف اللغات. من فتح وإمالة، وترقيق وتضخيم، وتحقيق وتسهيل، وإدغام وإظهار^(١).

٩ - «رأي ابن قتيبة في وجوه الاختلاف»:

ينطلق الاختلاف في القراءات، عند ابن قتيبة، من سبعة أوجه، هي:

- ١ - في الإعراب، مع بقاء الصورة والمعنى، كما في (أَطَهَرَ وَأَطْهَرَ) و(ميسرة وميسرة) وهكذا...
- ٢ - في الإعراب وحركات البناء، مع بقاء على الصورة، كما في (ربنا باعِدًا) و(ربنا باعِدْ).
- ٣ - اختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير المعنى، مع بقاء الصورة، كما في (نشرها) و(نشرها).
- ٤ - اختلاف في الكلمة، مع تغيير الصورة والمعنى، كما في (طلع منضود) و(طلع منضود).

(١) ذكره ابن الجزري في النشر، ج ١/ ٢٧.

٥ - اختلاف في الكلمة بما يغير الصورة، مع بقاء المعنى، كما في (كالهين المنفوش) (كالصوف المنفوش).

٦ - اختلاف في التقديم والتأخير، كما في (وجاءت سكرة الموت بالحق) قرئت في موضع (وجاءت سكرة الحق بالموت).

٧ - اختلاف بالزيادة والنقصان، كما في (إن الله هو الغني الحميد) قرئت في موضع (إن الله الغني الحميد)^(١).

١٠ - «رأي إمام القراء المحقق ابن الجزري»:

ثم إن الإمام ابن الجزري، حصر أوجه الاختلاف في القراءات، في سبعة، هي:

١ - في الحركات مع المحافظة على المعنى والصورة، كما في (البُخْل) و (البُخْل).

٢ - في الحركات بما يغير المعنى فقط، دون الصورة، كما في (فتلقى آدم من ربه كلمات).

٣ - في الحروف بما يغير المعنى، دون الصورة، كما في (تبلوا، وتتلوا).

٤ - أو بما يغير الصورة دون المعنى، كما في (الصراط، والسراط).

٥ - في الحروف بما يغير المعنى والصورة، كما في (فامضوا إلى ذكر الله) في موضع.

٦ - بالتقديم والتأخير، كما في (وجاءت سكرة الموت بالحق) وفي موضع (وجاءت سكرة الحق بالموت).

٧ - بالزيادة والنقصان، كما في (وما خلق الذكر والأنثى) وفي موضع (والذكر والأنثى) هذا الاختلاف في أوجه القراءات، عدى القراءات مطلقاً، الصحيح منها وغير الصحيح. وهذا ما صرح به ابن الجزري^(٢).

(١) النشر، ج ١/ ٢٧.

(٢) النشر، ج ١/ ٢٦.

وأما ما تبقى من اختلاف بين القراءات، في الإظهار، والإدغام، والروم
والاشمام وغير ذلك، بما يعبر بالأصول، ما هي إلا صفات متنوعة عند الأداء،
ولا تأثير لها على المعنى، ولا على صورة الخط^(١).

قال ابن جزري^(٢): «واعلم أن اختلاف القراء على نوعين. أصول وفرش
الحروف، فأما الفرش فهو ما لا يرجع إلى أصل مضطرد، ولا قانون كلي، وهو
على وجهين:

اختلاف في القراءة باختلاف المعنى، أو بإتفاق المعنى. وأما الأصول،
فالاختلاف فيها لا يغير المعنى، وهي ترجع إلى ثمان قواعد:

الهمزة، والتحقيق والإدغام، والإمالة، والترقيق، والتضخيم، والوقف
ومراعاة الخط^(٣).

وقد استبعد ابن الجزري، أن تكون الأصول من أوجه الاختلاف في
القراءات، نظراً لعدم تأثيرها على المعنى والصورة. ولو كانت من أوجه
الاختلاف، واقتراضاً، فإنها تكون من الوجه الأول، أي من الاختلاف في
الحركات البنائية بما لا يتغير معه معنى ولا صورة خط. ومنعقد مبحثاً خاصاً
بالأصول، ومدى العلاقة بينها وتواتر القراءة، فيما بعد.

١١ - «خلاصة القول في أوجه اختلاف القراءات»:

وخلاصة القول، في منطلق أوجه اختلاف القراءات، عند من تقدم ذكره،
من الأئمة الأعلام، تكاد تحصر في الآتي:

أ - يقرأ به، فيما اختلف في حركاته، وحروفه، تبديلاً كانت، أو إثباتاً أو
حذفاً، تغير المعنى أو لم يتغير شرط أن يرد ذلك - التبديل والإثبات والحذف -
في مصاحف الأمصار، وإلا لا تجوز القراءة به. ويقرأ به أيضاً في الإثبات

(١) النشر، ج ١/ ٢٧.

(٢) الحافظ المفسر الفقيه محمد بن أحمد بن جزري الكلبي المالكي.

(٣) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١/ ١٣.

الحذف - زيادة أو نقصاناً - في الكلم ما دام له وجود في رسم مصاحف
الأمصار، اتفاقاً أو اختلافاً.

ب - لا يقرأ به، تلك القراءات الواقعة في اختلاف تبديل الكلم، واختلاف
التقديم والتأخير لأنها أوجه، لم يوجد لها أصل في رسم المصاحف، فضلاً عن
كونها أحادية، والقراءات الثابتة، متواترة الصحة والسند. وبهذا يظهر الفرق بين
قولهم في اللهجة والقراءة الشاذة، فالأحادية معتبرة من القراءات الشاذة، وهذه
القراءات ذات أثر وتأثير في توضيح بعض المعاني والأحكام، كما يظهر ذلك
قيماً بعد، عند الحديث عن توجيه القراءة الشاذة.

وأما ما كان من باب الاختلاف في الأداء، أو ما يعبر عنه بالأصول فلا
يدخل تحت أوجه الاختلاف، التي ذكرت، لأن الاختلاف الأدائي، لا
دخل له في قرش الحروف والرسم، وإنما هي مظاهر لغات ولهجات
متعددة، وإن كانت عند الرازي من أوجه الاختلاف، وليست عند ابن
قتيبة وشيخ المحققين - الجزري - من أوجه الاختلاف، لأنه لا تأثير لها
على المعنى، ولا على الرسم، ولذا فقد تدارك ابن الجزري من احتمال
فرضيتها، فاعتبرها من باب اختلاف الحركات التي لا تأثير له على المعنى أو
الرسم.

واعلم أن: كل ما صح عن النبي ﷺ من ذلك فقد وجب قبوله، ولم يسع
أحداً من الأمة رده، ولزم الإيمان به، وإن كل منزل من عند الله، إذ كل قراءة
منها مع الأخرى، بمنزلة الآية مع الآية، يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما
نظمته من المعنى، علماً وعملاً ولا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى،
ظناً، أن ذلك تعارضاً، وإلى ذلك أشار عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه،
بقوله: لا تختلفوا في القرآن، ولا تنازعوا فيه، فإنه لا يختلف ولا يتساقط، إلا
تروى أن شريعة الإسلام فيه واحدة، حدودها، وقراءتها وأمر الله فيها واحد، ولو
كان من الحرفيين حرف، يأمر بشيء ينهي عنه الآخر، كان ذلك الاختلاف،
ولكنه جامع ذلك كله، ومن قرأ على قراءة، فلا يدعها رغبة عنها، فإنه من كفر

بحرف منه كثر به كله^(١).

وأشار ابن الجزري إلى الفرق بين اختلاف القراء، واختلاف الفقهاء، فقال: فإن اختلاف القراء كل حق وصواب، نزل من عند الله، وهو كلامه، لا شك فيه، واختلاف الفقهاء، اختلاف اجتهادي، والحق في نفس الأمر فيه واحد، فكل مذهب بالنسبة إلى الآخر صواب يحتمل الخطأ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب في نفس الأمر، تقطع بذلك، ونؤمن به، ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف، إلى من أضيف إليه من الصحابة، وغيرهم، إنما هو من حيث أنه كان أصب له وأكثر قراءة وإقراء به، وملازمة له، وميلاً إليه، لا غير ذلك. وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراء، ورواتهم، المراد بها أن ذلك القارىء، وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه، من اللغة حسبما قرأ به، فأخذه على غيره، وداوم عليه، ولزمه حتى اشتهر، وعرف به، وقصد فيه، وأخذ عنه، فلذلك أضيف إليه، دون غيره من القراء، وهذه الإضافة إضافة اختيار، وداوم، ولزوم، لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد^(٢).

١٢ - «فائدة اختلاف القراءات ووجوهها»:

لاختلاف القراءات - فوائد عديدة، منها:

أ - الكمال في البلاغة والإعجاز والاختصار وروعة الإيجاز، لأن كل قراءة قائمة مقام آية، فتتوخ القراءة بكلمة، فيها سمات الإعجاز وغاية التحدي.

ب - عظمة البرهان، ووضوح الدلالة والإنقاد، ولا تناقض، مع ما فيه من تعدد أوجه القراءات ومع ذلك فهو مصدق لبعضه البعض، ومبين، وشاهد، كل ذلك على نمط واحد وهل هذا إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من أنزل عليه، صلوات الله وسلامه عليه.

ج - سهولة الحفظ والتيسير في النقل على هذه الأمة، ولا شك أن حفظ

(١) النشر، ج ١/ ٥١.

(٢) النشر، ج ١/ ٥٢.

كلمة ذات أوجه أسهل وأقرب إلى الفهم والقبول من التعدد في الجمل من الكلام، تؤدي تلك المعالي المعبر عنها بالكلم الموجز المبين المعجز.

د - بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، من حيثية التلقي والإقبال والبحث عن لفظة لفظة - والكشف عن الصيغ، وتبيان ذلك كله مع إتقان تجويده وحمايته من عيوب التحريف، وحفظه من الطغيان والتطويق، فبينوا ذلك، من فرش الحرف إلى كيفية أدائه، وضبط ذلك كله بأصول وقواعد تحميه من التحريف، وهل هو إلا كلام الله رب العالمين.

هـ - بيان فضل هذه الأمة بخصيصة لم تعرفها البشرية، وهي اتصال السند، وصدق الرواية في قراءة كل حرف، ونمط الأداء، لكل قارئ، وإعادته لها إلى أصلها.

و - الدلالة على إعجاز القرآن الكريم، معر الدهور - وأنه محفوظ، بالصدور محفوظ بالعناية الإلهية^(١).

ز - ومن فوائد الاختلاف في أوجه القراءات، تعدد الأقوال والآراء في أحكام شرعية، نذكر منها:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا الْقُرْآنَ أَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْعَائِلَةِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾^(٢).

فكلمة (لمستم) بالرسم العثماني، خطت دون ألف ظاهرة، ومع ذلك، فقد اختلف في قراءتها، بين (لمستم) و (لامستم) دون تقدير ألف وبني على هذا الاختلاف بين القراء، اختلاف بين الفقهاء، قرأ نافع، وابن كثير وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم، وابن عامر، بالألف، أي (لامستم) وقرأ حمزة والكسائي، بحذف الألف، أي (لمستم)^(٣).

(١) الشرح في القراءات العشر، ج ١/ ٥٣ بتصرف واختصار.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٣) كتاب السبعة في القراءات/ ٢٣٤. وانظر: تفسير ابن كثير، ج ١/ ٥٠٢، وتفسير فتح

وفي البيان اللغوي، اختلاف بين الأئمة، في التفرقة بين لامستم ولمستم
مما أثر هذا الاختلاف في القراءة، ومبنى ذلك، في مفهوم، الدلالة لهذه
الكلمة.

فورد عن حقيقة اللمس: إصاق الجارحة بالشيء، وهو عرف في اليد،
لأنها آتة الغالبة، وقد يستعمل كناية عن الجماع. وقالت طائفة: اللمس هنا
الجماع. وقالت أخرى: هو اللمس مطلقاً، لغةً وشرعاً، فأما اللغة فقد قال
الميرد^(١): لمستم: وطئتم. ولامستم: قبلتم، لأنها لا تكون إلا من اثنين،
والذي يكون بقصد وفعل المرأة، هو التقبيل، فأما بالوظيفة فلا عمل لها فيه.

قال أبو عمرو: الملامسة، الجماع، واللمس لسائر الجسد.

وهذا كله استقرار، لا نقل فيه عن العرب، وحقيقة النقل، أنه كله سواء،
و(أولمستم) محتمل للمعنيين، جميعاً، كقوله: لامستم، ولذلك لا يشترط
الرجل شيئاً من المرأة.

وقال ابن عباس: أن الله تعالى حي كريم يعف، كنى باللمس عن الجماع.
وقال ابن عمر: قبلت الرجل امرأته، وجسها بيده من الملامسة، وكذلك
قال ابن مسعود^(٢).

وتبعاً لذلك، فقد اختلف من المراد من كلمة (لمستم) عند الفقهاء وترتب
على ذلك وجهتا نظر، أحدهما للأحناف، الذين قالوا: إنها المجامعة وعلى ذلك
فمن جس أو لمس جسد امرأة، لا وضوء عليه، وما زال ظاهراً.
وذهب الشافعية إلى نقض الوضوء باللمس، معللين ذلك بمراد اللمس في

القديم، ج ١/٤٧١.

(١) أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمرو بن حسان الأزدي البصري المعروف
بالميرد النحوي. توفي سنة (٢٨٦ هـ) الوفيات ٤/٣١٧.

(٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ج ١/٤٤٢. وانظر تفسير ابن كثير، ج ١/٥٢. فيه بيان
لطيف.

الآية بأنه اللمس مطلقاً، سواء كان لمساً جزئياً أم مجامعة^(١).

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿وَسْتَأْتُونَكَ مِنَ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ مَا فَضَّرَ لَكُمْ اللَّهُ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٢).

فكلمة (يطهرن) قرأها نافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر، وعاصم في رواية حفص عنه، بتسكين الطاء وضم الهاء (يطهرون)^(٣).

والطهر هو: انقطاع الحيض.

والتطهر، هو: الاغتسال.

وترتب على اختلاف القراء بين التسكين والتشديد، اختلاف بين الفقهاء في حكم مباشرة الحائض، فذهب الجمهور إلى أن الحائض، لا يحل إتيانها حتى تغتسل، حملاً على قراءة التشديد.

وذهب الأحناف إلى حل إتيان الحائض، عند انقطاع الدم عنها، متممة بالانقطاع الحد الأقصى للحيض، وهو عشرة أيام. وهذا الحكم بناء على قراءة التخفيف (يطهرن) وأما قبل تمام الحد الأقصى، وإن انقطع دمها، فلا يحل إتيانها إلا بعد الاغتسال^(٤).

وتعرض ابن العربي^(٥) لهذه المسألة، عارضاً الأقوال فيها، ثم قال والتعلق بالآية، يدفع في وجهين، أحدهما: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ متحققاً، وقرىء (حتى يطهرن) مشدداً.

والتخفيف، وإن كان ظاهراً، في استعمال الماء، فإن التشديد فيه أظهر.

- (١) انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج ١/ ٣٨. وانظر في حجة كل من الوجهين: الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، ص/ ١٢٤. تحقيق عبد المال سالم مكرم.
- (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
- (٣) السبعة في القراءات/ ١٨٢.
- (٤) تفسير الشوكاني، ج ١/ ٢٢٦. وانظر ابن خالويه/ ٩٦.
- (٥) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف، بابن العربي المعافري الأشيلي المالكي. توفي سنة (٤٣ هـ) ودفن بمدينة قاس.

لقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا ﴾ (١)

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿ وَجَدْتُمْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْسَابَهُمْ فَصَدَّكُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّنَةِ مِنَ الْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (٣)

لم يتفق القراء على قراءة (ألا يسجدوا)، فقرأها الكسائي، بالتخفيف، أي (ألا يسجدوا) دون تشديد (ألا).

وقراها الباقون، بالتشديد (ألا يسجدوا) (٤).

وبناء على اختلاف القراءة فيها، يترتب اختلاف حول إلزامية السجدة وقراءة التشديد، تفيد الإخبار عن ملكة سبأ وقومها، بأن الشيطان زين لهم عدم السجود لله سبحانه، وليس في هذا التقدير والمعنى أيجاب سجدة. وأما على قراءة التخفيف، يترتب الالتزام بالسجدة، بناء على أن (ألا) حرف تبييه واستفتاح، وما بعدها حرف نداء (يا) واسجدوا فعل أمر. وكان الخط على هذه القراءة، أن يكون هكذا (ألا يا اسجدوا)، ولكن الصحابة رضي الله عنهم حذفوا الألف من يا وهمزة الوصل، من (اسجدوا) ووصلوا الياء بسين (اسجدوا) فصارت صورة الخط (ألا يسجدوا). والمتأدي محذوف، وتقديره (ألا يا هؤلاء اسجدوا)، وقد حذف العرب المتأدي كثيراً في كلامها (٥).

(١) أحكام القرآن، ج ١/ ١٦٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ٢٤ - ٢٥.

(٣) السبعة في القراءات/ ٤٨٠.

(٤) انظر: تفسير الشوكاني، ج ٣/ ١٣٣. بتصرف. وقال ابن خالويه: قالحة لمن شدد أنه جعله حرفاً ناصباً للفعل لا للشيء، وأسقط النون علامة النصب. ومعناه: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا لله. والحجة لمن خفف: أنه جعله تبيهاً واستتاجاً للكلام ثم نادى بعن فاجترأ بحرف النداء من المتأدي لإقباله عليه وحضوره. فأمرهم حيث بالسجود، انظر: الحجة في القراءات السبع/ ٢١٨.

١٣ - توجيه العمل بإحدى القراءتين:

قال الزركشي في البرهان: - تحت مبحث معرفة توجيه القراءات، وبين وجه ما ذهب إليه كل قارىء وهو فن جليل، وبه تعرف جلاله المعاني وجزائرها وقد اعتنى الأئمة به، وأفردوا فيه كتباً... (وقال أبو جعفر النحاس: وقد حكى اختلافهم في ترجيح (فك رقبة) بالمصدرية والفعلية، فقال: والديانة تحظر الطعن على القراءة التي قرأ بها الجماعة، ولا يجوز أن تكون مأخوذة إلا عن النبي ﷺ، وقد قال: (أنزل القرآن على سبعة أحرف) فهما قراءتان حستان لا يجوز أن تقدم إحداهما على الأخرى)... (وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة رحمه الله: قد أكثر المصنفون في القراءات والتفاسير من الترجيح بين قراءة (ملك) و(مالك) حتى أن بعضهم يبالغ إلى حد يكاد يسقط وجه القراءة الأخرى، وليس هذا بمحمود بعد ثبوت القراءتين، واتصاف الرب تعالى بهما. ثم قال: حتى إنني أصلي بهذه في ركعة، وبهذه في ركعة)^(١).

فما دامت القراءتان متواترتين، فلا يصح ترجيح قراءة، بغية الإسقاط فهذا غير مرضي، لأن كليهما متواترة، كما قال الكواشي^(٢).

وروى عن ثعلب، أنه إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب في القرآن، فإذا خرجت إلى الكلام (كلام الناس) فضلت الأقرى^(٣).

وذكر السيوطي عن أبي جعفر النحاس: السلامة عند أهل الدين، إذا صحت القراءتان أن لا يقال إحداهما أجود، لأنهما جميعاً عن النبي ﷺ، فبأنهم من قال ذلك - وكان رؤساء الصحابة يتكروون مثل هذا^(٤).

وذكر السيوطي خلافاً غريباً في الآية إذا قرئت بقراءتين (فحكى أبو الليث

(١) البرهان، ج ١/ ٣٣٩.

(٢) ذكره صاحب البرهان. انظر المرجع السابق.

(٣) ذكره صاحب البرهان. انظر المرجع السابق.

(٤) الإتيان، ج ١/ ٨٢.

السمرقندي في كتاب اللسان قولين: أحدهما أن الله تعالى قال بهما جميعاً والثاني أن الله قال بقراءة واحدة، إلا أنه أذن أن تقرأ بقراءتين، ثم اختار توسطاً وهو أنه إن كان لكل قراءة تفسير يمايز الآخر، فقد قال بهما جميعاً، وتصير القراءتان بمنزلة آيتين، مثل حتى يطهرون، وإن كان تصيرهما واحداً كالبيوت والبيوت، وإنما قال بأحدهما، وأجاز القراءة بهما لكل قبيلة على ما تعود لسانهم. قال: قيل إذا أقمتم أنه قال بأحدهما، فأبي القراءتين هي؟ قلنا التي بلغة فريش^(١). وقائدة الاختيار في القراءة تعود على كون القراءة المختارة على غيرها دليلاً على حسب المدلول عليه أو مرجعاً لما ذهب من معنى. علماً أن الاختيار لا يسعي معه رد القراءة الأخرى، لأن الرد طعن في قراءة متواترة، وهو حرام.

١٤ - «القراءة الشاذة وحكم الأخذ بها»:

لقد تبين من خلال الحديث عن القراءة الصحيحة، وأركانها، أن القراءة الصحيحة لا بد فيها من اجتماع شروط ثلاثة، وإلا تعتبر شاذة.

وهذه الشروط، أو الأركان: صحة سلك القراءة إلى رسول الله ﷺ واستقامة وجه القراءة في اللغة العربية، ولو بوجه واحد، من وجوه النحو، سواء كان أفصح أم نصيحاً، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه، اختلافاً لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع، وذاع، وتلقاه الأمة بالإسناد الصحيح.

ووافق أحد المصاحف العثمانية، ولو احتمالاً، أي تقديراً، كقراءة (مالك (مالك (مالك) في كل المصاحف كتبت دون ألف، فقراءة الحذف توافق الرسم تحفيقاً، وقراءة الإثبات توافق الرسم تقديراً.

أما القراءة الشاذة، هي ما خالفت تلك الصواب المثار إليها، المتفق عليها بين الأمة، حتى لو كانت هذه القراءة الأفصح نحوياً.

وتص ابن قدامة^(٢) في المعني، حول صحة وبطلان الصلاة بالقراءة الشاذة

(١) الإفتان، ج ١/٨٢. والنظر أحكام القرآن لابن العربي، ج ١/٤٤٤.

(٢) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة. المتوفى سنة (٦٢٠ هـ) حيلي.

فقال: وأما ما يخرج عن مصحف عثمان، كقراءة ابن مسعود، وغيرها، فلا ينبغي أن يقرأ بها في الصلاة، لأن القرآن ثبت بطريق التواتر، وهذه لم يثبت التواتر بها، فلا يثبت كونها قرآناً، فإن قرأ بشيء منها، مما صحت به الرواية، واتصل إسنادهما، ففيه روايتان:

إحدهما: لا تصح صلاته لذلك.

والثانية: تصح، لأن الصحابة كانوا يصلون بقراءتهم في زمن النبي ﷺ وبعده. وكانت صلاتهم صحيحة بغير شك، وقد صح أن النبي ﷺ قال: (من أحب أن يقرأ القرآن كما أنزل، فليقرأ على قراءة ابن أم عبد)^(١) وقد أمر النبي ﷺ، عمر وهشام بن حكيم، حين اختلفا في قراءة القرآن فقال: اقرأوا كما علمتم وكان الصحابة رضي الله عنهم، قبل جمع عثمان المصحف يقرؤون بقراءات لم يثبتها في المصحف، ويصلون بها، لا يرى أحد منهم تحريم ذلك لا بطلان صلاتهم^(٢).

وقال ابن عابدين^(٣) في الحاشية: القرآن في الحاشية: القرآن الذي تجوز به الصلاة بالاتفاق، هو المصبوط في المصاحف الأئمة، التي بعث بها عثمان رضي الله عنه، إلى الأمصار، وهو الذي أجمع عليه الأئمة العشرة، وهذا هو المتواتر، جملة وتفصيلاً، فما فوق السبعة إلى العشرة غير شاذ، وإنما الشاذ ما وراء العشرة وهو الصحيح^(٤).

فمن قرأ بالشواذ، فسدت صلاته، لتركه المتواتر.

وأشير إلى الوجه الثاني، الذي قاله ابن قدامة، حتى لا يشير شكوكاً. أو شبهات، بأن ما قاله محصور بما صح نقله عن الأحاد، وصح وجهه في العربية

المذهب.

(١) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة. المتوفى سنة (٦٢٠ هـ) حنبلي المذهب.

(٢) الثمني، ج ١/٤٩٢.

(٣) خاتمة المحققين الشيخ محمد أمين الشهير بابن عابدين. فقيه محقق حنبلي.

(٤) رد المختار على الدر المختار (الحاشية)، ج ١/٣٢.

إلا أنه مخالف لخط المصحف. ولا يقرأ به لعليّين التين هما:

١ - مصدره آحادي، وليس بتواتري، وما كان هذا شأنه، فلا يثبت به قرآن.

٢ - فيه المخالفة للإجماع، وما كان هذا شأنه، فلا يقطع بصحته، وما كانت هذه صفة، لا تجوز القراءة به، ولا يكفر من جحدته، وليس ما صنع إذا جحدته^(١).

وقال ابن جزري في تفسيره: لا تجوز القراءة إلا بما تواتر نقله، واستفاض وهذا في القراءات السبع، والحق بها القراءات الثلاث.

والشواذ، وهي ما لم يستقم نقلها، لا تصح القراءة بها، ولا عدّها من القرآن، ولا يجوز أن يقرأ بحرف إلا بثلاث شروط: الموافقة لمصحف عثمان ولكلام العرب، ولو على بعض الوجوه أو في بعض اللغات، والنقل المتواتر^(٢).

والشاذ سواء كان مما صح نقله أو لا لا تجوز القراءة به، لا في الصلاة ولا في غيرها ونص ابن عبد البر^(٣) عن مالك: أن من قرأ في صلاته بقراءة ابن مسعود أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف، لم يصل وراه. وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك إلا قوماً شذوا لا يعرج عليهم^(٤).

ونقل عن ابن عبد البر الإجماع، على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ. فما كان مخالفاً للرسم فحسب، فقد رخص بالإجماع، وإن صح نقله، وكان لو وجه بالعربية. وقال ابن الصلاح^(٥): يشترط أن يكون المقروء به تواتر نقله عن رسول الله ﷺ قرآناً، واستفاض نقله كذلك. وتلقته الأمة بالقبول، كهذه القراءات

(١) النشر، ج ١/ ١٤.

(٢) كتاب التسهيل العلوم التنزيل، ج ١/ ١٠.

(٣) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي توفي سنة (٤٦٣ هـ).

(٤) نقله صاحب المناهل، ج ١/ ٤٦١.

(٥) الفقيه المحدث أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح الشهرزوري الكروي الشرحاني توفي سنة (٦٤٣ هـ).

السبع، لأن المعبر في ذلك اليقين والقطع، على ما تقرر وتمهد في الأصول
فما لم يوجد فيه ذلك كما عدا السبعة، أو كما عدا العشرة ممنوع من القراءة به
منع تحريم، لا منع كراهة في الصلاة وخارج الصلاة، وممنوع من عرف المصادر
والمعاني ومن لم يعرف ذلك. وواجب على من قدر على الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر أن يقوم بواجب ذلك.

والما نقلها من نقلها من العلماء لفوائد فيها تتعلق بعلم العربية، لا للقراءة
بها. هذا طريق من استقام سبيله - ثم قال - والقراءة الشاذة ما نقل قرآناً من غير
تواتر ولا استقامة متلفاة بالقبول من الأمة كما اشتمل عليه المحاسب لابن جني
وغيره. وأما القراءة بالمعنى من غير أن ينقل قرآناً، فليس ذلك من القراءات
الشاذة أصلاً، والمجتري على ذلك مجتري على عظيم، وضال ضلالاً بعيداً،
فيعزر ويمنع بالحس ونحوه، ولا يخلى ذو خلاله، ولا يحل للمتمكن من ذلك
إمهاله، ويجب منع القاري بالشاذ وتأييمه بعد تعريفه، وإذا لم يمتنع فعليه
التعزير بشرطه.

وإذا شرع القاري بقراءة، ينبغي ألا يزال يقرأ بها ما بقي للكلام تعلق بما
ابتدأ به وما خالف هذا فمتعه جائر، وممتنع^(١).

وقال ابن الحاجب: لا يجوز أن يقرأ بالقراءة الشاذة في صلاة ولا غيرها،
عالمًا كان بالعربية أو جاهلاً. وإذا قرأ بها قاري، فإن كان جاهلاً بالتحريم عرف
به وأمر بتركها. وإن كان عالمًا أدب بشرطه، وإن أصر على ذلك أدب على
أصراره، وحسب إلى أن يرتدع عن ذلك. وأما تبديل آتنا بأعطاء، وسولت
بزيئت، ونحوه، فليس هذا من الشواذ، وهو أشد تحريمًا، والشايب عليه أبلغ،
والمنع فيه أوجب^(٢).

ومع كون القراءة الشاذة غير معتبرة، لا قرآناً، ولا قراءة، فقد حكم عليها
عند صحتها. بأنها خبر آحادي، كما في قراءة عبد الله بن مسعود، في قوله

(١) نقله صاحب المناهل، ج ١/ ١٦٢.

(٢) المرجع السابق.

تعالى: ﴿ قَسِيْمًا تَلْتَمِثُ اَيَّامًا ﴾^(١)، قرأها ابن مسعود (فصيام ثلاثة ايام متتابعات). وهذا ما أخذ به الأئمة الأحناف، من أن التابع في الصيام، في كفارة اليمين لازم نظراً لكون التابع ورد في قراءة عبد الله بن مسعود، وقراءته هذه، وإن كانت غير معتبرة من القراءات المشهورة المتواترة، فإنها لا تقل عن كونها خبر آحادي، والخبر الأحادي الصحيح حجة ظنية، توجب العمل لا العلم - الاعتقاد - بحيث يترتب على إنكاره الكفر، وإن كان الأمر لا يخلو من كبير المعصية.

ورد في أصول الأحناف، ما مفاده: أن القراءة الشاذة حجة ظنية موجبة العمل دون العلم، وكانت حجة ظنية، لأنها مسوع عن النبي ﷺ عن طريق راو عدل جازم. وقالوا - الأحناف - إن القراءة الشاذة التي وردت عن الصحابة أما أن تكون قرآناً أو خبراً، وعلى كلتا الحالتين. أما منسوخ التلاوة أو خبر وقع تفسيراً، وكل منهما يجب العمل به^(٢).

وفي فقه الشافعية. في قضية التابع في كفارة اليمين، صيماً، رأبان ظاهراً وأظهر الظاهر وجوب التابع، نظراً لقراءة ابن مسعود (ثلاثة ايام متتابعات) وهذه القراءة شاذة، قلها حكم خبر الواحد. والأظهر: عدم وجوب التابع نظيراً لإطلاق الآية، وما ورد عن طريق ابن مسعود، فهو منسوخ تلاوة وحكماً، فلا يستدل به^(٣).

وقضى الشافعية بقطع يد السارق اليمنى بالإجماع المبني على فعل النبي ﷺ عندما أوتي بسارق فقطع يمينه. واستأنسوا بالقراءة الشاذة (فاقطعوا أيمنهما) بدل (أيديهما)^(٤)، وقالوا: القراءة الشاذة كخبر الواحد في الاحتجاج كما نص عليه في البويطي. وقال إمام الحرمين: الظاهر من مذهب الشافعي أنه

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٢) فوائح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، ج ١٧/٢ - الاختيار لتعليل المختار، ج ٨/٤ و ج ١٥٩/٤.

(٣) مغني المحتاج، ج ٤/٣٣٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

وانتصر الغزالي لما ارتأه الشافعي فقال: التابع في صوم كفارة اليمين ليس بواجب على قول وإن قرأ ابن مسعود فصيام ثلاثة أيام متتابعات، لأن هذه الزيادة لم تتواتر فليست من القرآن، فتحمل على أنه ذكرها في معرض البيان، لما اعتقده مذهباً، فلعلمه اعتقد، حملاً لهذا المطلق على المقيد بالتابع في الظهار^(٢) وقال أبو حنيفة يجب، لأنه وإن لم يثبت كونه قرآناً، فلا أقل من كونه خيراً والعمل يجب بخبر الواحد، وهذا ضعيف، لأن خبر الواحد لا دليل على كذبه، وهو أن جعله من القرآن فهو خطأ قطعاً، لأنه وجب على رسول الله ﷺ، أن يبلغه طائفة من الأمة، تقوم الحجة بقولهم، وكان لا يجوز له مناجاة الواحد به، وإن لم يجعله من القرآن، احتمل أن يكون ذلك مذهباً له، الدليل قد دله عليه، واحتمل أن يكون خيراً، وما تردد بين أن يكون خيراً أو لا يكون، فلا يجوز العمل به، وإنما يجوز العمل بما يصرح الراوي بسماعه من رسول الله ﷺ^(٣).

وعلى القول: بتجوير القراءة مذهباً له، مع نقله قرآناً، رده ليس للمسلم أن يجترى عليه، لأن الصحابي العادل، بل مقطوع العدالة، كيف يفعل هذا الأمر الشنيع، وفي حواشي ميزراجان أن العجب، إنما يصح لو كان مراد الخصم أن مدلوله كان مذهباً له، فنقله قرآناً للترويح فإنه لا شك، أنه لا يتأني من آحاد العدول، فضلاً عن الصحابة، بل مراده لعلمه كان قرآنية مذهباً بالاجتهاد، فنقل على ما كان مذهباً له، ومذهب الراوي غير حجة، سيما إذا ظهر خطأه بيقين وهذا مما لا صجب فيه، وجوابه أن القرآنية مما لا يهتدى إليها بالرأي ولا مدخل له فيه، فاتخاذ الصحابي العادل مذهباً، لا بد له من سماع، فإما إن كان قرآناً فنسخت تلاوته، ولم يطلع عليه كما هو الأولى، أو وقع تفسيراً، فظنه حين السماع قرآناً وعلى كل تقدير، فهو حجة^(٤).

(١) مني المحتاج، ج ٤/ ١٧٧.

(٢) سورة المجادلة، قوله تعالى: ﴿مَنْ لَزِمَهُمْ قُصِبَتْ عَلَيْهِمْ مَثَابَةً مِمَّا كَفَرُوا﴾، الآية: ١٢.

(٣) المستقصى، ج ١/ ١٠٢.

(٤) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، ج ٢/ ١٨.

وما ينبغي، معرفته، أن هذه القراءة، ذات الاختلاف بين الأئمة، من حيثية الأخذ أو عدمه، هي مما صح نقله، وفقدت الشرطين، الثاني أو الثالث كقراءة عبدالله بن مسعود، في قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾^(١) (فصيام ثلاثة أيام متتابعات). وكقراءة ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾^(٢) (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) بفتح الفاء أو كان مما فقد الاشتهار بين الأئمة القراء.

أما ما بقي من أقسام القراءة الشاذة، مما لم يصح سنده، مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَن لِّكَ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٣) من قراءة (ملك) بصيغة الحاضري، أو مما اعتبر من الموضوعات، كالذي نسب إلى الإمام أبي حنيفة، عن طريق أبي الفضل محمد بن جعفر الخزازي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي، وضعا على أبي حنيفة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ برفع الله ونصب العلماء. فهذا من المرفوض والمبعد، قراءة أو أخذاً. فهذا منقول عن لا ثقة به ويدخل تحت الرد والمنع، ما نقله ثقة ولا وجه له في العربية، وهذا قليل لا يكاد يوجد كما يدخل تحت الرد والمنع. قال الإمام مكي: فهذا رده أحق ومنعه أشد، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر^(٤).



(١) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

(٤) الإتيان، ج ١/ ١٠١ بتصرف.

«في الأصول»

«اعلم أن اختلاف القراء على نوعين: أصول، وفرش الحروف. فأما الفرش فهو ما لا يرجع إلى أصل مضطرد، ولا قانون كلي، وهو على وجهين: اختلاف في القراءة باختلاف المعنى، وابتفاق المعنى. وأما الأصول: فالاختلاف فيها لا يغير المعنى^(١).

هذه الأصول التي لا يتغير فيها المعنى، تتضمن قواعد، من الضرورة التعريف بها، نظراً لمدى الحاجة إليها من قبل طالبي معرفة القراءة السليمة المتضمنة حسن الإداء عند تلاوة كتاب الله، الذي لا يجوز فيه لحن ولا تغيير. فمن الضروري معرفة الهمز، والتخفيف، والإدغام، والإمالة، والترقيق، والتفخيم، والوقف، ومراعاة الخط، وإثبات الياء وحذفها.

وقبل البدء بالحديث عن هذه القواعد، ينبغي التعرف على مخارج الحروف وصفاتها، والقراءة وأقسامها.

أولاً - مخارج الحرف:

اختلف في عدد مخارج الحروف، فذهب كثير من النحاة والقراء إلى أنها ستة عشر مخرجاً، وذهب آخرون إلى أنها أربعة عشر، وذهب جمع من أهل

(١) قاله ابن جزري في كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١/١٢.

التحقيق إلى أنها سبعة عشر مخرجاً وهو الصحيح والمختار عند أهل التحقيق كالخليل بن أحمد، ومكي بن أبي طالب والهدلي وشريح وغيرهم.

أما من قال بالستة عشر، فقد أسقطوا مخرج الحروف الجوفية التي هي حروف المد واللين.

وأما من قال بالأربعة عشر، فقد أسقطوا مخرج النون واللام والراء، وجعلوها من مخرج واحد، وهو طرف اللسان.

المخرج الأول: الجوف، ويختص به حروف المد واللين، وهي الألف والواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها، وتسمى الهوائية والجوفية، وكانت جوفية، لأن الجوف آخر انقطاع مخرجهن.

المخرج الثاني: أقصى الحلق، وهو للهمزة والهاء.

المخرج الثالث: وسط الحلق، وهو للعين والحاء المهملتين.

المخرج الرابع: أدنى الحلق، وهو للعين والحاء.

وتسمى مجموعة هذه المخارج الأربعة، بالحروف الحلقية.

المخرج الخامس: أقصى اللسان من أعلى، وهو للقاف.

المخرج السادس: أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف، وهو للكاف.

وكل من القاف والكاف، يسمى لهويماً، نسبة إلى اللهاة التي بين الفم والحلق.

المخرج السابع: وسط اللسان، وهو للحروف الشجرية، وهي الجيم والشين والياء غير المدية.

المخرج الثامن: من أول حافة اللسان، وهو للصاد المعجمة (ض).

المخرج التاسع: من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرفه، وهو لللام.

المخرج العاشر: من طرف اللسان، أسفل اللام، وهو للنون.

المخرج الحادي عشر: من طرف وظاهر اللسان، وهو للراء.

وتسمى مجموعة هذه المخارج الثلاثة الأخيرة الحروف الدلقية، نسبة إلى ذلق اللسان، أي طرفه.

المخرج الثاني عشر: من طرف اللسان، صعوداً إلى جهة الحنك، وهو للحروف النطعية، وهي: الطاء والذال، والتاء، وسميت نطعية لأنها تخرج من سقف الحنك، والسقف هو النطع.

المخرج الثالث عشر: من بين طرف اللسان، فوق الثنايا السفلى، وهو لحروف الصفير وهي: الصاد، والسين، والزاي. وتسمى بالأسلية، لأنها تخرج من أسلة اللسان، أي مستدقه.

المخرج الرابع عشر: من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، وهو للحروف اللثوية، وهي الظاء، والذال، والثاء. وسميت لثوية نسبة إلى اللثة.

المخرج الخامس عشر: من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، وهو للقاء.

المخرج السادس عشر: من بين الشفتين، وهو للواو غير المدية، والباء والميم.

وهذه الثلاثة مع القاء، تسمى بالحروف الشفوية، أو الشفهية.

المخرج السابع عشر: الخيشوم، وهو للفتحة: النون والميم الساكتين، حال الإخفاء، أو ما في حكمها من الإدغام بالفتحة^(١).

ثانياً - صفات الحروف:

الحروف إما أن تكون مجهورة، أو مهموسة، أو رخوة أو شديدة أو متوسطة، أو مستقلة، أو مستعلية، أو منقحة، أو صفير، أو قلقلة، أو مد، أو خفية، أو منحرفة، أو لينية، أو متعشية، أو مستطيلة.

التعريف بها:

١ - الحروف المهموسة: وهي عشرة أحرف، يجمعها قول (سكت فحته شخص). والهمس الصوت الخفي، ويظهر ذلك عند جريان النفس مع الحرف

(١) يتصرف من النشر، ج ١/١٩٩.

لضعف الاعتماد عليه.

وما عدا هذه الحروف فهي مجهورة، وصفتها منع الحرف النفس أن يجري معه، حتى يتقضي الاعتماد.

٢ - الحروف الشديدة: وهي ثمانية، مجموعة بـ (أجد قط بكت). والشدة امتناع الصوت أن يجري في الحروف، وهو من صفات القوة.
وأما الحروف المتوسطة فهي خمسة مجموعة في (لن عمر).
وما تبقى من الحروف، بعد حروف الشدة والحروف المتوسطة، هي الحروف الرخوة.

٣ - الحروف المستعلية: وهي سبعة، مجموعة في (فظ خص ضغط).
ويقال لها حروف التفخيم، وكانت تفخيماً، لما فيها من خصائص القوة. وما تبقى، يقال لها الحروف المستقلة.

٤ - الحروف المنطبقة: وهي أربعة: الصاد والضاد والطاء والظاء. وما تبقى يقال لها الحروف المنفتحة.

٥ - حروف الصفير: وهي الصاد والسين والزاي.

٦ - حروف القلقة: وهي مجموعة في (قطب جد).

٧ - حروف المد: وهي الحروف الجوفية أو الهوائية^(١).

٨ - الحروف الخفية: وهي حروف المد مع الهاء.

٩ - حروف اللين: وهي الواو والياء الساكتين المفتوح ما قبلها.

١٠ - حروف الانحراف: وهي اللام والراء.

١١ - حروف التكرار: وهي الراء.

١٢ - حروف التنفي: وهي الشين.

١٣ - حروف الاستطالة: وهي الضاد^(٢).

(١) وهي: الواو والياء والألف.

(٢) انظر: النشر، ج ١/ ٢٠٣.

ثالثاً - أقسام القراءة :

١ - قراءة التحقيق :

التحقيق المبالغة في الإتيان بالشيء على حقه، من غير زيادة ولا نقصان^(١).

ويراد به، إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد وتحقيق الهمزة، وإتمام الحركات، واعتماد الإظهار، والتشديدات، وتوفية الغنات، وتفكيك الحروف. ولا يجتمع مع التحقيق قصر ولا اختلاس ولا إسكان محرك ولا إدغام. وبه تروض الألسن وتقوم الألفاظ، ويستحسن الأخذ به على المتعلمين. وأخذ به كل من حمزة وورش، ونقله البعض عن الكسائي وحفص والحلواني والأخفش عن ابن ذكوان.

وقد رويت هذه القراءة، كما عند ابن الجزري، عن أبي عبد الله المصري عن ابن المعدل عن ابن شجاع عن الشاطبي عن ابن هذيل عن أبي داود عن الداني عن ابن أحمد عن ابن عراك عن ابن عون عن النحاس عن الأزرق عن ورش عن نافع عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ^(٢).

٢ - قراءة الحدر :

الحدر بالفتح الهبوط، وهو المكان الذي تنحدر فيه، والحدر، بالضم فعلك، وحدر السفينة أرسلها إلى أسفل، وبابه نصر، ولا يقال أحدرها. وحدر في قراءته وفي أذانه أسرع، وبابه نصر. والانحدر الانهياط، والموضع (منحدر) بفتح الدال، وتحدر الدمع تنزل^(٣).

والحدر في اصطلاح القراء، إحدى أقسام القراءة، وهي عبارة عن أدراج القراءة وسرعتها، وتخفيفها بالقصر والتسكين والاختلاس والبدل والإدغام

(١) النشر، ج ١/ ٢٠٥.

(٢) نقرأ المرجع السابق.

(٣) مختار الصحاح / ١٢٦.

الكبير، وتخفيف الهمز، ونحو ذلك، مما صححت به الرواية، ووردت به القراءة مع إيثار الوصل وإقامة الإعراب ومراعاة تقديم اللفظ وتمكن الحروف^(١).

ومما يجب على القارئ بهذه القراءة، أن يتجنب بتر حروف المد، وذهاب صوت الغنة واختلاس أكثر الحركات، وبصورة عامة، يتجنب التقريظ في خصائصها المميزة.

وأخذ بها، كل من ابن كثير وأبي جعفر وأبي عمرو ويعقوب وقالون وورش والأصبهاني، وأكثر العراقيين عن الحلواني.

وقرأ رجل على ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: قرأت المفصل^(٢) الليلة في زكاة واحدة، فقال: هذا كهذا الشعر...

وقال ابن الجزري: هذا النوع هو الحدر^(٣).

٣ - قراءة التدوير:

هي ما توسط بين التحقيق والحدر.

ورد عن أكثر الأئمة، وهو مذهب سائر القراء، وصح عند جميع الأئمة وهو المختار لدى أكثر أهل الأداء.

٤ - قراءة الترتيل:

هي اتباع الكلام المقروء بعضه بعضاً على مكث، وتفهم من غير عجلة، وهو الذي نزل به القرآن.

هذه القراءة، شهدت لها التصوص، منها، قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ﴾

(١) النشر، ج ١/٢٠٧.

(٢) المفصل: اختلف فيه، وعلى الصحيح عند أهل الأثر أن أوله سورة (ق) وآخره سورة الناس. والمفصل هو أحد أربعة أقسام لسور القرآن، المحصورة في (الطول والمثنون والمثاني والمفصل)، والمفصل ما يلي المثاني من قصار السور، وسمي مفصلاً لكثرة ما فيه من الفصول.

(٣) النشر، ج ١/٢٠٧.

تَرْتِيلاً^(١) أي اقراء على مهل مع تدبير. قال الضحاك: اقراء حرفاً حرفاً. قال الزجاج: هو أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع. وأصل الترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام.

وتأكيد الفعل بالمصدر يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق بالحرف من غير مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة^(٢).

وقال ابن جزري في تفسيره^(٣): الترتيل هو التمهيل والمد وإشباع الحركات وبيان الحروف، وذلك معين على التفكير في معاني القرآن، بخلاف الهد الذي لا يفقد صاحبه ما يقول، وكان رسول الله ﷺ يقطع قراءته حرفاً حرفاً، ولا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها.

وفي صحيح البخاري^(٤) عن أنس، أنه مثل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مداً ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) بمد بسم الله ومد الرحمن ومد الرحيم^(٥).

وفي التفضيل بين الترتيل والتحقيق، فالراجح والصحيح، أن الترتيل هو الأفضل، وهذا ما سار عليه معظم السلف.

فالترتيل والتدبير مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها، لأن المقصود من القرآن فهمه، والتفقه فيه والعمل به وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه. وقال أبو حامد الغزالي: واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبير، فإن المعجمي الذي لا يفهم معنى القرآن، يستحب له أيضاً في القراءة الترتيل والتؤدة، لأن

(١) سورة المزمل، الآية: ٤.

(٢) تفسير الشوكاني، ج ٥/٣١٦.

(٣) التسهيل لعلوم الترتيل، ج ٤/١٥٧.

(٤) تقدم تخريجه سابقاً.

(٥) تفسير ابن كثير، ج ٤/٢٣٤.

ذلك أقرب إلى التوفير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب من الهدمة والاستعجال^(١).

٥ - قراءة التجويد:

قال عبد الله بن مسعود: جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات وأعربوه فإنه عربي والله يحب أن يعرب به.

وما التجويد إلا عبارة عن الإتيان بالقراءة مجودة الألفاظ بريئة من الرداء في النطق. ويعني ذلك: انتهاء الغاية في التصحيح وبلوغ النهاية في التحسين. ولهذا قالوا: لا تصح صلاة قارئ خلف أمي، وهو من لا يحسن القراءة^(٢).

والقراءة بغير تجويد من باب اللحن، والقارئ بها لحناً، واللحن قسمان: ظاهر جلي، وهو الخلل الطارئ على الألفاظ إخلالاً ظاهراً بياناً ويظهر للقراء وغيرهم. والقسم الثاني، هو اللحن الخفي، وهو ما لا يطلع عليه سوى علماء القراءة، الجامعين لخصائص الأداء والتلقي السليم من التجويد والإنتقان والترتيل والإحسان^(٣).

فيطلب حسن الأداء، وهو فرض في القراءة، ويجب على القارئ تلاوة القرآن حق تلاوته، صيانة للقرآن عن وجود اللحن والتغيير. فهناك من العلماء، من قد ذهب إلى وجوب حسن الأداء في القراءة، كيفما كانت القراءة، ومنهم، من قد ذهب إلى هذا الوجوب فيما يلزم المكلف قراءته في المفترضات.

فالتجويد حلية التلاوة وزينة القراءة، وهو إعطاء الحروف حقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وإحاقه بنظيره، وتصحيح لفظه ونلطيف النطق به على حال صيغته، وكمال هيئته، من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: من أحب أن يقرأ القرآن

(١) النشر، ج ١/ ٢٠٩.

(٢) نفس المرجع / ٢١٠.

(٣) نفس المرجع / ٢١١.

غضاً كما أنزل قليقراً قراءة ابن أم عبد.

«فليس التجويد بتمضيغ اللسان، ولا بتغير الفم، ولا بتعويج الفك، ولا بترعيد الصوت، ولا بتمطيط الشد، ولا بتقطيع المد، ولا بتطين الغنات، ولا بحصرمة الرءات، قراءة تنفر عنها الطباع، وتمجها القلوب والأسماع، بل القراءة السهلة العذبة الحلوة اللطيفة، التي لا مضغ فيها ولا لوك ولا تعسف ولا تكلف، ولا تصنع ولا تنطع، ولا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والأداء»^(١).

قواعد علم التجويد:

أولاً - الهمز والتخفيف:

الهمز أثقل الحروف نطقاً وأبعدها مخرجاً. ومقتضى ذلك عند العرب التخفيف، أخذ أهل الحجاز وقريش، وعلى ذلك ابن كثير ونافع.

والتخفيف أنواع، وهي:

١ - النقل، ويكمن بنقل حركته إلى الساكن قبله، فيسقط الهمز، مثل (قد أفتح) بفتح الدال، وبه قرأ نافع من طريق ورش، بخلاف الباقيين من القراء.

٢ - الإبدال، فتبدل الهمزة الساكنة حرف مد من جنس حركة ما قبلها مثل: (وامر أهلك) و (يومنون) و (جيت)، وبه قرأ أبو عمرو.

٣ - التسهيل، ويكون بينها وبين حركتها، وبه قال الحرميان^(٢)، وأبو عمرو وهشام فيما إذا انفقت الهمزتان، أما إذ اختلفتا بالفتح والكسر سهل الحرميان وأبو عمرو الثانية، مثل: (أنزل) و (أؤنثكم).

٤ - الإسقاط بلا نقل، وبه قرأ أبو عمرو إذا اتفقا في الحركة، وكانا في كلمتين، مثل: (هؤلاء إن كنتم)، جعلها ورش وقيل - أي الثانية - كياء ساكنة، وجعل قنالون والبيزي الأولى كياء مكسورة، وأسقطها - الشالبة - أبو

(١) النشر، ج ١/ ٢١٢.

(٢) هما نافع قارىء المدينة، وابن كثير قارىء مكة.

عمرو^(١)، وحقق الباقون. وإن اتفقا فتحاً، نحو: جاء أجلهم جعل ورش وقبل الثانية كمدّة، وأسقط الثلاثة الأولى، وحقق الباقون. وإن اتفقا ضمّاً نحو: أولياء أولئك. أسقطها أبو عمرو، وجعلها قالون والبيزي كمدّة مضمومة، والآخرون يجعلان الثانية كواو ساكنة. وحقق الباقون^(٢).

ثانياً - الإدغام والإظهار:

لا يدغم إلا ما كان إظهاره خروجاً من كلام العرب إلا حرفاً يسيرة. والإدغام هو اللفظ بحرفين حرفاً كالثاني، مشدداً. أو هو إدخال حرف بحرف، إما معاً له وإما مقارب في المخرج، إذ يؤدي النطق بهما إلى ضرب من الثقل، فيؤخذان حتى يخف جريانهما على اللسان.

وينقسم إلى كبير وصغير، والكبير: ما كان أول الحرفين متحركاً فيه سواء كانا مثلين أم جنسين أم متقاربين.

فأما المتماثلان، ما اتفقا مخرجاً وصفة، نحو (اضرب بعصاك).

وأما المتجانسان، ما اتفقا مخرجاً أو صفة، نحو (وقد تبين).

وأما المتقاربان، ما تقاربا مخرجاً أو صفة، نحو (قالت طائفة).

فأما المدغم من المتماثلين، فهو في سبعة عشر حرفاً. هي (الباء والتاء والحاء والراء والسين والشين والعين والغين والفاء والقاف والكاف واللام والميم والنون والواو والهاء والياء) وفي هذا (الكتاب بالحق) و (النكاح حتى). ويشترط في هذا الإدغام، ثلاثة شروط، هي:

١ - أن يلتقي الحرفان خطأً، مثل (باء الكتاب وباء الحق) في (الكتاب بالحق) وخارج بذلك، فيما إذا لم يلتقيا خطأً، نحو (أنا نذير).

٢ - أن يكونا من كلمتين، وإلا فالإدغام في حرفين.

٣ - أن لا يكون الأول تاء ضمير المتكلم، مثل (كنت تراباً) ولا متشديداً، نحو (مس سقر)، ولا منوناً نحو (غفور رحيم).

(١) النظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع، ج ١/١٠٢، مكّي بن أبي طالب القيسي.

(٢) الإتيان، ج ١/٩٨.

وأما المدغم من المتجانسين والمتقاربين فهو في ستة عشر حرفاً، يجمعها قول (رض سشد حجتك بدل قسم)، وحتى يتم الإدغام لا بد من شروط، هي:

- ١ - أن لا يكون الأول مشدداً، مثل (أشد ذكراً).
- ٢ - أن لا يكون الأول منوناً، مثل (في ظلمات ثلاث).
- ٣ - أن لا يكون تاء ضمير، مثل (خلقت طيناً).

وكل حرفين التقياء، أولهما ساكن، وكانا مثلين أو جنسين وجب إدغام الأول منهما، لغة وقراءة، فالمثمانلان، مثل (اضرب بعصاك) والمتجانسان، مثل (قالت طائفة).

ثالثاً - «أحكام النون الساكنة والتنوين»:

للنون الساكنة والتنوين أحكام، هي:

- ١ - الإظهار، عند أحرف الحلق، مثل (يتأون) و (من هاد) و (من عمل) فينبغي إظهار همزة «يتأون» و«هاء» و«من هاد» و«عين» و«من عمل» وكذلك إظهار «حاء» و«انحر» و«غين» و«من غل» و«حاء» و«من خير».
- ٢ - الإدغام، عند ستة أحرف، اثنان منها بلا غنة، وهما اللام والراء، مثل: (فإن لم تفعلوا) و (من ربهما)؛ والباقي بغنة، وهي، النون، نحو (عن نفس) والميم، نحو (من مال) والياء، نحو (ويرق يجعلون) والواو، نحو (من وال).
- ٣ - الإقلاب، عند حرف واحد، وهو الباء، نحو (أنبهم) و (من بعدهم) و (صم بكم). فيقلب كل من النون الساكنة، والتنوين، عند الباء ميماً مخففة بغنة.
- ٤ - الإخفاء، عند باقي الحروف، وهي خمسة عشر حرفاً، فعند التقاء كل من النون الساكنة، والتنوين، مع أحد هذه الأحرف، تخفي بغنة، والإخفاء حالة بين الإدغام والإظهار^(١).

(١) الإنقاذ، ج ١/ ٩٤ بنصرف.

وانظر: مسبعة ابن مجاهد/ ١١٠، والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي

رابعاً - الفتح والإمالة:

الفتح والإمالة لغتان، قال بهما أهل الفصاحة من العرب. فالفتح لغة أهل الحجاز، والإمالة لغة عامة أهل نجد وقيس وأسد. ويعرف الفتح، بفتح القاريء فاه بالحرف، ويقال له الترخيم، وهو شديد ومتوسط، والشديد، منتهى فتح الشخص فاه بالحرف، ولا وجود له في القرآن، ولا في لغة العرب. والمتوسط، ما كان بين الشديد والإمالة المتوسطة، وهو المستعمل عند القراء.

وتعرف الإمالة، بأن ينحو فاه بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء. وتكمن فائدة الإمالة في سهولة اللفظ، لأن الإمالة انحدار، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع.

وتتنوع الإمالة إلى شديدة، ومتوسطة، فأما الشديدة، فهي ما اجتنب معهما القلب الخالص والإشباع المبالغ فيه.

وأما المتوسطة، فهي ما كانت بين الفتح المتوسط، والإمالة الشديدة. والمختار منهما، الإمالة المتوسطة، والتي هي بين بين، ولأن الغرض من الإمالة حاصل بها، وهو الإعلام بأن أصل الألف الياء، والتبنيه على انقلابها إلى الياء في موضع، أو مشاكتها للكسر المجاور لها أو الياء. وكل من الفتح والإمالة أصل، عند أهل التحقيق^(١).

خامساً - المد والقصر:

المد عبارة عن زيادة مط في حرف المد على المد الطبيعي، الذي لا تقوم ذات حرف دونه.

وحروف المد، هي، الألف والواو والياء. أما القصر، فهو، ترك الزيادة وإبقاء المد الطبيعي على حاله. وللمد أسباب، لفظية ومعنوية.

مطالب جـ ١/١٤٣.

(١) انظر متحد المقرئين / ٥٧.

منها السبب اللفظي، فإنه يعود إلى كل من الهمز والسكون.

أما الهمز، فيكمن في إثبات الهمز بعد حرف المد وقبله، ومثال ما بعد حرف المد (أولئك) (شاء الله)، ومثال ما قبل حرف المد (إيمان) (خاطئين).

وإن كان الهمز بعد حرف المد، فإثماً أن يكون متصلاً، نحو (أولئك) والمتصل لا يكون إلا في كلمة واحدة، وإما أن يكون منفصلاً، كأن يكون الهمز في كلمة والمد في الأولى، نحو (لا إله إلا الله).

واقترض المد في هذا السبب لخفاء حرف المد وصعوبة الهمز عقبه فزيد في التخفي للتمكن من النطق بالصعب.

وأما السكون، فهو إما لازم أو عارض، واللازم هو ما لا يتغير، نحو (الضالين) و (ذاتة)، والعارض ما كان يعرض الوقف، نحو، (العياد) (الحساب) (الرحيم) (المستقيم).

ومقتضى المد في هذا السبب التمكن من الجمع بين الساكنين.

ولا خلاف بين الأئمة في مد الهمز المتصل والساكن اللازم، وإن اختلف في قدر المد.

أما المد في الهمز المنفصل والسكون العارض، فلم يكن موضع اتفاق بين العلماء.

ومنها السبب المعنوي، فيعود لقصد المبالغة في النفي، نحو (لا ريب فيه) (لا شية فيها)، وهذا السبب مقصود عند العرب، وإن كان في الدرجة الثانية، بعد السبب اللفظي.

وقد تعلق المد عند العرب في كل من المبالغة، والدعاء، والاستغفار.

وأقوى المد ما اجتمع فيه السببان، نحو (لا إله إلا الله)^(١).

سادساً - الوقف:

يقصد بالوقف في عرف أهل هذا العلم: قطع الصوت عن الكلمة زماناً

(١) النظر الإتيان، ج ١/ ٩٦.

الكشف عن وجوه القراءات السبع، ج ١/ ١٧٠.

يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة، لا بنية الإعراض. ويكون في رؤوس الآي وأواسطها، ولا يأتي في وسط الكلمة، لا فيما اتصل رسماً.

والوقف أنواع متعددة، تتراوح بين الوقف التام، والحسن، والكاف، والقيح. وفي ذلك يقول الإمام ابن جزري في مقدمة تفسيره^(١): فإن كان الكلام مفتقراً إلى ما بعده في إعرابه أو معناه، وما بعده مفتقراً إليه كذلك، لم يجز الفصل بين كل معمول وعامله، وبين كل ذي خبر وخبره، وبين كل ذي جواب وجوابه، وبين كل ذي موصول وصلته، وإن كان الكلام الأول مستقلاً يفهم دون الثاني، إلا أن الثاني غير مستقل إلا بما قبله، فالوقف على الأول كاف. وذلك في التوابع والفضلات: كالحال والتمييز والاستثناء، وشبه ذلك إلا أن وصل المستثنى المتصل أكد من المنقطع، ووصل التوابع والحال إذا كانت أسماء مع ذات أكد من وصلها إذا كانت جملة، وإن كان الكلام مستقلاً والثاني كذلك، فإن كانا في قصة واحدة فالوقف على الأول حسن، وإن كانا في قصتين مختلفتين فالوقف تام.

وله صفات يتطلب الإشارة إليها:

- ١ - السكون، وهو الأصل في الوقف على الكلمة المحركة وصلًا.
- ٢ - الرّوم، وهو عبارة عن النطق ببعض الحركة، ويختص بالمرفوع والمجزوم والمكسور.
- ٣ - الإشمام، وهو أن يشار إلى الحركة من غير تصويت.
- ٤ - الإبدال، ويكون في الاسم المنصوب المنون، فيوقف على الألف بدلاً من التنوين.
- ٥ - النقل، ويكون فيما آخره همزة بعد ساكن، نحو: (دفع - ملء - مرة).
- ٦ - الإدغام، ويكون فيما آخره همزة بعد ياء، أو واو زائدتين، ويوقف عليه بالإدغام بعد إبدال الهمزة من جنس ما قبله، نحو: (النسيء - قروه).

(١) انظر الكشاف، ج ١/٢١٦.

والسهيل لعلوم التنزيل، ج ١/١٢.

٧ - الحذف، ويكون في الياءات الزوائد، عند من يشبها وصلًا، ويحذفها وقفًا، وهي الياءات الغير مرسومة.

٨ - الإثبات، ويكون في الياءات المحذوفات، وصلًا، عند من يشبها وقفًا، نحو: (هاد. وال. واق. باق).

٩ - الإلحاق، ويكون فيما يلحق آخر الكلم من هاءات السكت، عند من يلحقها، نحو: (عم).

رأي ابن الجزري في الأصول

عقد الإمام ابن الجزري في كتابه «منجد المقرئين» فصلاً حول تواتر القراءات العشر، فرشاً وأصولاً، حال الاجتماع والافتراق، فقال: «إعلم أن العلماء بالغوا في ذلك نفيًا وإثباتًا، وأنا أذكر أقوال كل ثم أبين الحق من ذلك، أما من قال بتواتر الفرش دون الأصول، فابن الحاجب قال في مختصر الأصول له: القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوه. فزعم أن المد والإمالة وما أشبه ذلك من الأصول كالإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات ونقل الحركة وتسهيل الهمزة من قبيل الأداء وإنه غير متواتر. وهذا قول غير صحيح كما ستبينه. فأما المد فأطلقه ونحوه ما يسكب العبرات، فإنه إما أن يكون بطبيعياً أو عرضياً، والطبيعي هو الذي لا تقوم ذات حروف المد بدونه كالآلف من قال والواو من يقول والياء من قيل وهذا لا يقول مسلم بعدم تواتره، إذ لا يمكن القراءة بدونه، والمد العرضي هو الذي يعرض زيادة على الطبيعي لموجب، إما سكون أو همزة، فأما السكون فقد يكون لازماً كما في قوائم السور، وقد يكون مشدداً نحو (آلم. ق. ن. ولا الضالين) ونحوه، فهذا يلحق بالمد الطبيعي لا يجوز فيه القصر، لأن المد قام مقام حرف، توصلًا للشلق بالساكن، وقد أجمع المحققون من الناس على مده قدرًا سواء، وأما الهمز فعلى قسمين، الأول إما أن يكون حرف مد في كلمة والهمز في أخرى، وهذا تسميه القراء متفصلاً، واختلفوا في مده وقصره، وأكثرهم على المد، فادعواؤه عدم تواتر المد فيه ترجيح من غير مرجح، ولو قال العكس لكان أظهر لشبهته، لأن أكثر القراء على المد الثاني أن يكون حرف المد والهمز في كلمة واحدة، وهو الذي يسمى متصلاً، وقد أجمع القراء سلفاً وخلفاً من كبير

وصغير وشريف وحقير على مده لا اختلاف بينهم في ذلك إلا ما روي عن بعض ممن لا يعول عليه بطريق شاذة فلا تجوز القراءة به، حتى أن إمام الرواية أبا القاسم الهذلي الذي دخل المشرق والمغرب وأخذ القراءة عن ثلثمائة وخمسة وستين شيخاً، وقال رحلت من آخر العرب إلى فرغانة يميناً وشمالاً، وجيلاً وبحراً، وألف كتابه الكامل الذي جمع فيه بين اللدة وأذن الجرة، من صحيح وشاذ ومشهور ومنكر فقال في باب المد في فصل المتصل: لم يختلف في هذا الفصل أنه ممدود على وتيرة واحدة فالقراء فيه على نمط واحد، وقدره بثلاث ألفات. إلى أن قال وذكر العراقي أن الاختلاف في مد كلمة واحدة كالاختلاف في مد كلمتين، ولم أسمع هذا لغيره، وطالما مارست الكتب والعلماء فلم أجد من يجعل مد الكلمة الواحدة كمد الكلمتين إلا العراقي.

قلت والعراقي هذا هو منصور بن أحمد المقرئ كان بخراسان، ولقد أخطأ في ذلك، وشيوخه الذين قرأ عليهم نعرفهم الإمام أبو بكر بن مهران وأبو الفرج الشيبودي وإبراهيم بن أحمد المروزي لم يرد عنهم شيء من ذلك في طريق من الطرق، فإذا كان كذلك يجسر ابن الحاجب، أو هو من هو أكبر منه على أن يقدم على ما أجمع عليه فيقول هو غير متواتر. فهذه أقسام المد العرضي أيضاً متواترة لا يشك في ذلك إلا جاهل، وكيف يكون المد غير متواتر، وأجمع الناس عليه خلفاً عن السلف. فإن قيل قد وجدنا القراء في بعض الكتب كالنيسابور والحافظ الداني وغيره جعل لهم فيما مد للهمز مراتب في المد إشباعاً وتوسطاً وقوة ودونه، وهذا لا ينضبط، إذ المد لا حد له، وما لا ينضبط كيف يكون متواتراً. قلت نحن لا ندعي أن مراتبهم متواترة، وإن كان قد ادعاه طائفة من القراء والأصوليين، بل نقول إن المد العرضي من حيث هو متواتر مقطوع به قرأ به النبي ﷺ، وأنزله الله تعالى عليه، وأنه ليس من قبيل الأداء، فلا أقل من أن نقول: القدر المشترك متواتر وأما ما زاد على القدر المشترك كعاصم وحمزة وورش فهو إن لم يكن متواتراً، فصحيح مستفاض متلقى بالقبول. ومن ادعى القدر الزائد على القدر المشترك فليس.

وأما الإمالة على نوعيها فهي وهندها لغتان فاشيتان من الأحرف السبعة

التي نزل بها القرآن مكتوباً في المصاحف متواترتان، وهل يقول أحد في لغة أجمع الصحابة والمسلمون على كتابتها في المصاحف، إنها من قبيل الأداء، وقد نقل الحافظ الحجة أبو عمرو الداني في كتابه إيجاز البيان، الإجماع على أن الإمالة لغة القبائل العربية، دعاهم إلى الذهاب إليها التماس الخفة. وقال الإمام أبو القاسم الهذلي في كتاب الكامل «إن الإمالة والتخميم لغتان ليست إحداهما أقدم من الأخرى، بل نزل القرآن بهما جميعاً. إلى أن قال والجملة بعد التطويل إن من قال إن الله تعالى لم ينزل القرآن بالإمالة أخطأ وأعظم القرية على الله تعالى، وظن بالصحابة خلاف ما هم عليه من الورع والتقوى. قلت كأنه يشير إلى كونهم كتبوا بالإمالة في المصاحف نحو يحيى وموسى وهدي ويسمى والهدى ويفسأها وسواها وجليها وآس وآتكم، وما أشبه ذلك، مما كتبه بالياء على لغة الإمالة وكتبوا مواضع تشبه هذا بالالف على لغة الفتح منها، قوله عز وجل في سورة إبراهيم ﴿وَمَنْ عَصَاكَ فَلْيَقْرَأْ بِآيَاتِ الْكُرْآنِ الَّتِي يُقْرَأُ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ الْكَلِيمَ﴾ حتى أنهم كتبوا (تعرفهم بسمئهم) في البقرة بالياء و (سماهم في وجوههم) في الفتح بالالف، وأي دليل أعظم من ذلك، قال الهذلي: وقد أجمعت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، على الأخذ والقراءة والإقراء بالإمالة والتخميم وذكر أشياء ثم قال وما أحد من القراء إلا رويت عنه إمالة قلت أو كثرت. إلى أن قال، وهي يعني الإمالة لغة هوازن وبكر بن وائل وسعد بن بكر.

وأما تخفيف الهمز وتحوه، من النقل والإدغام وترقيق الراءات وتفتيح اللامات فتواتر قطعاً معلوم أنه منزل من الأحرف السبعة ومن لغات العرب الذين لا يحسنون غيره، وكيف يكون ذلك غير متواتر، أو من قبيل الأداء، وقد أجمع القراء في مواضع على الإدغام كمد (مالك لا تأمننا على يوسف) وفي مواضع على تخفيف الهمز نحو (ألان. الله. اللذين) في الاستفهام، وفي مواضع النقل، نحو (لكننا هو الله ربنا) ويرى ويرى، وعلى ترقيق الراءات في مواضع نحو (فرعون ومريه) وعلى تفتيح اللامات في مواضع نحو (لام الجلالة بعد الضمة والفتحة)، وأجمع الصحابة رضي الله عنهم في كتابة الهمزة الثانية من قوله في آل عمران (أؤنبئكم) بواو، قال الحافظ أبو عمرو الداني وغيره إنما كتبوا ذلك على إرادة تسهيل الهمزة بين بين. انتهى. وكيف يكون ما أجمع عليه القراء

أما عن أم غير متواترة، وإذا كان المد وتخفيف الهمز والإدغام غير متواتر على الإطلاق، فما الذي يكون متواتراً؟ أقصر ألم، ودابة وأولئك، الذي لم يقرأ به أحد من الناس، أم تخفيف همزة الذكرين، الله، الذي أجمع الناس على أنه لا يجوز، وإنه لحن، أم إظهار المذكور الذي أجمع الصحابة والمسلمون على كتابته وتلاوته بالإدغام، فليست شعري من الذي تقدمه قبل بهذا القول، فقضي أثره، والظاهر أنه لما سمع قول الناس: إن التواتر فيما ليس من قبيل الأداء ظن أن المد والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه من قبيل الأداء، فقال غير مفكر فيه، وإلا فالشيخ أبو عمرو لو فكر فيه لما أقدم عليه أو لو وقف على كلام إمام الأصوليين من غير مداقعة القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلائي في كتاب الانتصار حيث قال جميع ما قرأ به فراء الأمصار مما اشتهر عنهم حيث قال: واستخاض نقله ولم يدخل في حكم الشذوذ بل رآه سالفاً جائزاً من همز وإدغام ومد وتشديد وحذف وإمالة أو ترك ذلك كله أو شيء منه أو تقديم أو تأخير فإنه كله متول من عند الله تعالى، ومما وقف الرسول ﷺ على صحته وخير بينه وبين غيره وصوب جميع القراء به، قال: ولو سوغنا لبعض القراء إمالة ما لم يمله الرسول ﷺ. ثم أطلال رحمه الله الكلام على تقدير ذلك وجوز أن يكون النبي ﷺ أقرأ واحداً بعض القرآن بحرف وبعضه بحرف آخر على ما قد يراه أيسر على القاري. قلت وظهر من هذا أن اختلاف القراء في الشيء الواحد مع اختلاف المواضع قد أخذه الصحابي، كذلك من رسول الله ﷺ وأقرأ كذلك إلى أن اتصل بالقراءة نحو قراءة (مجربها) بالإمالة فقط، ولم يمل في القرآن غيره، وقراءة ابن عامر (إبرهام) في مواضع محصورة، وقراءة أبي جعفر يحزن بضم الياء وكسر الزاي، في الأنبياء فقط، وفتح الياء وضم الزاي في باقي القرآن، وقراءة نافع عكس في جميع القرآن بضم الياء وكسر الزاي إلا في الأنبياء فإنه فتح الياء وضم الزاي وشبه ذلك، مما يقول القراء عنه أجمع بين اللغتين، وليت الإمام ابن الحاجب أحلى كتابه من ذكر القراءات وتواترها، كما أحلى غيره كتبهم منها، وإذا قد ذكرها فليته لم يتعرض إلى ما كان من قبيل الأداء، وإذا قد تعرض، فليته سكت عن التمثيل فإنه إذا ثبت أن شيئاً من القراءات من قبيل الأداء لم يكن متواتراً عن النبي ﷺ كتقسيم وقف حمزة وهشام وأنواع تسهيله، فإنه وإن تواتر تخفيف الهمز

في الوقف عن رسول الله ﷺ، فلم يتواتر أنه وقف على موضع خمسين وجهاً لا بعشرين ولا بنحو ذلك، وإنما إن صح شيء منها فوجهه والباقي لا شك أنه من قبيل الأداء. ولما قال ابن السبكي في كتابه جمع الجوامع والسيب متواترة قيل فيما ليس من قبيل الأداء كالمد والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه، مثل عن زيادته على ابن الحاجب قيل المنتضية لاختياره إن ما هو من قبيل الأداء، كالمد والإمالة إلى آخره متواتر فأجاب رحمه الله في كتابه منع الموانع: أعلم أن السبع متواترة والمد متواتر والإمالة متواترة كل هذا بين لا شك فيه، وقول ابن الحاجب: فما ليس من قبيل الأداء صحيح لو تجرد عن قوله كالمد والإمالة لكن تمثيله بهما أوجب فساداً، كما سنوضحه من بعد فلذلك قلنا «قيل ليتبين أن القول بأن المد والإمالة والتخفيف غير متواترة ضعيف عندنا بل هي متواترة ثم أخذ بذكر المد والإمالة والتخفيف إلى أن قال: فإذا عرفت ذلك فكلما قاض بتواتر السبع، ومن السبع مطلق المد والإمالة وتخفيف الهمز بلا شك»^(١).



(١) مشجد المقرئين، ٨٥٧. والنظر: الكشف، ج ١/ ٤٥ - ١٤٢.

الخاتمة

ويعد،

هذا هو القرآن، ليس فيه خيال شاعر ولا تخرصات كذاب، ولا يشبه أسلوبه أسلوب العرب بفصاحتهم وبلاغتهم، ولكنه كلام عربي مبين. إنه وحي وتنزيل. إنه هدى ونور. إنه ذكر رب العالمين. لقد حفظ الله لنا هذا الكتاب من عبث العابثين، وحقد الغادرين وكيد العدا. حفظه في الصدور وتقشه في السطور، فكانت العناية الإلهية تحيط به وتكتفه في كل لحظة وكل مكان.

لقد رأينا في رحلتنا الطويلة عبر الفصول المتتابعة إقبال العلماء وجهودهم على دراسة هذا الكتاب العزيز، فلم يغادروه إلا وقد تفحصوا كل شيء فيه وعنه، حتى بحثوا في عدد آياته وكلماته وألفاظه وحروفه وحركات الحروف. كما بذلوا جهداً ضخماً في تأصيل العلوم القرآنية وما يتصل بها من أغراض وغايات، تخدم الإسلام وكتابه، وتحفظ لهذه الأمة شرفها وكيانها ووجودها.

وما من ريب، في أن ما عرضنا له من مباحث في هذا السفر قد ملأ قلب القارئ، وراع خياله وشد انتباهه لما حواه كتاب الله تعالى من مفاهيم وأغراض وغايات، خلصنا منها إلى رجاء وأمنية.

أما الرجاء فهو أن ينتفع به كل قارئ مهما كان اتجاهه أو متحاه الفكري، لأن فيه من الموضوعية ما يكفي لإزالة الشكوك من النفوس والريب من القلوب.

وأما الأمنية فهي أن يعرف المسلمون اليوم فضل الأولين سيما العلماء الذين ضحوا بحياتهم وتحملوا كل ألوان العذاب في سبيل الحفاظ على كتاب الله

تعالى، فلا يهضموهم حقهم إمعاناً بشتهم وسيبهم، كما يفعل اليوم بعض مرتزقة العلم والطفيليون. إن غاية ما نتمناه هو أن تلتف جهود الباحثين والدارسين والقارئ حول القرآن الكريم، فتتوحد الرؤية ويصبح الهدف قريب المنال سهل المآخذ.

ذلك هو القرآن ينطق بالحق، ويعلم الهدى والرشاد، ويدعو إلى الوحدة والتوحد: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١١) .
والحمد لله أولاً وآخراً، نعم المولى ونعم النصير .



فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

كتب الصّاح والسنة: البخاري، مسلم، الترمذي، ابن ماجة، أبو داود، أحمد بن حنبل، الحاكم، النسائي.

الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، القاهرة، مطب. المنيرية، د. ت.

الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، القاهرة، مطب. الحلبي.

ابن تيمية، نفص المنطق، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق عدنان زرزور، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٣٩٢ هـ.

ابن الجزري، أبو الخير محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

ابن الجزري، منجد المقرئين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٠ هـ.

ابن الجزري، طيبة النشر في القراءات العشر، ضمن مجموعة من كتب القراءات، القاهرة، مطب. شرف، ١٣٠٨ هـ.

ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، الأستانة، ١٩٣٥.

ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٣٩٣ هـ.

ابن الجوزي، فنون الأفتان في علوم القرآن، الدار البيضاء، مطب. النجاح،

ط ١، ١٩٧٠.

ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢.

ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر،

١٣٨٩ هـ.

ابن رشد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، القاهرة، مكتبة

الكلبيات الأزهرية، ١٣٨٩ هـ.

ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد، حجة القراءات، تحقيق سعيد

الأفغاني، ط ١، ١٣٩٤ هـ.

ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر. د.ت.

ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار (الحاشية)، بيروت، دار إحياء

التراث العربي، د.ت.

ابن عاشر الأندلسي، عبد الواحد، تنبيه الخلان على مورد الظمان،

طرابلس (ليبيا)، مكتبة النجاح، د.ت.

ابن العربي المالكي، أبو بكر، أحكام القرآن، تحقيق علي بجاوي،

القاهرة، مط. الحلبي، ط ٢، ١٣٨٧ هـ.

ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صفرة، بيروت، المكتبة

العلمية، ط ٣، ١٤٠١ هـ.

ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، المغني، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة.

د.ت.

ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل،

١٩٧٣.

ابن قيم الجوزية، مختصر الصواعق المرسلية، الرياض، مكتبة الرياض

الحديثة، ١٣٤٩ هـ.

ابن كثير، فضائل القرآن، القاهرة، مط. الحلبي. مصر.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، القاهرة، مط. الحلبي. مصر.

ابن منظور، لسان العرب، القاهرة. د. ت.

ابن النديم، الفهرست، نشر فلوجل، لبيسيك، ١٨٧١.

ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق السقا، شلبي والأبياري، القاهرة، مط. الحلبي، ٢، ١٣٧٥ هـ.

أبو شامة المقدسي، المرشد الوجيز، بيروت، دار صادر، ١٣٩٥ هـ.

أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، القاهرة، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥.

اسماعيل، شعبان محمد، تهذيب الأسنوي، القاهرة، مط. مكتبة جمهورية مصر، د. ت.

اسماعيل، شعبان محمد، مع القرآن الكريم، القاهرة، دار الاتحاد العربي للطباعة، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨.

الأسنوي، شرح الأسنوي على المنهاج، القاهرة، مط. صبيح، مصر. د. ت.

الأنصاري، عبد العلي محمد، الرحموت شرح مسلم الثبوت، بيروت، دار صادر، ط ١، ١٣٢٢ هـ.

الباقلاني، أبو بكر، إعجاز القرآن، بيروت، المكتبة الثقافية، ١٩٧٩.

البدخشي، محمد بن حسن، شرح البدخشي على المنهاج، القاهرة، مط. صبيح، مصر. د. ت.

بنت الشاطي، (عائشة عبد الرحمن)، الإعجاز البياني في القرآن، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٧.

البيضاوي، منهاج الوصول في علم الأصول، القاهرة، مط. صبيح، مصر. د. ت.

الترمسي، محمد محفوظ، منهج ذوي النظر، أندونيسيا، ط ٣، ١٣٩٤ هـ.

الجزائري، الشيخ طاهر، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، القاهرة، ط المنار، ١٩٣٤.

جولدزيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحلیم التجار،
القاهرة، مط. السنة المحمدية، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥.

جوهري، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، القاهرة،
١٣٤٩ هـ.

الحازمي الهمداني، أبو محمد بن موسى، الاعتبار في النسخ والنسخ،
بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، القاهرة، ١٩٢٥.
الحنفي، ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، بيروت، المكتب
الإسلامي، ط ٥، ١٣٩٩ هـ.

خلاف، عبد الوهاب، علم أصول الفقه، الكويت، دار القلم، ط ١٢،
١٣٩٨ هـ.

الداني، أبو عمر، المقنع في رسم المصاحف والأصناف، نشر برتزل،
الآستانة، ١٩٣٢.

الداني، أبو عمر، التيسير في القراءات السبع، تحقيق المستشرق برتزل،
الآستانة، ١٩٣٠.

دارد، أحمد محمد علي، علوم القرآن الحديث، عمان، دار البشير.
دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، الكويت، دار القلم، ط ٢،
١٣٩٠ هـ.

الدمياطي، أحمد بن محمد بن عبد الغني (البناء)، إتحاف فضلاء البشر في
القراءات الأربعة عشر، القاهرة، مط. العامرية، ١٢٨٥ هـ.

الدوري، عبد الرحمن (عليان، قحطان والراوي)، علوم القرآن، بغداد،
مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر.

الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، بيروت، دار إحياء التراث
العربي، د.ت.

الرازي، أبو بكر، مختار الصحاح، طبعة حديثة، ١٤٠٠ هـ.

- الرازي، أبو بكر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، القاهرة، ١٣٢١ هـ.
 رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة
 للكتاب، ١٩٧٣.
- الرضي، الشريف، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد
 الغني حسن، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، القاهرة،
 مطب. الحلبي، ط ٣، ١٩٥٩.
- الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، بيروت، دار إحياء الكتب
 العربية، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧.
- الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، القاهرة، مطب. مصطفى محمد،
 ط ١، ١٣٥٤ هـ.
- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، المكتبة
 الثقافية، ١٩٧٣.
- السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة، القاهرة، ١٣٢٦ هـ.
- السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، القاهرة، ط. بولاق،
 ١٢٨٠ هـ.
- الشافعي، محمد إدريس، الأم، القاهرة، ط. بولاق. د. ت.
- الشافعي، محمد إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة،
 مطب. الحلبي، د. ت.
- الشربيني الخطيب، محمد، معني المحتاج، القاهرة، مطب. الحلبي،
 ١٣٧٧ هـ.
- الشعراني، عبد الوهاب، الميزان الكبير، القاهرة، مطب. الحلبي،
 ط. د. ت.
- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القديز، بيروت، دار الفكر، ط ٣،
 ١٩٧٣.

الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول، بيروت، دار المعرفة،
١٣٩٩ هـ.

الشهرزوري، ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح، دمشق، دار الحكمة،
١٣٩٨ هـ.

الشهرستاني، عبد الكريم، الملل والنحل، بيروت، دار الفكر، د.ت.
الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط ٩
١٩٧٧.

الصنعاني، محمد بن اسماعيل، سبل السلام، القاهرة، مطب. الحلبي،
ط ٤، ١٣٧٩ هـ.

عبد الباقي، محمد فزاد، المعجم لألفاظ القرآن الكريم، بيروت، دار
الفكر، د.ت.

عبد الباقي، محمد فزاد، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق فيه الشيخان،
الكويت، المطبعة العصرية، ١٣٩٧ هـ.

العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار
المعرفة، د.ت.

الغزالي، المستصفي، القاهرة، مطب. الأميرية، ١٣٢٤ هـ.

القاسي، محمد بن محمد الشريني، مورد الظمان في فني الرسم والضبط،
طرابلس (ليبيا)، نشر مكتبة النجاح، د.ت.

الفيروزآبادي، القاموس المحيط، القاهرة، مطب. الحلبي، ط ٢، ١٣٧١ هـ.
القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، القاهرة، دار إحياء الكتب
العربية، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧.

القاضي، عبد الفتاح، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، القاهرة،
مطب. الحلبي، ط ١، ١٣٧٥ هـ.

القسطلاني، لطائف الإشارات، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،
د.ت.

القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٦، ١٣٩٨ هـ.

قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، القاهرة، ١٩٤٩.

قطب، سيد، في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨.

القيسي، مكّي بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات السبع، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠١ هـ.

كفا في، محمد عبد السلام، في علوم القرآن، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢.

المارغني التونسي، إبراهيم بن أحمد، دليل الحيران على مورد الظمان، طرابلس (ليبيا)، نشر مكتبة النجاح.

المحلاوي، محمد عبد الرحمن، تسهيل الوصول إلى علم الأصول، القاهرة، مطب. الحلبي، ١٣٤١ هـ.

مخلوف، محمد حسين، كلمة حول ترجمة القرآن، القاهرة، الحلبي، ١٣٥١ هـ.

المقدسي، الحلبي، محمد بن مفلح، الآداب الشرعية، بيروت، دار العلم للجميع، ١٩٧٢.

الموصللي الحنفي، عبد الله بن محمود، الاختيار لتعليل المختار، بيروت، دار المعرفة، ط ٣، ١٣٩٥ هـ.

السفي، منارك التنزيل وحقائق التأويل، القاهرة، ١٣٤٤ هـ.

نعناع، عبد الحكيم، المنار في علوم البلاغة، القاهرة، دار الإتحاد العربي للطباعة، ١٣٨٧ هـ.

الهروي، معين الدين منلا مسكين، كنز الدقائق بشرح منلا مسكين، القاهرة، دار الكتيبي، ١٣٥٥ هـ.

الواحدي، أسباب النزول، القاهرة، ١٣٥١ هـ.

مجلة الأزهر، ج ٧، ١٣٨٨ هـ.

فهرس الموضوعات

- قالوا ٥
- المقدمة ٧
- تمهيد: نشأة علوم القرآن وتطورها ١١
- الباب الأول تاريخ القرآن**
- الفصل الأول: نزول القرآن الكريم**
- وتنجيحه ١٧ - ٣٢
- زمن النزول وكيفيته ١٧
- كيفية أخذ جبريل للقرآن ٢٠
- مدة هذا النزول ٢٣
- الحكمة من إنزاله جملة واحدة إلى السماء الدنيا ٢٤
- الحكمة من إنزاله متجماً إلى الأرض ٢٥
- الفصل الثاني: جمع القرآن الكريم**
- وتدوينه ٣٣ - ٥٦
- تمهيد ٣٣
- مراحل جمع القرآن ٣٩
- التعريف بالرسم العثماني ٤٣
- أولاً: معرفة اللغة ٤٣
- ثانياً: في الكتابة ومعرفة الخط ٤٤
- مصحف الإمام وبيان مرسومه ٤٧
- حكم مجاوزة الرسم العثماني ٥١
- الفصل الثالث: قواعد الرسم العثماني**
- وخصائصه ٥٧ - ٨٨
- القاعدة الأولى: الحذف ٥٨
- القاعدة الثانية: الزيادة ٦٤
- القاعدة الثالثة: الهجزة ٦٥
- القاعدة الرابعة: البدل ٦٦
- القاعدة الخامسة: الوصل والفصل ٦٧
- القاعدة السادسة: ما فيه قرأتان ٦٩
- مرسوم المختلف بين مصاحف أهل الأمصار ٧١
- مختلف الإثبات والحذف ٧٣
- مختلف الزيادة والنقصان ٧٦
- الموجب لاختلاف هذه الحروف في المصاحف ٧٨
- قواعد الضبط وآداب الكتابة ٧٩
- موقف الأئمة معاً طراً على الرسم من تحيينات ٨٤
- مصطلحات الضبط ٨٥
- الفصل الرابع: أسباب النزول ٨٩ - ١٠٣**
- معنى سبب النزول ٨٩
- الآثار والفوائد المترتبة على معرفة أسباب النزول ٩١
- طريق معرفة سبب النزول ٩٦
- تعدد الأسباب والنازل واحد ٩٧
- تعدد النازل والسبب واحد ١٠١
- الفصل الخامس: الأحرف السبعة ١٠٤ - ١٢٦**
- الأحاديث الواردة في الأحرف السبعة ١٠٤
- شواهد بارزة في هذه الأحاديث ١٠٧

- أ - العصر المكي وخصائصه .. ١٥٩
 ب - العصر المدني وخصائصه .. ١٦٦
الفصل الثالث : المحكم
 والمثابه ١٧٣ - ١٨١
 - معنى المحكم والمثابه ١٧٣
 إمكانية معرفة المثابه من القرآن .. ١٧٥
 - المحكم في المثابه من آيات
 الصفات ١٧٨

الفصل الرابع : الناسخ

- والمسوخ ١٨٢ - ٢١١
 - في أهمية هذا العلم ١٨٢
 - معنى النسخ ١٨٣
 - طرق معرفة الناسخ والمسوخ .. ١٨٣
 - أنواع النسخ في القرآن ١٨٤
 - الحكمة من النسخ ١٨٦
 - درجات النسخ ١٨٦
 - النسخ بين المشتبين والمكبرين .. ١٨٨
 - نسخ بعض القرآن ببعضه ٢٠٠
 - أقسام الناسخ والمسوخ ٢٠٢
 - الفرق بين النسخ والتخصيص .. ٢١٠

الباب الثالث أسلوب القرآن وبلاغته

الفصل الأول : الفواصل

- والمناسبة ٢١٥ - ٢٢٦
 - تعريف الفاصلة ٢١٥
 - طريقة معرفة الفواصل ٢١٦
 - حكم إطلاق السجع على فواصل
 الآتي ٢١٧

- فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتعدد
 الحروف ١٠٩
 - المراد بالأحرف السبعة ١١٥
 - خاتمة القول في الأحرف السبعة .. ١٢٤
 - شمولية المصاحف العثمانية
 للأحرف ١٢٤
 - صلة القراءات السبعة بالأحرف
 السبعة ١٢٥

الباب الثاني مضمين القرآن

- الفصل الأول : الكلام في السور : أسمائها،**
 قوائدها وخواتمها وآياتها .. ١٢٩ - ١٥٠
 - في السور وأسمائها ١٢٩
 - ترتيب السور ١٣٤
 - قوائم السور ١٣٧
 - خواتم السور ١٣٩
 - الآيات وترتيبها ١٤٢
 - أول ما نزل من القرآن الكريم .. ١٤٤
 - آخر ما نزل من القرآن الكريم .. ١٤٧

الفصل الثاني : المكي والمدني ١٥١ - ١٧٢

- الغاية من معرفة المكي والمدني ١٥٢
 - طريقة معرفة المكي والمدني .. ١٥٣
 - رأي العلماء في المكي والمدني ١٥٤
 - علامات المكي والمدني ١٥٥
 أ - علامات المكي ١٥٥
 ب - علامات المدني ١٥٧
 - الخصائص العامة للمعصرين المكي
 والمدني ١٥٩

٢٦٥	- التعريف بالمثل	٢١٩ ..	- المناسبة في مقاطع الفواصل
٢٦٧ ..	- معنى المثل في القرآن الكريم	٢٢٣	- تقسيم الفواصل
٢٦٧	- أقسام الأمثال في القرآن	٢٢٧-٢٤٩	الفصل الثاني: إعجاز القرآن
٢٧٠	أ - الأمثال التشبيهية	٢٢٧	- معنى الإعجاز في اللغة
٢٧٠	ب - الأمثال الكامنة	٢٢٧	- ما يعنى بالمعجزة
٢٧٣	ج - الأمثال المرسله	هل معجزة النبي ﷺ حسية محدودة	
	- فوائد ذكر وضرب الأمثال في	أم عقلية غير محدودة؟	
٢٧٤	القرآن	٢٢٩	- القرآن الكريم معجزة الدعوى
٢٧٦	- حكم ضرب الأمثال بالقرآن	٢٣٠	النبوة المحمدية
٢٧٧ ..	- ذكر الأمثال في السنة الشريفة	٢٣١	- الدلالة على اعجاز القرآن
	الفصل الخامس: الجدل في	المقدار المعجز من القرآن	
٢٨٠-٢٩١	القرآن	٢٣٣	الكريم
٢٨٠	- معنى الجدل لغة	٢٣٤	- وجوه الإعجاز في القرآن الكريم
	- طريقة الجدل والمناظرة في القرآن	٢٣٧	- الإعجاز اللغوي
٢٨١	الكريم	- تقدم الحروف في أوائل السور وما	
	- رأي في المذهب الكلامي	فيها من إعجاز	
٢٨٤	والمنطقي	٢٣٩	- الإعجاز العلمي
	- أنواع المناظرة والمحاجة	٢٤٢	
٢٨٦	الجدلية	الفصل الثالث: القسم في	
	الفصل السادس: المخاطبة: المنطوق	القرآن	
٢٩٢-٣١٠	والمفهوم في القرآن	٢٥٠-٢٦٣	- الغاية من القسم
٢٩٢	- وجوه المخاطبة	٢٥٠	- التعريف بالقسم وصيغته
٣٠٥	- التعريف بالمنطوق	٢٥٢	- المقسم به
٣٠٧ ..	- الجمع بين الحقيقة والمجاز	٢٥٤	- أنواع المقسم به
٣٠٩	- التعريف بالمفهوم	٢٥٨	- المقسم عليه
	الباب الرابع تلاوة القرآن وآدابها	٢٦١	- أنواع القسم في القرآن
	الفصل الأول: فضائل القرآن	الفصل الرابع: الأمثال في	
٣١٣-٣٢٥	الكريم	القرآن	
		٢٦٤-٢٧٩	- اهتمام العلماء بذكر الأمثال

٣٧٦	- توجيه العمل بإحدى القراءتين .
٣٧٧	- القراءة الشاذة بحكم الأخذ بها .
٤٠٣ - ٣٨٤	الفصل الرابع : في الأصول .
٣٨٤	- مخارج المحرف
٣٨٦	- صفات الحروف
٣٨٨	- أنواع القراءة
٣٨٨	١ - قراءة التحقيق
٣٨٨	٢ - قراءة الحنن
٣٨٩	٣ - قراءة التدوير
٣٨٩	٤ - قراءة الترتيل
٣٩١	٥ - قراءة التجويد
٣٩٢	- قواعد علم التجويد
٣٩٢	١ - الهمز والتخفيف
٣٩٣	٢ - الإدغام والإظهار
	٣ - أحكام النون الساكنة
٣٩٤	والتنوين
٣٩٥	٤ - الفتح والإمالة
٣٩٥	٥ - المد والقصر
٣٩٦	٦ - الوقف
٣٩٩	- رأي ابن الجزري في الأصول .
	الخاتمة
٤٠٦	- فهرس المصادر والمراجع
٤١٣	- فهرس الموضوعات

	الفصل الثاني : آداب تلاوة القرآن
٣٤١ - ٣٢٦	الكريم
	- مسائل وأحكام تتعلق
٣٣٦	بالقرآن
٣٨٣ - ٣٤٢	الفصل الثالث : علم القراءات
٣٤٢	- معنى القراءة
	- تراجم الأئمة القراء وطرق
٣٤٤	أسانيدهم
٣٥٠	- التعريف بأئمة القراءات الشاذة
٣٥٠	- أنواع القراءات
	- خصائص القراءة الصحيحة عند أئمة
٣٥٢	التحقيق
	- مرتبة القراءة الصحيحة من العلو
٣٥٥	والإسناد
	- رأي الإمام أبي محمد مكي في قبول
٣٦١	القراءة ورفضها
٣٦٣	- وجوه الاختلاف في القراءات
٣٦٤	- مطلق اختلاف القراءات
٣٦٧	- رأي الرازي
٣٦٧	- رأي ابن قتيبة
٣٦٨	- رأي ابن الجزري
	- خلاصة القول في أوجه اختلاف
٣٦٩	القراءات
	- فائدة اختلاف القراءات
٣٧١	ووجوهها

